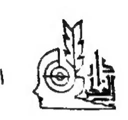

الدكتور حسين عبدالله العمري
مئة عام
من
تاريخ اليمن الحديث



(١١٦١ ـ ١٢٦٤ هـ / ١٧٤٨ ـ ١٨٤٨ م)

الدكتور
حسين عبد الله العمري


الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م
(٣٠٠٠ نسخة)

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
بدار الفكر بدمشق ص.ب ٩٦٢
الإفناء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بين يدي الكتاب ومصادره

تؤرخ هذه الدراسة لفترة هامة من تاريخ اليمن الحديث تمتد قرناً كاملاً يبتدئ مع تسنم المهدي عباس سدة الحكم عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م وينتهي بإرغام الحملة العثمانية التركية على التراجع والجلاء عن صنعاء إلى تهامة يوم عيد الفطر الأول من شهر شوال عام ١٢٦٥ هـ / ١٨ أغسطس عام ١٨٤٩ م ، وما تبع ذلك الجلاء من قتل الإمام المتوكل محمد بن يحيى جزاء ما اقترفه في تهاونه في حق الوطن وإحضاره الأتراك من الحديدة إلى عاصمة حكمه صنعاء .

هذه الحقبة الحافلة بوجوه النشاط السياسي والحضاري لليمنيين لم يسبق لأحد أن تناولها بالدراسة والبحث من قبل ، وليس بين أيدينا عنها إلا أنباذ بث أغلبها في بطون كتب لا تزال مخطوطة تنتظر بعثها ونشرها محققة . تلك الأنباذ لا تشكل في معظمها تصنيفاً تاريخياً تتساوق فيه الحوادث على نحو يجعل منها تاريخاً متكاملاً يتصف بالإحاطة والشمول . باستثناء كتاب لطف الله جحاف (ت ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٨ م) المسمى (**درر نحور الحور العين**) وهو لا يزال مخطوطاً ، فقد جمع فيه تاريخاً للفترة التي قامت فيها دولة المنصور علي بن المهدي عباس (١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ / ١٧٧٥ ـ ١٨٠٩ م) ورجالها . وامتدت هذه الفترة لواذ خمس وثلاثين سنة هي سنوات حكم ذلك الإمام ، ووقف جحاف في تاريخه عند انتهائها .

و (الدرر)[1] هذا كنز حفيل بالمعلومات والأخبار جمعه مؤرخ كان يعيش في وسطها وعلى علاقات وطيدة بالمنصور علي وأبنائه ورجال دولته ، علاوة على تفننه بالفقه والأدب ،

---

(١) انظر عن جحاف و (درره) ما يأتي في الصفحة / ٥٣ / وعما أخذناه من غيره انظر ما جاء في متن كتابنا وحواشيه وكذلك ثبت المراجع والمصادر .

وتمتعه بالبصر التاريخي النفاذ ، وإحاطته التامة بماجريات الأمور وتتبعه لها بفضول زائد . وقد وشى تصنيفه التاريخي الكبير باستطرادات هامة اشتملت على مادة أدبية من شعر ومحاورات أدبية تنم عن ذوق عال ، فأفادنا بذلك في الوقوف على جوانب من النشاط الفكري والإبداع الأدبي اللذين كانا مزدهرين في اليمن تلك الفترة ، وقد لا نجد نظيراً لهما في الأقطار العربية الأخرى . وقدم لنا من ذلك صوراً ونماذج لا نجدها عند غيره .

وكم أخذنا من الأسف حين لم نجد إلا قسماً يسيراً من كتاب آخر لحجاف أيضاً كان قد شرع في تصنيفه - وربما أتمه[1] - وضعه في سيرة المهدي عبد الله (١٢٣١ - ١٢٥١ هـ / ١٨١٦ - ١٨٣٥ م) حفيد المنصور علي . ولو وجد هذا الكتاب لشفع كتابه الأول (الدرر) بعظيم الفائدة لحقبة تالية مصادرها أيضاً نزرة إلى حد الندرة .

ولم نأل جهداً في تتبع ما أورده مؤرخون غير جحاف في كتبهم المخطوطة من أنباذ عن أخبار الفترة التي تناولناها بالدراسة ، وأشرنا إلى طبيعتها وأهميتها في مواضع ورودها من فصول كتابنا . بيد أن ما نوهنا به وأشدنا فيه هاهنا بجحاف وكتابه المخطوط ليس إلا بغرض التنبيه على مقدار الفائدة التي أفدناها منه وعظمها ، وعلى مدى المصاعب التي واجهناها في استقصاء مادة بحثنا من المصادر الأخرى غير (الدرر) . وذلك أمر معهود - بلا ريب - عند من يتصدى لكتابة التاريخ اليمني والتنقيب في مصادره . وهو أيضاً أمر يفسر لنا ما ذكرناه قبل قليل من خلو المكتبة العربية من دراسة أو بحث مطبوع حول هذه الفترة التي تناولناها في كتابنا هذا .

هذا البحث المتواضع الذي نقدمه اليوم كان في صورته الأولى جزءاً أول وضعته باللغة الإنجليزية من أجزاء ثلاثة[2] أنجزتها في رحلة علمية شاقة طويلة نلت من قطوفها درجة الدكتوراه من انجلترا ، فكان بذلك دراسة (أكاديمية) أسها المصادر والوثائق الأصيلة ،

---

(١) انظر حوله ما سيأتي في الصفحة ١٨٧ الحاشية ذات الرقم / ٢ / .

(٢) أما الجزء الثاني فأفردته للبحث في الإمام العلامة القاضي محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) وهو من أبرز أعلام ذلك العصر ونهض فيه بدور فكري وسياسي وإصلاحي كبير . وجعلت ذلك الجزء بعنوان « **الشوكاني فقهه وفكره** » وهو تحت الطبع .

أما الجزء الثالث والأخير فهو تحقيق ودراسة لكتاب الشوكاني « **در السحابة في مناقب القرابة والصحابة** » وقد تمت طباعته وصدر عن دار الفكر بدمشق خلال طبع الجزء الثالث كتابنا هذا .

حيث لا مكان فيها للهوى في محاولة لعرض ذلك الماضي القريب ، بل تمت بالرجوع إلى الأصول والوثائق واستنطاقها ، ومن ثم معرفة هذا الماضي « **كما كان على التحقيق** » لا كما نحب له أن يكون ـ على حد ما قاله زعيم النظرة التاريخية مؤرخ ألمانيا وأوروبا المعاصر لذلك الماضي « ليوبولد فون رانكه ١٧٩٥ ـ ١٨٨٦ م Leopld Von Ranke » .

وحرصاً مني على إخراج هذا الكتاب بلسان عربي لم أعمد إلى نقله إلى العربية ترجمة بل قمت بإعادة صوغه بالعربية دونما حذف أو اختصار أو تعديل للنص الإنجليزي الأصلي الذي وضعته به ، وأما النقول والمقتبسات ونحوها فقد أثبتها في هذه النشرة العربية كما جاءت في مظانها التماساً لما تقتضيه الدقة والأمانة العلمية ، بعد أن كنت ترجمتها إلى الإنجليزية وأودعتها النشرة الإنجليزية للكتاب . وقد زدت على تلك النشرة بإضافة فصل أخير هو الفصل السادس في النشرة العربية ، فهذا الفصل لم يكن مطلوباً في إطار رسالة الدكتوراه وقد أضفته لأستوفي تاريخ الفترة كلها ، ونبهت إلى هذا في مقدمة النشرة الإنجليزية التي تطبع حالياً في إنجلترا[1] .

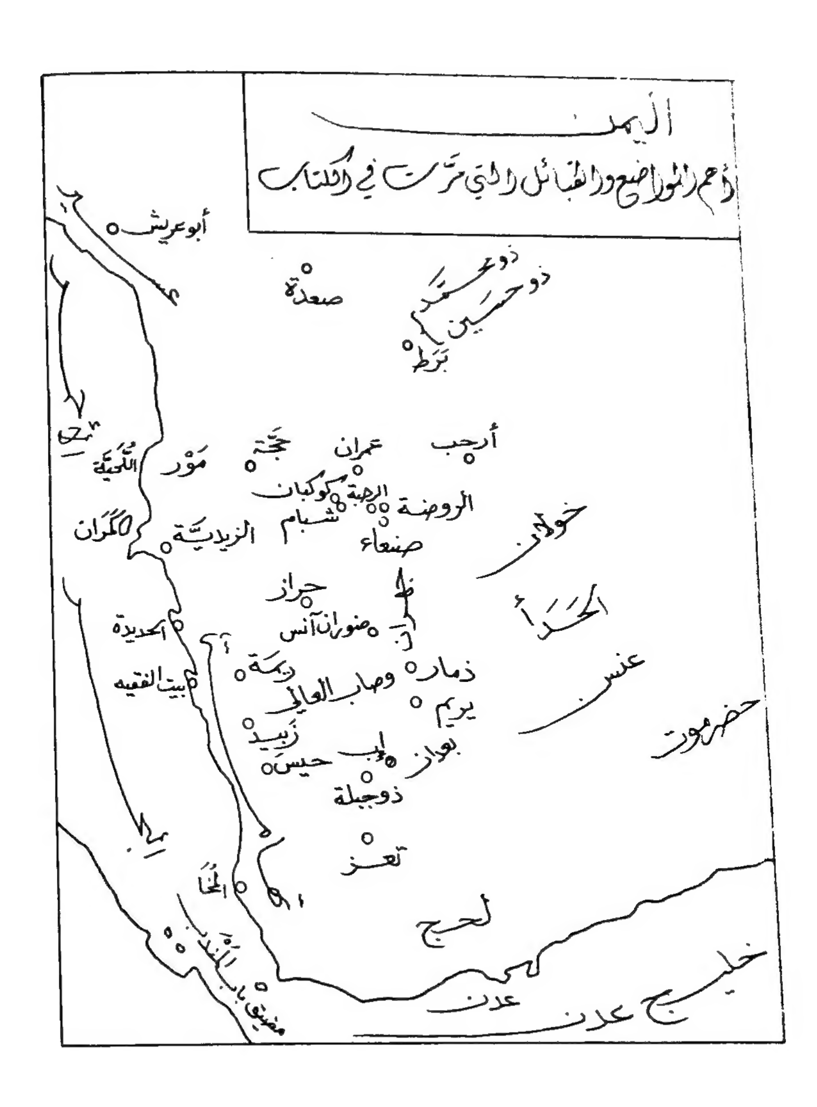
وإذ كنت قد نوهت بجميل الشكر في مقدمتي للرسالة بطبعتها الإنجليزية ـ باعتبارها أصلاً ـ إلى من كان لهم فضل الإفادة أو التشجيع على إنجاز هذا العمل ، ومنهم أخوة وأصدقاء عرب من اليمن وغيره ومنهم غربيون من باحثين وعلماء ومهتمين باليمن العربي ثقافة وأدباً وتاريخاً ، فلابد لي من أن أضيف إليهم هاهنا صديقي الأخ الدكتور عدنان درويش ، فقد قرأ الكتاب وأشرف على طبعه ، فله أصدق الشكر وأصفاه ، كذلك أخي القاضي علي بن عبد الله العمري الذي كان وما زال لي راعياً وداعماً وموجهاً ، ومعه أخي أحمد وبقية الأخوة . أما زوجتي أم وليد وأبنائي الأربعة الذين حملوا معي عبء سنوات الاغتراب ومشقة فراق الأهل والوطن فلهم خالص حبي والتماسي العذر منهم لما عانوه معي من جراء ذلك . والله من وراء القصد ، وفوق كل ذي علم عليم .

صنعاء في ١٤ ذي القعدة ١٤٠٤ هـ
١١ أغسطس ١٩٨٤ م

الدكتور
حسين بن عبد الله العمري

---

(١) بتوجيه من رئيس جامعة صنعاء الأخ الصديق الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح أسهمت الجامعة مشكورة في التعاون مع جامعة (درم البريطانية) في طبع الرسالة بجزأيها في كتاب يصدر في الشتاء القابل بعنوان :
A modern History of Yemen in the 18th and 19th Centuries.


اليمن
أهم المواضع والقبائل التي مرّت في الكتاب
أبو عريش
صعدة
ذو حسين
برط
أرحب
عمران
حجة
مور
اللحية
كوكبان
الروضة
شبام
الزيدية
صنعاء
خولان
جراز
الحديدة
ضوران آنس
الحدأ
ذمار
عنس
زبيد
وصاب العالي
بيت الفقيه
يريم
حضرموت
إب
حيس
بعدان
ذو جبلة
تعز
المخا
لحج
عدن
خليج عدن
مضيق باب المندب

الفصل الأول

اليمن في عصر المهدي عباس

(١١٦١ ـ ١١٨٩ هـ / ١٧٤٨ ـ ١٧٧٥ م)

١ ـ اليمن والعالم العربي .
٢ ـ المهدي عباس .
٣ ـ خروج أمير كوكبان .
٤ ـ الساحر أبو عَلامة .
٥ ـ التعصب وغارات القبائل .
٦ ـ وصف نيبور لبلاط المهدي وحاشيته .
٧ ـ وزير المهدي الفقيه أحمد النهمي .
٨ ـ تورط المهدي عباس في أموال الأوقاف والغيول العامة .
٩ ـ الغيل الأسود وغيل البرمكي .
١٠ ـ وثيقة الحكم بشراء المهدي عباس للغيلين .
١١ ـ خريطة بأسرة بيت القاسم .

اليمن في عصر المهدي عباس

(١١٦١ ـ ١١٨٩ هـ / ١٧٤٨ ـ ١٧٧٥ م)

في عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م خلف المهدي عباس والده المنصور حسين بن المتوكل قاسم إماماً جديداً ، حكم اليمن ، وأصبح بذلك الإمام العاشر من أئمة « بيت القاسم » الذي وسد إليه الحكم محل بيت شرف الدين منذ عام ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٨ م .

كان المهدي عباس آخر الأئمة ذوي الشأن في تاريخ حكم الإمامة في اليمن . وخلفه بعد موته ابنه المنصور علي (١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ / ١٧٧٥ ـ ١٨٠٩ م) . وخلف المنصور علي هذا ابنه المتوكل أحمد (١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ / ١٨٠٩ ـ ١٨١٦ م) . وخلفه من بعده ابنه المهدي عبد الله الذي حكم اليمن حتى توفي عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م .

وقد شهد عهد المهدي عبد الله استقلال تهامة اليمن ، وجلاء قوات والي مصر محمد علي باشا عنها ، وعودة سلطان صنعاء عليها ، وكان ذلك إرهاصاً بعودة الأتراك العثمانيين إلى اليمن للمرة الثانية .

أمّا في جنوب اليمن الذي ضعف فيه سلطان أئمة صنعاء بعد المهدي عباس ، فقبيل وفاة المهدي عبد الله بثلاث سنوات قام سلطان لَحْج في عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢ م بالاستيلاء على عدن وأعلن استقلاله ، لكنه لم يلبث أن غادر عدن هارباً

مع أسرته إلى لحج عشية قصف الانجليز للمدينة ، في ذي القعدة عام ١٢٥٥ هـ / ١٩ يناير ١٨٣٩ م ، فكانت بداية ظلام الاحتلال الذي استمر مئة وثمانية وعشرين عاماً .

وبعودة الأتراك عام ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٨ م ، واحتلال الإنجليز للجنوب ، دخلت اليمن في حقبة جديدة مظلمة عم فيها الاضطراب والفوضى ، إلا أن هذه الفترة لاتدخل - على كل حال - في إطار ما نحن بصدده من هذا البحث .

☆ ☆ ☆

١ - اليمن والعالم العربي

لم تكن اليمن - وهي جزء من الوطن العربي الكبير - بأحسن حالاً من بقية الأقطار العربية الأخرى في الفترة التاريخية الهامة التي نتناولها بالبحث ، كما أنها أيضاً لم تكن أسوأ منها في بعض الوجوه . فلقد كانت دولة مستقلة عن السيطرة العثمانية لأكثر من قرنين من الزمن (منذ عام ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م) كما أنها لم تكن تحت ظل سلطان المماليك من ناحية أخرى .

أما في شمال الجزيرة العربية والحجاز فكانت الحركة الوهابية تناضل لتوحيد المجتمعات البدوية المتخلفة ولتأسيس الدولة السعودية الأولى . واتسع مد الحركة شمالاً صوب العراق وجنوباً إلى تهامة اليمن التي احتلتها جيوشها في عام ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م واستمرت الحركة في قوتها ومدها حتى جاءت عساكر محمد علي باشا والي مصر وقامت المعارك والحروب بين الطرفين (١٢٢٦ - ١٢٣٤ هـ / ١٨١١ - ١٨١٨ م) فتراجعت العساكر السعودية عن تهامة والحجاز إثر هزائمها ولم يلبث سلطانها أن قوض في نجد نفسها وسقطت الدولة الأولى وعادت سلطة صنعاء على تهامة كما سيأتي بسطه في فصل لاحق .

☆ ☆ ☆

كان أثر ضعف السلطة المركزية العثمانية ووهنها في القرنين ١١ هـ / ١٧ م و ١٢ هـ / ١٨ م جلياً في أرجاء الأمبراطورية العثمانية . وفي العراق وبلاد الشام استشرى فساد الحاميات العسكرية وجورها في المدن ، وعانى السكان فيها وفي الأرياف ما لا يوصف من الاستعباد والظلم والمجاعات والأمراض الفتّاكة ، وعاشت المنطقة كلها حتى منتصف القرن التاسع عشر لوناً من الحياة أقرب إلى « حياة القرون الوسطى بكل صورها وأسباب شظف معيشتها »[1] .

أما مصر ـ التي ستنهض بدور هام في المنطقة العربية في ظل حكم محمد علي (١٢٢٠ ـ ١٢٦٥ هـ / ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م) الذي اعتبر الباني الفعلي لأساس مصر الحديثة ومؤثل آخر نوع معمر من السلالات الأجنبية ـ المحلية الاستبدادية ـ ، فكانت تعيش في فوضى عامة يغشاها الخوف والقتل . ولم يكن يصل من أخبار عنها وهي في ظل حكم فرق المماليك المتناحرة والمقتتلة سوى فجائع الناس وحشرجات الفلاحين من شدة البؤس والشقاء ، فتاريخ الجبرتي[2] (١١٦٧ - ١٢٤٠ هـ / ١٧٥٤ ـ ١٨٢٥ م) الذي عاصر هذه الفترة يكاد أن يكون سجلاً حافلاً بالمآسي والكوارث التي كانت تحدث كل يوم . وجاء بعده مؤرخ مصر الكبير المرحوم عبد الرحمن الرافعي (ت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م) فرسم صورة قاتمة محزنة لمصر في ذلك الحين ، قال :

« كانت مناصب القضاء تباع وتشرى وتعرض في سوق المساومات فترسو على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن أن يصل النظام القضائي في بلد من البلدان إلى مثل هذا الدرك من التدهور ،

---

(١) Hitti, Short History , 228; History of Arabs 719 - 12,
الدكتور عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية للبديري ٢٨ ـ ٣١ .

(٢) عن الجبرتي وكتابه « **عجائب الآثار** » انظر : « **عبد الرحمن الجبرتي : دراسات وبحوث** » تحرير د. أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٧٦ م .

فلا جرم كانت وظيفة القضاء في ذلك العصر موضع الزراية في نظر الجمهور والعلماء ...

وجاء الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد فكان حكمهم آفات على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية ، فاختفت رؤوس الأموال من أيدي الأهالي ، وغلب عليهم الفقر ، وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والفاقة ، وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التي كانت تتحيف البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس ، وتأخذهم أخذاً وبيلاً . كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها ، وليس في البلاد طب ولا أطباء والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلاقين .

وفشا الجهل في البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد .. »

وبعد أن استعرض الرافعي اضمحلال الآداب وذُويَّ العلوم في مصر بعد عصور ازدهارها أشار إلى ما سجله المؤرخ الجبرتي فأضاف :

« ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالماً نابهاً في الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم والتي كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واعتزل الأزهر النهضة الأوروبية الحديثة

فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمي الحديث ... »[1] .

☆ ☆ ☆

إن ما ذكره المؤرخ الرافعي عن واقع مصر في تلك الحقبة من تاريخها ـ قبل عصر محمد علي ـ يمكن تعميمه على أوضاع البلاد العربية وأحوالها بما في ذلك اليمن باستثناء ما أشرنا إليه من استقلالها ومن شيء آخر في مجال الفكر والفقه ، فلعلها كانت أحسن حالاً وأكثر ازدهاراً ، بل لقد كان هذا معلوماً عند المعاصرين من اليمنيين المتتبعين لأحوال مصر التي بدأت بعد حملة نابليون بونابرت سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م ومجيء محمد علي باشا تتلمس طريق التحديث ويعظم خطرها العسكري . فعندما وصل العالم محمد عابد السندي (ت ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م) إلى اليمن من مصر سجل المؤرخ جحاف ملخصا ما بلغه منه عن حال مصر فقال :

« في يوم الخميس ١٩ ربيع الأول [١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م] وصل الشيخ محمد عابد السندي من مصر وأخبر عن ضعف مصر وأنه لم يجد بها من يعرف الحديث ولا من يتعلق به ، وأن هذا من العجب ! »[2] .

ومثل هذا ما يذكره الشوكاني فيقول في كتابه (البدر الطالع) : « لم يبق إلاّ التقليد والتصوف »[3] .

وجاء بعدهم عالم مصري منصف ليسجل في كتابه القيم عن « الزيدية » في اليمن قوله :

---

(١) الرافعي ، **تاريخ الحركة القومية في مصر** : ١ / ٣٢ ، ٣٩ ـ ٤١

(٢) جحاف : من سيرة للمهدي عبد الله في هامش « **درر نحور الحور العين** » : ٤٨

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٢ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨

« لاأستطيع وكاتب هـذه السطور من أهـل السنـة أن أخفي إعجابي بالمذهب الزيدي لأسباب :

١ ـ إنـه في عصر تـدهـور الفكر أنجب مجتهـدين كبـاراً كالمقبلي وابن الأمير والشوكاني ، بينما عقمت سـائر المـذاهب أن تنجب مثلهم . ومن الغريب أن اليمن مـا كانت تعـد آنـذاك أحسن حـالاً من سـائر الأمم الإسلامية إن لم تكن أسوأهم سوءاً في أسباب الحيـاة والفكر والسيـاسـة والاقتصاد .. »[١] .

إننا ـ كما تقدم ـ إذ نتفق مع البـاحث المصري الكبير كثيراً أو قليلاً حول سوء أحوال اليمن السياسية والاقتصادية فلسنا معه في سوء أحوالها الفكرية بالقياس إلى شقيقاتها العربية والإسلامية للسبب الذي سـاقـه نفسـه وإلاَّ ففيم كان إعجـابـه في زمن عقمت فيـه المـذاهب الأخرى أن تنتج أمثـال أولـئـك المجتهـدين من العلمـاء اليمنيين الكبار ؟ ![٢] .

بـالرغم من الاضطرابـات والأزمـات الاقتصـاديـة والاجتماعيـة النـاجمـة عن الحروب والحوادث التي كانت تغلي بها مراجل الفتن والصراعات السياسية والقبليـة في اليمن وآثارها المدمرة في الحياة اليمنية ، فلقد استمر نشـاط « المسجـد » ـ بصفتـه المـدرسـة الأولى للقضـاة والعلمـاء والأدبـاء ـ مجـالاً حيويـاً ومـؤثراً في المنـاظرات الفقهية والاجتهادية بل الأدبية واللغوية وسائر شعب المعارف الإنسانيـة ، ومن ثم فقد نبغ علماء وأدباء كبار في اليمن في حقبـة تـدنى فيهـا الفكر العربي الإسلامي ، ولم يكن الإمام الكبير الشوكاني إلاَّ أحد هؤلاء العلمـاء النـابغين من المتـأخرين في هذه الفترة .

---

(١) الدكتور أحمد محمود صبحي : **الزيدية** : ص ٧٢٩

(٢) راجع مقدمتنا لديوان الشوكاني ص : ١٦

لقد تميز المذهب الزيدي من المذاهب الأخرى بالحرية الفكرية والحرص على ضرورة حض العلماء على الاجتهاد والبحث عن حلول لما يواجههم من المشكلات الشرعية والاجتماعية ورفض المقولة التي تذهب إلى أن باب الاجتهاد قد أوصد منذ زمن بعيد في نظر بقية علماء المسلمين ومقلديهم[1] ، وقد زاد شرط الاجتهاد (أو العلم عند بعضهم)[2] ضمن الشروط الأربعة عشر لمن يؤهل نفسه لمنصب الإمامة الزيدية أن من بين علماء اليمن الكبار نحو واحد وثلاثين إماماً من بين اثنين وسبعين ممن حكموا اليمن بين أعوام ٢٨٤ ـ ١٣٨٢ هـ/٨٩٨ ـ ١٩٦٢ م تركوا أثراً أو آثاراً في الفكر اليمني والإسلامي ، والكثير من هذه الآثار جدير بالدرس والبحث والتحقيق والنشر[3] .

وعامل آخر كان له سببه وأثره في دفع الاجتهاد الفكري الزيدي وتوسيع دائرة الاستنباط الفقهي والأثري واستظهار مؤلفات السلف وكتبهم ودواوينهم في شتى فروع المعارف الإسلامية وعلومها ، ذلك هو انتشار المذهب الشافعي (السني) في بعض مناطق اليمن واستقراره في المناطق الساحلية والجنوبية منها منذ منتصف القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي[4] ، وقد كان هنالك تبادل وتلمذ ، ومناظرات ، بل وتنافس بين علماء المذهبين . بَيْد أن انفتاح المذهب

---

(١) الشوكاني : **القول المفيد** : ٨ ـ ٢٦ ، ديوانه « أسلاك الجوهر » : ١٢٧ ، **البدر الطالع** : ٢/١ ؛ أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية : ٤٩٦/٢ ـ ٥٠٠ ؛ صبحي : **المذهب الزيدي** ـ كله ـ ، وانظر أيضاً الشوكاني : إرشاد الفحول : ٢٢٣

(٢) القاسم بن محمد : **الأساس** : ١٦٠ ، المرتضى : **البحر الزخار** : ٣٧١/٦ ؛ المقبلي : (خ) **المنار** : ١٩٠/٢ ؛ الشوكاني : **السيل الجرار** (القسم الثاني من المخطوط) : ٢٥٠/٢ وقد ذكر (أنه ليس هنالك دليل) على شرط الاجتهاد ، ولعل هذا مسايرة منه لأئمة عصره لعدم بلوغهم درجة الاجتهاد

(٣) انظر : الحبشي : **مصادر** : ٥٠٦ ـ ٦٣١ ؛ العمري : **مصادر** : ١٣٣ ـ ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ـ ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ١١٩

(٤) ابن سمرة الجعدي : **طبقات فقهاء اليمن** : ٨٠ ـ ٩٣

زيدي عن المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعي ومذهب أبي حنيفة والحرية في الأخذ أو الاتفاق مع أيها قد جعل علماءه أكثر تحرراً وأكثر استفادة وبالتالي اغزر إنتاجاً وأعمق نظراً ، ناهيك عن أمرين آخرين :

الأول : أن مركز ثقل المذهب الشافعي وكبار علمائه وفقهائه خارج اليمن في مصر وغيرها ، ومنهم علماء كبار بلغ بعضهم شأواً عظيماً في مختلف العصور الإسلامية ، إلاّ أنهم في كل الأحوال لم يجتهدوا فيتجاوزوا في اجتهادهم ماجاء به الإمام محمد بن إدريس الشافعي أو تلامذته الأول المشهورون ، وكان علماء الشافعية في اليمن شأنهم شأن غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى يقيدهم التقليد وتبعدهم مشقة اللقاء بغيرهم ، باستثناء ماكان متاحاً لهم في مواسم الحج أو زيارات نادرة لبعض العلماء من خارج اليمن ، لكن هذا لا يعني أنه لم يظهر من بينهم علماء كبار ومؤرخون وأدباء كثيرون .

أمّا الأمر الآخر ـ وهو هام ـ فقد أصبح حكام اليمن من أئمة الزيدية وجاءت فترات ساد حكمهم فيها كل أنحاء البلاد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب في عدن وحضرموت ، وحين يتم ذلك كانت سيادة المذهب الزيدي هي الغالبة ، لكن انحسار الدولة الزيدية أو توسعها لم يكن هو الأساس في ازدهار الفكر نفسه ، فقد كان أحد أكابر علماء المذهب الإمام أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠ هـ/١٤٣٦ م) يؤلف أهم كتبه وهو رهين السجن في قلعة قصر صنعاء . كما نبغ علماء كبار كالعلامة صالح بن مهدي المقبلي (ت ١١٠٨ هـ/١٧٢٨ م) وهو مشرد عن وطنه يعيش في جبل أبي قبيس بمكة قرابة ثلاثين عاماً ، بل وأكثر من هذا فعالم جليل كبير كالحسن الجلال (ت ١٠٨٤ هـ/١٦٧٣ م) يقارع برسالته (براءة الذمة في نصيحة الأمة)[1] إمام عصره المتوكل على الله اسماعيل (ت ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م) حين بلغه أن جنده تعيث فساداً في بعض مناطق الجنوب .

(١) منها نسخة في مكتبة الجامع الكبير (الغربية ٧٩) في صنعاء برقم ٦٢/ مجاميع . انظر (مصادر الحبشي : ٤٨) .

وكيفما كان الأمر في ازدهار الفكر الزيدي والدور الذي حمله في الحياة اليمنية وأثره الباقي في تراث الأمة العربية والإسلامية وثقافتها ، فقد رأى الباحثون المحدثون أن السبب في ذلك يتلخص فيما ذكره أحمد أمين وغيره « من أن الزيدية هم أعظم الشيعة اعتدالاً وأكثرهم التصاقاً بالسنة »[١] .

☆ ☆ ☆

٢ ـ المهدي عباس

وفي العودة إلى اليمن عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م نجد أن الإمام المنصور حسين بن المتوكل قاسم قد توفي في ٢٣ ربيع الأول بعد حكم دام لواذ اثنين وعشرين عاماً ، خرج عليه في ريفها السيد محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد (ت ١١٦٧ هـ/١٧٥٤ م) وتلقب « بالناصر » ونصرته قبائل من حاشد وبكيل بقيادة علي بن قاسم الأحمر وناصر جزيلان ، لكن المنصور تغلب عليهم بعد أن فتك بابن الأحمر في عصر غربي صنعاء ، ودخل صنعاء حاملاً رأسه على حربة[٢] وخرج أخوه الأمير أحمد حاكم تعز والحجرية عن طاعته وجرت بينهما حروب طويلة اختلت بسببها حياة المناطق السفلى والجنوبية واضطرب حبل أمنها واهتبل سلطان لحج الفرصة فاستقل بمنطقته ، وحين وفاة المنصور كان الأمر كما هو بدون حسم أو سيطرة لكن أحمد لم يَدْعُ لنفسه[٣] .

خلف عباس أباه المنصور وأجمع العلماء والناس على مبايعته ، وكان من أبرزهم السيد محمد بن إسحاق ، والسيد أحمد بن عبد الرحمن الشامي

---

(١) أمين : **فجر الإسلام** : ٢٦٢ ؛ أبو زهرة : **تاريخ المذاهب** : ٤٩٣/٢ ، صبحي : **الزيدية** ؛ انظر أيضاً :

Watt, **Islmic Philosophy**, 100; HITTI, History Of the Arabs, 449; E. I 1, «Zaydiyya»

(٢) الجرافي : **المقتطف** : ١٨٢ ، زبارة : نشر : ١٧/١ ، الشوكاني : **البدر** : ١٢٧/١

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٢٢٥/١ ـ ٢٦ ، زبارة : **نشر العرف** : ٥٩٥/١ ـ ٩٦

(ت ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م) والعلامة السيد محمد بن إسماعيل الأمير (ت ١١٨٢ هـ/١٧٦٨ م) وغيرهم ممن نهضوا بدور هام في الحياة السياسية والثقافية لهذا العصر . ولم يلبث المعارضون لوالد عباس أن بايعوه وفيهم عمه الأمير أحمد بسعي ابن الأمير الذي ذهب بنفسه إلى تعز وتكللت جهوده بالنجاح ، ولم يطل عمر الأمير أحمد فقد توفي في العام التالي بمدينة تعز[1] .

كان عباس في مقتبل عمره لم يبلغ الثلاثين بعد ، فقد ولد سنة ١١٣١ هـ/١٧١٩ م ، وكان قوياً ، ذكياً ، بالغ الطموح ، لقب نفسه بالمهدي ، وهو لقب لإمامين سابقين من أسرته (بيت القاسم) ولأكثر من واحد ممن سبقهم من الأئمة ، ولم يحمل اللقب هذا من بعد إلاّ حفيده المهدي عبد الله آخر حكام هذه الفترة التي نؤرخ لها .

لقد تجنب المؤرخون اليمنيون في كلامهم عن صفات المهدي عباس وملامحه ما ذكره لنا الرحالة والعالم الدانمركي « نيبور » حين زيارته له في صنعاء عام ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م من أن ملامح المهدي ولون بشرته كان قريباً من أمه السوداء التي كانت جارية لأبيه فتزوجها[2] ، ولم يكن هذا الأمر بغريب ، فكثير من الأئمة في اليمن ومن قبلهم خلفاء بني العباس وغيرهم كانوا يتزوجون بجوار ذوات أصول حبشية أو زنجية .

ويتفق المؤرخون بشكل عام على أن حكم المهدي عباس كان أفضل بكثير من حكم والده المنصور حسين ومن جده المتوكل قاسم بن حسين (ت ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) ، كما أنه كان كذلك في حكم ابنه المنصور علي من بعده ، وحفيده المتوكل أحمد وابن هذا المهدي عبد الله[3] .

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٣١٠/١ ، زبارة . نشر العرف : ٢١٦/١ - ٢١٩

(٢) Niebuhr , Travels Through Arabia , I , 371 - 2.

(٣) زبارة : نشر العرف : ١٢/٢

ومن سوء الحظ أننا لا نجد سيرة وافية تؤرخ للمهدي عباس وعصره كما هو حال بعض أسلافه أو كتلك التي كتبها المؤرخ جحاف في تاريخ ابنه المنصور علي ورجال دولته ، بالرغم من الازدهار الفكري والأدبي في عهده ومعاصرته لعلماء وأدباء وشعراء مشهورين وقد ذكر مع ذلك أن هنالك تاريخاً قد كتبه القاضي علي بن قاسم حنش الذي كان متصلاً بالمهدي وكان ذا حدس بالتاريخ « وكثيراً ما يتفرس في الحوادث قبيل وقوعها فيتفق وقوعها في الغالب كما يحدس »[(١)] .

☆ ☆ ☆

عرف عن المهدي عباس أنه نال حظاً وافراً من العلم ، وأنه تتلمذ على جماعة من علماء عصره كان منهم عالم صنعاء السيد عبد الله بن لطف الباري الكبسي (ت ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م) الذي اشتهر بغزارة علمه ونبوغه مع وقاره وزهده الشديد[(٢)] . ولعل أطول ترجمة للمهدي - على قصورها - هي التي كتبها الشوكاني في « البدر الطالع »[(٣)] ، وكان الشوكاني قد ولد في السنة العاشرة من حكم المهدي عباس (١١٧٣ هـ / ١٧٦٠ م) ولم يمت المهدي إلاَّ وقد كان عمره ستة عشر عاماً ، وقد عول من كتب عن المهدي فيما بعد على ترجمة الشوكاني بشكل رئيسي مع إضافات يسيرة يمكن الاستفادة منها[(٤)] .

---

(١) ذكر الشوكاني وجحاف أن القاضي العالم الأخباري علي بن قاسم حنش (١١٤٣ - ١٢١٩ هـ / ١٧٣٠ - ١٨٠٤ م) الذي كان معاصراً لهما وكان ذا حظوة ومجالسة للمهدي عباس حتى كاد يرشحه للوزارة ، قد اشتغل بكتابة تاريخ دولة المهدي عباس ، بل وشرع في تاريخ ولده المنصور لكنه مات بعد الشروع ولا نعلم - بعد - بوجود أي منهما . (انظر : الشوكاني : **البدر الطالع** : ٤٧٢/١ ؛ جحاف : **درر نحور** : ق ٥ ، ق ٣٦٢ زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٤/٢) .

(٢) الشوكاني : **البدر** : ٣٩٣/١

(٣) **البدر** : ٣١٠/١ - ٣١٣

(٤) انظر : زبارة : **نشر العرف** : ٧/٢ - ١٦ ؛ الجرافي : **المقتطف** : ١٨٣ - ١٨٩ ، الواسعي : تاريخ : ٢٢٤

يصف الشوكاني المهدي عباساً « بالذكاء والفطنة والعدل وقوة التدبير وعلو الهمة » وبأنه « كان منقاداً إلى الخير مائلاً إلى أهل العلم ، محباً للعدل ، منصفاً للمظلوم ، سيوساً ، حازماً ، مطلعاً على أحوال رعيته ، باحثاً عن سيرة عماله فيهم ، لا تخفى عليه خافية من الأحوال ، له عيون يوصلون إليه ذلك ، وله هيبة شديدة في قلوب خواصه ، لا يفعلون شيئاً إلاَّ وهم يعلمون أنه سينقل إليه ، وبهذا السبب اندفعت كثير من المظالم »[١] .

ويرى الشوكاني أن من كانوا يخرجون على المهدي - ويقصد بهم بعض قبائل الشمال كما سنذكر ذلك - ليسوا إلاَّ بغاة يستبدون بالمواطنين ويرهقون كاهلهم ، ولهذا فقد كان المهدي :

« يدفع عن الرعايا ماينوبهم من البغاة الذين يخرجون في الصورة على الخليفة ، وفي الحقيقة لإهلاك الرعية ، فكان تارة يتألفهم بالعطاء وتارة يرسل طائفة من أجناده تحول بينهم وبين الرعية ، وعظم سلطانه في اليمن وبعد صيته واشتهر ذكره »[١] .

وفي مجال اهتمامه بالعلم والعلماء يستطرد الشوكاني، فيقول :

« فقصده أهل العلم والأدب من الجهات البعيدة لمزيد إكرامه - لمن كان له فضيلة - لاسيما غرباء الديار ، وكان مشتغلاً بالعلم بعد دخوله في الخلافة شغلة كبيرة لا يبرح إذا خلا ناظراً في كتاب من الكتب »[١] .

وفي حالة الحوادث أو الخروج على المهدي يقول الشوكاني :

---

(١) البدر : ٢١١/١

« فكان إذا حدث حادث من بغي باغ أو خروج خارج عن الطاعة أهمه ذلك وأقلقه ، ولا يزال في تدبير دفعه حتى يدفعه »[1] .

يشير الشوكاني بذلك إلى حوادث وحروب واجهها المهدي ونجح في إخمادها .

☆ ☆ ☆

٣ ـ خروج أمير كوكبان

ولعل أول تهديد واجهه المهدي عباس هو إعلان أمير كوكبان السيد العالم أحمد بن محمد بن حسين بن عبد القادر شرف الدين الكوكباني (١١٢٢ - ١١٨١ هـ / ١٧١٠ ـ ١٧٦٧ م) الدعوة لنفسه عند وفاة المنصور حسين والد المهدي ولقب نفسه بالمؤيد بالله ، وكان عرف عنه العلم والفضل ، كما كان من فحول الرجال ودهاة العصر وعظماء الرؤساء ، كما اشتهرت كوكبان في أيامه وازدهرت مدرستها وكثر علماؤها[2] ، وكانت قبل ذلك مركز علم وموطن آل شرف الدين الذين خطف منهم آل القاسم الحكم عام ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٨ م .

أرسل المهدي عباس إلى الأمير أحمد ووالده ، شيخه العلامة عبد الله بن لطف الباري الكبسي إلى أمير كوكبان ورهطه يدعوهم إلى الدخول في الطاعة وعقد البيعة « وأن أمور بلادهم تكون إليهم ، ويضاف إليها بلاد حُفَاش ومِلْحان » وهو ما صنعه مع عمه أحمد أمير تعز ، غير أن أمير كوكبان الذي كان أكبر من المهدي بنحو عقد من الزمان كان يرى في نفسه الأهلية والصلاحية لمنصب الإمامة أكثر من إمام صنعاء الجديد ، و « وثوقاً منه بكتب وصلت إليه

---

(١) البدر : ٣١١/١

(٢) الشوكاني : البدر ١٠٤/١ ، زبارة : نشر : ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠ .

من جماعة من أهل صنعاء وغيرهم[1] » رفض الوساطة وقال : « إن دعوته لم تكن لأمر دنيوي ، فجهز عليه المهدي الأجناد وتابع الجيوش الجرارة مع أحد عشر أميراً ، فأحاطوا ببلاد كوكبان من جميع الجهات ووقعت حروب وملاحم عظيمة وقتلى كثيرة من الجانبين ، ثم آل الأمر إلى تركه الدعوة ومبايعته للمهدي على شروط عامة وخاصة »[2] وأرسل المهدي كبير قضاته القاضي يحي بن صالح السحولي[3] لإقرار أمر الصلح والاتفاق اللذين تما بين الطرفين ، لكن الصلح لم يدم طويلاً ، ففي العام التالي ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م تكررت الحروب وأرسل المهدي جيشاً لإخضاع أمير كوكبان الذي قاتل بنفسه قتالاً عنيفاً لكنه لم يلبث أن هزم وعاد إلى الصلح والاعتراف بالمهدي[4] .

ويبدو أن المهدي لم تطمئن نفسه إلى خضوع أمير كوكبان فاستخدم الحيلة في بث الخلاف بينه وبين بعض إخوته ، وذلك بإكرامه إبراهيم بن محمد ـ أخا الأمير أحمد ـ ووعده خيراً و « أوهمه ولاية الجهات الكوكبانية ، فخرج [من صنعاء] بوجه غير الذي دخل به ، فعجب منه المتولي أحمد بن محمد ، ثم أبدى إبراهيم لإخوته ما خرج به من حضرة المهدي وأوهمهم فتحيلوا في ضبطه .. » ، كذا ذكر جحاف ، ونقل المؤرخ زبارة من خط العلامة ابن الأمير أنه « في ذي الحجة الحرام سنة ١١٦٣ هـ [١٧٤٩ م] قبض أحمد بن محمد بن حسين صاحب كوكبان على أخيه إبراهيم بن محمد في كوكبان وقيده وحبسه لمنافسات بين الاخوة ، ووصلت منه الكتب إلى الإمام يذكر ذلك ، وأن أخاه كاتب القبائل وأراد الفتنة ، فتداركها بحبسه فساعده إلى ما قال وقرره على حبس أخيه

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ١٠٥/١ .

(٢) زبارة : **نشر العرف** : ٢٦٠/١ .

(٣) انظره فيما يلي : (ص : ٦٢) ؛ الجرافي : ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٤) زبارة : **نشر العرف** : ٢٦٠/١ .

وقيده ! »[1] وبقي في سجنه أربعة عشر عاماً ، كما استقر أخوه في إمارته تابعاً للمهدي حتى وفاته سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م .

وبعد وفاة أخيه أحمد خلفه الأخ الثاني عبد القادر بن محمد ، لكن إبراهيم كان يتحين الفرصة للقضاء عليه حتى كانت ليلة ٢٨ شعبان عام ١١٩٢ هـ / ٢٠ سبتمبر ١٧٧٨ م - بعد وفاة المهدي - وثب عليه جماعة يتقدمهم عباس بن إبراهيم فقبض عليه وضرب على ساقه القيد وأودعه السجن وقام بالأمر في الجهات الكوكبانية إبراهيم بن محمد بعد طول انتظار[2] . ولم يكن خضوع أمراء كوكبان للمهدي أو لغيره من بعده إلاّ بمقدار قوة صنعاء ورهبتها فطموحات آل شرف الدين كانت تتحين كل فرصة سانحة لتكرر المحاولات من جديد[3] .



٤ - الساحر أبو علامة

وفي العام الرابع لحكم المهدي ظهر في الشرف سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م الساحر أحمد الحسني المكنى بأبي طير ، و « تبعته جماعة من العامة ، وعظم أمره ، وكان يدعي معرفة الطلاسم ، وسرعان ما انتشر أصحابه في جميع البلاد وخربوا الكثير من الحصون التي كانت بأيدي مشايخ حاشد وبكيل وأخرجوا من كان بها من الجنود والحراس ، ودخلوا بلاد الإمام المهدي ، فجهز عليهم جنوده كما أرسل السيد العلامة عبد القادر بن أحمد إلى الشرف للاطلاع على حقيقة الأحوال ، ولمعرفة أمر الساحر المذكور ، وإرشاد الناس وتحذيرهم منه ، ثم خرجت إلى الساحر قوة كبيرة من قبائل قحطان من عسير وقاموا بنصرته أولاً ، ثم تآمروا على قتله ،

---

(١) زبارة : نشر العرف : ٢٦٢/١

(٢) زبارة : **نشر العرف** ٧٢/١ .

(٣) انظر (ص ١٧٢ من الفصل الرابع) .

فقتله وحد منهم وأرسلوا برأسه إلى الإمام المهدي »[1] ، وليس لدينا تفاصيل حقيقية عن الرجل وطبيعة دعواه ، لكن المؤكد أنه كان شاغلاً للمهدي ومقلقاً لحكه في صنعاء .

☆ ☆ ☆

٥ ـ التعصب وغارات القبائل

وإذا كان المهدي عباس قد فرغ من مزاحمة السياسيين الطامحين في الإمامة بالرهبة أو الإرضاء فقد كان له شأن ومشاغل مع ما كان يثيره المتعصبون منهم أو من غيرهم ضد علماء متحررين أمثال العلامة ابن الأمير الذي زعموا مرة أنه وأهل صنعاء « أصبحوا يخالفون مذهب أهل البيت ويغيّرون فيه بما أدخلوه من البدع ، حيث أخذ بعض أتباعه يرفعون أيديهم ويضمونها في الصلاة ! » وطالب القضاة من بني العنسي الساكنين بجبال برط في رسائل بعثوها إلى العلماء بمناطق مختلفة من اليمن « إخراجه من صنعاء ! »[2] وقد رد عليهم علماء المناطق بتسفيههم كما رد ابن الأمير نفسه في قصيدة طويلة بالغة ، وكان الأمر شاغلاً للناس عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م لكنه لم يكن الأول ولا الأخير لما لاقاه ابن الأمير وأمثاله من العلماء .

☆ ☆ ☆

لقد كان قضاة آل العنسي يقودون قبائل من ذي محمد وذي حسين وأحياناً غيرها من قبائل بكيل ويشنون غاراتهم على صنعاء وضواحيها ، وكثيراً ما كانوا يتوجهون إلى المناطق الوسطى والسفلى من اليمن فيعيثون في الأرض فساداً وبخاصة عندما يكون حاكم صنعاء ضعيفاً ، وقد قاموا مع قبائلهم بدور تخريبي

---

(١) الجرافي : **المقتطف** : ١٨٤ .

(٢) الجرافي : ١٨٧ : زبارة : **نشر العرف** : ٥٢١/٢ ـ ٥٢٢ .

أقلق أمن البلاد وأخاف الناس وقد بسطنا تفاصيله في الفصل الثالث في فترة حكم المنصور علي بن المهدي عباس[1] ويبدو أن قوة المهدي ومهابته جعلتاهم لبعض الوقت يتوقفون عن أعمال النهب والسلب فحاولوا الدخول من باب إظهار الغيرة على مذهب أهل البيت ومع ذلك فقد سبق أن جربت قبائل من برط الهجوم على المناطق السفلى عام ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م ولما وصلت إلى منطقة جهران على بعد نحو خمسين كيلومتراً جنوب صنعاء لحقت بها قوات جهزها المهدي بقيادة أحد أمرائه الماس فأدركتها في موضع يقال له المدارة فنكلت بأفرادها « وقتل منهم جماعة وأسر جماعة أخرى من رؤسائهم وقطع نحو ستين رأساً من رؤوس قتلاهم ووصل بها إلى صنعاء بعد صلاة الجمعة .. »[2] ، وقد هنأ العلامة ابن الأمير المهديَّ عباساً على هذا الانتصار بقصيدة ذكر أنه قالها « تهنئة للإمام لعلمي بأنه جهاد في سبيل الله باتفاق الأنام »[2] ومطلعها :

هَـلْ أهَنِّيـكَ أمْ أهَنّي المَعَـالي أَمْ أهَنّي أيَّـامَنَـا واللّيَـالي

وبعد أن وصف المهدي بـ « الإمام العظيم » الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، والذي :

تَسَـامَى لِنَيْـل مَـالَمْ يَنَلْـهُ غيرُهُ قَـطُّ في القُرُونِ الخَـوالي

أنحى باللائمة والذم لأعمال برط الذين :

حَسِبُوا أنَّ مَجْدَهُمْ سُورُ يـاجُـو جَ وَمَـأجُـوجَ مَـالَـهُ مِنْ زَوالِ
فـأتـاهُ الإمـامُ بـالمَـاسِ حَتَّى خَرَقَ السُّورَ فَهْوَ مِثْلُ الرِّمَـالِ

---

(١) انظر (ص : ١١٣) فيما يأتي .

(٢) الجرافي : **المقتطف** : ١٨٥ ـ ١٨٧ ؛ ديوان ابن الأمير : ٣١٥ ـ ٣١٧ وفيه اسم محل « المدارة » : « الخربة » .

وهي طويلة ، ولعلها من دوافع كراهية برط وآل العنسي للعلاّمة ابن الأمير فيما أسلفنا .

☆ ☆ ☆

ومن هذه الأحداث وغيرها مما واجهه المهدي بصرامة نجد الشوكاني يخلص في آخر ترجمته له إلى أنه :

« من أفراد الدهر ومن محاسن اليمن ، بل الزمن ، ولم يزل قامعاً لحساده وأنداده ، حافظاً لأطراف مملكته بقوة صولة ، وشدة شكيمة ، لا يطمع فيه طامع ، ولا ينجع فيه خدع خادع ، بل يتصرف بالأمور حسب اختياره ويتفرد بتدبير المهمات »[1] .

وهو بهذا مطلق الأمر والصلاحية ، بالغ الاستبداد ، ليس لكونه كغيره من الملوك والأئمة بل لطبيعة الرجل نفسه ، فالشوكاني يضيف :

« وليس لوزرائه معه كلام ، بل يعملون ما يأمرهم به ولا يستطيعون أن يُلْبِسوا عليه شيئاً من أمر المملكة أو يخادعونه في قضية من القضايا ، وكان له نَقادة كلية في الرجال وخبرة كاملة بأبناء دهره ، وإذا التبس عليه حال شخص منهم امتحنه بما يليق به حتى يعرف حقيقة حاله ، وله قدرة كاملة على هتك ستر من يتظاهر بالزهد والعفاف والانقباض عن الدنيا في ظاهر الأمر لا في الواقع ! فإنه يدخل عليه من مداخل دقيقة بجودة فطنته وقوة فكرته ، فيتضح له أمره ويحيط به خبراً ، وله من هذا القبيل عجائب وغرائب »[2] .

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٣١١/١ .

(٢) البدر : ٣١١/١ ـ ٣١٢ .

لكن الإمام الشوكاني - رحمه الله - لم يعطنا عجيبة أو غريبة من ذلك القبيل حتى نتمكن من إمعان النظر فيها .

☆ ☆ ☆

٦ - وصف نيبور لبلاط المهدي وحاشيته

ترك لنا كارستن نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥ م) رائد الرحلة العلمية الدانمركية الشهيرة (١٧٦١ - ١٧٦٧ م) إلى « العربية السعيدة » وصفاً طريفاً ومفيداً لبلاط المهدي عباس الذي استقبله في قصره في صنعاء في ٧ محرم ١١٧٧ هـ / ١٩ يوليو ١٧٦٣ م ، ولعل اقتباسنا لهذا النص - على طوله - يعطينا صورة لا نجدها في مصادرنا العربية[1] كتب « نيبور » يقول :

« في التاسع عشر من يوليو جاءنا كاتب الفقيه أحمد ليدعونا للمثول لدى الإمام في قصره « بستان المتوكل » . وكنا نحسب أن المقابلة معه ستكون خاصة مقصورة علينا ، أو على الأقل في حضور عدد محدود من رجال حاشيته الهامين ، وكم كانت دهشتنا بالغة بأن ترتيبات كثيرة قد اتخذت للاحتفال بمناسبة كبيرة ، فقد اكتظت ساحة القصر بالخيول والضباط وغيرهم من الموظفين لدرجة ما كنا نستطيع أن نشق بها طريقنا لو لم يأت لمساعدتنا النقيب جار الله - الذي كان عبداً -

(١) قام الأستاذ محمد أحمد الرعدي سنة ١٩٦٩ م ، بترجمة قصة البعثة التي كتبها الكاتب الدانمركي « توركيل هانسن » عام ١٩٦٢ م معتمداً على كتاب نيبور الهام الذي وصف فيه الرحلة ومشاقها ونتائجها (انظر المصادر) وقد قام مؤخراً في مصر د . مصطفى ماهر بترجمة الجزء الأول من كتاب « نيبور » بعنوان **« رحلة إلى مصر »** بينما كان عنوان « نيبور » **« رحلة إلى بلاد العرب »** أو إلى العربية السعيدة فغاية الرحلة كانت اليمن عبوراً بمصر ، وقد تصرف الأستاذ الرعدي في عنوان كتاب هانسن فعنونه « من كوبنهاجن إلى صنعاء » وقد وفق في تعريبه وأفاد المكتبة العربية فائدة كبيرة .

وبات رئيس الخيّالة ، حاملاً في يده عصاً غليظة وفتح لنا الطريق .

كانت قاعة الاستقبال واسعة مربعة لها سقف ذو عقود توسطتها بركة ماء كبيرة يقذف شذروانها الماء إلى ارتفاع أربعة عشر قدماً . وخلف البركة [في الواجهة] ، على مقربة من مجلس الإمام ، ارتفعت مصطبتان كبيرتان ارتفاع كل منهما قدم ونصف ، وقد غطى مجلس الإمام (العرش) بقماش من الحرير على جانبيه وسائد كبيرة حيث كان الإمام يجلس لافاً ساقيه على الطريقة الشرقية في الجلوس ، وكان القميص الذي يرتديه ذا لون أخضر فاتحاً له أكماماً طويلة فضفاضة ، وأزرار الصدر قد زركشت فتحتها بالذهب ، كما كان على رأسه عمامة بيضاء كبيرة . وكان أولاده يجلسون على يمينه واخوته على يساره ، وجلس في المقابل لهم على المصطبة الأعلى الوزير ، بينما كان مكاننا على الثانية الأوطى . وعلى جانبي القاعة جلس عدد كبير من رجال أعيان الحاشية . وعقب دخولنا أخذنا مباشرة صوب الإمام حيث سمح لنا بتقبيل يده بطنها وظهرها وكذلك طرف ثوبه ، وقد تم ذلك في صمت عميق أطبق على القاعة ، لكن ذلك الصمت كان يتبدد كلما لمس أحدنا يد الإمام - مقبلاً - بصوت يهتف « الله يحفظ الإمام ! » ويردد الحضور بصوت عال نفس العبارة . وفي هذا الضجيج العالي كنت أفكر كيف ينبغي لي أن أعبر بالعربية التحيات والتقدير ، لكنني لم ألبث أن استعددت أنفاسي وربطت جأشي .. »[1] .

وبعد أن انتهى الاستقبال بترحيب المهدي بالبعثة ومعرفة غرضها ، أرسل

(١) Niebuhr , Travels Through Arabia , I , 368 - 9

وانظر : من « كوبنهاجن إلى صنعاء » : ٣١٠ - ٣١١ .

إلى أعضائها حيث ينزلون ضيوفاً عليه ، بعض المال والأغنام وملابس عربية وخنجراً يمنياً (جنبيّة) .

☆ ☆ ☆

٧ - وزير المهدي الفقيه أحمد النهمي

أعرب نيبور عن إعجابه بما شاهده في صنعاء وفي استقبال المهدي له كما ذكر بشكل خاص تقديره وإعجابه بوزير المهدي الذي كان يدعوه بالفقيه أحمد ؛ والذي أحسب أنه الفقيه أحمد بن علي النهمي الذي عمل في خدمة المهدي كبير وزرائه مدة خمس وعشرين سنة ، وكان - كما وصفه الشوكاني :

« صادق اللهجة ، كثير البر والإحسان ، ملازماً للطاعات والجماعات ، مقبلاً على أهل العلم والفضل ، كثير السعي فيما فيه صلاح المسلمين ، لا رغبة له في الشر ولا يجلبه لأحد ، وأحبه الإمام المهدي محبة شديدة ، وكان يعول عليه في جميع الأمور ، ولم يكن كثير المال مع كونه قد ولي الوزارة زيادة على خمس وعشرين سنة ، لأنه كان لا يأخذ إلاّ على وجه يأمن من عاقبته ، ولو فعل كما يفعل غيره لترك من المال مالم يسمع بمثله في وزراء الخلفاء باليمن »[(١)] .

توفي عام ١١٨٦ هـ/١٧٧٢ م ، قبل وفاة المهدي بثلاث سنين .

أما نيبور فقد كتب عنه :

« استقبلنا الوزير بدرجة بالغة من الأدب الجم ، كما عبر لنا عن سروره العميق لما أطلعناه عليه . ومن أسئلته المتعددة لنا أبان عن معرفة وعلم عظيم ، كما ظهر لنا أنه درس مختلف العلوم بدرجة عالية تميزه عن كثيرين من مواطنيه العاديين . وعن طريق التجار الأتراك

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٩٢/١

والعرب وهو حصر نيبور على معلومات ومعارف جغرافية صحيحة . فالعرب ـ مثلاً ـ يتخيلون أن أوربة تقع في الجنوب منهم لأن الفرنجة الذين شاهدوهم قد جاؤوا عن طريق الهند ، وليس هذا حال الفقيه أحمد الذي يعرف بشكل دقيق موقع وحدود مختلف الدول الأوربية ومقدار ثقلها وقوتها (العسكرية) في البر والبحر ، وإن أمراً هكذا غير متوقع من عربي لم يكن قد شاهد أي خارطة »[1] .

☆ ☆ ☆

٨ ـ تورط المهدي عباس في أموال الأوقاف والغيول العامة

لعل ما رصدناه فيما تقدم يظهر الجانب المشرق وربما الإيجابي في شخصية الإمام المهدي عباس الحاكم الذكي والقوي والذي استطاع أن يسيطر على الأحداث والمعارضين . ونعمت اليمن باستقرار ـ ولو نسبي ـ في ظل حكمه ، ومع ذلك فقد كان للرجل نقائص وعليه مآخذ كما كان لكثير من الحكام قبله وبعده تفرضها طبيعة الاستبداد من ناحية والتفاوت في طبائع البشر وأخلاقهم المختلفة من ناحية أخرى .

إن ما يهمنا هاهنا مما أخذ على المهدي قضيتان هما ـ في الواقع ـ وجهان لقضية واحدة :

الأولى : حب المهدي بل « جشعه في شراء الأراضي » حتى انتهى به الأمر في الطامة الكبرى « وهي شراء الأوقاف من الأموال وإخراجها عن الوقفية إلى الملكية »[2] . ليس ذلك فحسب بل والمناقلة أو المعاوضة بين بعض ماله ومال

---

(1) Niebuhr, 372.

(2) من رسالة ابن الأمير إلى المهدي : زبارة ، **نشر العرف** ٢/١٠

الوقف في أراضي ضواحي صنعاء القريبة كشعوب شمالاً والصافية جنوباً وبئر العزب غرباً وفي مناطق أخرى . ومال الوقف - كما هو معروف - « لا يحل بيعه ولا المناقلة به » كما جاء في الكتاب الذي بعث به إلى المهدي العلامة ابن الأمير بتاريخ ذي الحجة سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م ناصحاً ومنبهاً ، ومحذراً[١] . ونصحه علماء آخرون غير ابن الأمير (كان هو نفسه في كثير من المجالات الموجه لهم)[٢] وإذا كان علو سن ابن الأمير (الذي زاد يومئذ على الثمانين) ومكانته العلمية والأدبية قد شفعا له عند المهدي ، فإنه لم يغفر لآخرين موقفهم المعارض لقضية التوسع في شراء الأراضي الزراعية وإخراج أراضي الأوقاف إلى ملكيته أو مناقلتها والاستبدال بها أراضي أقل فائدة منها أو أبعد . وكانت مصادرة الأملاك مع السجن تتكرر أسلوباً تأديبياً للمعارضين أو الناصحين للإمام في هذا الأمر أو في مختلف سياساته ، وقد حدث هذا مع كبراء دولته ووزرائه كالعلامة الوزير القاضي يحي بن صالح السحولي وغيره[٣] .

أما القضية الثانية : وهي مرتبطة بالأولى فهي عمل المهدي على استملاك جدولين (غيلين) رئيسين للمياه يفترض في ملكيتهما المشاع بين كل الناس ، أو من يملكها أو هما من أملاك بيت المال . غير أنه حدث بعد أن تم إعادة استخراج الغيلين وفتح القنوات الخاصة بها أن ادعى المهدي بأن ذلك قد تم من ماله الخاص وصدر في الأمر حكم قضائي سنناقشه بعد قليل[٤] . وقد عارض في هذه القضية

---

(١) **نشر المعرف** : ١٠/٢

(٢) **ابن الأمير وعصره** لقاسم غالب وآخرين : ٢٦٨ - ٢٧٠

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٣٣٤/٢ ؛ وانظر نصيحة القاضي إسماعيل الصديق للشوكاني حين كان الأخير في مقتبل الشباب بهذا الصدد : **البدر** : ١٥٧/١ ؛ **نشر العرف** : ٥٠٨/٢

(٤) سبق أن نَشرتُ وثيقة الحكم مع دراسة في الموضوع في كتاب صدر حديثاً في لندن بعنوان « دراسات عربية وإسلامية » انظر :

Bidwell and Smith , **Arabin and Islamic Studies** ... «Document » , chapter 3 .

ابن الأمير - أيضاً - وآخرون منهم المسؤول عن استخراج ميـاه هـذين الغيلين وعمائر الدولة وسياسة المدينة [صنعاء] الفقيه علي بن عبد الله العمري الذي كان مصيره في معارضته لقضية الأوقاف وهذه القضية - وربما غير ذلك - نكبه ومصادرة داره وأملاكـه ومن ثم القبض عليـه في شهر ذي الحجـة سنـة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م ومن ثم تـوفي بسجن القلعـة في صنعـاء في شعبـان سنـة ١١٨٣ هـ/١٧٧٠ م (١) .

لقد أثار المهدي على نفسه بملكيـة الغيلين - وهمـا الغيـل الأسود وغيـل البرمكي - نقداً ولغطاً كثيراً لخروج ذلك على القواعد الشرعيـة والأحكام العرفيـة واستغلاله لمركزه حاكماً ينبغي له العدل والنصفة وعدم الخلط بين ماله وملكه وما هو ملك الدولة أو بيت المال ، فأصدر حـاكمه إسماعيل بن يحيى الصديق في شهر رمضان سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م حكمه الغريب الـذي بموجبه تملك هـذين الغيلين ومن بعده ورثته من آل المهـدي حتى وقت قريب عنـدمـا شحت مياههما وانتهى أمرهمـا ، وسنتحـدث فيما يلي عن الغيلين ثم عن الحكم وحيثيـاتـه لتكتمـل لنـا الصورة .



٩ - الغيل الأسود وغيل البرمكي

عهد النـاس منـذ زمن بعيـد جـداً « الغيـل الأسـود » و « غيـل البرمكي » جاريين ، ينبع الأول في القاع الواقع بين قريـة « الجرداء » غرباً وقريـة « بيت سبطان » شرقاً من مسافة بضعـة أميـال جنوب صنعـاء ، وينبع الآخر من موضع أبعد مسافة من الأول بمقدار ميلين أو ثلاثـة جنوب - شرق صنعـاء حيث يتجمع منبعه من حول قرية « بيت عقب » وقرية « غيمان » ، ويشق « الأسود » مدينة

---

(١) زبارة : **ذيل البدر الطالع** : ٣٣٤/٢ ، نشر العرف ٢٤٨/٢ - ٢٤٩ ، ابن الأمير وعصره :٢٦٩

صنعـاء ليسقي مع « البرمكي » ضواحي المـدينـة الشمالية والغربيـة والجنـوبيـة . وكثيراً ما كانت مجاري هذين الغيلين تنسد بسبب الإهمال أو التخريب عند حصار صنعاء ، أو لشح المياه وقلتها أحيـانـاً من المنبع نفسـه ، وقـد كان المعنيون بـالأمر يقومون عـادة بكري المجـاري أو إصلاحهـا وصيـانتهـا - بـاعتبـار ذلـك مصلحـة عامة - ، وأقدم مانعلمه في هذا الصدد مـاذكره الرازي عن « غيل البرمكي » .. أن محمد بن خالد البرمكي والي صنعاء لهارون الرشيد هو الذي أحـدث غيل صنعـاء ، وإليه ينسب ، وكان ذلك سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م ، وبأنه بعد ذلك « ... جمع الناس حتى أشهد فيه وحلف بالله تعالى أنه ماأنفق فيه من مال السلطان (الدولة) شيئاً وما أنفق فيه إلا شيئاً حلالاً »[١] . ويبدو أن الإهمال وطول الزمن وعدم الصيـانـة - أدى ذلـك إلى ردم « الغيـل الأسـود » ، بـالإضـافـة إلى أن السلطـان عـامر بن عبـد الـوهـاب (٨٩٤ - ٩٢٣ هـ/١٤٨٩ - ١٥١٧ م) في حصـاره لصنعـاء عـام ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م كان قـد ردم بعض أجـزاء « غيـل البرمكي » ممـا أثر على تـدفقـه وكمية مياهه[٢] ، فأمر المهدي عباس - الذي كان لـه اهتام بـالزراعـة والري - سنـة ١١٧٧ هـ/١٧٦٣ م بحفر مجاري « الغيل الأسود » ومنبعه ، كـذلـك مجـاري « غيل البرمكي » ومنبعـه[٣] ، وكان المشرف على العمـل « ومسـؤول الأمـلاك » القـاضي الفقيه علي بن عبد الله العمري[٤] ، وقـد استمر العمل حتى عـام ١١٨١ هـ/١٧٦٦ م وحينئذ قرر المهدي أن يكون « الغيلان » ملكاً خاصاً به بدعوى أن تكاليف إعادة جريان الغيلين كانت من ملكه الخاص ، وعلى أن يدفع « لبيت المال » مبلغ ألف وأربع مئة ريال حجر (فضي) - وهذا ماسيرد في الوثيقة .

لقد لاقى المهدي - كما سبق - معارضة لذلك ولعل من أبرزها ماكتبه إليه ابن

---

(١) الرازي : **تاريخ مدينة صنعاء** : ١٠٦ - ١٠٧

(٢) ابن الديبع : **قرة العيون** : ٢٠٧/٢ - ٢٠٩

(٣) زبارة : **نشر العرف** : ١٣/٢

(٤) انظر مصادر الصفحة السابقة حاشية /١/

الأمير (في كتابه السابق) حين تطرق إلى هذا الأمر ـ منبهاً ـ بقوله :

« ... وكان المؤمل والمرجو من حسن مقاصدكم أن تجعلوا شكر نعمة الله عليكم بإخراج غيل له دهر طويل مدفون ، فتسقون به أموال « شعوب » الموقوفة ليتوفر الطعام لأهل الوظائف فإنه ينقص عليهم كل سنة أربعة شهور من أيام العام الأول ، وبالله انظروا في جدكم المهدي أحمد بن الحسن (ت ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م)[١] رحمه الله كيف أخرج غيله في الروضة وجعله للناس ، وجعل عنبه مثل أعناب الناس لم يستأثر بشيء منه ، فبارك الله فيه وصارت الأعناب التي تسقى منه أحسن الأعناب في الروضة[٢] وأغلاها قيمة بسبب حسن نيته وعلمه بأن هذه الغيول « بيوت أموال » وأخرجت بدراهم من « بيوت الأموال » ، فليس له أن يستأثر بشيء منها ... »[٣] .

☆ ☆ ☆

١٠ ـ وثيقة « الحكم » بشراء المهدي للغيلين :

الوثيقة التي بين أيدينا هي صورة خطية منقولة عن الأصل سنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م . وقد وقع على صحة نقلها بعد نحو عشر سنوات من هذا النقل قاضيان مشهوران من قضاة صنعاء .

الأول : القاضي أحمد بن محمد مشحم الذي كان المهدي عباس قد عينه خلفاً لوالده المتوفى سنة ١١٨١ هـ/١٧٦٧ م قاضيا من قضاة صنعاء ، وقد استمر في عمله

---

(١) ترجمته في **البدر الطالع** : ٤٣/١ ـ ٤٤ المحبي : **خلاصة الأثر** ١٨٠/١

(٢) « الروضة » : متنزه صنعاء في موسم الأعناب والفواكه ، تبعد عنها ٩ كم شمالاً ، وكان « غيل المهدي » بها معروفاً جارياً إلى مطلع الستينات ، أما عنبها فمشهور بحلاوته حتى الآن .

(٣) زبارة : **نشر العرف** : ١١/٢

حتى مات المهدي عباس ، وخلفه ابنه المنصور علي سنة ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م ، الذي « عظمه وركن إليه في أمور جليلة » . وكان - كما يقول الشوكاني الذي أثنى عليه - « من أعيان القضاة ونبلائهم »(١) .

أما القاضي **الثاني** : فهو يوسف بن إسماعيل بن يحي الصديق ، وهو ابن القاضي الذي أصدر الحكم « الوثيقة » ، وكان تلميذاً للإمام الشوكاني ، وقد عينه الإمام المنصور علي بعد وفاة والده سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٤ م خلفاً لأبيه في القضاء ، وكان يعتمد عليه في أموره وأملاكه الخاصة وقد توفي بمدينة ذمار سنة ١٢٤٤ هـ/١٨٢٨ م(٢) .

أما أصل الوثيقة فلا نعلم أين هو الآن ، وكان قد اطلع عليه قبل نحو ربع قرن ، ونقل عنه - بما يتفق مع مالدينا - المؤرخ المرحوم محمد بن محمد زبارة (ت ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م) ولعله في حوزة أحد ورثة الإمام المهدي . ولعل أسباباً متعلقة بالورثة - في حينه - دعت إلى نقل هذه الصورة عن الأصل فوصلت إلينا ضمن أوراق قليلة متفرقة من مكتبة بيت العمري(٣) .

بالعودة إلى الوثيقة نجد أن الحاكم الذي أصدر حكم البيع والشراء للمهدي هو القاضي إسماعيل بن يحي بن حسن الصديق (١١٣٠ - ١٢٠٩ هـ / ١٧١٨ - ١٧٩٤ م) الفقيه ، العالم الجليل ، تنقل في مناصب القضاء في عدة مدن يمنية ، حتى عينه المهدي سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٨ م « من جملة حكامه بصنعاء ، وعظمه وأجله ، وركن إليه في أمور كثيرة منها تركة والده فإنه جعلها بنظره ، وكان له

---

(١) الشوكاني : **البدر** ٩٥/١ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ٢٣٥/٢ - ٢٣٧

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١٥٨/١

(٣) كان الفقيه علي العمري قد أوصى بوقف أملاكه الخاصة في الصافية ، وكان الأرشد من أسرته مسؤولاً عنها حتى اليوم ولعل هذا ما يفسر العثور على هذه الوثيقة ضمن أوراق الأسرة .

بهة عظيمة وجلالة في الصدور ، وتبحر في الفقه ، وتقعر في العبارات .... »[1] .

☆ ☆ ☆

إن الحكم الذي أصدره القاضي « الصديق » يعطينا نموذجاً للأسلوب والديباجة جرى عليه حكام القرن الثامن عشر والتاسع عشر في سرد حيثياتهم وإصدار أحكامهم وهي قاعدة - مع الاختلاف في الفحوى - لا زالت جارية في اليمن حتى الوقت الحاضر . ويتميز هذا (الحكم - الوثيقة) بالأسلوب الخاص بالقاضي الصديق الذي وصفه الشوكاني بالتقعر في العبارات .

أما حيثياته في تمليك الإمام المهدي عباس للغيلين فهي إنفاقه - كما ذكر - في استخراجها « من خالص الأملاك ومحض الحلال » ، ومع ذلك فقد احتاط المهدي فكلف الحاكم الصديق البت في الموضوع فأمر عدولاً ذكر أسماءهم بتقدير قيمة الغيلين ، فقدّروا ذلك بسبع مئة ريال ، فضاعفها الحاكم إلى ألف وأربع مئة ريال حولها المهدي من وكيل الأملاك الفقيه علي العمري ، ولكنه في أمره ذكر أن تصرف « من جامكية الأجناد بنظر صالح عزّان ... مما يخص لتاريخ شهر شعبان سنة ١١٨٠ » ، أي من مرتباتهم ، وفي هذا إشكال آخر فإننا لا ندري في الواقع ما إذا كان ذلك من مال خاص به قد أرجع إلى حسابه « الخاص » من مرتبات الشهر السابق لصدور هذا الحكم ، أم أن ذلك من مال الدولة ، وإذا كان كذلك فلمن كان الدفع ؟! .

إننا بعد هذا التمهيد نترك الوثيقة تتحدث عن نفسها مشيرين إلى أننا تركنا الأخطاء الإملائية والنحوية كما هي لنقدم بها صورة عن كتابة ذلك الزمان ، إلا

---

(١) الشوكاني : **البدر** ١٥٦/١ - ١٥٧ ؛ زبارة : **نيل** ١٠٦/١ ؛ جحاف (مخطوط) **دُرر نحور الحور العين** : (ق ٢٤١)

أننا أضفنا للإيضاح كلمات يسيرة للغاية وضعناها بين معقوفين هكذا : [ ] وأشرنا في الحواشي إلى ذلك .

نص الوثيقة

« بسم الله الرحمن الرحيم[1]

وبعد حمد الله الذي أجرى الأنهار بعظيم قدرته ، وسلكها ينابيعاً في الأرض على وفق مشيئته ومقتضى باهر حكمته ، وصلاته وسلامه على من نبع الماء النير من بين أصابعه المشرفة فكان من أعظم آياته وباهر معجزاته ، وعلى آله الذين فجروا عيون العلوم بثواقب الأنظار فجرت جداول أنهارها في رياض قلوب العارفين الأبرار ، صلاة وسلاماً دايمان ما تعاقب ليل ونهار .

فإنه لما كان إلى عام [سبع][2] وسبعون ومائة وألف جرت الأيادي الرحمانية والأقدار الصمدانية ، والمشيئة الربانية إلهام مولانا ومليكنا ، وولي أمرنا ونهينا ، خليفة الله في العالم سيد ملوك بني آدم ، ظل الله على العباد ، أمين الله في البلاد ، أمير المؤمنين المهدي لدين الله رب العالمين ، العباس بن أمير المؤمنين المنصور بالله الحسين بن أمير المؤمنين المتوكل على الله القاسم ، لابرح مخصوصاً بالإقبال والإنعام ، مؤيداً بالعز الذي لا يضام والسعادة الأبدية ، والنصر والتمكين والإنعام والفوز في الدارين برضى الملك العلام . فصرف عنان العناية إلى التفتيش عن الغيلين المباركين ، المسمى أحدهما « بالغيل الأسود » والآخر « بالغيل البرمكي »

---

(١) بعد « البسملة » كتبت عبارة التصديق التالي : « صح عندي كلما شمله المزبور هذا ، صُدوراً ، وصحة ، ونقوداً وتقرر لدي بضفته بتاريخه ، الفقير إلى ربه إسماعيل بن يحي الصدّيق لطف الله به » (توقيع)

(٢) « سبع » ساقطة في الأصل ومكانها بياض ، والإضافة من زبارة : **نشر العرف** ١٣/٢

[الكائنين] في جهة عدني[1] مدينة صنعاء المحمية بالله عز وجل ، بعد أن كانا قد دمّرَ وخربا ، ودرست آثارهما ، وعفت رسومهما ، وأحكم بالسد البليغ قرارهما ومجاريهما ، ونسيت مع طول الأزمان أسماؤهما ، فلم يبق لهما في العالمين ذكراً ، ولا يعرف في هذه العصور عن شأنهما خُبْراً ولا خَبَراً ، بل شاهدتهما وهما من موات الأرض في حين العدم المحض ، قد اتخذ الناس تلك المجاري منزرعات ونظموها في سنك أراضيهم وخصائص أموالهم لا يعرفونها ولا أباؤهم إلا كذلك ، فبالغ - حفظه الله وبارك للمسلمين في أوقاته - في إحياء ذلك لنفسه العزيزة المشرفة ، وبذل - حفظه الله - من خالص الأملاك ومحض الحلال مالا يكاد يأتي عليه الحصر ، حتى كملت بحمد الله فايدتهما وعظم بعون الله نفعهما .

ثم وقع منه - حفظه الله - لزوم طريقة الورع ، وسلوك مسلك الاحتياط لجواز أن يكون هناك حق في معلوم الله عز وجل يتعلق بهما لبيت مال المسلمين ، فرجح حفظه الله توسيط شرع الله الذي هو الحجة العظمى والعروة الوثقى ، فأمرت عدولاً من المسلمين الجامعين بين كمال الخبرة والأمانة ، والثقة والديانة ، والمعرفة الكاملة لتلك المحلات قبل اتفاق العمل وبعده ، فما زالوا يغلبوا الظن ويبالغوا في الاحتياط بكل ممكن مع اتفاقهم على الأياس من وجدان الراغب وعجز الطالب لقطع الناظر بادي الرأي أن إحيائهما إن لم يكن مستحيل عادة فمتعذر لا محالة . غير أن الأمر كله لله ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . فأجمع رأيهم على تقويم « الغيل الأسود » المسمى الآن « بالأخضر » بأربع مئة قرش ، و « غيل البرمكي » بثلاث مئة قرش . فرجحت بحسب نظر الشرع الشريف في المصلحة الراجحة ، الثابتة قطعاً ، المحكوم لها شرعاً نصب أمين شرعي لبيع ذلك . فوقع منه البيع الصحيح والإيجاب باللفظ الصريح المتناول للغيلين المذكورين قرارهما ومجاريهما وما يتبعهما شرعاً وعرفاً بثمن قدره ومبلغه أربع عشر مئة قرش .

---

(١) « غدني » أي « جنوبي » .

ووقع من وكيل سيدي المولى ـ حفظه الله ـ قبول ذلك الإيجاب في الموقف الشرعي وسلم الثمن جميعاً بالمعاينة والمشاهدة ، ثم صرف باطلاع المأمون (وإذن للشرع)[1] ، ورأى المولى ـ حفظه الله ـ إلى أجناد الحق المعدة لإرغام أعداء الله ولإعلاء كلمة الله ، وإنفاذ شرع الله محسوباً من جوامكهم[2] اللازمة في شهر شعبان سنة ١١٨٠ هـ . وكان ذلك البيع بيعاً صحيحاً نافذاً منبرماً بعدما تبينت المصلحة المسوغة وتقريرها لدي شرعاً ، فاستقر المبيع وكل ما يتبعه في ملك مشتريه استقراراً تاماً ، وانفصل عنه وعن ثمنه كل حق وعلاقة ودعوى وطلب . واستخرت الله ونعم المستخار ، وحكمت بصدور ذلك وصحته ونفوذه بعد أن تقرر أن الغرامة الواقعة في كلا الغيلين المذكورين خاصة بالمولى حفظه الله مستقرة في ملكه لصدورها من خاصة أملاكه ، فليعتمد وبالله الثقة ، وحسبنا الله وكفى ونعم الوكيل وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

وقد أمرت من حضر موقف الشرع الشريف بالشهادة على ذلك .

حرر بشهر رمضان الكريم سنة ١١٨٠ هـ . [فبراير ١٧٦٧ م] .

والعدول المشار إليهم أولاً هم :

الشيخ عبد الله الرحبي شيخ شعوب

والشيخ أحمد حسن شيخ بئر العزب

والشيخ عبد الرحمن الحواني شيخ حدة

والشيخ علي سعيد شيخ بيت بوس

بتاريخ شهر رمضان الكريم سنة ١١٨٠ هـ

إسماعيل بن يحيى الصديق لطف الله به

حرر هذا في شهر رجب الفرد سنة ١٢١٩ هـ .

---

(١) ما بين القوسين غير واضح في الأصل لعله صوابه (اذن الشرع)

(٢) « الجوامك » جمع « جامكية » : المقرر الشهري .

الحمد لله

الفقيه علي العمري عافاك الله ، سلم من الخاص قيمة آبار الغيلين التي قررها الحاكم لبيت المال من جامكية الأجناد بنظر صالح عِزّان ، وذلك أربعة عشر مئة قرش حجر وتقرر تسليم ذلك القاضي إسماعيل مما يخص لتاريخ شهر شعبان سنة ١١٨٠ هـ .

عبد الله

المهدي لدين الله « العباس وفقه الله »

الحمد لله

هذه صورة الحوالة المهدوية بخط سيدي المولى المهدي لدين الله وهو معروف عندي معرفة محققة

« أحمد محمد مشحم » (توقيع)

الحمد لله

وقع الاطلاع على الأصل المذكور من الحاكم العلامة المشهور رحمه الله والتحويل الواقع من مولانا أمير المؤمنين المهدي رضوان الله عليه للقيمة المذكورة ، وقوبل هذا عليها بتاريخه .

« يوسف بن إسماعيل الصديق » (توقيع)

هذا النقل صحيح من الأصل الشرعي الذي عليه علامة حاكم الشرع المعتمد القاضي العلامة إسماعيل بن يحي الصديق رحمه الله .

بتاريخه سنة سبع وعشرين ومائتين وألف

« أحمد محمد مشحم عفا الله عنه » (توقيع)

تلك كانت أهم قضية عرفناها عن المهدي عباس ، وقد عاش بعدها قرب تسع سنوات ، وكان له عدد من الأولاد وكثير من الأحفاد ، لكنه لم يطل الوقت حتى وجدنا الإمام الشوكاني في قصيدة انتقادية بالغة وجهها إلى ابن المهدي عباس المنصور علي يذكر فيها حالة الفقر والفاقة التي بات فيها أولاد المهدي من بعده مع غيرهم من الناس نتيجة سوء تدبير المنصور وفساد إدارته خاصة في آخر أيامه ، قال الشوكاني[1] :

وَقَدْ نَالَ أَرْحَاماً لكُمْ وقَرَابَةً ... مِنَ الفَقْرِ أَوْصَافٌ تَجِلُّ وتَعْظُمُ
وَصَارُوا بِأَبْوابِ الرِّجَالِ أذِلَّةً ... ولَيْسَ لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ قَطُّ يُكْرِمُ
وَهَانوا وَقَد كانُوا مُلُوكاً أجِلَّةً ... وَصَارُوا إلى حَالٍ تَضُرُّ وتُؤْلِمُ
أَلَسْتَ تَرَى ابناً أَبِيكَ فَإِنَّهُمْ ... غَدَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ والأَمْرُ أَعْظَمُ
فَلَوْ شَاهَدَ المَهْدِيُّ أولادَه كَمَا ... نُشَاهِدُهُمْ أَضْحَى لَهُ الدَّمْعُ يُسْجَمُ

كيف حدث ذلك ؟ وكم كان للمهدي عباس من الأبناء ؟ وما هو الدور الذي قاموا به بعد والدهم ؟ وكيف كانت أحوال اليمن وأوضاعها ؟ ذلك وغيره مما سيكون موضوع الفصل التالي مثبتين قبله خريطة استخرجناها لسلالة المهدي وخلفائه من بعده حتى نهاية هذه الفترة التاريخية التي نتحدث عنها .



---

(١) انظر ديوانه «**أسلاك الجوهر**» بتحقيقنا : ص ٣١٠

بيت القاسم

القاسم بن محمد

(١٠٠٦ - ١٠٢٩ هـ/١٥٥٨ - ١٦٢٠ م)

حسين (ت ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م)
يحي (الملقب بحميد الدين لمصاهرته
السادة آل حميد الدين بن المطهر شرف الدين
أهل كوكبان) الجيل السادس

حسن (ت ١٠٤٨ هـ/١٦٣٨ م)
المنصور حسين (الجيل السادس)
(١١٣٩ - ١١٦١ هـ/١٧٢٧ - ١٧٤٨ م)

علي (ت ١٠٢٣ هـ/ ١٦١٥ م)

يحي يوسف عبد الله (وفاتهم ١٠٤٣ هـ/١٦٣٤ م)

محمد (المؤيد) (١٠٥٤ هـ/ ١٦٤٤ م)

أحمد (١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٦ م)

إسماعيل (المتوكل) (ت ١٠٧٩ هـ/١٦٦٨ م)

يحي
أحمد
(١)☆ « المهدي عباس »
(١١٦١ - ١١٨٩ هـ/١٧٤٨ - ١٧٧٥ م)
محمد
عبد الرحمن

عبد الله
أحمد
(المؤيد لخروج
آل الكبسي في الروضة
توفي بالسجن ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م)

محمد

قاسم
عبد الرحمن
حسين

يوسف
أحمد
حسن
(٦) النّاصر عبد الله
(١٢٥٢ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٦ - ١٨٤٠ م)

حميد

إسماعيل
أحمد

شمس الدين
أحمد

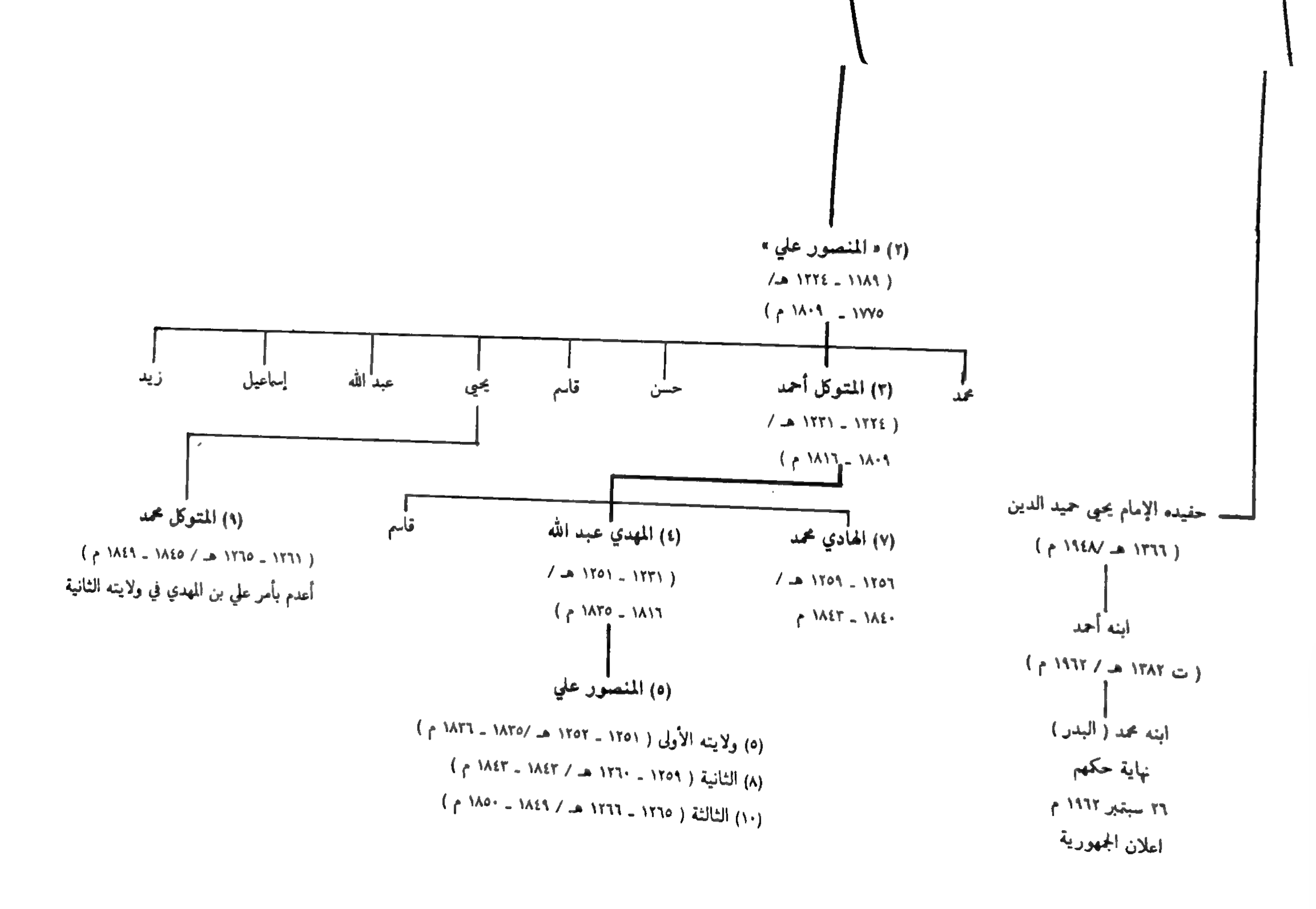
عبد الرحمن
أحمد
يعقوب

يعقوب

صادق

طالب

صلاح الدين



☆ الأرقام تشير إلى من تولى الإمامة من هذا البيت ومدة حكمه .

الفصل الثاني

المنصور علي وحكمه

(١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ /١٧٧٥ ـ ١٨٠٩ م)

١ ـ بيت الإمام

محمد بن المهدي عباس

أحمد بن المهدي

قاسم بن المهدي

عبد الرحمن بن المهدي

٢ ـ المنصور علي بن المهدي عباس

٣ ـ حكم المنصور علي (١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ / ١٧٧٥ ـ ١٨١٩ م)

٤ ـ الأيام الأولى للمنصور

تعيين السحولي ثم الشوكاني في منصب « قاضي القضاة »

عملة جديدة وقائد لجيش المنصور

الأمراء العبيد

٥ ـ الوزراء القدماء والجدد

آ) حسين بن زيد المحرابي

ب) القاضي علي بن حسن الأكوع

جـ) الفقيه علي بن حسين الجرافي

٦ ـ وزراء المنصور من الأصدقاء والمشايخ

آ) محمد بن أحمد خليل (١١٦٠ ـ ١٢٢٠ هـ / ١٧٤٧ ـ ١٨٠٥ م)

ب) أحمد بن إسماعيل فايع (ت ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م)

٧ ـ عقاب المنصور للأمير عنبر

٨ ـ القصور والأعراس

٩ ـ نظام القضاء والإدارة ، والمال

« .. وعندما يضطر الأمير إلى سلب إنسان حياته ، عليه أن يتوخى المبرر الصالح والسبب الواضح لذلك ، ولكن عليه قبل كل شيء أن يمتنع عن سلب الآخرين ممتلكاتهم ، إذ إن من الأسهل على الإنسان ، أن ينسى وفاة والده ، من أن ينسى ضياع إرثه وممتلكاته » .

« .. ولقد قلت إنه يتعرض للكراهية بصورة عامة ، إذا أصبح سلاباً نهاباً ، يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم ، وهو ما يجب أن يتجنبه » .

(ميكا ڤيللي ، الأمير : ١٤٤ و ١٥٢)

١

حـ

١٧٧٥ .

أشهر ال

ممن كان

المـواتيـ

« المنصر

الدعاوى

الفيصل

و

« المنصر

بدور س

من تزه

المنصور علي وحكمه

(١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ /١٧٧٥ ـ ١٨٠٩ م)

١ ـ بيت الإمام

حين توفي « المهدي عباس » في التاسع من شهر رجب سنة ١١٨٩ هـ /سبتمبر ١٧٧٥ م خلّف بعده عدداً كبيراً من الأبناء والإخوة ، والأعمام وأبنائهم ، ومن أشهر الأخيرين « بيت المنصور » و « بيت المتوكل » و « بيت إسحاق » وغيرهم ممن كان الأمل والطموح للإمامة هاجساً وشاغلاً لبعضهم فكان يتحين الفرصة المواتية لبلوغ هذا الهدف والرغبة في الحكم ، لكن « المهدي » من قبل وابنه « المنصور » من بعده لم يتيحا لأي طامح فرصة في النجاح والمنافسة مهما كانت الدعاوى أو الأحقية في هذا الأمر ، وكان القتال والحرب أو المساومة والصلح الحكم الفيصل لإمام صنعاء من آل القاسم حتى حُكم المهدي عباس ثم بيته من بعده .

وسوف نتعرض لتلك الصراعات الجديدة بعد « المهدي عباس » في عهد ابنه « المنصور عليّ » ، بيد أننا سنلقي في البداية نظرة على أبنائه لأن منهم من قام بدور سياسي هام كما كان بعضهم من العلماء والأدباء البارزين في حين كان منهم من تزهد أو عاش على هامش الحياة ، وهم في كل ذلك مع غيرهم ممن سيرد معنا

يمثلون طبقتهم في هذا العصر ؛ فهم « آل الإمـام » أو « بيت الإمـام » كما جرت العادة في تسميتهم في اليمن .

☆ ☆ ☆

أنهى الشوكاني ترجمته للمهدي عباس بذكره لأولاده ، وهو ذكر يتسم بالعمومية مع الإطراء ، لكنه مفيد مع ذلك وسنفصل ما عممه من مصادر أخرى ، قال الشوكاني :

« ولصاحب الترجمة أولاد ، هم سادات السادات ، وكل واحد منهم لا يخلو من فضيلة ويجمعهم جميعاً حسن الفروسية ، وجودة الخلق ، والتمسك بنصيب من العرفان ، وأكبرهم عبد الله توفي في حياة والده ، وبعده مولانا الإمام خليفة العصر المنصور بالله علي - وستأتي ترجمته - وبعده محمد وهو من أكابر آل الإمام وله نصيب من الكمالات وافر ، وبعده القاسم وهو من فحول السادات وأعيان القيادات ، وله مشاركة في العلم جيدة وبعده يوسف وهو حسن الأخلاق ، كريم الأعراق . وبعده أحمد وهو أوسعهم علماً وأقواهم فهماً ، له اطلاع كليّ على علم التاريخ والأدب ومعرفة بفنون من العلم ومشاركة كلية في أنواع منه ، وله شعر ، وفيه رغبة إلى المباحثة ، وهو كريم مطلق ، قليل النظير في مجموعه ، وبعده إسماعيل وهو قليل النظير في حسن أخلاقه وتواضعه وسلامة فطرته وعفافه ، وهؤلاء هم الكبار من أولاد صاحب الترجمة[1] » .

إن ما أجمله الإمام الشوكاني نجده أكثر تفصيلاً وإيضاحاً ، بل وبصورة حيوية تعكس لنا صورة العصر ورجاله وأحداثه عند تلميذ الشوكاني ومؤرخ دولة

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١/٣١٠ - ٣١٣

المنصور علي ـ التي نحن بصددها ـ لطف الله جحاف[1] في كتابه المخطوط الثمين « دُرر نحور الحور العين .. » الذي استفدنا منه كثيراً للفترة التي أرخ لها (حكم المنصور علي) .

محمد بن المهدي عباس

هو الابن الثالث للمهدي ، كان ذكياً إلا أنه يميل إلى الخمول ولهذا فقد ذكر لنا جحاف « أنه أحد المشاورين في أمر الخلافة بعد أبيه ، فقال لا يصلح لها غير أخي علي ! »[2] ولم يكن له اهتمام بالسياسة أو تعلق بأعمال الدولة ، فقد كان محباً للهدوء والدعة وكانت له هواية و « ولع شديد بالطيب ، أنفق في معاناة العطر الشاهي أموالاً جمة فأدرك الصناعة ، وكان يتطيب مما جادت به صناعته ، فإذا

---

(١) لطف الله بن أحمد بن لطف الله جحاف (١١٨٩ ـ ١٢٤٣ هـ/١٧٧٥ ـ ١٨٢٨ م) ، أديب ، شاعر نقيه ، مؤرخ ، صنعاني المولد والدار والمنشأ والوفاة ، أخذ العلوم والفقه واللغة عن كثير من شيوخ الشوكاني ، وأخذ عنه أيضاً ولازمه ومدحه وكاتبه ، وكان متصلاً بكبار رجال الدولة ومنهم الإمام « المتوكل أحمد » ، وكان له عنده حظ وافر ، غُمز في علاقته به وأنه كان عيناً له على الناس ، وقد سجن في عهد « المهدي عبد الله » ابن « المتوكل أحمد » ، ثم أطلق بشفاعة أستاذه الشوكاني الذي لم يكن مرتاحاً في سنيه الأخيرة ، له مؤلفات مخطوطة معروفة من أشهرها كتاب « المرتقى إلى المنتقى » شرح به « منتقى ابن تيمية » ، و « الديباج » وكتابه الذي أشرنا إليه « درر نحور الحور العين .. » أرخ فيه لمعاصره الإمام « المنصور علي » ورجال دولته ، وله أيضاً « فنون الجنون في جنون الفنون » نقد أدبي ، لكنه فيما يبدو اختلط آخر عمره فكان يتحدث عن غرائب وهو يضع تفسيراً للقرآن الكريم الذي سماه « العلم الجديد في التفسير » ، وذكر « الشجني » في « تقصاره » أنه مليء بالخرافات ، وله غير ذلك .
(انظر : الشوكاني : **البدر الطالع** ٦٠/٢ ، الشجني : **التقصار** (خ) : (ق ١٢٦) ، زبارة **نيل الوطر** : ١٨٩/٢ ؛ وللدكتور سيد مصطفى سالم « **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر** » استلها من نفس كتاب جحاف « درر نحور الحور .. » القاهر ١٩٧٥ م ، وانظر ديوان الشوكاني بتحقيقنا : ٨١ ، ١٣٧ ، ٣١٤)

(٢) جحاف : ٣٤١

من طريق وسار عنها نام عَرْف ذلك الطيب بها متضوّعاً ، وكان يهدي منه لأخيه خيمة ونسيف الإسلام »[1] ، ولعل ما أنفق من مال في هوايته تلك قد أثر على حالته المادية فمنحه أخوه المنصور أرضاً في بلاد أنس دامت له حتى توفي في ١٥ رمضان سنة ١٢١٨ هـ /١٨٠٣ م وأبقيت لأولاده بعد موته كما ذكر جحاف[2] .

☆ ☆ ☆

أحمد بن المهدي

يمثل الأخوان قاسم وأحمد ابنا المهدي نموذجاً لمثقفي العصر بالرغم من الاختلاف الكامل في تفكيرهما وحياة كل منهما . وقد تتلمذ على يد العلامة اللغوي ، الفقيه القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال (١١٤٠ ـ ١١٩١ هـ / ١٧٢٧ ـ ١٧٧٧ م)[3] الذي كان مقرباً من « المهدي ومُعْتمداً ، كما عمل لديه مستشاراً ووزيراً في بعض الأحيان بالإضافة إلى تدريس أبنائه[4] . وكان العلامة ابن أبي الرجال كثير الإعجاب بأحمد بن المهدي (١١٦٤ ـ ١٢٢٠ هـ / ١٧٥٠ ـ ١٨٠٥ م) الذي كان أديباً ، فقيهاً ، أخبارياً وعلى علم واسع بالفلسفة وعلم الفلك ، وكان ذا شاعرية وأدب غض ، على نبل وكرم زائد مدحه شعراء عصره كالأنسي والشوكاني وغيرهما[5] . ولكنه مع كل ذلك كان ولسوء حظه « مفرط الكرم حاد الطبع

---

(١) المصدر نفسه . والمقصود بسيف الإسلام الأمير أحمد بن المنصور علي ، وكان هذا اللقب عادة في أكبر أبناء الأئمة ، أو الرجل الثاني بعد الإمام حتى جاء الإمام يحيى حميد الدين فلقب كل أبنائه الثلاثة عشر بسيوف الإسلام ، وذهب اللقب مع حكم الإمامة بقيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م

(٢) جحاف : ٣٤١ ، وانظر زبارة : **نيل الوطر** : ٢٨١/١

(٣) هو حفيد العالم المؤرخ ، الأديب ، القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال (ت ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م) انظر العمري : **مصادر التراث اليمني** : ٢٨٠

(٤) الشوكاني : **البدر** ٦١/١ ، جحاف : ٥٠

(٥) **ديوان الشوكاني** : ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، زبارة : **نيل الوطر** : ١٠٨/١

متضع الجناب فرمي لذلك بالجنون مرتين وحبس فيهما دهراً في داره في بستان السلطان »[1] وقد حزن كثيرون لما كان يحل به ، كما حزنوا لموته ، وعبر عن ذلك المؤرخ جحاف بأبيات يرثيه بها ، وأرخ في آخرها لوفاته :

... في جنان الخلد قل قد حلّ أحمد[2] .

وكان ذلك سنة ١٢٢٠ هـ /١٨٠٥ م .

☆ ☆ ☆

وقبل ستة أسابيع من وفاة أحمد توفي أخ له هو حميد بن المهدي الذي كان شاباً في السادسة والثلاثين من عمره[3] لكننا لا نعرف كثيراً عنه ،كما أننا لا نعرف أيضاً عن حياة أخوين آخرين توفيا في أسبوع واحد من عام ١٢٠٣ هـ /١٧٨٩ م هما إسحاق و شمس الدين ، توفي الأول في صنعاء وتوفي الآخر في ميناء الليث في الحجاز وهو في طريقه لأداء فريضة الحج بعد أن كان قد توجه للعلم وأخذ عن بعض مشايخ جحاف[4] .

☆ ☆ ☆

قاسم بن المهدي

كما تتلمذ أحمد على القاضي ابن أبي الرجال ، فقد كان أخوه قاسم تلميذاً نابهاً له بالإضافة إلى أستاذ العصر وشيخ الإمام الشوكاني ، الفقيه العلامة السيد عبد القادر بن أحمد الكوكباني (١١٣٥ ـ ١٢٠٧ هـ / ١٧٢٣ ـ ١٧٩٢ م) الذي كان

---

(١) جحاف : ٤٠٣
(٢) جحاف : ٤٠٣
(٣) جحاف : ٤٤٣
(٤) نفسه : ١٧٥

يعجب من قوة حافظته ومقدرته على استحضار شواهد الأدب والشعر[1] . وقد اندرج في شؤون الدولة وسياساتها فكان مسؤولاً عن بلاد الحيمة ـ غرب صنعاء ـ واتخذ من أستاذه ابن أبي الرجال وزيراً ومستشاراً له[2] ، وهو على أهليته كان يرى أن أخاه علياً ـ المنصور فيما بعد ـ أجدر منه ، فقد ذكر أن والده المهدي لما غادر صنعاء إلى الروضة لقتال قبائل أرحب أمره بالنيابة عنه في صنعاء وحفظ قصرها ، فاعتذر مقدماً أخاه علياً[3] وقد حفظ له الأخير مواقفه ووده بعد أن أصبح إماماً فكان « لا يرد له شفاعة في شيء ، وكان ينزل عليه ويأنس إليه » ، ولم يعمر طويلاً فقد مات في العقد الرابع من عمره من ورم في رقبته ، في ١٣ جمادى الأولى عام ١٢٠٣ هـ /١٧٨٩ م في العام نفسه الذي توفي فيه أخواه الصادق وشمس الدين ، وقد حزن على وفاته أخوه المنصور حزناً عميقاً ، ولعله من الطريف أن نذكر أن المنصور ـ تعبيراً عن حزنه ـ « قد منع جالبات السرور وأخر النوبة عن ضربها ببابه أياماً ، واحتفل للعزاء ودرس عليه كتاب الله العزيز بجامع صنعاء .. »[4] .

عبد الرحمن بن المهدي

لعل عبد الرحمن هذا هو آخر من مات من أبناء المهدي في حياة المنصور كما يظهر أنه كان أرق إخوته وألطفهم وقد أحبه « الخَاصُّ والعَامُّ » كما ذكر جحاف وكان أديباً شاعراً توفي سنة ١٢٢١ هـ /١٨٠٦ م[5] .

☆ ☆ ☆

(١) جحاف : ١٦٤ وانظر زبارة : **نيل الوطر** : ١٧٧/٢

(٢) نفسه : ٤٠ ، ١٦٤

(٣) نفسه : ١٦٤

(٤) نفسه : ١٦٤ ، زبارة (نقلاً عن جحاف) **نيل الوطر** : ١٧٧/٢ ـ ١٧٩

(٥) نفسه : ٤٢٣

٢ ـ المنصور علي بن المهدي عباس

ولد علي بن المهدي عباس في صنعاء سنة ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م[١] ونشأ في البيئة العلمية والاجتماعية التي نشأ فيها اخوته ، إلاّ أنه كان شغوفاً بالفروسية محباً ـ مع ذلك ـ للراحة . وكما كان العلامة ابن أبي الرجال مختصاً وأستاذاً لأخويه أحمد وقاسم فقد كان القاضي العالم والوزير المشهور الحسن بن علي حنش (١١٥٢ ـ ١٢٢٥ هـ / ١٧٣٩ ـ ١٨١٠ م) ، تلميذ ابن الأمير وابن أبي الرجال وطبقتهما ، وأستاذاً لعلي ، ذلك أن المهدي أمره أن يتصل بولده ويقرئه ؛ « فاتصل به وقرأ عليه ، ولازمه مدة ، ثم لما مات الإمام المهدي وبويع المنصور بالله أناط به أعمالاً وصيّره أحد وزرائه المقربين عنده ، وجعل بنظره بعض البلاد اليمنية وبالغ في تعظيمه لكونه شيخه في العلم ، ولم يعامله معاملة سائر الوزراء ، إذا ناب الدولة أمر يتعلق بالأمور الشرعية كان التعويل عليه في الغالب ...[٢] » وباتصال المنصور علي وتتلمذه على حنش « أخذ من علم الشرع بنصيب » وكان له « شغف شديد بالكتب النفيسة ومطالعتها بحيث لا يقف في مكان إلاّ وعنده منها عدة[٣] » ، بيد أن المنصور علياً كان رجل سيف أكثر منه رجل علم وأدب ولعل مردّ ذلك ليس حبه للفروسية فحسب بل وربما لكونه كان الابن الأكبر للمهدي عباس الذي اعتمد عليه في وقت مبكر في مسائل إدارية وقيادة عسكرية . ولما بلغ الحادية والعشرين عينه والده والياً على « صنعاء » وأميراً للأجناد وأمره أن يسكن قصر صنعاء ، ويبدو أن ذلك كان تقليداً لمن يلي إمارة الجيش أو الأجناد ، لأن القصر كان قلعة صنعاء ومخزن الأسلحة وحامية المدينة ، وكانت توليته تلك في حدود سنة ١١٧٢ هـ /١٧٥٨ م « فقام بذلك قياماً تاماً بحزم

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٤٥٠/١ ، زبارة : **نيل الوطر** : ١٤٠/٢

(٢) الشوكاني : **البدر** : ٢٠١/١

(٣) المصدر نفسه : ٤٦٤/١

ومهابة ، وحرمة وافرة ، ومكارم واسعة ، وحسن أخلاق ، وصبر على الأمور ، وسياسة لأحوال الجمهور ، فاستمر على ذلك ودام فيه مدة أيام والده »[1] .

ولا بد أن علياً قد وجد في عمله قائداً للأجناد متنفساً للجلد والفروسية ، لكننا لانعرف له دوراً قيادياً أو بطولياً معيناً مدة اثنتي عشرة سنة بعد ذلك التعيين - ربما لاستقرار الأوضاع في ظل أبيه - حتى كان عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م حين قاد حسن العنسي عدداً كبيراً من قبائل « برط » و « ذو محمد » و « ذو حسين » وخرج بهم صوب صنعاء لمحاربة الإمام المهدي . وكانت هذه القبائل - التي سبق أن هزمت في هجومها على المناطق السفلى الجنوبية[2] - قوية الشكيمة مرهوبة الجانب ، أو هي كما وصفها الشوكاني بأسلوب خلدوني :

« وهم جمهرة عرب اليمن إذ ذاك ، وأهل الشوكة منهم ، ومن لا يقوم لهم غيرهم من سائر القبائل »[3] .

ونحن - في هذه المرة - لانعرف سبب هذا الخروج إلاّ قول الشوكاني إنها « وقعت خطوب كانتْ سبباً لخروجه عليه ؛ فخرج بجيش من المذكورين ومن غيرهم لم يخرج بمثله أحد من أهل تلك الجهات ، فاستعد له المهدي وجمع العساكر ، وأرسل أحد أمراء أجناده - وهو الأمير سندروس - ؛ بمعظم جيوشه من خيل ورَجْل ، وسائر العساكر المطلوبة من القبائل حتى اجتمع له جيش كثير ، وأُمر أمير الأجناد ومن معه من الجيوش أن يلتقي حسن العنسي إلى بعض الطريق . فلمّا علم بذلك حسن العنسي سلك طريقاً أخرى ، فلم يشعر أهل

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٤٥٩/١

(٢) انظر الفصل السابق : ص ٢٦ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع : ٤٥٩/١ - ٤٦٠

صنعاء إلاً وهو في سَعْوان ـ وهو محل شرقي صنعاء قريب منها ـ فحصلت بذلك رجة في صنعاء كبيرة .. »[1] .

وهنا يصف لنا الشوكاني الدور الذي قام به علي بن المهدي في صد هذا الهجوم والانتصار على جيش القبائل رغم قلة رجاله ، قال الشوكاني :

« .. فخرج عند أن بلغه ذلك الخبر في طائفة يسيرة من أصحابه لا يبلغون خمس مئة رجل وطائفة يسيرة من الخيل أكثرهم لا نفع فيه ـ لكون معظم الخيل المنتخبة قد صارت صحبة الأمير سندروس ـ فاصطف له حسن العنسي وأصحابه وهم ألوف مؤلفة ، وفيهم من أهل الشجاعة والتجربة للحروب والاعتياد للشر من هو أضعاف أضعاف من مع مولانا [علي] ، بل مازال ذلك المقدار اليسير يتناقص بفرار من لا يستحي من العسكر وتسترهم بين الأثل ونحوه قبل الوصول إلى المعركة ، فلما تراءى الجمعان كان من بين يدي مولانا بالنسبة إلى الجمع الآخر كلا شيء ، وهو يقدم ولا ينثني ، ويحث من بين يديه على المصابرة والإقدام ، ويحول بينهم وبين الإحجام حتى وصل بهم إلى نحر العدو ، وضايقوهم غاية المضايقة ، وقتلوا منهم كثيراً ، ولكنهم انثالوا عليهم من جميع الجوانب كأنهم الجراد ، فتأخر بأصحابه قليلاً قليلاً وهو يدافع عنهم ، وخرج والده المهدي مغيراً إليه ومغيثاً له فالتقاه وهو يتهلل ، لم يظهر عليه فزع ولا جزع ، ولا طيش ، ولا خفة ولا وجل ، ولا خطل ، بل من رآه ظن أنه جاء من بعض المتنزهات ! وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها الولدان وترجف منها الأفئدة ، وتخرس عندها الألسن ، وهكذا فلتكن الشجاعة » .

---

(1) الشوكاني : **البدر** ٤٥٩/١ ـ ٦٠

ويضيف الشوكاني أنه بعد هذه الموقعة :

« اعترف له الكبير والصغير ، والجليل والحقير ، حتى خصومه ، بأنه بمكان من ثبات الجنان يقصر عنه أبناء الزمان ! »[1] .

☆ ☆ ☆

وهكذا عرف عن المنصور علي الشجاعة والكرم ، وأنجب في شبابه أولاداً وهم أحمد ـ وهو أكبرهم الذي سيخلف أباه فيما بعد ـ وعبد الله ومحمد وقد انغمسوا جميعاً في شؤون الدولة كما ازدادت الخلافات والصراعات بينهم لكبر سن والدهم وضعف سيطرته في آخر حكمه . غير أن أحمد كان له دائماً اليد العليا وتمت له السيطرة في منتهى الأمر كما سنرى ذلك فيما بعد .

☆ ☆ ☆

٣ ـ حكم المنصور علي (١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ /١٧٧٥ ـ ١٨٠٩ م)

كان المؤرخ الكبسي (ت ١٣٠٨ هـ /١٨١٩ م) مصيباً كل الإصابة حين لخص إمامة المنصور علي وفترة حكمه في النص التالي :

« ولما توفي المهدي عباس قام بالخلافة ولده علي بن العباس في سنة تسع وثمانين في القرن الثاني عشر [١٧٧٥ م] ، واستمرت إمارته على سعادة وإقبال في أولها وأوسطها ، وبقي على تلك الحالة باذلاً للأموال ، شيد الدور ، وعمر القصور ، وكان في زي عظيم وملك عقيم ! من سنة تسع وثمانين ومئة وألف [١٧٧٥ م] إلى سنة عشر ومئتين وألف [١٧٩٥ م] ، وفي هذا القرن ـ الثالث عشر ـ تلاشت

---

(١) الشوكاني : البدر نفسه ٤٦٠/١

عليه الأمور بخروج التهائم وبنادرها إلى الخوارج من نجد ، [أي الحركة الوهابية][1] .

بالإمكان تقسيم فترة حكم المنصور علي إلى مرحلتين بل إلى ثلاث مراحل .

أولى ـ وهي الأطول ـ استمرت قريب عشرين عاما .

وثالثة لم تدم إلا أشهراً لم تبلغ العام سيطر خلالها ابن المنصور أحمد على كل أمور الدولة والبلاد

وتتوسط المرحلتين الأولى والثالثة مرحلة كانت على درجة من تداخل الحوادث بالأولى التي تسبقها بحيث يصعب تمييزها كما أنها شهدت أحلك الفترات والاضطرابات داخلياً وخارجياً . وبقدر مسؤولية الإمام المنصور ـ حاكماً لليمن ـ عما حدث من فوضى واضطرابات اقتصادية واجتماعية وسياسية سببها القلاقل وعدم الاستقرار في آخر حكمه فإن تسارع الأحداث والظروف المحلية المضطربة والخارجية المستجدة كانت من عوامل تلك الفوضى والاضطرابات وعدم الاستقرار . وسوف نقوم فيما يلي بدراسة حكم المنصور علي منذ بدايته حتى آخره وهي فترة استمرت أربعاً وثلاثين سنة وهي بذلك تزيد ست سنوات عن حكم والده المهدي عباس .

☆ ☆ ☆

٤ ـ الأيام الأولى للمنصور

في يوم الخميس التاسع عشر من شهر رجب ١١٨٩ هـ / ٧ سبتمبر ١٧٧٥ م بعد أن دُفن المهدي عباس ، جلس ابنه علي في قبة المهدي عباس التي بناها قبل موته

---

(١) الكبسي : **اللطائف السنية** : ٣٧٣ ـ ٣٧٤

في بستان السلطان يتلقى البيعة من العلماء والأعيان ومن « الخاص والعام » خلفاً لأبيه المتوفى ، ولقب نفسه « بالمنصور » . ثم توجه بعد ذلك إلى قصر صنعاء ، شرق العاصمة حيث أعدت قاعة كبيرة (ديوان) استقبل فيها جموع المعزين بوالده والمهنئين له بالإمامة ، وتقاطرت إليه لعدة أيام وفود الأعيان ورؤساء القبائل من مختلف مناطق اليمن . وألقى كثير من الخطباء كلمات مؤثرة ، ودبج كبار الشعراء قصائد بليغة ، اشتهر منها قصائد القاضي إسماعيل الخطيب صاحب قعطبة ، وصادق بن محمد بن زيد حفيد المتوكل على الله إسماعيل ، وأحمد حسن بركات (ت ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م) والسيد يعقوب بن محمد بن إسحاق (ت ١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م) وابن أخيه العلامة الأديب الشاعر السيد علي بن أحمد بن إسحاق (١١٥٠ ـ ١٢٢٠ هـ / ١٧٣٨ ـ ١٨٠٥ م) وآخرين غيرهم[١] وكان الأخير على درجة عالية من العلم والأهمية والخطر ، وقد خرج على المنصور بعد خمس سنوات من هذا التاريخ وكانت حروب وصراع سنذكرها فيما بعد[٢] .

☆ ☆ ☆

تعيين السحولي ثم الشوكاني في منصب « قاضي القضاة »

كان أول قرار اتخذه المنصور في اليوم الأول لتسنمه سدة الحكم هو إعادة تعيين العلامة الكبير والفقيه الضليع ، رجل الأدب والسياسة القاضي يحي بن صالح السّحُولي (١١٣٤ ـ ١٢٠٩ هـ / ١٧٢٢ ـ ١٧٩٥ م) قاضياً لقضاة اليمن[٣] . وهو المنصب الذي كان قد شغله بكفاية بالغة أكثر من عشر سنوات في حكم المهدي

---

(١) جحاف : ٥ ـ ٦ ؛ زبارة : **نشر العرف** : ١ / ٧٦٦ و ٢ / ٩٠٠

(٢) انظر ص ١٠٢ فيما بعد

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١ / ٤٦١

عباس الذي « بالغ في تعظيمه وضم إليه الوزارة إلى القضاء ، وصار غالب أمور الخلافة تدور عليه ، وعظمت هيبته في القلوب واشتهر صيته وطار ذكره فاستمر كذلك إلى سنة ١١٧٢ هـ / [١٧٥٨ م] فنكبه الإمام المهدي واستأصل غالب أمواله وسجنه فاستمر مسجوناً أعواماً [ثلاثة] ، ثم أفرج عنه ولزم بيته والناس يترددون إليه لأخذ العلم عنه ويستفتونه في المعضلات ، فاستمر كذلك حتى مات الإمام المهدي »[١] .

والذي يظهر أن سبب ذلك الحبس والنكب هو خلاف القاضي مع النقيب الماس ـ أحد الأمراء العبيد ـ الذي كان « يجاهره بما يؤلم فيحتمل له ، غير أنه لشدة ما يجد كان يتبطّأ اليومين والثلاثة عن الوصول إلى حضرة المهدي عباس ، ويتعلل بأعراض وأمراض ، كل ذلك محبة لعدم ظهور المحنة بينه وبين النقيب » ، غير أن الأهم من هذا ، هو ما حدث بعد ذلك من وحشة بين القاضي السحولي والوزير الفقيه أحمد النهمي « فأفضى ذلك إلى القبض عليه »[٢] ونفذ الأمر النقيب الماس عدوه السابق . ولا بد أن « المهدي عباس » كان قد أضمر للرجل هذا العقاب الذي شمل المصادرة للأموال ووقف بعضها على قبته التي بناها مسجداً للصلاة ، وأنزل أخاه محمد بن المنصور حسين دار السحولي في بئر العزب لكنه أعادها له فيما بعد[٢]

جاءت إعادة تعيين المنصور للقاضي السحولي رد اعتبار للرجل وقوبل ذلك التعيين بارتياح من الكثيرين « فباشر ذلك بحرمة وافرة ومهابة زائدة وفخامة عظيمة ، وصار المتصدر في الديوان ، وليس لأحد معه كلام ، بل ما أبرمه لا يطمع أحد في نقضه ، وما أبطله لا يقدر غيره على تصحيحه ، وكان الخليفة [المنصور] يشاوره فيما يعرض من الأمور المهمة الخاصة بأمور الخلافة ، بل كان

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢ / ٣٣٤

(٢) جحاف : ٢٤٣ ـ ٢٤٤

الوزراء جميعاً يترددون إليه ويعملون بما يرشدهم إليه ، وبالجملة فكان صدراً من الصدور متعدد المرئيسة ... دراية بالأمور قد حنكته التجارب ، ومارس جميع الأمور المتعلقة بالمملكة ... وكان لعظمته في الصدور وجلالته عند الجمهور بمحل يقصر عنه الوصف ، بل كان يقال في حياته إنه إذا مات اختل نظام المملكة ، فضلاً عن نظام القضاء !...»[1]

وهكذا استمر السحولي في منصبه الخطير نحو عشرين عاماً من حكم المنصور علي حتى مات في أول رجب سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٠٥ م فخلفه في منصب القضاء الأكبر القاضي العلامة ، الإمام ، المفسر ، المحدث ، الأصولي ، المؤرخ ، الأديب والشاعر محمد بن علي الشوكاني . كان إذ ذاك في السادسة والثلاثين من عمره ولم يكن قد عمل في القضاء أو شؤون الدولة بل كان منصرفاً للعلم تدريساً وتأليفاً ، وبعد طول تردد قبل المهمة ، وقال عن نفسه : « .. واشتغل الذهن شغلة كبيرة ، وتكدر الخاطر تكدراً زائداً ، ولا سيما وأنا لا أعرف العلوم الاصطلاحية في هذا الشأن ولم أحضر عند قاض في خصومة ولا غيرها ، بل كنت لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه الله من أيام الصغر فما بعدها ، ولكن شرح الله الصدر وأعان على القيام بذلك الشأن ...»[2]

استمر الإمام الشوكاني في منصبه ونهض بدور علمي وسياسي ذي أثر بقية حكم المنصور علي ومن بعده ابنه أحمد فحفيده المهدي عبد الله حتى توفي سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م قبل وفاة المهدي عبد الله بنحو عام وسوف يرد ذكره في مواضع من هذه الدراسة[3] .

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، وانظر : الحجري : **مساجد صنعاء** : ٥٣ ـ ٥٨

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٤٦٥/٢

(٣) انظر : دراستنا عنه . ومقدمتنا لديوان « **أسلاك الجوهر** » : كذلك مقدمتنا ودراستنا لكتابه « **در السحابة في مناقب القرابة والصحابة** » : جحاف : ٣٤٣ : الحوثي : نفحات العنبر (خ) : ٣ ـ ٥٠ ـ ٦٠

عملة جديدة وقائد لجيش المنصور

في أول شعبان من عام ١١٨٩ هـ /١٢ سبتمبر ١٧٧٥ م أمر المنصور علي بإعادة فتح دار الضرب ، وفي يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر صدرت العملة الجديدة حاملة اسمه ، وأمر الناس بتداولها بدلاً من عملة أبيه التي كانت تسمى المهدَويّة . وأصدر المنصور أمراً بأن توسم الخيول في مختلف المراكز التي توجد فيها في اليمن باسمه ونفذ الأمر .(١)

وفي الشهر المذكور أصدر المنصور مرسوماً يوم السابع عشر بتعيين أخيه قاسم عاملاً على صنعاء وأميراً للأجناد وهما المنصبان اللذان شغلهما نفسه حتى وفاة والده المهدي عباس . واحتل قاسم بهذا التعيين مركز الرجل الثاني في الدولة ، لكن الأمر لم يطل فسرعان ما حل مكانه أحمد ابن المنصور الأكبر الذي كان على درجة عالية من الكفاية والفعالية(٢) .



الأمراء العبيد

لعل من المفيد أن نذكر أن المهدي عباساً وخلفاءه من بعده قد استخدموا عدداً من العبيد ذوي الأصول الحبشية قادة للجنود بل وفي بعض الأحيان عمالاً أو محافظين لبعض المناطق . وكان لقب « أمير » « وأحياناً « نقيب » يمنح لمن يتبوأ منصباً في الجيش فهو « أمير الجند » ومن نال حظوة في الحاشية فيضاف إلى اسمه . وكانت أسماؤهم تغلب عليها أسماء الأحجار الكريمة كياقوت وفيروز وجوهر وما شاكل ذلك إلا ماندر كسعد وفرج وفي ظننا أن السبب الرئيس في تولية هؤلاء

---

(١) جحاف : ٦

(٢) جحاف : ٦ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** ٤٦١/١

المناصب العسكرية وبعض المناصب الهامة هو الولاء والطاعة المؤكدة لسادتهم من ناحية وسهولة عزلهم في أي وقت وخاصة أنهم ليس لهم جذور قبلية يستندون إليها أو دعاوى سياسية يمكنهم بها الإتكاء عليها . وليس من شك في أن بعضهم كان مهيباً وذا قدرة قتالية ممتازة كما أن بعضهم الآخر تفقه وتأدب بل وتمذهب كما سيرد معنا[1] .

لم يغير المنصور علي في فترته الأولى أمراء الأجناد الذين كانوا على عهد أبيه وكان أهمهم الأمير فيروز (ت ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م) والنقيب ريحان الذي توفي في نفس الفترة تقريباً ، وبوفاتهما عين بدلاً منهما الأمير سرور و النقيب جوهر بيد أنهما لم يلبثا أن عُزلا بعد وقت قصير[2] .

ومن ناحية أخرى عزل المنصور الأمير سعداً من عُمالة الحديدة . وكان سعد هذا عبداً ليحي العلفي ساعده في كثير من المناصب الإدارية التي شغلها ولما توفي العلفي عينه المهدي عباس عاملاً على ريمة وبعدها في مناطق أخرى في تهامة . وقد أعطانا جحاف عن الرجل وأخباره صورة عجيبة ؛ فلقد كان شجاعاً غنياً ، سخياً إلاّ أن سمعته كانت سيئة فقد نسب إليه صناعة المركبات من المعاجين المخدرة والمشروبات المسكرة ، وأنه كان يتخذ المماليك الحسان لخدمته ، فكانوا يدورون بتلك المعاجين والمشروبات على ضيوفه من تجار وكتاب بيت المال وغيرهم فكان الكاتب « يصير كالأعمى لا يفرق بين الاسم والمسمى فيكتب كما شاء الأمير ويفوته من الحاصل الكثير !»[3] وكان لسعد قدرة عجيبة على حجب أخباره وأموره وفساد إدارته عن المهدي عباس ، وسرد جحاف قصصاً كثيرة ، حتى تمكن المهدي من معرفة بعض ذلك فعزله وصادر أملاكه . ومع ذلك فقد

---

(١) لم نر ضرورة في التوسع هنا في هذا الموضوع الذي هو قيد بحث للمؤلف سينشر مستقلاً .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٤٦١/١

(٣) جحاف : ١٤

أعيد بعد سنوات لعمالة رَيْمة ثم الحُديدة التي عزل منها أخيراً في الأيام الأولى من حكم المنصور ومات بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (٥ من ذي القعدة ١١٨٩ هـ / مارس ١٧٧٦ م)[١] .

☆ ☆ ☆

٥ ـ الوزراء القدماء والجدد

أبقى المنصور بعض وزراء أبيه المهدي وعزل وعين آخرين . وكان ممن أبقاهم الوزير المشهور السيد علي بن يحيي الشامي الذي استمر في منصبه حتى توفي سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م . وكان هو الذي لفت نظر المنصور ونصحه باستخدام الفقيه حسن بن عثمان العلفي الذي كان مغموراً خاملاً فخلف الشامي بعد وفاته فقام هو ومن بعده ابنه حسن بدور سيء وكريه أضعف إدارة المنصور وأساء إلى شخصه كما سيرد فيما بعد[٢] .

آ) حسين بن زيد الحرابي

استمر غير الوزير الشامي ثلاثة أو أربعة وزراء بعض الوقت ثم عاملهم المنصور بشدة وقسوة وصادر أملاكهم بدعاوى مختلفة منها استغلال النفوذ أو الإثراء الحرام أو الخلاف معه أو مع بعض مقربيه . وقد يكون ذلك أو بعضه صحيحاً ، لكن عامل الهوى والصراع بين أفراد الحاشية وبين طامحين جدد إلى بقايا إدارة المهدي عامل آخر كان له دوره .

ولقد كان أول حالة تظهر تعرض الوزراء إلى غضب المنصور كانت مع السيد حسين بن زيد الحرابي (١١٥٢ ـ ١٢٣٢ هـ / ١٧٠٣ ـ ١٨١٧ م) الذي خدم

---

(١) جحاف : ١٤ ـ ١٧

(٢) جحاف : ١٢٦ ـ ١٢٧ ، زبارة : **ذيل البدر الطالع : ١٨٢/٢**

وزيراً أيام والده فبعد عامين من استقراره وزيراً في إدارة المنصور أمر بسجنه ومصادرة أملاكه ، فنفذ ذلك الأمير فيروز سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م . وفي السجن حاول المرابي الانتحار لكنه أنقذ من الموت . أما أسباب ما حلّ به فقد ذكر المؤرخ الرسمي جحاف خمسة أسباب .

أولها : تضرر أهل صنعاء من مصادرته لهم فكانوا يدعون الله للخلاص منه .

ثانيها : أنه كان على خلاف مع الوزير ذي التأثير القاضي الأكوع .

ثالثها : تطاوله على جماعة من الوزراء والأمراء واستخفافه بهم .

رابعها : عدم احتشامه لمواقف الإمام المنصور نفسه .

خامسها : معاداته لأخي المنصور قاسم بن المهدي الذي كان لا يزال الرجل الثاني في الدولة . ورجل كان له كل تلك العداوات لابد أنه كان متعجرفاً بالغ الاعتداد بنفسه . ومع ذلك فقد أعاد المنصور تعيينه والياً (عاملاً) على إب و جبلة عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ثم عزله سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م ثم أهمله سنوات حتى عينه على وَصَاب الأعلى في سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م . ولم يعد له شأن يذكر بعد ذلك ، لكننا نعرف أن الرجل قد عُمر حتى الثمانين ومات بصنعاء سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٦ م أي بعد نحو عشرة أعوام من وفاة المنصور[1] .

☆ ☆ ☆

ب) القاضي علي بن حسن الأكوع

أما الحالة الثانية من تعرض الوزراء لغضبه فقد كانت مع القاضي علي بن حسن الأكوع الذي كان أحد وزراء المهدي المشهورين والذي كان مسؤولاً عن شؤون القبائل . وكان عمله على درجة بالغة الأهمية وكسب بذلك خبرة وتجربة

---

(١) جحاف : ٢٧ ـ ٢٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٧٩/١

واسعة . وقد استمر في عمله هذا خمس سنوات في عهد المنصور . ويبدو أن الأكوع كان بالغ التشيع بادي الكِبْر فأكسبه ذلك أعداء ونقاداً كثيرين . وقد ذكر جحاف عنه بعض ما ذكره عن الحرابي وأنه « عظمت عليه نفسه واستهان بالأعوان ، وظن أنه لولاه لكان للدولة وللشر شأن ! فتهافتت أموره وتلاشت » لكن الأهم من ذلك هو اتهامه بأن لم يَعُد له سيطرة على قبائل بكيل ومشاكلها الكثيرة . فكان الإيقاع بالقاضي الأكوع بطريقة تَخبَّث المنصور في إخراجها .

ففي الثالث من رمضان سنة ١١٩٣ هـ /يوليو١٧٧٩ م انتقل المنصور من بئر العزب إلى قصر صنعاء ، وكان يبيت في نفسه الوقيعة بوزير أبيه القاضي الأكوع ، لكنه أظهر له من الإجلال الكثير لعدة أيام حتى كان يوم الجمعة أرسل صباحها « بمركوب عظيم من مراكيبه ، ولما قضى صلاة الجمعة أمر بأن يركب على فرس أعظم منه ، حتى عجب الناس وتحدثوا بأنه قد غلب عليه !. وفي صبيحة السبت نكل به ! وطلب آل الأكوع كلهم ومن يتصل بهم وأعوانهم وأودع الجميع السجن ، وقبض جميع ما معهم من الأشياء الظاهرة وألزم الأمير سرور أن يبقي عليهم لتخليصهم وجعل له في كل يوم خمسين قرشاً ، وقبض جميع الخيل والدواب ، وعيّن على الوزير ستين ألف قرش ، وعلى سائر بني الأكوع أربعين ألفاً وصادرهم الأمير سرور جميعاً ، واستقروا بالحبس نحواً من شهرين وأخرجوا ..»[1] .

وكان ممن سجنهم المنصور أخ جليل للقاضي الأكوع لم يكن له علاقة بالدولة وشؤونها بل كان منصرفاً للعلم والتدريس ، هو عبد الرحمن بن حسن الأكوع ، شيخ الإمام الشوكاني وأترابه . وإمعاناً من المنصور في طغيانه فقد قام بحبس جماعة خيرة ظفر بهم من تلاميذ عبد الرحمن وأصحابه الذين « سودوا مكتوباً إلى الإمام يستشفعون له ويعتذرون أن ماله ذنب ، ولم يخرج واحداً منهم إلاّ بضمان

---

(١) جحاف : ٧١

أن لا يعود مراجعاً وشاكياً لأحد منهم فضنوا وأطلقوا ! »[1] وبعد أن أخرج من السجن ضعف بصره وترك التدريس ولم يلبث أن ذهب بصره ومات سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م[2] .

أما الوزير الأكوع فبعد أن أطلق من السجن بعد عام طلّق السياسة والعمل مع الحكومة بعكس الحرابي وتوجه مع ابنه حسين إلى مكة لأداء فريضة الحج ـ بعد أن أذن له المنصور ـ وحين عاد انصرف للعلم واشتغل بعلم الزيج والنجوم وألف جدولاً في الشهور الرومية والعربية فجاء متقناً أثنى عليه وقرّظه أعلام عصره . واستمر في شأنه حتى توفي سنة ١٢٠٣ هـ /١٧٨٨ م أي لواذ عشر سنوات بعد محنته وقد ذكر له اهتمامه أيام المهدي بإخراج الغيول ، فقد أخرج لنفسه غيلاً في شعوب طريق غربي منبع غيل المهدي النافذ إلى الروضة وشاركه فيه علي بن مصطفى العجمي[3] ، وهو الغيل الذي عرفناه إلى عهد قريب من قيام الثورة

---

(١) جحاف : ٧١

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٢٣٥/١ : زبارة : نيل الوطر : ٢٦/٢ .

(٣) كان السيد علي بن مصطفى العجمي دمشقي الأصل ، مكي المسكن ، صنعاني الإقامة والوفاة ، وقد ذكر أنه أول من أخرج ألواح الزجاج إلى اليمن ، وأخرج للمهدي عباس أنواعاً من التحف وألواح الصيني القيشاني فبنى ديواناً في بستان المتوكل وصفّح جدرانه بذلك الصيني . وقد كان العجمي مهتماً بالزراعة والري فجلب إلى صنعاء أنواعاً من الغراس والبذور منها التوت الأبيض كما كان مشتغلاً بالتجارة والكسب وكان إمامي المذهب « فأظهر مذهب الإمامية على أشد خفية ، واستمال جماعة إليه ، وبثّ لهم من علوم الإمامية فرغبوا معه فيه »

أما الغيل الذي أشرنا إلى مشاركته القاضي الأكوع فيه فكان يسمى بالسد ومنبعه شرقي شعوب ، وقد شرى نصفه من ملاكه بيت أبي طالب وبعد استخراجه وإصلاح قنواته أوقف حصته على نفسه أولاً ثم على أولاده من بعده وإذا انقرضوا بعده من اليمن والحرمين ودمشق فوقفه على مصالح الجامع الكبير بصنعاء . وبعد نحو ثلاثة قرون ذكر المؤرخ زبارة أن من ورثته المعاصرين الآن بصنعاء ـ عن طريق بناته ـ بعض السادة من « بيت الناشري » والسيد أحمد بن ناصر بن إسحاق . وقد توفي السيد علي العجمي في ربيع الآخر ١١٩٦ هـ/فبراير ١٧٨٢ م (جحاف ١١٨ زبارة : نشر العرف ٣٠٢/٢ ـ ٣٠٤) .

باسم غيل مصطفى ، كما أخرج غيلاً آخر جنوب صنعاء . وعرف له أيضاً عمل الخير وتوزيع الصدقات الكثيرة ، وكان « لا يضع الحسنة إلاَّ وقد حصل الإجماع من الناس عليها وله « الماجل » الذي يستقي منه السّفر « بمسعود الكَول » ، بسنحان جنوب صنعاء وأنفق عليه مالاً جزيلاً »[1] .



جـ) الفقيه علي بن حسين الجرافي

والحالة الأخيرة فيما نحن بصدده ، كانت مع الوزير الفقيه علي بن حسين الجرافي الذي كان مسؤولاً عن الأموال ومخازن الحبوب في بلاد ذِمَار و يَرِيْم واليمن الأسفل . وكان أول عهد له بالعمل مع المهدي عباس سنة ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ ، ، فأظهر كفاية وكمالاً واستمر في عمله معه محاطاً بإعجاب وزير المهدي أحمد النهمي حتى حدث بينه وبين المهدي جفوة فرفع مسؤوليته عن ذَمَار ويَرِيم مع حب الناس وميلهم إليه فيهما ، وكان له خلافات مع بعض المسؤولين ومنهم القاضي أحمد بن محمد قاطن (ت ١١٩٩ هـ / ١٧٨٥ م) الذي ما انفك يضعف أمر الجرافي عند المهدي حتى رفع يده عن جِبْلَة والمَخَادِر وحُبَيْشٍ وغيرها[2] وبعد وفاة المهدي استمر الجرافي مع المنصور فلقي منه عنتاً وصادره عدة مرات كان آخرها سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م حين « أرسل سعيد بن علي القَرَوَاني[3] لقبض أمواله التي باليمن الأسفل واستصفاها الإمام لنفسه !، وآل أمره آخراً إلى

---

(١) جحاف : ١٧١ ـ ١٧٢ و ١٢٤

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١٦٤/١ : جحاف : ٢٥٣

(٣) كان الفقيه سعيد بن علي القرواني (١١٤١ ـ ١٢٠٤ هـ/١٧٢٩ ـ ١٧٨٩ م) شاعراً أديباً ، وكان من المقربين لوزير المهدي عباس الفقيه أحمد النهمي ـ انظره فيما سبق ص : ٣١ ـ وبسببه اتصل به وعمل معه ومع ابنه المنصور (جحاف : ١٧٧ ـ ١٨١ : الشوكاني : **البدر** ٢٦٣/١ : زبارة : **نيل** ٦/٢ ـ ٨)

تجنب أمر الدولة ، وعرضت عليه الأعمال من بعد فلم يرضها » حتى مات سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م[١] .

☆ ☆ ☆

٦ - وزراء المنصور من الأصدقاء والمشايخ

كان من بين وزراء المنصور الجدد ، وزيران ربطت الصداقة والعلاقات الشخصية بينه وبينهما أكثر من غيرهما وعزز ذلك العمل الرسمي . ونحن إذ نتحدث باختصار عنهما في هذا الفصل فليس ذلك حتى تكتمل لنا صورة الجهاز الإداري للمنصور وسلوكه في التعامل معه فحسب ، بل لمعرفة أي نوع من الرجال كان يختارهم للتعامل معه وما هي معارفهم وأصولهم الاجتماعية ، وبالتالي مواقفهم من الأحداث وما كان يدور حولهم ومسؤولياتهم في ذلك .

آ) محمد بن أحمد خليل (١١٦٠ - ١٢٢٠ هـ / ١٧٤٧ - ١٨٠٥ م)

أما الأول فهو محمد بن أحمد خليل الهمداني الذي كان شيخاً لهمدان . وكان من القليلين جداً من مشايخ القبائل الذين نالوا قسطاً لابأس به من المعرفة والأدب ونال منصباً وزارياً في الدولة . لكن هذا لا يعني بالتأكيد أنه لم يكن هنالك مشايخ آخرون عملوا مع الدولة بعيداً عن مناصبهم القبلية التقليدية . فقد عمل بعضهم موظفين أو قادة عسكريين في فترات مختلفة من هذه الحقبة وبعدها أمثال البليلي من بني الحارث والضلعي من عيال سريح و شريان من ذي غيلان و الشقاقي من الحيمة وغيرهم من المشايخ . وهم على كل حال لم ينسلخوا تماماً من قبائلهم أو أصولهم كما أنهم وأمثالهم كانوا يختلفون عما كان عليه الشيخ خليل ؛ الذي

---

(١) جحاف : ٢٥٤ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ١٣١/٢ وقد وهم الأخير - رحمه الله - في نقله تاريخ وفاته فذكر أنه سنة ١٢٠٦ هـ .

كان أديباً ، شاعراً ، سياسياً .[1] وكان على علاقة وطيدة مع المنصور قبل ولايته فقد « جالسه وتردد إليه ، فلما ولي الخلافة قرّبه ثم جعله أحد وزرائه في سنة ١١٩٤ هـ [١٧٨٠ م] أو في التي بعدها ، إليه [مسؤولية] بعض البلاد الإمامية والأجناد من حاشد وبكيل وغيرهم »[2] ، كما حل أيضاً محل القاضي حسن الحسوسة في وظيفة وساطة الباب التي كانت تشبه وظيفة الحاجب في بلاط الخلفاء في صدر الإسلام[3] . وقد وصف خليل بأنه إنسان كامل ، كثير المطالعة ، عارف بالأدب ، حسن الخط » ، وكان « حسن الشكل جداً ، متأنقاً في جميع أحواله ، ضخم الرئاسة ، كثير الحشم والأتباع ، وكان له أيام وزارته دار بالروضة ، ودار بوادي ضهر ودار ببئر العزب ودار بصنعاء »[4] .

استمر خليل في أداء مهامه بنجاح ستة عشر عاماً ، وكان من واجباته تسلم الأموال المخصصة لقبائل بكيل من الدولة ، فاستخانهُ الوزير حسن بن عثمان العلفي الأموي الذي كان مقرباً من المنصور ويشبه كبير الوزراء وسعى في سجنه ومصادرة أملاكه ، فنكبه المنصور في شعبان ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م واستأصل غالب أملاكه ودوره ولم يبق له إلاّ دار في صنعاء ولبث في السجن مدة ثم أطلق فلزم بيته ، « ولم يتردد إلى الأكابر كما يفعله كثير من أرباب الدولة بعد زوال دولتهم ، بل لا يوجد في غير بيته » كما تحدث عنه الشوكاني الذي كان له به علاقات ومراسلات أدبية وشعرية[5] واستمرت هكذا حاله حتى توفي عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م[6] .

☆ ☆ ☆

(١) انظر : **ديوان الشوكاني** بتحقيقنا ص : ٨٠

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** ١٢٥/٢

(٣) جحاف : ٧٨

(٤) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١٢٦/٢ : زبارة : **نيل الوطر** : ٢٢٠/٢

(٥) الشوكاني : البدر ١٢٥/٢ ، ديوانه : ٨٠

(٦) نفسه ١٢٦/٢ : وجحاف : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ و ٤٠٦

ب) أحمد بن إسماعيل فايع (ت ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م)

كان السيد أحمد فايع هو الوزير الآخر الذي تربطه بالمنصور صداقة شخصية ولد ونشأ وتعلم بصنعاء ، وجحاف في ترجمته له يُلح - كعادته فيمن يترجم لهم - بأنه هاشمي أصله من الحجاز[1] ، كما يكرر - على سبيل المثال - إضافة (الأموي) لمن يرد ذكرهم من آل العلفي ، ناسباً إياهم إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ، ولم يكن الأمر عند جحّاف المؤرخ والفقيه مجرد إشارة عابرة أو نقل تاريخي تقليدي عن أصول بعض معاصريه لمن يترجم لهم ، بل هو ميل مع هوى سياسي وربما تعصب عنصري ، لاندري إذا كان آخرون يشاركونه الرأي فيه ، ففي ترجمته للقاضي العلامة المؤرخ ، الأديب علي بن قاسم حنش (ت١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م) تلح عليه الفكرة فيذكر أن السيد العالم الوقور يوسف بن إبراهيم الأمير (١٢٤٤ هـ /١٨١٨ م) - حفيد العلامة ابن الأمير - سأل حنشا « عن نسب العلفيين - وزراء الإمام - أله صحة أنهم من آلِ أمية ؛ فسكت طويلاً ثم قال : لاأعلم في الأنساب إلاّ ماقال الله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسّ مِنْهُم مِن أَحَدٍ أَو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم / ٩٨] ، قال : فالآن لاأحس من الأموية والعباسية ، وبني بويه وبني أيوب ... وبني الصليحي وبني طاهر بأحد ولا أسمع لهم ركزاً ، فلا تصدق بقاء الأنساب مع مرور القرون !، فما أخبر الله بإهلاكنا إلاّ للاعتبار ، وأن من بقي في هذه الأمة كمن سار ، وكان النبي ﷺ يُنسب إلى معد بن عدنان ثم يقول « كذب النسّابون » قال الله تعالى ﴿ وقُروناً بَيْن ذَلِكَ كثيراً ﴾ [الفرقان / ٣٨] » .

ولكن جحافاً لا يقتنع بهذا الرد المتزن فيضيف : « قلت : ولعل هذه في غير

---

(١) نفسه ١٢٦/٢ : وجحاف : ٢٥٩ - ٢٦٠ و ٤٠٦

العلوية لما ورد « كُلّ سَبَبٍ ونَسَبٍ مُنْقَطعٌ إلاّ سَبَبِيَ ونَسَبي »[1] ، وإلاّ فأي معنىً لكل نسب محكوم عليه بالانقطاع ؟! »[2] .

وفي العودة إلى الوزير « فايع » وأصله نجد جحافاً ـ أيضاً ـ يذكر في ترجمته لعمه محسن بن محمد فايع الذي كان كثير الخير والصلاح (ت ١١٩٤ هـ / ١٧٨٠ م) أن والد هذا (جد الوزير) قد جاء إلى اليمن من الحجاز ـ مما يلي ديار نجد ـ لأول مرة طالباً للصدقات له ولأهله ، وارتقت به الحال فكان يشتري الخيل للمهدي محمد بن أحمد صاحب المواهب (ت ١١٣٠ هـ /١٧١٨ م) فأحبه وأبقاه لديه ثم عمل من بعده للمتوكل قاسم بن حسين (ت ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وكسب مالاً كثيراً ، وكان له أولاد منهم محسن المتقدم وإسماعيل ـ والد صاحب المنصور ـ الذي عمل وزيراً للمهدي عباس حتى توفي سنة ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م[3] .

وكيفما كان أصل فايع الذي اهتم به جحاف ، فما يهمنا هو شخصه وسلوكه ودوره في حكم المنصور الذي كان صديقاً له من قبل توليه الحكم ، وكان والده وزيراً للمهدي ولوالده ، وخلّف ثروة طيبة كما كان شاعراً له ديوان شعر صغير[4] وورث عنه ابنه أحمد الثروة وحب الأدب ، فلقد كان شاعراً مبدعاً وخاصة شعره الحميني اليمني الرقيق ، كما كان على درجة من الكرم واللطف . وقد استوزره المنصور علي فكان مسؤولاً عن الحديدة ثم على الحيمة و حراز ثم على معظم اليمن الأسفل . وكان فايع أقرب الوزراء إلى المنصور وأكثرهم صداقة له ، فلقد كان

---

(١) الحديث في « مسند أحمد بن حنبل » ٣٢٣/٤ ، ٣٣٢

(٢) جحاف : ٣٦٦

(٣) جحاف : ١٠٤ ؛ وانظر : زبارة : « **نيل الحسنيين** » ص ١٦٨ فذكر أن آل فايع جاؤوا من « صعدة » وليس من الحجاز ، لكنه في **نشر العرف** ٤٠٦/١ نقل ماذكرناه عن جحاف

(٤) زبارة :**نشر** : ٤٠٥/١

يأنس إليه ويقوم بزيارته في دوره بل ويقيم لديه مع أهله لعدة أيام حيث كان له دورٌ في الروضة و حدّة و بئر العزب و صنعاء .

ومن ضيافات فايع المشهورة لصديقه الإمام المنصور دعوته له في شهر ذي القعدة سنة ١٢١٧ هـ / مارس ١٨٠٢ م إلى بيته المعروف في حارة صلاح الدين شرقي صنعاء ، فبقي مع عائلته لديه وفي ضيافته ستة عشر يوماً ، وتحول بعد ذلك إلى بئر العزب ، ولابد أن الإمام كان خلال ذلك محتجباً عن الناس مستمتعاً بكرم مضيفه ولطف معاشرته ، ولأنه كان يحب مظاهر العظمة كحبه للراحة والرفاه ، فقد ضربت المدافع لخروجه من صنعاء إلى بئر العزب !، وأكثر من ذلك فقد سجل أشهر شعراء العصر القاضي عبد الرحمن بن يحيى الآنسي (١١٦٨ ـ ١٢٥٠ هـ / ١٧٥٥ ـ ١٨٣٤ م) هذه المناسبة في إحدى قصائده التي وإن كانت كلها مدحاً فمطلعها يشير إلى الاستغراب من أن تطول الضيافة كل هذه الأيام ، ولهذا فالشاعر يسوغ له ذلك بقوله :

لِكُلِ مَحَلٍ بالإمامِ زِيادَةٌ ... كما زَادَ حَيْثُ الغَيْثُ زَرْعٌ وأَنْهارُ

وكان الآنسي قوي الصلة بفايع وله فيه مدائح[1] .

كان لهذه العلاقات الخاصة بين المنصور وفايع أثرها في استمرار فايع في منصبه وعدم استماع المنصور إلى أعداء الرجل أو منتقدي إدارته ، ومع ذلك فقد اضطر المنصور عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨٢ م إلى الحد من مسؤوليته عن الحديدة لتجاوزه الإنفاق من دخلها ، كما نزع منه في عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م بلاد حراز التي جعلها بنظر وزيره حسن بن عثمان العلفي ، لكنه استمر وزيراً له مكانته الخاصة عند الإمام ومسؤولاً عن معظم اليمن الأسفل وعاش مرفهاً كثير الإنفاق

---

(١) جحاف : ٣٢٦ ؛ زبارة : **نيل الوطر** : ١ / ٧١ ـ ٧٤ ؛ وانظر ديوان الآنسي « **ترجيع الأطيار** » .

حتى توفي سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م ، قبل وفاة صديقه المنصور بنحو خمس سنوات . ولمّا مات « سقط أهله ولاقوا محناً وشدة » كما ذكر جحاف[١] .

☆ ☆ ☆

٧ ـ عقاب المنصور للأمير عنبر

ذكرنا كيف كان تعامل المنصور مع بعض وزرائه ممن تعرضوا لغضبه وعقابه . ولقد كان عقابه لموظفيه من الأمراء العبيد أشد قسوة وبعداً عن المعاملة الإنسانية خاصة إذا عرفنا أن العقاب لم يكن لجريمة يعاقب عليها بالشرع الذي يفترض أن الإمام هو حاميه ، بل لطمع في مال هو في الأساس مشكوك في شرعية أخذه من الرعايا . ففي الشهر الذي صادر فيه المنصور أملاك الجرافي في اليمن الأسفل قام في الرابع عشر من شعبان سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م بالتنكيل بالأمير عنبر المهدي وأمر بإحضاره « تحت طاقته بدار الفتوح وجرّده من ثيابه وأمر بضربه وإسكانه ملّة الحمام[٢] مبالغاً في تعزيره فبقي بها شهراً ! »[٣] أمّا السبب في ذلك فلا يكاد يصدق . فقد ذكر جحاف « أن الإمام طلب منه مشاطرته فيما أخذه من أهل العُدين فأبى ! وما زال به فلم يفعل ! ثم أخرجه من الملّة وأودعه السجن »[٣] .

وكيفما كان أمر عقاب عنبر فقد بات واضحاً أن المنصور أخذ يهتبل أية فرصة تسنح للعقاب بمصادرة الأموال التي كان يستغلها لنفسه[٣] بتوسعه في عمارة

---

(١) جحاف : ٣٢٩ ، ٣٦٨

(٢) ملّة الحمام : مخزن مكتوم يقع تحت الحمام ويخزن فيه وقوده الذي كان إلى وقت قريب من القاذورات والفضلات التي تجمع من بيوت المدينة .

(٣) جحاف : ١٢٤

الدور الجميلة التي كان شغوفاً ببنائها وإقامة حفلات الأعراس التي استرسل بعض الوقت في تكرار زيجاته فيها .

☆ ☆ ☆

٨ ـ القصور والأعراس

بالرغم من أن المنصور كان يملك أكثر من دار في صنعاء وضاحيتها الغربية بئر العزب كدار الفتوح ودار البهمة فقد بدأ في عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨٢ م بتأسيس دار الإسعاد بحي الطواشي الذي اشتهر اسمها به حيث بنيت غربي جامع الطواشي وجنوبي جامع ازدمر المعروف حتى الآن . وقد اشترى المنصور البيوت المجاورة لموضع دار الإسعاد فهدمها وبنى مكانها داره هذه وتم بناؤها سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م أي بعد قرابة خمس سنوات[١] ، وذكر المؤرخ زبارة نقلاً « عمّن عرف هذه الدار أنه كان بها من المنازل للسكنى ثلاث مئة وستون منزلاً ... ولم تمض على هذه الدار إلا دون مئة سنة حتى هدمت جميعها ، وهكذا معظم الدور الفخمة التي بناها [المنصور] في صنعاء وبئر العزب والروضة[٢] » وربما يكون هنالك بعض المبالغة في اتساع هذه الدار وكبرها ، إلا أن المؤكد أن رأي الناس كان سيئاً في إسراف المنصور في البناء الذي لم يكن قائماً على أسس صحيحة من ماله الحلال ، ولهذا فقد لحقت اللعنة هذه الدار ـ وبالتالي صاحبها ـ حتى زمن قريب من زمننا هذا ، فلقد كنا نردد ـ ونحن أطفال ـ عقب كل لعبة فاشلة سجعة تقول : « مَامِنّها شي ، دَار الطّواشي !! » .

وفي مطلع ذلك العام الذي بدأ فيه المنصور ينشغل ببناء الدار هذه تزوج من جديد بابنة الفقيه عبد الله بن حسن الأكوع عامله على المخا فأقام في بستان

(١) جحاف : ١٠٥

(٢) زبارة : نيل الوطر : ٢ / ١٤٢

السلطان احتفالاً كبيراً بالمناسبة وأولم وليمة فاخرة دعا إليها الأكابر والرؤساء بالإضافة إلى بعض إخوته وأفراد أسرته . وعندما أنزلت زوجته في المساء إلى بستان المتوكل ، بأسفل صنعاء خرج من الاحتفال « وأمر بإلهاب المشاعل ، فأوقد بين يديه نحو ثلاث مئة منها ، وأمر بإيقاد الشّماع[1] ، وخرج في عالم الخيل والرَّجْل ، وحمل جنده الشماع[1] ، واستدعى أرباب دولته في اليوم الثاني ، واستقر هنالك خمسة عشر يوماً . ثم نهض وحمل أثقاله إلى داره ببئر العزب دار البهمة ، وأخرج زوجته الشريفة بنت عبد الرحمن ، وأمر بإخراج زوجته بنت الأكوع »[2] .

لم يطل العمر بزوجة المنصور ابنة الأكوع فلقد ماتت في منتصف شهر رجب من العام الذي فرغ منه من بناء دار الطواشي ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م فبنى في ربيع العام التالي بابنة السيد الهاشمي علي بن أحمد زبيبة ، وفي هذه المرة كان الإسراف في الاحتفال أكثر من سابقه ، فقد دعا « إلى سماطه الجند وأعيان صنعاء وقعد اليوم الأول ببيت أخيه قاسم إلى نصف الليل ، وخرج في زي عظيم ، وأوقد من الشموع والمشاعل بين يديه شيء كثير ، ونصب خياماً مضروباً أربعين نهاراً ! »[3] .

لكنّ الغريب في الأمر أن هذه الاحتفالات لم تكد تنتهي حتى عزّز المنصور بإعراس آخر فتزوج بابنة الشيخ محسن بن زيد بن راجح الخولاني ، ودعا لهذه المناسبة مشايخ حاشد وبكيل وأعيانها . ولربما كان هذا الزواج ذا طابع سياسي

---

(١) يبدو أنه جاء بهذا الجمع على دارجة تلك الأيام ويريد بها الشموع وفي لسان العرب وغيره جمع الشمعة شموع : والشماع « الطرب والضحك والمزاح واللعب ... » لسان ٢ / ٣٦٠ ، تاج العروس ٥ / ٤٠٣ (ط . بولاق)

(٢) جحاف : ١٠٥

(٣) نفسه : ١٥١

إلا أنه لم يستمر فسرعان ما سرح ابنة الخولاني وتزوج في العـام نفســه (١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م) بابنة خولاني آخر من أهل جبلة ، وكان احتفاله بدار ابنـه أحمـد في بئر العزب ثم سار منها في منتصف الليل إلى داره بالصافية[١] .

وانشغل المنصور بقية عامـه هـذا بشراء بعض البيوت المجاورة لـدار الفتوح وهدمها موسعاً الطريق الواقعة شرقي مسجد داود[١] .

لم تقتصر أعمال الهدم والبناء وتكرار الزواج والإسراف في الإنفاق على الإمـام المنصور فقد كان ابنه الأكبر ذو الشأن يقتفي خطى والـده وينـافسـه ويزاحمـه . ففي عـام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م فرغ أحمـد من بنـاء داره التي سمّاهـا دار الـذهب وانتقل إليها من داره في بئر العزب وأقام بالمناسبة وليمة كبيرة دعا إليها والده وعمّه محمداً وأتباعهما ، ومكث لديه أبوه ثلاثة أيام ، ولا ندري لماذا لم يدع بقية أعمامه . كما تزوج في العام نفسه بـابنـة محمد بن حسن الأهجري ، وكان زواجـه هـذا بعـد زواج سـابق قبيـل أقـل من عـام فقـد تـزوج بـابنـة القـاضي علي بن يحيى حنش (١١٥٥ ـ ١٢٢٤ هـ / ١٧٤٢ ـ ١٨٠٩ م) ، وكان الاحتفـــال في كـلا الـزيجتين كبيراً[٢] .

☆ ☆ ☆

٩ ـ نظام القضاء والإدارة والمال

كان الإمام حاكماً مطلقاً[٣] فهو الذي يعين ويعزل الوزراء والقضـاة ، وهو في ذلك وفي غيره من الشؤون حرّ التصرف إذ إن « الغالب على رأيـه الإصـابـة »[٣] .

---

(١) جحاف : ١٥٢

(٢) نفسـه : ١٤٨ و ١٥١

(٣) شروط الإمامة في « المذهب الزيدي » أربعة عشر شرطاً ! منها أن يكون صاحبهـا : مكلفـاً ، ذكراً ، حراً ، علوياً ، فاطمياً (ولو كان عتيقـاً) ، سليم الحواس والأطراف ، مجتهـداً عـادلاً ، كريماً .

ومع ذلـك فـإن قـوة الإمـام وسلطـانـه على الأمـور والأشخـاص كان يعتمـد على مقومات شخصيته والظروف التي جاءت به إلى الحكم . وكانت القاعدة ألا يتدخل في شؤون القضاء والأحكام الشرعية التي هو حاميها فتلك مسؤولية كبير قضاته أو قاضي القضاة . وكان القاضي يحيى السحولي ـ كما قدمنا ـ رأس القضاء من أول يوم لحكم المنصور حتى تـوفي سنـة ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م فخلفـه القــاضي محمــد بن علي الشوكاني حتى آخر حياته فقضى نحو ثلاثة وأربعين عاماً ، فأوجـد عـامل الاستمرار هـذا نوعـاً من الاستقرار القضـائي الفوقي ، بيـد أن فسـاد الإدارة والمحسـوبيـة من ناحية ، ونمو طبقة طفيلية من المتفقهين ـ رغم ازدهار الفقه وكثرة الفقهـاء ـ جعل قاضي القضاة نفسه يضج سـاخطـاً على أشخـاص القضـاة منتقـداً أوضـاع القضـاء ـ وبخاصة خارج العاصمة ـ وهذا يذكرنا بمـا سبق أن ذكرنـاه للمؤرخ الرافعي عن أوضاع القضاء في مصر في الفترة الزمنيـة نفسهـا تقريبـاً . وسوف ؛ ،، فيما يلي أي صورة مزرية ومحزنة يعرضها قاضي القضاة الإمام الشوكاني في حديثه عن أوضـاع القضاء في عصر المنصور وبعد عصره فعانى اليمنيون من ويلات ذلـك الكثير . ولا نستطيع أن نختصر أو نقتبس بعض ما كتبه الشوكاني في هذا الصدد لأن ذلـك قـد يخل بالصورة المرسومة بكل تفاصيلها وأبعـادهـا ، فلعل من المفيـد أن نورد النص كاملاً ولو كان فيه بعض الإطالة .

قال الشوكاني في معرض حديثه عن أسباب أدواء عصره وسبل علاجها :

« ... وأما القاضي فهو عبارة عن رجل جاهل للشرع ، إما جهلاً بسيطاً أو جهلاً مركباً ، وأن يشتغل بشيء من الفقه فغاية مـا يعرفـه منه وكيل الخصومة وممارس الحضور في مواقف الخصومات من مسـائل تدور في الدعوى والإجابة ، وطلب اليمين والبيّنـة ، وليس لـه في العلم غير هـذا لا يعرف حقـاً ولا بـاطـلاً ، ولا معقـولاً ، ولا منقـولاً ، ولا دليلاً ، ولا مدلولاً ، ولا يعقل شيئـاً من أمور الشرع فضلاً عن غيرهـا

من أمور العقل ، ولكنه اشتاق إلى أن يدعى قاضياً ، ويشتهر اسمه في الناس ويرتفع بين معارضيه وأهله فعمد إلى الثياب الحميدة فلبسها وجعل على رأسه عمامة كالبرج ! وأطال ذيل كمه حتى صار كالخرج ! ولزم السكينة والوقار ، واستكثر من قول : « نعم ! » و « يعني ! » ، وجعل له سبحة طويلة يديرها في يده ، ثم جمع له من الحطام قدراً واسعاً وذهب به يدور في الأبواب ، ويتردد في السكك ، واستعان بالشفعاء بعد أن أرشاهم ببعض من ذلك المال ليشهروا له هذا المنصب الجليل الذي هو بعد النبوة في مكان يترجم عن كتاب الله وسنة رسوله الأمين ، ثم يذهب هذا الجاهل البائس إلى قطر من الأقطار الوسيعة فيأتي إليه أهل الخصومات أفواجاً ليحكم بينهم بحكم الطاغوت ، وهو في الصورة حكم الشرع ، لأن هذا القاضي المخذول لا يعرف من الشرع إلا اسمه ، ولا يدري من الشرع بشيء ، بل يجهل حدّه ورسمه ، فتنتشر عنه في ذلك القطر الواسع من الطواغيت ما يبكي عيون الإسلام ، وتتصاعد عنده زفرات الأعلام ! وكيف يهتدي إلى فصل الحكومات بالحق جاهل اشترى هذا المنصب كما يشترى ما يباع في الأسواق من المتاع ؟! فولاية مثل هذا المخذول ، وتحكمه في الشريعة المطهرة هي خيانة على الله وعلى رسوله وعلى كتابه ، وعلى العلم وأهله ، وعلى الدين والدنيا . ولا فرق بين من بعث مثله ليحكم لجهله ، وبين من بعث رجلاً من أهل الطاغوت العارفين بالمسالك الطاغوتية كابن فرج وقصيلة والغزي ونحوهم من حكام الطاغوت ، بل بعث هذا أعظم عند الله ذنباً وأشد معصية ، لأنه كان في الصورة قاضياً من قضاة الشرع الشريف وحاكماً من حكامه ، مُولى ممن إليه الولاية العامة ، فكان ذلك تغريراً على الناس ومخادعة لهم ! فانجذبوا إليه ليحكم بينهم بشرع الله ، فحكم بينهم بالطاغوت ، فقبلوه بناءً منهم

أنه حكم الشرع ! بخلاف بعث حاكم من حكام الطاغوت فإنه وإن كان من المعصية والجرأة على الله بالمكان الذي لا يخفى ، لكنه لا تغرير في بعثه على العباد ، ولا مخادعة لهم ، وربما يجتنبه من يحتسب إذا لم يجتنبوه كلهم جميعاً وينفروا عنه ، ويأبوا منه . وكفى بهذا عبرة وموعظة يقشعر منها من في قلبه [مثقال خردلة من إيمان ، وترجف منه قلوب][1] قوم يعقلون ﴿ وذكّرْ فإنَّ الذّكْرَى تَنْفَعُ المؤْمِنين ﴾[2] .

هذا حال هذا القاضي الذي هو من قضاة النار ومن عصاة الملك الجبّار فيما يتولاه من الخصومات »[3] .

ولكن ما هي مهمة القاضي وواجبه وكيف ينهض قضاة تلك الأيام بها ؟ يستطرد الإمام الشوكاني قائلاً :

« وأما سائر ما هو موكول إلى قضاة الشرع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم ، وإرشاد الضالّ ، وتعليم الجاهل ، والدفع عن الرعية من ظلم من يظلمها ، والمكاتبة لإمام المسلمين بما يحدث في القطر الذي هو فيه مما يخالف الشريعة المطهرة ، فلا يقدر هذا القاضي الشقي على شيء من هذه الأمور ، سواء كان حقيراً أم كبيراً ، بل غاية أمره ونهاية حاله أن يبقى في ذلك القطر يشاهد المظالم بعينه ، وقد ينفذها بقلمه ، ويعين عليها بفمه ، وهو تارك لما أوجب الله عليه وعلى أمثاله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو ضال مضل ، شيطان مريد .... بل هو ما دام في هذا

---

(١) سقط في الأصل أضفناه من استدراكات صاحب « الرسائل المنيرية » : ٢ / ١٠

(٢) الذاريات : ٥١

(٣) الدواء العاجل (المنيرية) : ٢ / ١٠

المنصب لا هِمّةَ ولا مطلب لـه إلا جمع الحطـام من الخصـوم ؛ تـارة بالرشوة ، وتارة بالهدية ، وتارة بما هو شبيه بالتلصص ! ثم يدافع عن المنصب الذي هو فيه ببعض من هذا السحت الذي يجمعه ويتوسع في دنياه بالبعض الآخر ، فهذا أمر لا يقدر عليه الشيطان ولا يتمكن منه ولا يبلغ كيده لبني آدم إليـه ، وهـذا يكفي لمن كان لـه قلب أو ألْقَى السمع وهو شهيد »[١] .

وقد نتساءل بعد كل ماذكره الإمام الشوكاني كيف بـه يقبل رئـاسـة القضـاء ويستمر فيه إذا كانت تلك حاله ؟ غير أن الحقيقة هي أن وجود الشوكاني نفسه في ذلك المنصب كان عامل خير وسبباً في تحسين وجه القضاء بقدر ما كان متاحاً لمثله وفي ظروفه ، وقد وجـدنـاه يعمل على ذلـك ، وكثيراً مـا كان ينجح في تعيين من يثق بهم علماً وديناً في مناصب القضاء في منـاطق مختلفـة من أنحاء اليمن ، كما كان لوجوده في العاصمة وقربه من الإمـام أثر ذو خطر في قضـايـا كثيرة منهـا القضـاء نفسه ورفع المظالم وتخفيف الضرائب عن كاهل المواطنين إلى غير ذلك[٢] بالإضـافـة إلى أن كتابته تلك عن أوضاع القضاء ومثلها كثير كان من المحـاولات الإصلاحيـة التي كانت تنتشر ويطلع الناس عليها[٣] .

☆ ☆ ☆

أمـا إدارة الإمـام لشؤون مملكتـه التي كان حـاكمهـا المطلق فـإن صـلاحيـات الوزراء كانت تختلف من واحد إلى آخر ، وكان الوزراء الهامون يشرف كل واحـد منهم على منطقة محددة أو أكثر من منطقة فيتبعه عمّالها وشؤونها المحلية . فقد كان

(١) الشوكاني : **الدواء العاجل** : ١١/٢

(٢) انظر دراستنا عنه « **الشوكاني فقهه وفكره** »

(٣) انظر مقالنا « الشوكاني مصلحاً » **مجلة العربي** عدد ٣٠٠ شهر نوفمبر ١٩٨٣ م

الوزير فايع ـ على سبيل المثال ـ مسؤولاً أيام المنصور علي عن مناطق الحديـدة ، الحيـة وأحيـانـاً أضيف إليـه اليمن الأسفل ، وكان بعض الولاة أو العمال المتنفـذين يتجاوزون توجيهات وزرائهم ويتصلون مباشرة بالإمام . ويكشف لنـا جحـاف مثلاً من ذلك نستفيد منه أيضاً في معرفة مقدار إيرادات الحديـدة . فقـد ذكر أن سبب نزع بندر الحديدة من وزيره فايع عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨٢ م « أنه كان المقرر وصولـه من البنـدر في كل شهر ثلاثـة آلاف ريـال فقـط ، ومـا زاد عن ذلـك من الحـاصلات والحقـوق [الضرائب] يبقى مـدّخراً بـالبنـدر للنـوائب لأنها تحدث الحادثة فتسهل لها الأموال بوجود المدّخر في البندر ، وربما حدثت الحادثة للخليفة في غير تهامة ، فيطلب من تلك الأموال المدخرة بالبنـدر الأربعـة الآلاف إلى اثني عشر ألفاً . وهذه هي عادة الـدولـة القـاسميـة في البنـادر كبيت الفقيـه و اللحيـة و المخا و الحديدة ، فما زال [فـايع] يطلب من عـامل الحـديـدة الأمير رزق الله زيادة على المعتـاد ، فكتب ذلـك العـامل إلى « المنصور » بمـا يطلبـه الوزير من الزيادة فمنعه الخليفة عن التسليم ، وبالغ في حفظ العادة والقاعدة بادخار الزيادة على الثلاثة آلاف بالغة ما بلغت »[1] .

وبالإضافة إلى الوزراء المشرفين على مختلف المناطق كان هناك ناظر أو عامل الوقف وهو في مرتبـة الوزراء أو في الـدرجـة التي تليهم ، فـذلـك كان يعتمـد على شخص المعين وفي الغالب ما كان من كبار الفقهاء لما للأوقاف من أهميـة خـاصـة ، وقريب من هـذا الـوزير المسؤول عن العمارة والإنشـاءات ـ أينما كانت ـ وهـو منصب ما يشبه وزير الاشغال في أيامنا هذه وقد عرف بعض الوزراء بالاستقامـة والإخلاص والكفاية والأمانة ، كما اشتهر عن آخرين المحسوبية والفساد .

وكان بعض الوزراء يعينون ولاة لأهم المناطق ، وكانت المخا ـ أكبر ولايـة في

---

(١) جحاف ١٠٨ : وانظر زبارة : **نيل الوطر** : ٧٣/١

القطر اليمني -[1] لأنها كانت أكبر مصدر لدخل الدولة ، لهذا فقد شغل ولايتها رجال أكفاء أمثال القاضي علي بن صالح العمّاري « وبقي هناك نحو خمس سنين وشكر الناس ولايته وحسن تدبيره ، وهو مع ذلك مورد لأهل العلم والفضائل ويأخذ عن كل من رأى لديه علماً لا يعرفه ويستفيده في أسرع مدة ، ثم عاد من الحا إلى صنعاء وقد جمع دنيا عريضة »[2]

ومثل آخر عن بعض الولاة الأكفاء ممن عمل في تهامة ، وكيف كانت تصرفاتهم وعلاقاتهم بالوزير المباشر من ناحية والإمام نفسه من ناحية أخرى ، نجد السيد إبراهيم بن عبد الله الجرموزي[3] ممن عمل في إدارة المنصور علي . ففي عام ١١٩٢ هـ /١٧٧٨ م ولاّه الجبي وبلاد ريمة وأضاف إليها ولاية بيت الفقيه . وقد ساق لنا جحاف حادثة تبين مقدرة الجرموزي وبعد نظره . فقد ذكر أنه وصل ريمة في وقت شديد الجفاف والجدب ترك الناس بسببه أراضيهم وتفرقوا في الأغوار والأنجاد ، فاشترى ثلاث مئة بقرة للحراثة وفرّقها في جماعة من المزارعين وأقرضهم أموالاً وطعاماً فعادوا إلى أراضيهم بعد هجرها فزرعوها ، وكان قد كتب إلى الوزير المشرف السيد علي بن يحيي الشامي (ت ١١٩٧ هـ /١٧٨٣ م) أن يقرضه ثلاثة عشر ألف ريال مؤكداً أن الناس في الحاجة ولن تقوم لهم قائمة بدون

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٤٤٧/١

(٢) نفسه : وكان القاضي علي بن صالح العمّاري (١١٤٩ - ١٢١٣ هـ/١٧٣٦ - ١٧٩٨ م) عالماً ، أديباً بليغاً شاعراً . واسع المعرفة ، متعدد المواهب ، فقد كان متفرداً بعلم الهندسة والهيئة والفلك . استوزره المهدي عباس . ثم عمل مع ابنه المنصور علي فولاّه ريمة والحا ومناطق أخرى . وكان مهندساً معمارياً صمم للمنصور ولغيره كثيراً من البيوت والدور وكان مسؤولاً بعد ذلك عن عمارات المنصور ، وهو الذي بنى دار الحجر المشهورة إلى اليوم بوادي ظهر . (جحاف : ١٢٦ ، ٢٨٥ - ٢٩١ ؛ الشوكاني : **البدر** ٤٤٧/١ - ٤٥٦ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٦/٦ - ٣٩ ؛ الدكتور غانم :**شعر الغناء الصنعاني** ٢٧٣ و ٢٧٢ .

(٣) هو حفيد المؤرخ مطهر بن محمد بن أحمد الجرموزي (ت ١٠٧٧ هـ/١٦٦٧ م) الجامع لأسرة السادة بيت الجرموزي . ونسبهم إلى بني جرموز من قرى بني الحارث شمال صنعاء .

مساعدة الدولة ، فبادر الوزير بإرسال المساعدة التي منها شرى الأبقار وقدم المساعدات والقروض .

ومن المؤكد أن الناس تقبلوا ذلك بقبول حسن وتعاونوا مع الرجل الذي عمل من أجلهم ، فكثرت الخيرات وحسن حال الأرض والناس فلم يكد ينتهي ذلك العام ودخل العام التالي ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م حتى بعث الجرموزي إلى الوزير الشامي في صنعاء بثلاثة وسبعين ألف ريال[1] ، وتقديراً لحسن إدارة الجرموزي وسمعته الطيبة بين الناس فقد عين بعد ذلك في سنة ١١٩٦ هـ /١٧٨٢ م والياً على المخا فاستمر في عمله حتى عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م . وكان الوزير الشامي قد توفي في العام السابق وخلفه الفقيه حسن بن عثمان العلفي الذي بدأ نفوذه يظهر فقام بعزل الجرموزي عن المخا . ومن المفيد أن نعرف أنه بعد وصوله إلى صنعاء قدم كشف حساب ولايته على المخا فكان ذلك / ٣٨٠,٠٠٠ / ثلاث مئة ألف وثمانين ألف ريال أي بواقع قريب / ١٢٦,٠٠٠ / في العام . ولم ينس الجرموزي أن يكسب ثقة الإمام فيصبح مؤيداً له فقد « قدّم بين يديه نفائس التحف منها اثنا عشر فحلاً من الخيل عليها نسج الذهب ، وأرسل بمظلة للمنصور تحير الركب وهي المشهورة بالجرموزية !»[2] ولابد أن المنصور قد فرح بالهدايا الخاصة أكثر من فرحه بما حققه الجرموزي من دخل وأعمال إذ إننا لم نعد نعرف دوراً هاماً للرجل في إدارة المنصور بعد ذلك .



---

(١) جحاف : ٦٣

(٢) جحاف : ٦٢ ـ ٦٣ ، ٦٩ ،١١٨ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ : زبارة : **نيل الوطر** ١٦/١ ـ ١٧

الفصل الثالث

الاضطرابات الداخلية والأحداث الخارجية

١ ـ الاضطرابات في القبائل وحروبها مع أئمة صنعاء
٢ ـ بداية المتاعب
٣ ـ معركة « أم سرجين »
٤ ـ خروج ابن إسحاق على المنصور
٥ ـ تحالف ابن إسحاق مع قاضي برط العنسي
٦ ـ خروج القاضي العنسي ودوره في حكم المنصور
٧ ـ أبو حليقة وعصيانه
٨ ـ جيش الحملة
٩ ـ الشريف حمود والخطر الوهابي

« .. إن الظلم مخرب للعمران ، وإن عـائـدة الخراب في العمران على الـدولـة بـالفسـاد والانتقاض ... ووباله عائد على الدول ، ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب ـ كما هو المشهور ـ بل الظلم أعمّ من ذلك ، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه ؛ فجباة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصّاب الأملاك على العموم ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لذهاب الأموال من أهله » .

(ابن خلدون ، المقدمة : ٢ / ٩٦)

تو
هـ
نف
مؤ
و
ال
اخ
ال
ا
ي

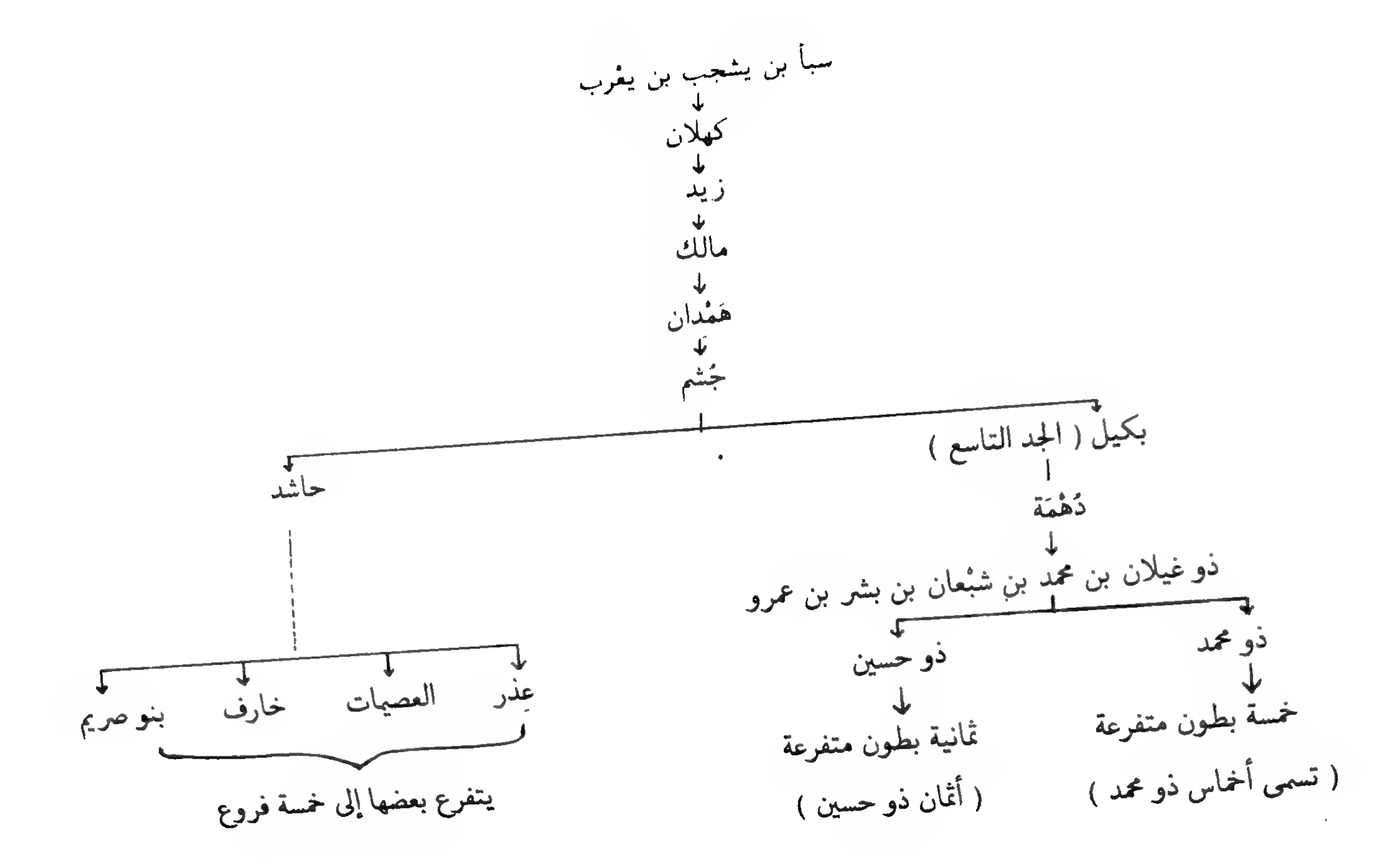
و
ال

الاضطرابات الداخلية والأحداث الخارجية

١ ـ الاضطرابات في القبائل وحروبها مع أئمة صنعاء

كانت مشكلة القبائل اليمنية الشمالية إحدى أعوص وأقدم المشاكل التي كانت تواجهها أية حكومة مركزية في صنعاء ، وذلك بما تثيره من عصيان ضدها أو هجوم على بعض المدن والمناطق القريبة أو البعيدة عن العاصمة التي لم تَسْلَم هي نفسها من الحصار أو النهب والقتل ، كما كان الاقتتال فيما بينها ، أو حمايتها أو مؤازرتها لخارج على الحاكم أو طامح في الحكم مجال صراع وقتال تسيل فيه الدماء وتخْرب الحواضر والقرى وتضطرب الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فتتأثر حياة الناس ويعانون من هول ذلك الأمرَّين . وكانت قبائل بكيل أكثر القبائل انخراطاً في هذا المجال ، ربما لبعد بعضها عن العاصمة ولتشكل تحالفها من أشد القبائل وأشهرها قوة وشدة في القتال فمن قبائلها « سفيان ، بلحارث (بني الحارث) ، بني حشيش ، عيال سريح ، خولان أرحب ، نِهْم ، جبل عيال يزيد ، ذو محمد ، ذو حسين وآخرون » .

وقد ذكرت لنا كتب الأنساب ومصادر التاريخ أن هذه القبائل من بكيل وأبناء عمومتهم حاشد ينتسبون إلى جد واحد هو همدان بن مالك بن زيد على النحو التالي :


سبأ بن يشجب بن يعرب
كهلان
زيد
مالك
هَمْدان
جُشم
بكيل (الجد التاسع)
دُهْمَة
ذو غيلان بن محمد بن شبْعان بن بشر بن عمرو
ذو محمد
خمسة بطون متفرعة
(تسمى أخماس ذو محمد)
ذو حسين
ثمانية بطون متفرعة
(أثمان ذو حسين)
حاشد
عِذر
العصيمات
خارف
بنو صريم
يتفرع بعضها إلى خمسة فروع

وبالرغم من أن اسم هَمدان جد بكيل و حاشد ، كان يمكن أن يضم الفرعين الكبيرين ويتحالفا باسم همدان إلاّ أن تعدد البطون وتشابك المصالح القبلية واختلافها جعل بعضها ينتقل في تحالفه من بكيل إلى حاشد أو العكس ، وبقي اسم همدان يطلق على قبيلة صغيرة هي الموجودة الآن على بعد بضعة أميال شمال غرب صنعاء ، وعدادها في تحالفات حاشد الحالية[1] ، التي من تحالفاتها أيضاً سنحان وبلاد الروس .

تسكن قبائل ذي محمد و ذي حسين حيث كان أجدادهم في جبل برط في أقصى الشمال ، وقد وصف الهمداني (٢٨٠ ـ ٣٤٤ هـ / ٨٠٣ ـ ٩٥٥ م) بأن « أهله أنْجَد هَمْدان وحُماة العَورة ، ومَنَعَة الجار ، ويُسَمَّوْنَ قُريش هَمْدان » وأضاف أن « القتل بلغ بين دُهْمة وأختها وائلة ابني شاكر في عصرنا هذا ثلاث مئة رجل من الجميع الخيّر فالخيّر في جار كان لوائلة قتلته دهمة ، وهم على أشد ما كانوا عليه .. »[2] .

وبعد لواذ تسعة قرون من عصر الهمداني جاء الإمام الشوكاني ليصف تلك القبائل نفسها ـ التي عانى منها عصره ـ بأنهم « جمرة عرب اليمن إذْ ذاك وأهل الشوكة منهم ، ومن لا يقوم لهم غيرهم من سائر القبائل »[3] . وفي مصدر آخر يعتبر الشوكاني هذه القبائل خارجة على سلطان الدولة ، وهي كغيرها جاهلة بأمور الدين ولا يوجد بينها من يحسن القراءة والكتابة ، فهم :

« .. كلهم إلاّ النادر الشاذ لا يحسنون الصلاة ، ولا يعرفون ما لا تصلح

---

(١) انظر : الهمداني : **الإكليل** : ١٠٣/٢ ، ٣٨١ ؛ ٧٠/٨ و ٧/١٠ ابن الكلبي : **الأنساب** (نسب همدان لوحة ٢٢٧) ؛ نشوان الحميري : **شمس العلوم** : ٣ ؛ السمعاني : **الأنساب** : ٢٧٨/٢ ـ ٢٧٩ ؛ الجرافي : **المقتطف** ١٨٢ ، الأكوع : اليمن الخضراء ١١٢

(٢) الهمداني : **صفة الجزيرة** : ٣٥١ ؛ **الإكليل** : ٢٨/١٠ ـ ٥٠

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٤٥٩/١

إلاّ به ولا تتم بدونه من أذكارها وأركانها .. بل لا يوجد منهم من يتلو سورة الفاتحة تلاوة مجزئة إلاّ في أندر الأحوال ، ومع هذا فالإخلال بها والتساهل فيها قد صار دأبهم وديدنهم ، فحصل من هذا أن أغلبهم لايحسن الصلاة ولا يصلي ، وطائفة منهم لاتحسن الصلاة وإنما تصلي صلاة غير مجزئة فلا فرق بينه وبين من تركها ... »[1] .

وبعد أن يستطرد في ذكر تقصيرهم في الصيام وبقية أركان الإسلام الخمسة يشير إلى تحاكمهم إلى الأحكام الطاغوتية (القبلية العرفية) بدلاً من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء ، ويرى أن ذلك كفر « وهؤلاء جهادهم واجب وقتالهم متعين حتى يقبلوا أحكام الإسلام ويذعنوا لها ويحكموا بينهم بالشريعة المطهرة ، ويخرجوا من جميع ماهم فيه من الطواغيت الشيطانية.. »[2] .

لكن الأهم مع ذلك أن :

« غالبهم يستحل دماء المسلمين وأموالهم ، ولا يحترمها ، ولا يتورع عن شيء منها وهذا مشاهد معلوم لكل أحد ، لاينكره جاهل ولا عاقل ، ولا مقصر ولا كامل ففيهم من آثار الجاهلية الجهلاء أشياء كثيرة يعرفها من تتبعها .. » .

لقد عاصر الشوكاني حقبة تاريخية من أصعب الفترات وشاهد ـ بل عانى بنفسه كغيره ـ هجمات هذه القبائل وحصارها صنعاء وغيرها من الحواضر اليمنية فجاءت آراؤه مستوحاة من المعاناة ، والمعاينة ، لكنه كان يدعو مع ذلك إلى تنويرها وتعليمها قبل إخضاعها بالقوة ، يقول :

« لاخروج لمن كان قادراً على إصلاح هذا القسم والقسم الأول وهم الرعايا [أي القبائل] إلاّ ببذل مال في إصلاح الرعايا وتعليمهم

---

(١) الشوكاني : **الدواء العاجل** : (الرسائل المنيرية) : ١١/٢

(٢) نفسه : ١٣

فرائض الإسلام وإلزامهم بها ، والأخذ على الولاة في الأقطار أن يكون معظم سعيهم وغاية همهم هو دعاء من يتولون عليه من الرعايا إلى ماأوجبه الله عليهم ونهيهم عما نهاهم الله عنه ، وانتخاب القضاة في كل قطر أولاً من جمع الله لهم بين العلم والعمل ... »[1] .

ومع ذلك فيقول :

« فإن ترك من هو قادر على جهادهم فهو متعرض لنزول العقوبة ، مستحق لما أصابه .. »[2] .

ومن قبل الإمام الشوكاني ، كان العلامة ابن الأمير (ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م) قد هزه وآلمه خروج قبائل برط وحاشد بقيادة القاضي عبد الرحمن بن محمد العنسي البرطي في سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م إلى مدينة اللّحيّة في تهامة فانتهبوها وعاثوا فساداً ، فأرسل بقصيدة طويلة من شهارة هاجم فيها تلك القبائل وتصرفاتها الهمجية ، وأنحى باللائمة على إمام صنعاء المنصور حسين (ت ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م) لعدم المبادرة إلى ردع تلك القبائل وهجماتها المتكررة ، ومما جاء في قصيدته :[3]

ياساكِني السَّفحِ منْ صَنْعاءَ هَلْ سَفَحَتْ ... لَكُمْ على ماجَرَى في الدين أجْفانُ
عَن « اللّحيّة » هَل وافاكُمْ خَبَرٌ ... تَفيضُ مِنْه مِن الأعيان أعْيانُ
تجمَّعَتْ نحوَها مِنْ كُلّ طائِفةٍ ... طَوائِفٌ حاشِدٌ منْها وسُفْيانُ
وذو حُسَين وقَاضِيها وقائدُها ... درب الصَّفا وقشنّون وجُثّانُ

(١) الشوكاني : **الدواء العاجل** : ١٣
(٢) المصدر نفسه : ١٣
(٣) ديوان ابن الأمير : ٣٩٦

أشياءُ شَرّ وأفعـــالٌ مقبَّحَـــةٌ طَـوائفٌ مـــالَهم يُمْنٌ وإيمَـــانُ
فـما يَخَـافـونَ مِنْ يَـوم المَعـادِ وَلاَ عَلَيْهم لِـذَوي السُّلطـانِ سُلْطـانُ

وبعد أن ذكر أماكن ومناطق أخرى سبق لهم أن هاجموها ونهبوها ، ذكرَّ بما حَلّ بمدينة بيت الفقيه على يد قبائل يـام من نجران في سنـة ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م بعـد أن فتحت لهم قبـائل حـاشـد الطريـق وانضم إليهم أحمـد بن محمـد أبـو منصر صاحب ذيبين ؛ قال :

وَهَل نَـبي أحدٌ « بيتَ الفقيـه » وَقَـدْ صُكَّتْ بـأخبـار يـام فيـه آذانُ
كم من عَـزيـز أذلّـوهُ وكَمْ جَحَفـوا مَـالاً ، وكَمْ سُبِيَتْ خُـودٌ وصِبيْـانُ
فـالنظمُ يَعْجَزُ عَنْ حَصْرِ لِمَا دَخَلتْ مِنَ المَـوَاطنِ في أخبـارِ قَـدْ كانـوا !

وكان المنصور حسين حين بلغه العـدوان على بيت الفقيـه قـد أرسل بعسـاكر ومدد عاجل من صنعاء وتمكنت هذه العساكر من الإيقـاع بقبـائل يـام في موضع يقال له المحمرة من أطراف تهامة ، واستعادوا ماسلبوه بعد أن هزمت يام ، إلا أنّ الهجمات التي جاءت بعد ثلاث سنوات لم تلق من يتصدى لها ، ولهـذا فـابن الأمير هاهنا يهـاجم ويُعيّر المنصور حسينـاً وأسرتـه من آل القـاسم بـأن مجدهم قـد ذوى بزوال العدل واختفاء الأمن وسلامة الناس بتجرؤ القبائل وعدوانها عليهم :

فيا بني القَـاسِم ـ المنصور ـ قَـدْ سَلَبَتْ علَيْكُمْ الملـــكَ أعرابٌ وبُـــدْوانُ
لم يَبْـقَ مِنْ مَجْـدِكُمْ إلاَّ القصُورُ لكُمْ بِهـــا جَـوارٍ ودِيْبَـــاجٌ وعقْيَـــانُ

....

فَـلاَ تَخَـــافُ العِـــدا شَرّاً لِخَيْلِكُمُ كَـــأنّهـــا غَنَمٌ والقَـوْمُ رُعيـــانُ
ولا يَخَـافُونَ إنْ طَـالتْ رِمَـاحكُمُ كَـأنّهـا بِيَـد الصِّبْيـان قُضْبَـانُ
مـا يُرْهَبُ السَّيْفُ في بطنِ القِرابِ وَلَو جَرَى عَلَى مَتْنِـــهِ دُرٌّ وعُقيـــانُ
مـــا هَكَـذا كانَ آبـــاءٌ لَكُمْ سَلَفـوا شِيْـدَتْ بِهِمْ من رُبُـوع الحَـقّ أركانُ

وهي طويلة جاءت في خمسة وخمسين بيتاً[1] .

وذكرنا في فصل سابق تهنئة ابن الأمير للمهدي عباس في انتصار عساكره على قبائل برط وقتلها عدداً منها في عام ١١٧٢ هـ /١٧٥٨ م في منطقة جهران شمال صنعاء حين كانت تلك القبائل في طريقها للهجوم على المناطق السفلى .



وهكذا نجد أنّ الأئمة حكام صنعاء قد درجوا في هذه الفترة على مواجهة هجمات القبائل أو عصيانها بالقوة حينما يكون الحاكم منهم قادراً ، وأحياناً بالإيقاع بين قبيلة وأخرى أو بالاثنين معاً ، وفي أحايين أخرى كانوا يصلحون الأمر ويصالحون المهاجمين على مبلغ من المال يتم بموجبه تجنب القتال أو فك الحصار وتعود القبائل إلى ديارهم من حيث جاؤوا غير أن هذه المصالحة سرعان ماتنتهي بعودة الأسباب الدافعة للهجوم أو العصيان سواء كانت تلك الأسباب جفافاً وجدباً (وهو دافع رئيسي) أم إثارة واستشعاراً بحيف أو ظلم ، أو ثأراً وانتقاماً لهزيمة سابقة ، أو بحثاً عن رزق سهل من سلب ونهب معتاد لا رادع له إلاّ القوة ، فإن عدمت مثل هذه الأسباب فالمال الذي أصبح أحياناً أتاوة سنوية فإن تأخر الدفع أو نقص فلا مناص من تكرار فصول المأساة .

ولقد كانت قبائل يام ، وخولان مع غيرهما ممن ذكرنا من أكثر القبائل مشاركة في سلسلة الهجمات والاضطرابات وعدم الاستقرار ، والمعارضة أو العصيان كما سيرد معنا .



---

(١) انظر زبارة : نشر العرف ٨٨٧/٢ ـ ٨٩٠ ؛ أئمة اليمن : ٢٥/٢ ؛ ديوان ابن الأمير : ٣٩٥ ـ ٣٩٨

٢ ـ بداية المتاعب

في مطلع عام ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م خرجت قبائل بكيل من ذي محمد يقودها كبار آل جزيلان وتوجهوا غرباً نحو مِلْحان التي كان عاملها السيد حسين الشرعي وكان بلغه الخبر ، فجمع من لديه من حاشد وآخرين ، وخرج بهم ليصد الهجوم ، غير أنه تبين له أن عساكره القليلة لا تستطيع مواجهة الحشود القادمة ، فتشاور مع أصحابه وتم الاتفاق على مصالحة هذه القبائل بدلاً من قتالها ، ومخافة الفشل في مواجهتها وما سيتبع ذلك من سلب ونهب وقتل ، فقبلت ذو محمد الرجوع من حيث جاؤوا مقابل مبلغ « ثلاثة آلاف قرش فرانصي » و « ثلاث كسوات » و « ثلاث خيل » . وقد وافق المنصور في صنعاء على ذلك إلا أنه قرر أن يقطع « مقرراتهم وأن لا يسلم لهم في ذلك العام شيئاً مما يعتادونه »[1] .

لم يطل مكوث ذي محمد في بلادهم فسرعان ما توجهوا بعد أشهر قليلة إلى صنعاء نفسها في شهر شعبان من العام نفسه ، وعندما اقتربوا منها عسكروا أياماً في عَصَر غرب المدينة لكنهم لم ينالوا شيئاً كما أن الإمام لم يتعرض لهم ، وربما استشعروا خطراً فقرروا التوجه غرباً صوب تهامة ومكثوا أياماً في صنفور وهو موضع متوسط بين الحيمة وريمة وحراز ومنه كانوا يتخطفون المسافرين ويسلبون القرى القريبة ثم واصلوا سيرهم فهاجموا القرى المجاورة لبيت الفقيه والزيدية وتوجهوا نحو سايلة مور حتى يلتقوا بجماعات من ذي محمد وبني صُريم وخيار وعاقلهم ابن ناشر ، بالإضافة إلى قبائل العُصيات وسحار وجميعهم بقيادة السيد حسين بن علي بن قاسم صاحب صعدة الذي قال جحاف : إن الداعي لخروجه هو : « الطمع في الإمام للزيادة منه على المعتاد ، بعد أن كاتب أياماً إلى وزير الإمام يطلب منهم الإعانة له ولأهله في الشفاعة عند الإمام بتفويض المعتاد ،

---

(١) جحاف : ٦٠

ويحتج عليهم بأن التغاضي سيجر إلى الفساد ،.. »[1] ويبدو أن « طمع » هذا السيد كان ذريعة يخفي تحتها طموحاً سياسياً كان يرجوه .

وقد قاد عامل حجة السيد يحي بن محسن بن علي المتوكل[2] جماعة من رجاله وقام بهجوم مفاجئ على جموع القبائل في وادي مور وتمكن بتدبير ذكي من تشتيتهم وكشفهم ولزهم إلى الهرب مع قائدهم السيد حسين الصعدي خائبين نحو بلادهم[3] ومن ناحية أخرى قام في خولان في العام نفسه (١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م) علي بن راجح الخولاني بمراسلة خولان يمنيهم « بالخير » فاجتمع له أكثر قبائل خولان وقادهم متوجهاً إلى بلاد أنس فوصل إلى حدودها « وتخطف من وجد من أهل القرى وانتهب المسافرين » ولما جمع الكثير وأراد العودة واجهته قوة عسكرية كان المنصور علي قد أرسلها بقيادة الأمير فيروز المهدي فالتقيا بقاع جهران واقتتلا آخر نهار ذلك اليوم وفرت قبائل خولان في ظلام الليل وعاد فيروز إلى إمامه في « صنعاء » منصوراً[4] .

☆ ☆ ☆

٣ ـ معركة « أم سرجين »

في العام التالي ١١٩٣ هـ / ١٧٧٨ م وصلت الأخبار إلى صنعاء بأن السيد حسين بن علي بن قاسم الصعدي قد قام مرة ثانية يقود ثلاث عشرة مئة من

---

(١) جحاف : ٦١

(٢) عرف السيد يحي بن محسن المتوكل بشجاعته وقيادته لعدة حملات ناجحة ضد هجمات بعض القبائل وما شابهه من الاضطرابات أو العصيان ، وقد توفي مع ابنه علي مسموماً في مدينة « زبيد » سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م (جحاف : ١٦٦ ، ٤١١ ـ ٤١٣ ، زبارة : نيل الوطر ٢ / ٣٩٨)

(٣) جحاف : ٦١

(٤) نفسه : ٦٢

قبائل ذي محمد وغادر بهم برط في طريقه إلى صنعاء فأمر الإمام المنصور قبائل همدان بمنع القادمين من عبور أراضيهم شمال غرب صنعاء ، فالتقى الجمعان في مكان يسمى أم سَرْجين حيث اقتتلا وهزمت ذو محمد مخلفة عدداً من القتلى على أرض المعركة وتوجهت بعد ذلك غرباً إلى جبل حضور . واستدعى المنصور أحد قواده السيد الأمير عباس بن إسماعيل بن محسن بن المتوكل[1] من الغراس على بعد نحو عشرين ميلاً شمال صنعاء ، فأقبل على رأس خمس مئة مقاتل من نهم ومثلهم من قبائل أرحب وتوجه بهم يطارد قبائل ذي محمد فحدث قتال بينهما أسر في أوله قائد المنصور لكن عساكره تمكنت من هزيمة ذي محمد وقائدها السيد الصعدي وأرسلت بعض الرؤوس فعلقت على باب الإمام في صنعاء . ولمّا طالبت همدان بتعويضها لإصلاح مشكلها مع قبائل ذي محمد لم يستجب المنصور إلى ذلك لكن القبيلتين أصلحتا الأمر فيما بينهما بالطرق العرفية بعد ذلك[2] .



٤ ـ خروج ابن إسحاق على المنصور

مضت أعوام خمسة على مبايعة السيد العلامة علي بن أحمد بن إسحاق للمنصور علي في أيامه الأولى كما تقدم[3] وكانت مبايعته ومدحه للمنصور على درجة بالغة من الأهمية لمكانته الكبيرة بصفته رأس « بيت إسحاق » ولشخصيته المرموقة علماً ، وأدباً ، وكرماً ، فقد « صار له جلال وسياسة ضخمة و ظهر من

---

(١) عباس المتوكل (١١٣٥ ـ ١٢١٩ هـ / ١٧٢٢ ـ ١٨٠٤ م) هو ابن عم يحيى المتوكل صاحب حجة السابق ذكره وقد قاد عدة معارك وحروب كما شغل وظيفة « عامل » في أماكن مختلفة من اليمن خلال حكم المهدي عباس وابنه المنصور علي (انظر : جحاف : ١٦٦ ، ٣٥٩ ، ٤١١ ـ ٤١٣ . زبارة : **نيل الوطر** ١٢ / ١٧ ـ ١٨) .

(٢) جحاف : ٦٩ ـ ٧٠

(٣) انظر : (ص : ٦٢ فيما تقدم) .

كرمه ماهو ظاهر مشهور ، وكان موقفه محفوفاً بأعيان العلماء والأدباء ، معموراً بالمسائل العلمية واللطائف الأدبية .. »[1] حتى كان شهر رجب من عام ١١٩٤هـ / ١٧٦١ م حين غادر صنعاء مغضباً إلى قبيلة أرحب القوية بعد أن تواصل سراً معها ومع قبائل أخرى قبل ذلك ، ومن هناك أعلن خلعه لبيعة المنصور ، داعياً لنفسه بالإمامة . وكان لهذا الموقف الجديد « رجّة » في الديار اليمنية وخطر محيق بمركز المنصور في صنعاء والأوضاع السياسية بشكل عام[2] ، وبالرغم من اعتراف الشوكاني وجحاف بأهمية الرجل وخطره ، فقد سكت الأول عن دوافعه للخروج على المنصور ، بينما عزا جحاف ذلك إلى أسباب شخصية ليس بينها تصرفات المنصور وسلوكه الدافعة إلى خروج عالم كابن إسحاق يوجب عليه مذهبه الزيدي الخروج على حاكم ظالم .

فلقد ذكر جحاف أن ابن إسحاق كان غاضباً وعلى خلاف مع الوزير علي بن يحيي الشامي الذي لم يكن منصفاً بينه وبين الأمير زياد الحبشي عامل حَيْس الذي زاد في مقدار الضرائب المفروضة على وكيل ابن اسحاق في أملاك له هناك ، وتعنّت معهم . وقد حاول ابن إسحاق أن يوسط بعض الوجهاء لحل الأمر أمثال العلامة القاضي يحيي السحولي ، وقاضي الديوان السيد يحيي بن محمد بن عبد الله[3] والسيد علي بن يحيي المتوكل .

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٤٢٧/١

(٢) جحاف : ٧٦ ؛ الشوكاني : ٤٢٧/١

(٣) هو من آل الإمام (بيت القاسم) وقد وصف بالوقار وعدم حب الرئاسة غير متقحم للأمور الخطرة في فصل الخصومات و « لو أراد ذلك لكانت له يد قوية وصولة عظيمة لكونه من آل الإمام ، ولعلو سنه .. » كما ذكر الشوكاني وكان غالب اشتغاله بالطب والمعول عليه في صنعاء وكان يداوي الناس بلا مقابل وله اكتشافات ومعالجات تحدث المؤرخون عنها ، ويبدو أن اهتماماته هذه وعدم طموحه مع وجود شخصية قاضي القضاة السحولي كان السبب في عدم اشتهاره في القضاء وشؤون الدولة وقد توفي معمراً سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م (البدر ٣٤٢/٢ ؛ زبارة : نيل ٤٠٠/٢)

بيد أن المشكل بقي ، وأكثر من ذلك فقد جرت محاولة لحله في « الديوان الإمامي » الذي كان يضم أولئك مع آخرين ، وحضر الوزير الشامي فتنافس معهم ، ولما جاء ابن إسحاق حُجب طويلاً رغم الإذن له مع آخرين من عامة الناس بالدخول[1] . وسواء كان هذا السبب الدافع لغضب ابن إسحاق أو هو أحد الأسباب فما لاشك فيه أن الرجل كان يرى في نفسه أهلية للحكم فلقي مضايقات منها ماتقدم ، فقوى ذلك العزم في نفسه على الخروج إلى أرحب التي كان قد اتصل بكبارها واستقر معسكراً في شعب وهو مكان وسوق هناك . ولحق به بعض كبار اسرته من آل إسحاق ومن بينهم عمه يعقوب بن محمد الذي استمر معه حتى وافته المنية في العام التالي ١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م في معسكر ابن أخيه الذي كان بعد أرحب في بني جرموز من منطقة بني الحارث شمال صنعاء[2] .

أعد المنصور علي جيشاً تحت قيادة الأمير سرور والسيد عباس بن إسماعيل المتوكل[3] وآل خليل أصحاب هَمْدان وغادر صنعاء في شهر رمضان بعد شهرين من خروج ابن إسحاق فوصل الجاهلية وعسكر بها محصناً أطرافها . وفي بني جرموز وقعت صدامات بين الطرفين بدون أي نتائج حاسمة .

وفي صنعاء كان الأمير زياد عامل حيس (الذي ربما استدعي لهذا الأمر) يؤكد للمنصور أنه قادر على القبض على ابن إسحاق فتوجه من العاصمة مع بعض رجاله لمحاربة خصمه ، لكنه لم يصل إلا إلى الروضة على بعد بضعة أميال شمالاً من صنعاء حتى استدعاه المنصور لمهمة أخرى . ولمّا علم ابن إسحاق بخبر استعداد زياد (الذي كان يدعوه سخرية زياد بن أبيه !) للخروج لمحاربته قال : « والله لو

---

(١) جحاف : ٧٦

(٢) جحاف : ١٠١ ؛ الحوثي : **نفحات العنبر** (خ) ٤٤٩/٣ ؛ زبارة : **نشر العرف** ٩٠٠/٢

(٣) انظره فيما سبق : ص ١٠٢

فارقها لفارقها ! » أي أنه لو فارق صنعاء لفارق الحياة لأنه لابد قاتله[1].

وفي خلال هذه الفترة خرجت جماعات من قبائل خولان من صنعاء مغاضبين للمنصور ، فهاجموا قوافل للتجار في الطريق جنوبي المدينة ، فبلغ ذلك قبائل سنحان المجاورة فلحقت مغيرة على خولان وأدركتها عند بلدة أسناف فواجهتهم أيضاً قبائلها ووقعت مقتلة مع خولان أخذ منها ماسلبت وهربت جموعها مكتفية من الغنية بالإياب إلى ديارها . ولم تكن العودة إلى البلاد إلاّ لجمع ماتشتت من قوتهم فسرعان ماعادت قبائل خولان في شهر رمضان معلنين العصيان بحجة أن المنصور قد قطع « مصاريفهم » . وتوجهوا إلى بلاد أنس « وانتهبوا من وجدوه من أهلها وخوفوا المسافرين وقطعوا السبيل »[2] لهذا استدعى المنصور زياداً من الروضة بدلاً من التوجه إلى ابن إسحاق ليرسله لمعاقبة خولان في انس . وقد عرف عن زياد المهابة والإقدام ، فلما بلغ خولان قدومه على رأس جيش خافت مواجهته فعادت أدراجها شرقاً صوب بلادها . فتتبعهم زياد مسرعاً في الليل مع نفر قليل من أصحابه وترك قوته خلفه فلحق بالقوم في منطقة الشرزة[3] فكانت الدائرة عليه إذ سرعان ماأحاطوا به فقتلوه وقتلوا صهره ابن بقراط وثالثاً من عبيده غير أن جماعة زياد الباقية تمكنت من القبض على بعض ممن بقي من خولان فغلوهم بالحديد وساروا بهم إلى المنصور في صنعاء . فاستدعى قاضي قضاته السحولي واستفتاه في أمرهم « ثم أمر بضرب أعناقهم ، وتتبعوا بصنعاء جماعات خولان فوجدوا بالجامع الشيخ محمد بن حسين الفهدي.، فجاؤوا به فأمر بضرب عنقه معهم فكان جملة القتلى من خولان ثلاثين نفراً ، وعلقت رؤوسهم بباب اليمن »[4].

(١) جحاف : ٧٦ ـ ٧٧

(٢) نفسه : ٧٧

(٣) في الجنوب الشرقي من صنعاء

(٤) جحاف : ٧٨

مضى نحو ستة أشهر دون أية نتيجة بين جيش المنصور ورجال ابن إسحاق مما جعل المنصور يعدل من رأيه في الحل العسكري بمحاولة مصالحة سلمية مع خصمه القوي . فقرر إرسال القاضي يحي السحولي وشقيقه الأمير قاسم بن المهدي عباس والسيد إسماعيل بن إبراهيم بن المهدي محمد[1] وغيرهم من الوجهاء والعلماء لبحث عودة ابن إسحاق وقبول جميع شروطه . واستقبل ابن إسحاق الوفد واشترط على المنصور كما ذكر جحاف : « خيلاً وعبيداً وجواري ، ودراهم تجرى له كل شهر ، ومصروفات لمن يعول تترا ، وكيلات ، واستماع الشفاعات والانفراد بوصاب وحيس ، وليس للدولة إلا الكاتب كما كان العهد عليه مع الآباء . فأجابه الإمام إلى ذلك المرام ، فاشترط آخراً البقاء بأرحب فأهمله الإمام وتركه في العناد ! »[2] .

وهكذا لم ينته الأمر لكن شبه هدنة مؤقتة تمت ربما ليستعد خلالها كلا الطرفين أو يقرر فيها ابن إسحاق العودة إلى صنعاء مقتنعاً بقبول شروطه . لكن عاملاً جديداً طرأ قبل مرور أقل من عام على تلك الهدنة وذلك وصول قبائل برط إلى الرحبة على بعد نحو عشرين ميلاً شمال صنعاء وكتابتهم رسائل تهديد إلى المنصور الذي أرسل إليهم ببعض المال والمؤن والأرزاق وطلب إليهم البقاء حيث هم مخافة وصولهم إلى صنعاء . فمكثوا هناك نحو ثلاثة أشهر معسكرين . وانتهز ابن إسحاق الفرصة خلال ذلك فتوجه إليهم وطلب مساعدته ليعبر المنطقة من جهة الغرب من صنعاء إلى وصاب في الجنوب الغربي حيث توجد له بها أملاك

---

(١) كان السيد إسماعيل بن إبراهيم (١١٦٥ ـ ١٢٣٧ هـ / ١٧٨١ ـ ١٨٢١ م) فقيهاً ، أديباً ، شاعراً أخذ عن الإمام الشوكاني ورافقه وقد أثنى على علمه وعلو فهمه وكريم خلقه ، وهو حفيد الإمام المهدي محمد بن أحمد (صاحب المواهب) ، انظر ترجمته عند الشوكاني : **البدر** ١ / ١٣٧ ؛ الشجني : **التقصار** (خ) ١١٨ أ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ١ / ٢٥٣ ؛ العمري : **ديوان الشوكاني** ١٠١

(٢) جحاف : ٧٧ ؛ الشوكاني : **البدر** ١ / ٤٢٧ ؛ زبارة : **نيل** ٢ / ١٢١

ويمكنه التحصن هناك أو على الأقل الابتعاد عن صنعاء . واستفادت برط من اتصال ابن إسحاق بها فشددت قبضتها على المنطقة وقامت بهجمات على الأعناب والمزارع القريبة ، وأوجس الناس خيفة فهرب سكان القرى القريبة من صنعاء بمتاعهم ودخلوا إلى العاصمة ، ولم يجد المنصور بدأ من الرضوخ لمطالب برط فدفع « مالاً واسعاً وأرغم بالمال كبارهم فعادوا إلى بلادهم » ويبدو أن خوفه الأكبر كان من نجاح أي تحالف بينهم وبين ابن إسحاق الذي كرر عليهم طلبه « فاعتلوا له بعلل ، ولم يرفعوا إليه رأساً ! فساءه ذلك منهم »[1] .

☆ ☆ ☆

٥ ـ تحالف ابن إسحاق مع قاضي برط العنسي

كيفما كان أمر خذلان برط للسيد علي بن أحمد بن إسحاق وقبولهم مال المنصور وعطاياه في المرة الماضية فسرعان ما أنفقوا ذلك وأطمعهم في المزيد خاصة وما زال موقف ابن إسحاق معلقاً ، وربما كان موسم الأمطار شحيحاً والمراعي مجدبة ، فإذا بقبائل برط تقطع المسافات من أقصى الشمال لتهبط وتعسكر في رحبة صنعاء في يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ١١٩٦ هـ / ٢ يونيو ١٧٨٢ م ، يقودها في هذه المرة القاضي عبد الله بن حسن العنسي ، البرطي[2] .

---

(١) جحاف : ٩١

(٢) عرف آل العنسي « بالعكام » أيضاً ، ويقال : إنهم من سلالة « الأسود العنسي » المشهور خبره ، فهو قد جاء من نفس المنطقة حيث انطلق من جرف « خُبّان » في الشمال الشرقي حتى وصل صنعاء . وسواء كان فقهاء برط من آل العنسي من أحفاد « عبهلة » أم غير ذلك . فقد عرفوا من قبل هذه الحقبة التي نعالجها وقاموا بدور في قيادة قبائلهم في خروجها على المهدي عباس والمنصور علي ومن بعدهما وإثارتهم القلاقل والهجوم على مناطق مختلفة كما مر وسير معنا ولم يكن آل العنسي هؤلاء من العلماء الذين سيرد معنا بعضهم ، بل كانوا من فقهاء القبائل الذين يلمون بقراءة القرآن الكريم وبعض قواعد القراءة وأوليات المسائل الشرعية ، وبعضهم كان يظهر التشيع ويبالغ في حب آل البيت (راجع : ص ٢٤) .

مصو العنسي خمسة أيام مع قبائله ينتظر مصالحة المنصور بعودهم مقابل مبلغ من المال ، غير أن المنصور لم يكترث بوجودهم . واهتبل ابن إسحاق هذه الفرصة مرة ثانية فتوجه من شراع بأرحب إلى العنسي بالرحبة واتفقا معاً على مهاجمة صنعاء[1] وفي مساء يوم الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة / ٧ يونيو ١٧٨٢ م غادر الرجلان الرحبة على رأس قبائلها متوجهين إلى « حدّة » الواقعة على بعد نحو خمسة أميال جنوب غرب العاصمة . وفي طريقهم مروا من جوار قاع اليهود[2] الموقع غرب صنعاء وربما أرادوا تحسس أوضاع الحراسة حول سور القاع فأمطرتهم رتب الحراسة رصاصاً ، فغذوا السير نحو غايتهم ليعسكروا في حدة . ويبدو أن المنصور كان يجري استعداداته تحسباً لأية مفاجأة ، ولهذا فقد قرر الخروج بنفسه لمحاربتهم ، فجمع أعوانه وعسكره و « ألفاف القبائل » الذين كانوا معه أو قريبين من صنعاء وتقدم بهم إلى سناع وهي قرية ملاصقة شرق حدة عالية عليها . وكان القاضي العنسي قد شتت قبائله في القريتين بالإضافة إلى قرية بيت سَبَطان ، فقام المنصور بتقسيم قواته إلى ثلاثة أقسام أو محاور ، الأول بقيادة الأمير مرجان ووجهه من فج عطان (عضدان) ، والثاني إلى عقبة بيت سَبَطان بقيادة الأمير ريحان ، وقاد ابنه سيف الإسلام أحمد بقية العساكر من الوسط ، وكان له دور بارز في القتال الذي استمر طوال اليوم وحاول العنسي الفرار مع جماعة عن طريق جبل عيبان فواجهته بعض قبائل بلاد البستان بقيادة شيخها الحليلي فعاد أدراجه صوب الجنوب وفر مع ابن إسحاق ومن معهما إلى وِعْلان في اتجاه اليمن الأسفل ولم يتبعهم جيش المنصور الذي خسر من رجاله وزيره عبد الله بن أحمد النهمي والأمير ناجي المنصور والشيخ محمد بن صلاح ردمان والأمير ياقوت المهدي

---

(١) جحاف : ١٠٨ ـ ١٠٩

(٢) هو « ميدان العلفي » الآن وذلك من بعد ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م تخليداً للملازم محمد عبد الله العلفي الذي حاول مع زميليه اللقية والهنداونة اغتيال الإمام أحمد حميد الدين في مستشفى الحديدة في العام السابق للثورة .

وعلي بن فتح سرور ورجلين من العساكر ، بينما قتل من أصحاب العنسي سبعة عشر رجلاً وقريب ثلاثين جريحاً كان منهم أخو العنسي ، القاضي محمد بن حسن ، الذي حمله أصحابه ومات بعد أيام في قاع ذمار[1] .

☆ ☆ ☆

لم يكن لابن إسحاق بد من مرافقة حليفه العنسي في رحلة الهروب جنوباً وفي الطريق حدثت حوادث قتال ونهب ، وكان الناس يحتمون بالحصون ، ومن ذلك قتال وقع في قاع الحقل من بلاد يريم حيث خسر العنسي خمسة عشر رجلاً من أصحابه ، وقتل ستة من أهل المنطقة . واستمر توجههم جنوباً حتى حلوا جبل بعدان . وكان المنصور يتتبع أخبارهم ، فأرسل جماعة من عساكره مع بعض قبائل من نهم و خولان بقيادة الأمير مرجان صنعاني فوقعت معركة بين الطرفين بجبل الشماحي وكاد العنسي يؤسر إلاّ أنه في الليل دفع مالاً للقبائل المحاصرة له دون علم قائدهم ، وفر ومن معه في ظروف وطرق صعبة صوب الشرق ومعه حليفه ابن إسحاق . ولما عاد الأمير مرجان إلى صنعاء طالب بأموال ذكر أنه أنفقها في حملته فلم يكن من المنصور إلاّ معاقبته بالضرب والسجن ذاكراً أموراً أخرى كانت منه ثم أطلقه وعلق به عملاً فيما بعد بزبيد لكنه جمع مالاً فأودعه السجن ثانية ، ثم أطلق على أن يغيب شخصه عن صنعاء ، فقصد ذمار وبقي بها حتى مات[2] .

☆ ☆ ☆

مضت أعوام ثلاثة على علاقة التحالف بين ابن إسحاق والعنسي قاما خلالها بمحاولات غير ناجحة في الهجوم على بعض مناطق اليمن الأسفل وغيرها ، وكان

---

(١) جحاف : ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** ٤٢٧/١ ـ ٤٢٨

(٢) جحاف : ١٠٧ ـ ١٠٨

ضحاياها في الغالب المساكين من الزراع والأهالي ، وكان ابن إسحاق « يتألم لما يصدر منهم (قبائل العنسي) من سفك الدماء وهتك الحرم » كما يذكر الشوكاني ، ولا بد أن يكون ذلك صحيحاً من رجل في مثل علمه وشخصه ولكن ذلك بالإضافة إلى خيبة الأمل في تحقيق أي انتصار أو نتيجة كان الدافع إلى قطع علاقته بالعنسي ومبادرته في إيجاد حل سلمي مع المنصور .

ومن بَعْدان أرسل ابن إسحاق في شهر ربيع الآخر سنة ١١٩٩ هـ / يناير ١٧٨٥ م رسالة إلى وزير المنصور الحسن بن علي حنش[١] بواسطة عامل يريم القاضي يحي بن محسن حنش الذي أدى دوراً قيادياً في إخماد الفتن والحروب[٢] ، يخبر المنصور فيها بأنه قرر المصالحة و « الإذن من الخلاص من وعثا الفساد » ويطلب البقاء في أي مكان مع إجراء معاش له ولأسرته ، إذ إنه فيما يظهر كان متخوفاً من التوجه إلى صنعاء[٣] وحتى يتحقق المنصور من صحة نوايا ابن إسحاق أرسل سراً بعض الرجال للتحقق من الأمر . وفي ذات مساء عقد العزم فغادر معسكر العنسي بعد أن انضم إليه عدد من قبائل خولان وعدد من نقباء ذي محمد وذي حميدان وذي حسين وعقال آل الهيّال الخولانيين وآخرين ، ولم يتبين العنسي الأمر إلاّ صباح اليوم التالي فأصيب بخيبة أمل وقال « أمر قضي بليل !»[٤] .

قدّم عامل يريم القاضي حنش كل التسهيلات والضيافة لاستقبال ابن إسحاق

---

(١) انظره فيما سبق (ص : ٥٧)

(٢) كان القاضي يحي بن محسن حنش (ت ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م) من ولاة المنصور وقادته الحازمين ، وقد تدرج في أعمال بلاد يريم من سنة ١١٩١ هـ/١٧٧٧ م حتى أصبح والياً عليها إلى عام ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ، ثم كاز والياً على بلاد حراز سنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م ثم بلاد آنس سنة ١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م وقد ذكر جحاف الكثير من بطولاته العسكرية وأخباره في تلك المناطق (انظر : زبارة : **نيل الوطر** ٣٩٧/٢)

(٣) جحاف : ١٤٠

(٤) نفسه : ١٤١

وأتباعه وأبلغه لما التقى به أن الإمام المنصور ما وافق على الصلح إلاّ على شرط أن يصل ابن إسحاق إلى صنعاء وله الأمان الكامل ، فتشاور الرجل مع رؤساء القبائل من أصحابه فطمأنوه واقتنع بالذهاب إلى العاصمة . وبعد أن مكث في يريم ثلاثة أيام تلقى خلالها رسالة ودية من المنصور وفرسين من خيله الخاصة له ولابنه إسماعيل ، ثم توجه إلى صنعاء فوصلها في الثاني من ربيع الآخر ١١٩٩ هـ / أول يناير ١٧٨٥ م وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً خرج فيه الناس لاستقباله إلى خارج المدينة واستقبله المنصور « بالبشاش والترحاب ، وأنعم عليه أتم الإنعام » ، ولإثبات حسن نواياه أطلق المنصور من السجن في اليوم نفسه أخا ابن إسحاق عبد الكريم بن أحمد (١١٥٩ ـ ١٢٢٥ هـ / ١٧٤٦ ـ ١٨١٠ م) ، والتقى العائد بأهله وأصدقائه واستقر في بيته الذي عادت إليه مجالس العلماء والأدباء[1] .

أمضى ابن إسحاق نحو أربع سنوات آمناً مطمئناً ثم عزم على أداء فريضة الحج فتوجه إلى مكة في موسم عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م حيث التقى هناك بعلماء الحجاز وغيرهم من كبار علماء المسلمين فناظر وجادل وقال شعراً ذا طابع ديني بليغ ؛ ومن ذلك قصيدة طويلة أنشدها في الحرم المدني قدام الشباك الشريف ، مطلعها :

قَسَماً بِحُسْنِ المصْطَفى وصِفَاتِه　　　إنَّ السَّلاَمَ يُحِبّ طِيبَ صَلاتِه

ولَّما عاد من حجّه استقر بالروضة مفضلاً ذلك على البقاء في صنعاء ، « فوفد إليه الناس على مختلف طبقاتهم ، ورجع إلى حالته الأولى من الضيافات وكثرة النفقات ، واشتغل بنشر فضائل علي بن أبي طالب » ، وألّف فيها مؤلفات نظم فيها من شعره الكثير ويظهر أن ابن إسحاق وجد في التشيع متنفساً لطاقته ،

---

(١) جحاف : ١٤١ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** ٤٢٨/١ ؛ الحوثي : **نفحات العنبر** (خ) ٢٨٩/٢ .

ولم تعد مجالس العلماء والأدباء هي مجاله ، فنزل إلى طبقات الشعب سريعة التأثر والاستجابة ، وذلك أنه : « .. بدا له مواصلة أهل الكدّ والأعمال فجالسهم ، وطارحهم أحاديث الفضائل فحفظوها عنه ، وكان يأمرهم بإنشادها ، فيجتمعون ويضعون لها لحنا ـ هو المعروف الآن بالنشيد ـ ثم توسع وانبسط الكبير والصغير ، وكان يحضر مولد النبي ﷺ ، ويجيب من دعاه إليه كائناً من كان »[1].

ولقد كان طبيعياً ألا يعجب المنصور مبالغة ابن إسحاق في نشاطه الذي أصبح الكبير والصغير يتحدث عنه ، خاصة وقد جرت عادة الأئمة كبح جماح التطرف الشيعي ليظهروا اعتدالهم أمام علماء الزيدية المعتدلين والمجتهدين كذلك إخوانهم من علماء الشافعية ، وللمنصور في هذا الشأن مواقف سنأتي على ذكر بعضها لهذا فلعلها لم تكن من المصادفة زيارة المنصور للروضة في خريف عام ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م حيث التقى الرجلان ، ولعله بعد طول انقطاع ، ولا نعرف مادار بينهما ، إلاّ أن ابن إسحاق سار من يومه إلى حدّة متنزهاً وفارق الروضة وبلغ المنصور تردد الناس إليه ، لكن ماأقلقه كان اختلاف جماعة من آل صوفة وهم من ذي محمد وكان له علاقة بهم في خروجه الأول ، فعجل المنصور بالقبض عليه قبل استفحال الأمر أو تكرار ماحدث معه من قبل ، وسجن مع ابنه إسماعيل في قصر صنعاء وبعد أيام من سجنه طلب من المنصور إطلاع أهله إليه ، فأذن له بذلك واستمر مسجوناً بدار في القصر بما يشبه الإقامة الجبرية ثماني سنوات حتى أطلق سراحه عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م ، وفي تلك السنوات الثماني انشغل بالقراءة والتصنيف وشرح أشعاره وقصائده « الإلهيات والنبويات » في كتاب عنوانه شجي هو « الصّادحُ الغريب » ومطلع أولى قصائده :

لا وظَلْم الثّغْر والشّنَب ... ـــالظُلم الصبّ مِنْ سَبَبِ

---

(١) جحاف : ٤٠٥

وتـداول النـاس وهو في السجن بعض قصائـده في الإمـام علي بـالغ فيهـا في التشيع .

وبعد عـامين من خروجـه من معتقلـه توفي بصنعـاء في ثـامن جمـادى الأولى ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م عن نيف وسبعين عاماً[١] .

☆ ☆ ☆

٦ ـ خروج القاضي العنسي في حكم المنصور

ذكرنا بعض الحوادث والهجمات التي قادهـا قضـاة برط من آل العنسي ؛ وقـد ذكر المـؤرخ المرحـوم محمـد زبـارة (ت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) أن أول هجـوم على تهامة بقيادة عبد الرحمن بن محمـد العنسي كان سنـة ١١٤٥ هـ /١٧٣٢ م وشـاركت فيه قبائله من برط البكيلية مع آخرين من قبائل حـاشـد في زمن المنصور حسين (ت ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م) الـذي أشرنـا إلى نقـد ابن الأمير لموقفـه السلبي من ذلك[٢] واستمرت هجمات العنسي متقطعة بعـد ذلـك ومتوقفـة في معظم مـدة حكم المهدي عباس ، وبدأ خطره وهجماتـه تتكرر في حكم المنصور علي حتى إنـه قـام في عام واحد ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م باربع هجمات في مناطق مختلفة[٣] .

وبعد أن انفصل عنه ابن إسحاق بعـد مصـالحتـه للمنصور ، عـاد العنسي إلى بلده برط ثم غادرهـا من جـديـد في العـام ١١٩٩ هـ / ١٧٨٦ م متوجهاً إلى اليمن الأسفل على رأس جمـاعـة من أصحـابـه ضم إليهم في هـذه المرة قبـائل من خـولان

---

(١) جَحّـاف : ٤٠٤ ـ ٤٠٦ ؛ الشـوكاني : **البـدر الطـالـع** ٤٢٨/١ ؛ الحـوثي : نفحـات العنبر (خ) ٢٩٠/٢ زبارة : **نيل الوطر** : ١٢٠/٢ ـ ١٢٢ .

(٢) زبارة : **نشر العرف** ٧٨٧/٢ ، وانظر ما سبق (ص : ٢٦)

(٣) جحاف : ١٢٩ ـ ١٣٠

وخداء ووصل إلى بَعْدان حيث عسكر في فجرة قيظان . ومن ثم أرسل نفراً من رجاله للهجوم على قفر يريم فتلقاهم بنو سيف الأسفل فقتل من الجانبين جماعة ، فقرر بعدها الهجوم على سوق رحاب فأغار عليه بنو المرادي وبلغ عامل يريم يحي بن محسن حنش فتتبع العنسي وجماعته ووقع قتال عنيف قتل فيه عدد من رجال العنسي واحتزت رؤوس ثلاثة منهم أرسلت إلى المنصور في صنعاء[1] وخلال هذه الأحداث في المناطق الوسطى قام خمس مئة رجل من ذي محمد بالهجوم والنهب لوادي ظهر وبيت الخولاني على مقربة من صنعاء[1] .

واصل حسين بن حسن العنسي وأخوه عبد الله أعمالهما التخريبية وهجماتهما في العام التالي ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م على المناطق الوسطى وبذل حنش عامل يريم جهوداً كبيرة ، وأظهر مع رجاله شجاعة فائقة في التصدي للمغيرين وإبعادهم جنوباً عن المنطقة ، إلاَّ أن كثرة المشاكل والخسائر لزت المنصور إلى أن يرسل أحد كبار العلماء ذوي الشأن والوجاهة هو القاضي أحمد بن محمد الحرازي (ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) ليصلح الأمر مع حسين العنسي وأخيه ، ويبدو أنه نجح في ذلك « ودفع لهم مالاً واسعاً » فقد كان خبيراً بالأمور وله وساطات وسفرات أخرى مشابهة كان يكلف بها[2]

إلاَّ أن عنسياً آخر هو أحمد بن علي العنسي كان في المنطقة نفسها مستمراً في إثارة القلاقل ، ولاقى منه أهل حمر والشرحان والشِّعر وخُبان مصائب كثيرة . وكان قد عمل لنفسه حبساً يسجن فيه من يقع في يده ، بيد أن « حنشاً » طارده بالتعاون مع أهل البلاد وهزمه بعد أن كاد يسيطر على جبل رياب ، كما تمكن حنش أيضاً بعد معارك استمرت أكثر من ثلاثة أسابيع من تطهير بعض الحصون

---

(١) جحاف : ١٤٢

(٢) جحاف : ١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** ٩٦/١ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ١٩٧/١

التي كان أصحاب هذا العنسي وبعض قبائل أخرى من يام تسيطر عليها كحصن عَرَاس والقرى المجاورة له . واستقرت الأحوال وعادت الأمور إلى طبيعتها والفلاحون إلى حقولهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً[1] .

☆ ☆ ☆

ففي عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م تقوى القاضي حسين بن حسن العنسي وجمع حوله من قبائل ذي محمد جماعة تحصن بهم في منطقة الشعر في حصن حمر وتكررت المشاكل القديمة . وقد ذكر جحاف لأول مرة أن العنسي قد « جاهر بالمعاصي وعكف على شرب الخمر وقطع طريق اليمن ، وتجمع إليه أشرار الشّعر ، وأفسد ، وسَمَل العينين ، وقتل صبراً وتحكم في الرعية »[2] وجرياً على عادة المنصور فقد صالحه على دُخْن ، وإذا كان العنسي قد قبل وأوقف أعماله فذلك يدل على أن حاجته وجماعته إلى الطعام كانت ماسة ، لكنه استأنف أعمال السلب وقطع الطريق بعد عام حينما صعد إلى سُمَارة وقطَعَ الطريق في عيد الأضحى سنة ١٢٠٩ هـ / يوليو ١٧٩٥ م ونهب المسافرين . واهتبل ابن أخيه صالح بن حسن العنسي فرصة تشكي رتبة حصن حب ، القريب من ذي جبلة في المنطقة نفسها ، من إهمال عامل المنطقة لهم وعدم الاستجابة لطلباتهم ، فأعمل الحيلة وتواصل معهم فسلموا له الحصن مقابل ستين ريالاً ![3] .

خلال هذه الأحداث غادر عبد الله بن حسن العنسي بلاد بكيل وانضم مع رجاله إلى أخيه حسين والآخرين في اليمن الأسفل ، وقد عبر صنعاء في طريقه

---

(١) جحاف : ١٩٤ ـ ١٩٦

(٢) جحاف : ٢٣٠ ، ولعله من الصعب تصديق شربه للخمر فهذا على الأقل غير مقبول في نظ قبائل العنسي وغيرهم كما أن مصالحته مقابل حبوب « الدخن » تجعل رواية شرب الخمر لم لا يجد الطعام رفاها غير معقول أو غير متيسر .

(٣) نفسه : ٢٣٥ وقد ذكر أن ذلك ثمن بخس

لكن المنصور لم يوقفه ، ولعل الأخبار لم تكن قد وصلت إليه من اليمن الأسفل .

وفي بحثنا عن الدوافع والأسباب الحقيقية وراء تكرار مغادرة قبائل برط وغيرها - أحياناً - لبلادها والقيام بأعمال السلب والنهب أو محاصرة العاصمة والهجوم على المدن ومناطق اليمن الأسفل الأكثر خصباً ، سبق أن أشرنا في مطلع هذا الفصل إلى جملة من العوامل التاريخية والاقتصادية والسياسية ، وقلنا إن مواسم الجدب وقلة الأمطار كانت من الأسباب الهامة في النجعة وترك البلاد ، وكثيراً ما كان السلب والنهب بدلاً من البحث عن الرزق أو أماكن الرعي وسيلة سائدة عمقها الجهل من ناحية وقصور الدولة أو تقصيرها من ناحية أخرى ، فأقصى ما كان يقدمه الإمام هو بعض المال ، وقد يكون ذلك حلاً ، لكنه في كثير من الحالات حلٌ متأخر ومؤقت ، كما أن هذا أوجد في بعض الفترات بدعة أو قاعدة ، حتى لو كانت - غير واجبة فإنه لا يمكن الخروج عليها - ولو لم يكن هنالك موسم جدب أو قحط ، ولهذا فقد كان الشعور العام بأن هذه القبائل « بغاة » خارجة على أمور الدين ونواهيه ، ولكن أين لهذه القبائل أن تعرف الدين وأموره وقد أوضح حالها الشوكاني ودعا إلى إصلاحها كما تقدم[1] ، وكان الإمام مسؤولاً عن رعيته وتعليمها شؤون دينها ، كما كان مسؤولاً عن الأمن وسلامة الناس ، وإذا كان الجهل عاماً ومتفشّياً في عموم القبائل فلم يكن بقدرة الإمام - أي إمام في هذه الفترة - إلاّ عمل القليل وربما لم يتجاوز المدن والحواضر خاصة إذا كانت نظرته قاصرة وفهمه لا يتجاوز الموقف السلبي لمعنى الأمن والاستقرار وقد زاد الأمر سوءاً في فترة حكم المنصور تصرفات الرجل المتناقضة واستشراء فساد بطانته وبعض من كان يعتمد عليهم من الوزراء فكانت النتيجة طريقاً مسدوداً سقط المنصور في آخره .

---

(١) انظر ماتقدم في الصفحة : ٩٥

وفي العودة إلى تتبع الأحوال الداخلية وحوادث القبائل التي يقودها آل العنسي وغيرها مما سنذكر ، نجد المؤرخ جحافاً يذكر لنا في حوادث السنة التالية لما قدمنا من قطع العنسي لطريق سمارة ومضي أخيه عن طريق صنعاء ، يذكر أخبار نزول قبائل يام إلى تهامة في مطلع عام ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م ، فسيّر المنصور جماعات بلغت ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم من حاشد السادة بيت أبي مُنصّر وبنو الأحمر ومن بكيل آل جزيلان وقاد الجميع عامل الزيدية علي بن يحيي سرور ، ووقعت مناجزات تقهقرت على أثرها يام إلى نجران لكنها عادت في العام التالي وكان الأمير عبد الله جوهر قد خلف الأمير سروراً وكان معه ألف وخمس مئة من قبائل ذي حسين وآل عفراء وآل الشايف فهزمتهم يام ومن معهم من جند الدولة ، « وكانت الأسراء في ذي حسين نحو مئتين وسبعين نفراً أخذت يام سلاحهم ومتاعهم ، وانهزم الأمير عبد الله جوهر في جنده فسارت يام إلى الجامعي فانتهبوها وإلى الواعضات وما والاها فانتهبوها وعادوا إلى بلادهم »[1] .

ويفيدنا جحاف فائدة جليلة فيما ذهبنا إليه قبل قليل من أن عامل القحط والجفاف كان دافعاً أساسياً في قيام القبائل بالسلب والنهب والحصار ، وإن كان لهذا السلوك دوافع أخرى عندما لا يكون الموسم أو المواسم خيّرة فالدوافع والعوامل الأخرى كثيرة . ففي حوادث العام نفسه ـ أعني ١٢١٠ هـ / ٦ ـ ١٧٩٥ م ـ ذكر جحاف عن القبائل ولعلها برط بأنها :

« سارت عن ديارها كعادتهم يشكون ببلادهم جوعاً وشدة فوصلوا باب الخليفة وحاصروه وتخطفوا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل فلم يتحرك الإمام بشيء من ذلك لاشتغاله بنفسه ؛ وكان قد أهمه أمر « خولان » وقلب الفكر في تدبير تدميرهم ... »[2] .

فماذا كان أمر خولان ؟

---

(١) جحاف : ٢٤٩

(٢) نفسه : ٢٥٠

لقد خرجت قبائل خولان في مطلع العام يقودها المثنى علي صبر وبدأ هجومه في خولان نفسها وسار إلى أطراف عَنْس « ووضع السيف ودوخ الطرف واستولى على كثير من القرى، وهجم على اليمانيّتين وعاث بها وأخرب بيوتها، وأتى على أكثر الثمار فيها، وأباد الخضراء » ، وأكثر من ذلك فقد « ساق من بلاده ألف رأس من الإبل ليحمل عليها الأطماع من الحبوب وغيرها » . ثم اتجه صوب وصاب السافل وعتمة فنهب هناك وصادر التجار، ونقل الحبوب ، وكان فوق ذلك يدعي معرفته بما يسمى بـ « المِثعة » أو« البشعة » وأنه بها يستخرج السرقات ، وكان بذلك يغرر بكثير من السذج والعامة ، ومن الطريف أن المؤرخ جحافاً ذكر أنه شخصياً قد خبره فيها ووجده « لا شيء ، على أن به غباوة وجفا ! »[1] .

كان المنصور قد همه أمر خولان هذا واتساع أعمالهم في تلك المناطق ، وكان لديه عدد من قبائل ذي حسين استدعى رؤساءهم من آل الشايف وأسرّ إلى كبيرهم يحيي بن هادي الشايف بخطته في توجيههم لمحاربة خولان وتأديبهم ، وأعطاه مع أصحابه مالاً كثيراً وأطمعه في « إنالته جميع ما أجلبوا به » . وهكذا توجهت قبائل ذي حسين لتحارب خولان باسم الإمام والدولة وأغذت السير حتى التقت بخولان التي كانت تعيث وتسلب في حدود آنس ، وكان قتالاً شديداً خسرت فيه خولان المعركة وكل أسلابها وما نهبته على إبلها الألف المحملة ، ودفنت مئتين من قتلاها في قرية عَيْشان التي تقع في الشمال الغربي لمدينة ذمار حيث كانت المعركة الحاسمة[2] .

وعادت قبائل ذي حسين إلى صنعاء منتصرة موقرة بأحمال الغنائم التي هي في الأساس أموال تلك المناطق المنكوبة وحبوبها ، وقد استقبلهم المنصور وأكرمهم

---

(١) جحاف : ٢٥٠

(٢) نفسه : ٢٥٠ ـ ٢٥١

كثيراً ، رغم أن بعضهم توجه بما حمل مباشرة إلى بلادهم دون المرور بصنعاء .

أما آل العنسي فقد استمرت هجماتهم مع قبائلهم في المناطق الوسطى والسفلى بالطريقة والأسلوب نفسيهما ، وكان رد فعل المنصور يتراوح أيضاً بين القتال مرة والمصالحة ثانية والإهمال أخرى دونما حل حاسم . وقد كان لحادث خاص وقع من آل العنسي في صنعاء أهمية في التعجيل بسقوط المنصور في آخر حكمه كما سيرد في فصل قادم[1]

☆ ☆ ☆

٧ ـ أبو حليقة وعصيانه

كان محمد بن سعيد أبو حُلِيقة الخولاني من بين الأشخاص وقادة القبائل الذين خلقوا الفتن والاضطرابات لإدارة المنصور في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / أواخر الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن الذي يتلوه وبيت أبي حليقة من نقباء أو مشايخ قبائل خولان[2] ، معروفون كغيرهم من وقت بعيد ؛ إلا أن محمداً هذا لم يكن معروفاً ولم يكن له شأن يذكر وإن كانت الحوادث والظروف التي واجهها تشير إلى ذكائه الفطري ومقدرته على التصرف . فقد غادر قبيلته خولان وحيداً بحثاً عن الكسب والرزق ، ووصل إلى حُبَيْش في منطقة لواء إب وهناك التحق بخدمة عاملها علي بن إسماعيل بن إبراهيم الذي كان في حاجة إلى الجنود ليضبط أمور المنطقة . وبعد مرور وقت قصير تمكن أبو حليقة من قيادة بضعة أفراد كان بهم ينفذ أحكام العامل فيحضر المتخاصمين ويجبر المتهربين من دفع الضرائب على دفعها ، إلى غير ذلك من الأمور التي كان يستخدم فيها الذكاء

---

(١) انظر الصفحة ١٥٨ وما بعدها مما سيأتي .

(٢) درجت قبائل خولان وكذلك نهم على تسمية رؤسائها بـ « النقباء » .

والحيلة بدلاً من القوة والقتال ، وقد اعترف له بمقدرته وذكائه[1] .

وفي عام ١١٩٨ هـ / ٤ - ١٧٨٣ م ترك أبو حليقة خدمة عامل حُبَيش وتوجه إلى صنعاء يحدوه الطموح والأمل في تحسين حاله بعد أن نال بعض الحظوة والمال هناك . وقد زعم جحاف أن أبا حليقة قد « توسل إلى الوزير أحمد بن إسماعيل فايع بألف قرش على أن يجعل له عملاً يظهر له به رئاسة ، فقبضها منه وخيّب أمله ، فأوجب خروجه للفساد ! »[2] . وسواء كان فايع قد خيب أمله أم أن الرجل لم يكن معروفاً بالقدر الكافي في العاصمة وأن الظروف لم تكن مواتية لأن يكون له أي شأن فيها ، فقد عاد على كل حال إلى حبيش مواصلاً خدمته لدى عاملها وقد أصبح معه بعض الرجال من قبيلته ، وربما كان قد بدأ التبييت للقيام بعمل ما إلاّ أنه كان ينتظر الوقت المناسب .

فلما كان عام ١٢٠٣ هـ / ٩ - ١٧٨٨ م قاد أبو حليقة ، جماعة كبيرة من رجاله وهجم على حُبَيش واحتل دار عَلْوة التي كانت لابني علوة حسن وصالح اللذين كانا عند عامل جبلة إسماعيل بن عبد الله فارع ، ويظهر أن دارهما كانت مخزناً كبيراً ، واحتل نفر من أصحابه الحصن المطل على حبيش والمعروف بدار الحفاء . ثم أغاروا على القرى المجاورة فانتهبوها و «تحكم في الضعفاء وسلب الثمرات ، وفعل الأفاعيل »[3] فكانت هذه بداية خروج أبي حليقة وإثارته للإضطرابات والفتن التي دامت بشكل متقطع لكنها كانت في منتهى الشدة والقسوة لواذ سبع عشرة سنة حتى انتهى أمره وقتل عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م في اليمن الأسفل[4] .

---

(١) جحاف : ١٦٥

(٢) نفسه : ١٣٠

(٣) نفسه : ١٦٦ و ٢٦٧

(٤) نفسه : ٤١٥

إبان هذه الفتنة التي طال أمدها كان المنصور في صنعاء ، تبلغه الأنباء عن استفحال أمر أبي حليقة ومن ذلك هجومه وتحصنه في حبيش فأرسل القائد السيد يحيى بن محسن المتوكل على رأس خمس مئة من رجاله انطلق بهم على عجل ووصل بهم ليلاً - بعد سفر ثلاثة أيام - فهاجم المدينة واستعادها . لكنه بعد حصار أربعة أيام فشل في الاستيلاء على حصن دار الحفاء ، فعاد إلى التفكير في استخدام التدبير الذي عرف به ، فأرسل في طلب خمسة أشخاص من حذّاق أرحب ممن عرفوا بالتسلق والتلصص فوصلوه في بضع يوم[1] . استفاد المتوكل من هؤلآء بأن أرسلهم سراً لتسلق الجبل والتجسس على من فيه ، وبعد أن عرف مكان بركة الماء أعد كلاباً أماتها بالسم وأمر الأشخاص الخمسة ذات مساء بتسلق الحصن ورميها في مياهه لإفسادها . ولم يحتمل رجال أبي حليقة البقاء بعد ذلك إلاّ يومين حتى استسلموا . لكنه حدث خلال ذلك أن أرسل الوزير فايع الشيخ عبد الله الضلعي على رأس قوة من قبائله عيال سريح وقبائل من نهم واستدعى المتوكل إلى صنعاء . فتوجه الضلعي إلى دار علوة والتقى بأبي حليقة ورجاله فلم يصمدوا في وجه الضلعي لكنهم تراجعوا إلى الجبال وتحصنوا بمعاقلها . واستمرت المناوشة والاقتتال نحو شهرين حتى كاد اليأس يسيطر على الضلعي[2] ويبدو أن المنطقة كانت خالية من الحاميات العسكرية الحكومية - وذلك ما جعل أبا حليقة يتقوى منذ البداية ويعتمد عليه المسؤولون في احتياجهم للضبط والإدارة - ، ولهذا فعندما طلب الضلعي العون من أقرب مركز إليه وهو ذو جِبْلة لم يكن هناك إلاّ قاضي المركز السيد زين العابدين بن يحيى الخباني (ت ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م)[3]

---

(١) جحاف : ١٦٦ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ٣٩٩/٢ ، وعن المتوكل انظر ما سبق (ص ١٠١ الحاشية : ٢) .

(٢) جحاف : ١٦٧

(٣) عالم ، فقيه ، فاضل ، معمر ، عمل بالقضاء « للمهدي عباس » وابنه « المنصور علي » في ذمار والمخادر وعتمة وخبان وجبلة وإب التي توفي بها عن عمر ١١٠ سنة (انظر ترجمته في زبارة : نيل الوطر ٤٢١/١) .

الذي هرع مع حفنة من الرجال جارين خلفهم المدفع الوحيد هناك والذي رموا به فلم يفد كثيراً وانتهى الأمر بالصلح مع أبي حليقة الذي كرَّ راجعاً إلى بلاده مع بقية أصحابه .

☆ ☆ ☆

لم يمض أبو حليقة في خولان إلاّ ثمانية وعشرين يوماً جمع فيها نفراً من الرجال وبعض المتاع وأعد نفسه لهجوم جديد ؛ فاتجه من خولان غرباً إلى آنس وتوغل حتى بلغ حدود ريمة فاستولى على بعض الحصون ، ولما حاول الاستيلاء على حصن الدّومر دافع عنه رجال الرتبة التي به واستعانوا بالمواطنين القريبين في المنطقة ، وكان قتالاً شديداً طيلة اليوم انكسر في آخره أبو حليقة « فسلبوه بعض المتاع ، وحازوا بعض الماشية ، وقتلوا جماعة من رجاله ، واحتزوا الرؤوس وبعثوا بها إلى باب الخليفة في شهر جمادى الآخرة [١٢٠٣ هـ / ١٧٨٩ م] »[١] .

تراجع أبو حليقة نحو مناطق آنس فعمد إلى السلب والنهب ، واستشعر المنصور هذا الخطر الجديد ، فقرر من فوره الإعداد لحملة عسكرية كبيرة لتطهير كل المناطق من الفتن والفوضى بما في ذلك منطقة آنس التي كانت تعاني من شدة وطأة أبي حليقة وقبائله .

☆ ☆ ☆

٨ ـ جيش الحملة

عزم المنصور على إعداد حملة حربية كبيرة ، وقد ذكر جحاف أن « المنصور شكا إلى وزيره الحسن بن عثمان العلفي الأموي خلو بابه من الأمراء والقادة وأنه فقد المعين والنّاصر ، وعُدم المدبِّر والمشاور ، ولم يجد أحداً يكفيه مؤونة الجهاد ،

---

(١) جحاف : ١٦٧

وعزم الخروج بنفسه » فهوّن الوزير عليه ونصحه باستدعاء بعض أقربائه من آل أمية - كما يحلو لجحاف أن يسميهم - فتم طلب الحسين بن أحمد العلفي عامل بَيت الفقيه وحميد بن عبد الله عامل رَيْمة اللذين يقول عنهما جحاف : إنهما « لم يكونا ممن استعد للحرب ولا باشرا في وقعة الطعن والضرب » وواضح من كلام جحاف الذي كان يميل إلى ابن المنصور السيف أحمد أنه دوماً لم يكن يرى في اعتماد المنصور على وزيره العلفي وأقربائه إلا ضعفاً وثقة في غير محلها ، وكان غيره يشاركه الرأي نفسه كالإمام الشوكاني كما سنذكره في آخر حكم المنصور[1] .

وصل المستدعيان وتشاور المنصور معهما ومع وزيره وآخرين وتم الاتفاق على أن يتظاهر المنصور بأنه شخصياً سيقود الجيش الذي أعد تجهيزه ، ونجح هذا التدبير في دفع معارضي آل العلفي وخصومهم في العاصمة إلى التسابق في تقديم العون والوعد بالمشاركة في واجب دعا إليه الإمام . وهكذا تمكن المنصور مِنْ تذليل العقبة الأساسية في تعاون جميع العاملين في إدارته وأغنياء الأعيان فجمع منهم بالإضافة إلى ما كان متوفراً لديه في بيت المال ، مبلغ ٣٦٠,٠٠٠ ثلاث مئة وستين ألف ريال فضي من أجل هذه الحملة وهو مبلغ كبير للغاية[2] حسب معايير العصر .

ومن ناحية ثانية كلف المنصور وزيره لشؤون القبائل الشيخ محمد خليل بتجنيد القبائل المقاتلة ، فطلب من بكيل قبيلة وادعة ، ومن حاشد العُصَيْمات وبني مالك والصَّيد وبني صُريم وخَارِف وبني سِحَام والأعروش وقبائل أخرى بلغ عدد أفرادها جميعاً عشرة آلاف مُقاتل بالإضافة إلى أربعة عشر ألفاً من جند الدولة .

---

(١) انظر : ديوان الشوكاني (ص : ٣٠٨ البيت ١٩ وما بعده)

(٢) جحاف : ١٦٧ ؛ وانظر قيمة الريال واضطراب سعره في بداية الفصل التالي (ص :١٥٠)

ويرسم لنا جحاف صورة مفيدة طريفة للاستعداد للحرب التي أعلنها المنصور قال :

« .. وأنزل الإمام من القصر إلى باب دار الإسعاد المدافع ، وأمر العَمَلة والصنّاع من أهل الحديد والنجارين ليعملوا لها الزّحافات وأمرهم بامتثال أمر الحاج علي الساعاتي ، وكان إليه المنتهى في استخراج الفِكر بعيدة الإدراك ، وأمر الإمام بجرّ المدفع الكبير إلى باب داره ، وما زالت العَملة تعاني آلات الحرب أياماً وعملوا للمدفع الكبير كرسياً عظيماً .. وأحضر إلى باب داره السّوق والسّيّاق ، والزانة من البارود والرصاص ، وآلات الحرب وأمر بعمل السلالم للخراب ، والمناشر لقطع الأعناب [!] واصطحبها العَملة ، وساق سبع مئة من المسلمين واليهود للخراب والقطع ، وأجرى للجميع الأرزاق ، ووسع النفقة . فلمّا انتهت تعبئة الحرب أخرج وزراؤه وأعوانه جميع ما يحتاجه المسافر إلى دار سلم[1] ، وانتظروا خروجه ، فكسا رؤساء القبائل وأهل العهد ، والمدركين بالحفاظ ، واستعرض جيشه الجرار ، وكسا رجال الأموية وأمّرهم على الجيوش ، وأظهر بقاءه ... »[2]

وهكذا تم للمنصور ما أراد من تجهيز الجيش دون أن يكبد نفسه مشقة القيادة « فانثالت الأجناد من باب داره يوم الاثنين خامس عشر شهر شعبان [١٢٠٣ هـ / ١٥ مايو ١٧٨٢ م] كالجراد المنتشر » كما يصفه جحاف .

ومن الواضح أن أحمد بن المنصور الرجل الثاني في الدولة ، بل والهام ، لم يكن على رأس الجيش ، ولم يذكر قواد أيضاً من المعروفين ، ولا يستبعد أن

---

(١) تبعد « دار سَلْم » عن صنعاء ٩ كم جنوباً .

(٢) جحاف : ١٦٨

المنصور بالتفاهم مع ابنه جهز الجيش واستحسن وجوده مع آخرين للبقاء معه في العاصمة لحمايتها من أي طارئ .

☆ ☆ ☆

عسكر الجيش ليلته الأولى على الغيل في قرية ابن حميد على بعد نحو خمسة عشر كيلو متراً جنوباً من صنعاء ، وما تحرك هذا الجيش الجرار في اليوم الثاني إلا وقد سبقته أهواله وضخامته إلى مختلف أرجاء اليمن ، أو كما قال جحاف : « فأرجفت الديار وطار خبر ذلك الجيش كلّ مَطار » . ومضى الجيش قدماً فعسكر في سيّان وهي من قرى سنحان ومن هناك انطلق الجيش نحو أول أهدافه ضد أبي حليقة الذي لم يكن بعيداً عن المنطقة ، فقد كان متحصناً في حصن الخوعة قريباً من بيت الوزّان بخولان وبسهولة تم تدمير الحصن واختفى أبو حليقة هارباً . وتقدم الجيش نحو الجنوب الشرقي واستولى على كل الحصون في المنطقة ، وخرب القلاع والأسوار التي كانت تتخذ ملاجئ للتحصن والدفاع . وأمضى أياماً في هذه المناطق من خولان ، ولما توجه الجيش نحو مسور المشهورة بأعنابها جاء أمر الإمام بعدم دخولها ، وتقدمت قبائلها بالذبائح للجيش كالعادة المتبعة لتقديم الولاء ، وكذلك الأمر مع اليمانيتين وعين عمالاً في تلك المناطق ، وكان في الحداء التي تبعد نحو سبعين كيلو متراً بعض الفتن والعصيان فاكتسحها الجيش ووصل إلى معقل الشيخ حسين عامر البخيتي وبيت أبي عاطف فسلموا « العقائر والرهائن ، وبهذا دانت بلاد الحداء بالطاعة للإمام فأرسل عليها عاملاً ومتولياً الشيخ أحمد بن قاسم شمسان ، ثم نهض الجيش إلى حصون المسال ثم إلى تِنَن والمَلَيح ثم إلى الهجرة بيت أبي بركات ؛ وقصدوا ديار عَنْس ، وقد تمهدت وأذعنت ، وقصدوا باب الثغر رداع ....»[1] وتم إخضاع قبائل عَنْس وقَيفة وقدم مشايخها الذبائح والرهائن بعد تدمير حصن الذهب وغيره ، وقدم الولاء والطاعة

---

(١) جحاف : ١٦٩ ـ ١٧١

ومعه من كبار رجال المنطقة أمثال : حسين الحطام ، وحسين بن زيد أبي صريمة ، وإخوته وآخرين ، ولاحق جماعة من الجيش أحمد بن حسين عون الله الذي فرّ من معسكر متحدياً ، فتوجه الجيش في يوم ثانٍ إلى بلده السّوَاد فوجدوه قد فرق منازله ومعاقله ، فتقدموا أهل الهدم إليها فهدموها وما حولها من القرى ، وأبادوا الخضراء . وأصاب بذلك المحل الأمير حميد بن عبد الله الأموي مرض فاشتد عليه ، ودعا بالفصّاد ، ففصده ، وتعوق هناك عن المسير ، فراح عنه الجند ، وتقدموا على الحصون ، والمعاقل ، والدروب فهدوها ، وهي مما يلي بلاد العوالق ، وبلاد السلطان الرصاص .. »[1]

وهكذا استمر الزحف جنوباً ، فهرع الرصاص ومشايخ البيضاء والمناطق الشرقية والجنوبية للولاء « وكتب ـ الرصاص ـ بماجريات ذلك الجيش إلى حضرموت والشحر يخبرهم بأنه لا طاقة لأحد بملاقاته ، فتحرّسوا ونزل بهم الخوف والوجل »[2] . وفي الواقع لم يكن من خطط الجيش التوغل إلى أقصى الجنوب ربما لاقتناع المنصور بالولاء العام والسلطة الاسمية على المنطقة منذ وفاة والده المهدي عباس وضعف سيطرة صنعاء عليها بالتدريج .

لم تكن حملة الجيش وعملياته العسكرية والتأديبية تمر دائماً بسلام أو بمجرد وصوله والخوف من ذلك ، فقد واجه بعض المقاومة وحدث قتل واقتتال لكن الكفة الراجحة بالطبع كانت للجيش ، ولم يحدث إفراط في القتل أو الهدم والتخريب باستثناء ما كان من أمر الحصون والمعاقل ، ومن بعض القرى التي كان فيها من يقاوم فقد كان يصيبها الدمار ، وكان تقديم الولاء والطاعة يجنب المنطقة الكثير من المتاعب والخسائر .

وبعد مضي نحو ثلاثة أشهر قفل الجيش بقيادته عائداً مظفراً ، فوصل صنعاء

(١) جحاف : ١٦٩ ـ ١٧١

في ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٠٤ هـ / ٣١ يوليو ١٧٩٠ م ، وبات مركز المنصور قوياً وهدأت الحوادث والاضطرابات ، و « علم الناس أن لا جهد للعصاة ، ولا مطمع للبغاة في نيل شيء من المملكة » كما قال مؤرخنا جحاف[1] . بَيْد أن خطراً جديداً قد أخذ يظهر في تهامة وهو لا يشبه عصيان القبائل أو ما كان المنصور يواجهه من قبل ، بل هو تهديد لسلطان الإمام والدولة على تهامة اليمن ، ذلك هو خطر الشريف حمود أبي مسمار الطامح إلى الاستقلال في منطقة تهامة والمخلاف السليماني .



٩ ـ الشريف حمود والخطر الوهابي

من المعروف أن هذه الفترة التي نؤرخ لها عاصرت في جزء منها انتشار الحركة الوهابية ذات الحماس والمبادئ الصلبة[2] في أنحاء الجزيرة العربية وما هو

---

(١) جحاف : ١٧١

(٢) الوهابية : حركة إسلامية إصلاحية أسسها الشيخ محمد بن عبدْ الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠١ هـ / ١٧٠٣ ـ ١٧٨٧ م) وجاءت هذه التسمية في الواقع من الأعداء والمعارضين للشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهداف حركته ، واستخدمها الأوربيون في كتاباتهم حتى الآن . وقد أطلقت الجماعة على نفسها اسم « الموحدون » و « الطريقة المحمدية » ؛ وشيخ الطريقة وأتباعه هم من أهل السنة الذين يتبعون مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) ، واستمدوا أفكارهم الجديدة من آراء الإمام الحنبلي الكبير « ابن تيمية » (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م) الذي هاجم بشدة التزلف بالأولياء وزيارة الأضرحة والقبور وتعظيمها ؛ وهذا يتفق مع آراء الزيدية في اليمن فاتفقوا مع ما ذهب إليه ابن تيمية ومن ثم ما دعت إليه حركة ابن عبد الوهاب فيما بعد ، وكان الإمام الشوكاني المعاصر للجزء الأخير من حياة المؤسس ابن عبد الوهاب وحركته مع غيره من علماء اليمن يذكرون ذلك ويجلّون ابن تيمية فكتب عنه الشوكاني كثيراً ، وشرح كتاب جدّ ابن تيمية « عبد السلام » (ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) بكتابه المشهور « نيل الأوطار » (انظر : كتابنا عن الشوكاني ؛ والبدر الطالع : ٦٣/١ ؛ وعن الحركة الوهابية وتاريخها : ابن بشر : **عنوان المجد** ١ / ١٢٠ ـ ١٢٥ ؛ **الموسوعة الاسلامية** =

أبعد منها . فلقد تخطفت الحركة مدينة كربلاء في سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م ، وكرّت في الحجاز فاستولت على مكة سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م وعلى المدينة في السنة التالية . وخربت الأضرحة والقباب و « كلما يستشم منه رائحة الوثنية » في تلك المدن وغيرها حيث زحفت إلى العراق وسورية شمالاً[1] ، وعملت على توسيع نشاطها إلى تهامة اليمن جنوباً . وكانت المنطقة - « المخلاف السليماني » - قد عرفت من أواخر القرن الثاني عشر / الثامن عشر الميلادي حكاماً محليين هم الأشراف من آل خيرات وكان أشهرهم وأكثرهم خطراً الشريف حمود بن محمد أبو مسمار (١١٧٠ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٥٦ - ١٨١٨ م)[2] الذي كان مركزه في أبي عريش ويحكم المخلاف السليماني باسم الإمام المنصور كما كان أسلافه يفعلون باستمداد ولايتهم من أئمة صنعاء[3] . وقد عرف الشريف حمود بالشجاعة والكرم حتى مدحه الشعراء ، ومنهم شاعر صنعاء المشهور عبد الرحمن الآنسي بقصيدة ليست من شعره الحميني الرقيق بل من قصائده الحكمية ، ومطلعها :

لَعَمْرُكَ ما الليْثُ الذي هَوَّلُوا بِهِ ولكنما اللَّيْثُ الهَصُورُ حَمُّودُ[4]

= (الإنجليزية) : ٤ / ١٠٨٦ ومصادرها ؛ بروفسور سرجنت والدكتور الغول : **الموسوعة البريطانية** مادة « Arabia » ١ / ١٠٤٩ ؛ حوراني : Hourani Arabic thougt ,37-8 ؛ حتى : **Hitti, Histry of the Arabs, 740-1; Watt, Islamic philossophy , 164-5 .**

ولمزيد من التفاصيل انظر : محمد رشيد رضا : **الوهابيون والحجاز** ، القاهرة ١٣٤٤ هـ ؛ حسين بن غانم : **تاريخ نجد** ، القاهرة ١٩٤٩ م ؛ أحمد محمد الذيب : **آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ، الرياض ١٣٩٧ هـ ، عبد الرحيم عبد الرحمن (الدكتور) : **الدولة السعودية الأولى** ، (ط٢ ، القاهرة ١٩٧٥ م)

(١) ابن بشر : **عنوان المجد** ١ / ١٢١ - ١٢٣

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٤٠/١ ؛ الجرافي : **المقتطف** : ٢٥ ، وانظر ترجمتنا له في تحقيقنا **لديوان الشوكاني** : ٢٥١ - ٢٥٢ حاشية ٣ .

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٢٤٠/١ ؛ الجرافي : المقتطف ١٩١

(٤) انظر الآنسي فيما سبق ص : ٧٦ .

وكان حمود طموحاً ساعدته الظروف المستجدة وضعف سلطة صنعاء أن يستقل في أبي عريش ويعمل للاستيلاء على بقية تهامة . ومن ناحية أخرى كانت الزعامة القبلية قد تبلورت في الجانب الآخر على جبال السراة في شخص عبد الوهاب بن عامر الرفيدي المعروف بأبي نقطة الذي قام مع أخيه محمد بن عامر بزيارة لأمير نجد عبد العزيز بن سعود (ت ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م) في عاصمته الدرعية ، وتلقيا بحماس الدعوة الجديدة ، فعين ابن سعود أبا نقطة حاكماً على مرتفعات عسير وفي طريق عودته توفي أخوه محمد[١] .

بدأت الصراعات بين الشريف حمود وممثل ابن سعود أبي نقطة تتزايد وكانت تتطور أحياناً إلى قتال ومصادمات مسلحة ، كان الشريف حمود على أثرها يسرع بإبلاغها بشكل ذكي إلى الدرعية . وفي الواقع فإن منخفضات عسير وتهامة شأنها شأن الحجاز لم تكن قد تقبلت بيسر الدعوة الوهابية[٢] .

بلغ الصدام والقتال بين حمود وأبي نقطة الممثل والمؤيد من الدرعية ذروته في معركة غير متكافئة في منتصف شهر رمضان سنة ١٢١٧ هـ / ١٧ يناير ١٨٠٣ م على مقربة من أبي عريش هزم فيها حمود واستسلم بعد أن أظهر من البطولة والإقدام ماأقرّ به الجميع حتى أعداؤه[٣] .

وفي الظروف الجديدة تظاهر الشريف حمود بالولاء لأمير الدرعية ولدعوته وتوجه من بيته بعد يومين من هزيمته في المعركة إلى المعسكر السعودي حيث التقى بأبي نقطة ومد يده للمعاهدة والسمع والطاعة لابن سعود و « موالاة من والاه ومعاداة من عاداه والقيام بالدعوة »[٤] . وبمزيد من المناورة والانتهازية قام

---

(١) البهكلي : **نفح العود** ١٢٨

(٢) Winder , Saudi Arabia, 72 .

(٣) البهكلي : **نفح العود** : ١٢٨ ـ ١٣٨ ؛ العقيلي : **تاريخ المخلاف** ٤٥١/١

(٤) العقيلي : تاريخ المخلاف ٤٥٢/١

الشريف حمود في الوقت نفسه بإرسال مبعوثه الخاص السيد حسن بن خالد الحازمي (١١٨٨ ـ ١٢٣٤ هـ / ١٧٧٤ ـ ١٨١٩ م)[١] في بعثة إلى الإمام المنصور في صنعاء ، حاملاً رسالة يشرح فيها حقيقة الموقف وأنه لم يخضع إلاّ في الظاهر وليس في الحقيقة ، كما أنه يعتبر نفسه مع الإمام ضد ابن سعود . وينتظر بفارغ الصبر مساعدة عاجلة قبل انتشار الدعوة الوهابية في كل المخلاف السليماني ، إذ لو تم ذلك فسوف يكون من الصعوبة بمكان إنقاذ ماقد وقع بالفعل في أيديهم[٢] . ويميط ، البهكلي (ت ١٢٤٨ هـ /١٨٣٢ م)[٣] ـ مؤرخ حمود وابن بلدته ـ ، اللثام عن سوء حالة حمود وقنوطه في هذا الوقت العصيب ، وما قام به مبعوثه الحازمي في صنعاء الذي قابل وزير المنصور الحسن بن حسن العلفي و « ألقى إليه جميع الواقع وحذره وأنذره في المرتقب وأن الشريف حمود إن لم يُبَادَر بالجنود الإمامية فلا عذر له من التجرد مع أهل الدعوة النجدية وفاءً بما عاهدوه عليه وشرطوه عليه » ثم طلب مقابلة المنصور « فأخذ عليه أن لا يكلم الإمام إلاّ بما يطابق المقام !» ، وقد قابل الحازمي المنصور وانتظر في صنعاء نحو ستة أشهر « ينتظر خروج الأجناد إلى تهامة ونزول العساكر ، ووافى بعده إلى صنعاء الشريف يحي بن علي فارس الحسني »[٤] وواضح أن كلامه لم يجد إلاّ أذناً صماء في صنعاء . لكنه من ناحية أخرى يبدو أن شك الإمام في صدق نوايا حمود وفي تحميله تبعة ماحدث بالإضافة إلى ضعف مركزه وعدم رغبته في مواجهة عسكرية في تهامة هو

---

(١) انظر ترجمته عند زبارة : **نيل الوطر** ٣٢٣/١ ـ ٣٢٧

(٢) البهكلي : **نفح العود** ١٣٩

(٣) كان عبد الرحمن البهكلي تلميذاً وصديقاً للإمام الشوكاني ، وهو عالم ، قاض ، أديب ، شاعر جاء إلى صنعاء من صبيا سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٧ م فأخذ عن كبار علمائها ، وتردد فيا بعد على صنعاء كثيراً ، وبينه وبين علمائها صداقات ومراسلات ، وله مؤلفات منها سيرة الشريف حمود الذي سماه « نفح العود » وقد طبع مؤخراً (انظر البدر الطالع ٣١٨/١ ، ديوان الشوكاني ٨٣ ـ ؛ التقصار : ق ١٢٠ ب ـ ١٢١ أ ؛ نيل الوطر ٢٣/٢)

(٤) البهكلي : **نفح العود** ١٣٩ ـ ١٤٠

الذي أملى عليه موقفه السلبي هذا ؛ فقد ذكر الشوكاني أن الشريف محمد بن الحسن[1] قد وصل إلى صنعاء في شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٨ هـ / أغسطس ١٨٠٣ م ـ أي بعد نحو سبعة أشهر من هزيمة حمود ـ من « جهة أبي عريش ، ومعه كتب من الأشراف هنالك يذكرون أن النجدي قد دخلت جيوشه بلادهم وأنهم قد استولوا على بعضها وأنه لا طاقة لهم بهم ، وأنهم سيتركون له البلاد فأجبت [أي الشوكاني] على لسان مولانا الإمام حفظه الله بما لفظه .. » وبعد البسملة وديباجة المقدمة والإشارة إلى استلام الكتاب نجد الشوكاني ـ باسم الإمام ـ يحمّل الأشراف تبعة ماحدث ببيان بالغ وتحليل صارم . يقول :

« هذه النتائج مأخوذة من مقدمات هي لديكم معلومات ؛ منها تشتت آرائكم ، وتباين أهوائكم وتخالف قلوبكم ، وانتثار سلك أسلوبكم حتى طمع فيكم الأعداء ، وكفّ عن نصركم الأودّاء ؛ ومنها اضطراب الأحوال وعدم استقرار الأمور على منوال ، والاستبداد في الأقوال والأفعال وتولية معزولٍ ، وعَزْل والٍ ، ومنها بطل شيء تام عن الوفاء بما هو لهم من قديم الأيام حتى تركوكم أحوج ما كنتم إليهم ، وخذلوكم عن تسلط العدو عليكم وساروا يفسدون في الأرض ويروّعون الرعايا ، وينتهكون الحرم ، ويسفكون الدماء ، ولو ترك القطا ليلاً لنام ، ولو شبع السنّور لم يتسور الحيطان على الجيران !» .

وبعد أن يستشهد بشيء ، من الشعر والأمثال يحثهم على الثبات في وجه الأعداء ، واعداً بأن ذلك :

« ريثما ينحدر إليكم السيل ، وترون من جيوشنا نواصي الخيل **فإن البلاد بلادنا والرعايا رعايانا ..»** .

---

(١) لعله الشريف محمد بن الحسن بن محمد بن أحمد الحسني الذي ذكر البهكلي (ص ٢٦٥) وفاته في مطلع عام ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م

ولكن المنصور ينتهز الفرصة فيؤكد بعد « أن البلاد بلاده » . أن الأشراف ليسوا إلاً نواباً عنه وهو في كتابه متشكك من مسلكهم حذر من الأخبار التي أرسلوا بها إليه ولهذا فقد ختم جوابه بقوله :

« .. وعليكم الوفاء بحق النيابة والقيام مقام الفاعل ، حتى يلبس النصل نصابه ، ولقد كنا نظن أنكم تصادمون الجبال ، وتقارعون على حماية ذلك الثغر الأهوال ، ولو علمنا أنكم تنكصون بأول قادم ، وتستسلمون لكل طارق ، وتفزعون من كل صارخ ، وتخلون بين رعايانا وبين هؤلاء الزعانف لكان لنا من التدبير مالا يخفى على الخبير ، وبالجملة فقد أذكينا العيون ، وبعثنا من يأتي إلينا باليقين لا برجم الظنون ! فإن صح لنا ما يوجب الإمداد فالجواب وصول الأجناد إلى تلك البلاد ، لانقش وجوه الطروس [أي الكتب] بسواد المداد ، وما ذكر من اجتماع الكلمة على الشريف ذي الحسب المنيف حمود بن محمد ، فقد أحسنتم الخيرة ، فإنه لنا ولكم أنْفَسُ ذَخيرة . »(١)

☆ ☆ ☆

ذلك إذن كان موقف « المنصور علي » إمام صنعاء من « الشريف حمود » المهزوم أمام الجيش الوهابي ، فماذا صنع الأخير بعد هزيمته ؟ . لقد التقى بعد يومين بالأمير « أبو نقطة » الذي عاهده بالولاء لابن سعود وللدعوة ، وفي جمع من الأشراف ورجال الحلّ والعَقْد ولاّه على المنطقة أميراً (وهذا ما يطمح إليه

(١) رسائل الشوكاني : ١٢٠ ـ ١٢١ ؛ وعنونها المحقق د . صالح رمضان بـ « **ذكريات الشوكاني** » (انظر المصادر) ولعله وهم في نقله تاريخ هذا الكتاب المرسل من المنصور فذكر أنه في ربيع الآخر سنة ١٢١٩ هـ أي بعد هزيمة الشريف حمود بعام وثمانية أشهر وهو بعيد ويكون الصحيح ماذكرنا (أي ربيع الآخر سنة ١٢١٨ هـ) وذلك بعد ستة أشهر ونصف الشهر .

حمود) وهو نفسه ما يريده السعودي الذي لن يَستطيع حكمها والسيطرة عليها ، إذ المطلوب إثبات التبعية ونشر الدعوة ، ولأن الأمر النهائي هو لابن سعود فقد شرط أبو نقطة :

« بأن هذه التولية موقوفة على إجازة أمير العامة عبد العزيز بن سعود » .

وإذا كان هذا الشرط يُفْهَم منه كسب الوقت للتحقق من نوايا الشريف حمود وموقفه فقد يكون مطلوباً بالفعل موافقة أمير نجد وإجازته لهذا التعيين ، لكن الهام هو بقية الشروط :

« ومما شرطه الأمير عبد الوهاب على الشريف في صلب العهد : قتال من وراءه من أهل اليمن ، ومباينة إمام صنعاء ومحاربته إن وصلت منه جنود حرب ؛ وما وسع الشريف إلاّ الالتزام بذلك ، وكان يظن أن الإمام لا يترك بعث الجنود والذب عن مملكته في السهول والنجود ، ولا سيا وقد نفذ إلى حضرته العلامة الحسن بن خالد »[1] .

☆ ☆ ☆

وهكذا قادت (براغماتية) الشريف حمود (النفعية) إلى أن يكون مع السعوديين ونائباً لهم في منطقته . غير أن ذلك لم يكن منه إلاّ لبعض الوقت فسرعان ما قلب لهم ظهر المجن . ولم تمض سنوات ثلاث حتى قوّى مركزه وأصبح الحاكم الفعلي لتهامة كلها بعد أن تم له الاستيلاء على اللحيّة وزبيد وحيس[2] ولم يكتف حمود بذلك بل مدّ نظره إلى أعلى من الساحل التهامي فصعّد بقواته نحو المرتفعات وحاول الاستيلاء على منطقة حجة في الجانب الشمالي الغربي من صنعاء ، وذلك بعد عزل المنصور لعاملها وقاضيها الشاعر عبد الرحمن الآنسي

---

(١) البهكلي : **نفح العود** ١٤٢

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٤٠/١ ؛ البهكلي : **نفح العود** ١٧٠ ـ ١٧٦

وبقيت بعض الوقت بلا عـامل ، فضعفت سيطرة صنعـاء عليهـا . ومن الطريف اتفاق مؤرخ الشريف حمود « البهكلي » ومؤرخ المنصور « جحـاف » على أسبـاب طموح حمود للسيطرة على حجة ، فقد ذكر الأول قوله :

« .. ووافق طلوعهم [رجال حمود] إلى حَجة غفلة عامل الإمام وعدم تيقظ الدولة أن الشريف يتمادى إلى الجبال .. »[1]

وقال جحاف :

« .. وذلـك لأن حمود بن محمـد لمّـا رأى أن الأمور قـد تلاشت وضعف أمر المنصور وتسلـط عليـه الوزير ، أرسـل عليهـا [حجـة] الشريف محسن بن علي الحازمي في قوم من الموهبة .. »[2] .

كان ذلـك في عـام ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م ، حين تراسل حمود مع بعض قبـائل المنطقة فذهب إليه أحدهم ويدعى يحي الحبيشي ويصفه جحاف بأنه « من سقـط المتـاع » ويقول عنـه البهكلي : « إن الشريف وجـد الفرصـة بواسطتـه ومن على جيله » كأنه يحقر من شأنه[3] فدبر الاتصال ببعض حاشد وفتحت الطريق لرجـال حمود وكان على رأسهم الشريف محسن الحـازمي فحـاصر حجـة وثبت من بقلعتهـا شهرين واستولوا على مناطق حجة وكان عـاملهـا عثمان بن صـالح العلفي القرشي يحاول جاهداً الدفاع عنها لكن جموع حمود جـاءت من مختلف الجهـات ، فـأرسل المنصور عبد الله بن أحمد الشايف مع قبـائل من بكيل ، فلمـا بلغ قبـائل حـاشـد ذلـك أدركـوا الخطـأ فيما حـدث من بعضهم في فتـح الطريـق لرجـال حمـود وأن « الجَمالة ستكون لبكيل فأصدقت حاشد المضـايقـة لمن بحصن جرافـة ودار الكلام

---

(١) البهكلي : **نفح العود** : ١٧٨

(٢) جحاف : ٣٨٩

(٣) جحـاف : ٣٨٩ ؛ البهكلي **نفـح العـود** : ١٧٨ وقـد ورد اسمـه « الحبيشي » ولعلـه وهم من المحقق .

على خروج محسن بن علي الحازمي في رجب [١٢٢٠ هـ / اكتوبر ١٨٠٥ م] » ، واستمرت المناوشات حتى وصلت قوات أخرى من المنصور وتم تراجع رجال الشريف حمود وهربها إلى تهامة وأعيد تعيين الشاعر الآنسي عاملاً وحاكماً على المنطقة حافظاً لها ومانعاً من تكرار ماقد حدث[١] .

☆ ☆ ☆

كان مركز الشريف حمود مع ذلك مازال قوياً في تهامة ولم يكن بمقدور المنصور إرسال قوات جديدة لمحاربته ، وبخاصة بعد أن حدث شغب واضطراب في منطقة حراز الواقعة في قريب منتصف الطريق بين حمود في تهامة غرباً والمنصور في صنعاء شرقاً . وقد أرسل المنصور حملة على حراز بقيادة أحد عبيده الأمير ميسور فوصل إلى المنطقة لكنه فشل في السيطرة على أفراد قوته ، فعززه المنصور بعساكر من بكيل بقيادة الفقيه محسن بن يحيي حنش الذي لم يتمكن نفسه من أن يحسم الموقف وعاد أدراجه إلى صنعاء بعد قتال وحصار واجهه من قبائل يام التي جاءت إلى المنطقة للمؤازرة بطلب من علي محمد شبام أحد الأعيان في حراز والمسببين للعصيان[٢] .

وبات واضحاً في أواخر عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م أن يد حمود في تهامة وأبي عريش هي العليا ، فالمنصور يواجه في عاصمته مشاكل سياسية واقتصادية حادة ، فتكاليف الحرب في منطقة حجة وإرسال حملات فاشلة إلى حراز وكابوس الشريف حمود في تهامة جعل المنصور يكثر من إصدارات العملة ذات الفضة القليلة والنحاس الأكثر وبهذا « اضطربت أحوال التجار في اليمن كله ، وبلغ صرف القرش ثلاث مئة وخمسين حرفاً ، وفي اليمن الأسفل بلغ أربع مئة وخمسين

---

(١) جحاف : ٣٨٩ ـ ٣٩٠ ، البهكلي : **نفح العود** : ١٧٨ ـ ١٧٩

(٢) جحاف : ٣٩١ ـ ٣٩٢ ، يلاحظ أن قبائل « يام » التي جاءت من نجران ترتبط مذهبياً مع قبائل « شرقي حراز » بالمذهب الإسماعيلي .

حرفاً ، فما زال الصرف كل يوم ينمو ، ولم يقض الإمام للناس وطراً ، غير أنه تركهم يتعاملون فيها كيف شاؤوا »[1] .

وزاد الأوضاع سوءاً ازدياد سيطرة الوزير حسن بن حسن العلفي وأقربائه على السلطة ، وقوة نفوذه على المنصور وكان لذلك آثاره السلبية على الإدارة والقيادات السياسية والعسكرية التي كانت تكره تصرفات العلفي البغيضة .

ومع ذلك فقد أمر المنصور بإعداد السيد يحيى بن محسن المتوكل ليقود حملة على تهامة . فغادر صنعاء بعد صلاة الجمعة في ٢٠ رجب سنة ١٢٢١ هـ / ٧ أكتوبر ١٨٠٦ م على رأس ألف من محاربي ذي محمد وحسين وعدد من رجال حاشية المنصور ومعهم ثلاثون فارساً من صنعاء ، وعسكر المتوكل في عصر غرب العاصمة حتى يوم الأحد ليجهز رجاله ثم توجه إلى متنة التي تبعد نحو ثلاثين كيلو متراً غرباً ، حيث توقف في طريقه إلى هدفه في تهامة . وهناك توقف مع عساكره ينتظر ما وعد به الوزير العلفي من مدد ومؤن فلم يصل شيء ، وبعد مرور ثلاثة أسابيع من المعاناة والانتظار ظهر التململ والاستياء من انقطاع التموين ، فقرر عدد كبير من العساكر التوجه عائدين إلى صنعاء بعد أن كتبوا للمنصور شكواهم وانتظارهم الأقوات مدة اثنين وعشرين يوماً ، وفارقوا القائد ووصلوا صنعاء يوم الاثنين في ٢٠ شعبان منذرين بعودهم شراً مستطيراً .

وندع جحافاً حاضر الموقف وشاهد الحال ليصف لنا ما يمكن أن يوصف بأنه مظاهرة صاخبة كادت تتحول إلى قتال وأحداث شغب خطير يشبه ما يحدث ويتكرر في عالمنا اليوم :

« .. وأصبحوا يوم الثلوث ، وتخربت التوابع والخيّالة ، والتف جمعهم إلى شرارة [ميدان التحرير الآن] ، وخارج باب السبحة وأظهروا

---

(١) جحاف : ٣٩٠ ، وقارن سعر القرش فيما يأتي (ص : ١٥٠) .

المباينة بعد أن كتبوا كتباً إلى الإمام أفصحوا فيها عن إهمالهم لتأخر جوامكهم وسباراتهم[1] . فأجاب عليهم الإمام : (وصل تعريفكم وأنتم أصحابنا وخدامتنا ، وأنتم تعرفون انقطاع المواد والدفاع من البر والبحر ، ومايصبر علينا إلاً أنتم ، وما سيفوت عليكم شيء) ، وخرج الأمير فرحان ياقوت المهدي لتسكينهم وخاطبهم باللطف واللين ، وأرسل الإمام ولده محمداً إليهم ، فخرج إلى شرارة ، فقام الشر في وجوههم ، ثم كلمهم فاستمعوا ، وامتهل منهم إلى يوم الخميس خامس وعشرين شهر شعبان فعادوا . »[2] .

ذلك كان شأن من عاد من العساكر ، وليس من شك في أن معظمهم إن لم يكونوا جميعهم من القبائل التي كان منها ألف من بكيل أمّا القائد المتوكل فقد بقي ملتزماً مع من بقي معه في متنة ويبدو أنه كان على علاقة صداقة خاصة مع مؤرخنا جحاف الذي ذكر أنه تلقى منه رسالة يستفسر فيها عن جلية الأمر في صنعاء فأجابه جحاف : « أن لاتبقى فإنهم في شغل شاغل عنك ، وبخروجك انقطع عنهم الشغل بك !»[2]

لم ييئس المتوكل القائد المحنك المخلص والذي كان يعرف بصاحب حجة[3] رغم أن المنصور كان قد أهمله دهراً طويلاً حتى كلفه هذه المهمة الصعبة والتي زادها صعوبة مالقيته القوة من ذلك الإهمال المذكور ،

---

(١) الجوامك : جمع جامكية وهي المرتب أو المقرر الشهري ؛ و « السَّبْرُ » في اللغة استخراج كنه الشيء ، وفي لهجة أهل صنعاء « السَّبَار » فعل الشيء ومنها « السبارات » أي « إعداد الطعام » وتدعى الطاهية « مُسبِّرة » ، والمقصود هنا تأخر وصول « وجبات غذائهم » .

(٢) جحاف : ٤١١

(٣) انظره فيما سبق (ص : ١٠١)

ومع ذلك فقد أسرع بالتوجه إلى تهامة بمن معه - وربما بمن عاد إليه من صنعاء - ، وكان معه حوالات بأطعمة وحبوب تسلمها في طريقه ، ويبدو أن أصحابه لم يقتنعوا بذلك ، فالطعام لم يكن كل شيء بالنسبة لهم « فوعدهم الخير بوصول البندر ، ولما وصل زبيد تلقاه إلى خارجها بولاد حسن الذي تلكأ في تزويد عساكر المتوكل فأغلظ الأخير له في القول ، فأضمر بولاد الشر ، وسرعان ماجاءت أخبار بأن قبائل الموهبة في نحو ثلاثة آلاف مقاتل في التحيتا على مقربة من زبيد فخرجت عساكر المتوكل بقيادة ابنه علي بن محسن وكانت معركة مهيلة استمرت طيلة اليوم قتل فيها من الموهبة أربع مئة وعشرة ، واحتز سبعون رأساً أرسل بها إلى المنصور في صنعاء ، فوصلت يوم ٢٣ رمضان ١٢٢١ هـ / ١٨ ديسمبر ١٨٠٦ م فعلقت هناك . والعجيب أن بين القتلى من الموهبة نحو ستين امرأة ، وهذا يعني أن نساء منهم كن يقاتلن ، أما قتلى عساكر المتوكل فقليلة وإن كان بينهم قادة كالنقيب محمد بن صالح جزيلان ونحو عشرين جريحاً من بينهم محمد بن هادي الشائف وآخرون . وبعد هذا الانتصار الأولي المؤزر انتهت حياة القائد المتوكل وابنه بوضع الأمير بولاد السم لهما في لبن بارد ، فمات المتوكل من يومه في ٢٢ رمضان وبقي بعده ابنه أياماً ثم لحق به ، وكان معه أبناء آخرون تجنبوا يومها شرب اللبن ، فلم يصب منهم أحد وكان ذلك ماأضمره بولاد من انتقام وبقي الجند « هملاً بلا راع ، وما زالوا هناك إلى أوائل المحرم في سنة ٢٢[١٢ هـ / مارس ١٨٠٧ م] وعادوا »[1] .

ومن ناحية أخرى كان المنصور قد أرسل بعساكر أخرى قبل ذلك بقليل إلى

---

(١) جحاف : ٤١١ - ٤١٢

الحديدة بقيادة أحمد بن علي البرطي ، إلاَّ انها تلكأت في الطريق عندما جاءت إليها أخبار عن الشريف حمود ثبطت من مسيرها ، لكنها حُثت من الأمير محمد بن المنصور فواصلت ودخلت الحديدة .

أما المنصور فبعد أن توجه يحيى بن محسن المتوكل في حملته تلك ، وجدَ في نفسه حماساً في آخر شهر شعبان نفسه « وأظهر الحركة والنزول إلى البنادر بنفسه ، وأمر بضرب الخيام في وادي عَصَر » ، وربما كان ذلك رد فعل لما حدث من عودة القوات وتظاهرتهم في صنعاء ، أو ربما لإذكاء الحماس في نفوس من عاد والتحق بحملة محسن المتوكل ، أو لأسباب أخرى كتلك التي كان من نتائجها جيش الحملة » لتطهير المناطق الجنوبية والشرقية[1] إلاَّ أن حماس المنصور سرعان مافتر ، وتقوّل الناس في ذلك الكثير[2] . وكان الأمر في الواقع بداية النهاية لحكم هذا الإمام الهَرِم .

☆ ☆ ☆

وهكذا وجد الشريف حمود نفسه في مركز قوة مقابل ضعف أمر المنصور ، وبدأ حمود يرفض من ناحية ثانية تدخل أبي نقطة ، في شؤون منطقته وتطور الخلاف في مناسبات كثيرة كان فيها كلا الرجلين يرفع شكاواه إلى ابن سعود في الدرعية الذي دبّ في نفسه الشك من نوايا حمود وأهدافه خاصة وقد توقف أي امتداد لنشر الدعوة الوهابية ، وكان بعض الأشراف من المخالفين لحمود يؤكدون لابن سعود أن حموداً هو السبب وليس إعراض الناس عنها . ولما اشتد الخلاف وكثر اللغط حول حمود ومسلكه استدعاه ابن سعود إلى الدرعية فتعلل معتذراً ، فكرر طلبه ليلقاه في موسم الحج سنة ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م وإذا لم يحضر فهو « العصيان !» . ولكن حموداً ـ بالطبع ـ لم يذهب فقد كان يرى في نفسه الأحقية

---

(١) انظر (ص ١٢٢) فيما تقدم

(٢) جحاف : ٤١١

في الإمارة والجدارة بالاستقلال ، كا أنه لم يكن يأمن على نفسه في الذهاب فأمر ابن سعود أبا نقطة في الاستعداد لمحاربة حمود والخلاص منه[1] .

وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٢٢٤ هـ / يونيو ١٨٠٩ م « وصلت الأخبار الصحيحة عند الشريف بأن عبد الوهاب بن عامر [أبو نقطة] قد بَرَّز الخيام ونادى بالنفير في كل من هو تحت إمارته من جبل هاد إلى وادي ريم سهلاً وحَزْناً ، وأظهر أمر الغزوة ولم يوار بغيرها .. »[2] . لقد تطورت الأمور وأصبحت الحرب هي الفيصل من جديد ، ولم يكن هناك سبيل للموازنة بين قوى الجانبين ، فقد كان الجيش السعودي يزيد عن جيش حمود بثلاثة أضعاف على الأقل ، في حين لم تزد قوات حمود عن سبعة عشر ألفاً معظمهم قبائل يمنية من حاشد وبكيل ويام[3] لا يدينون كثيراً بولاء حقيقي للشريف حمود . وكانت المعركة يوم ٢٨ جمادى الآخرة ، وكان القتل في الجانبين كثيراً ، « وعند حملة الشريف إلى الخيام ، قتل الأمير عبد الوهاب ابن عامر الرفيدي [أبو نقطة] والذي تولى قتله جماعة من حي بكيل ومن ذي حسين وثم أقوال أخرى في تعيين القاتلين .. ولم يشعر أحد من رؤوساء قومه بقتله ..»[4] ورغم مقتل القائد السعودي فإن حموداً هزم وتراجع مع من بقي إلى أبي عريش وطاردته قبائل حشر ووقعت بين الطرفين معركة في موضع يسمى (الوحلة) غربي أبي عريش وقد تمكن الشريف حمود بعساكره من هزيمة حشر وقد هوّن عليه هذا هزيمته في وقعة بيش .

ويشرح لنا البهكلي لماذا تم الانسحاب وكيف كان ذلك ، فيقول :

---

(١) البهكلي : **نفح العود** ٢٣٨ ـ ٢٤١ ، جحاف : ٣٩٠ و ٤١٠ ـ ٤١١ ؛ عبد الرحيم (الدكتور) : **الدولة السعودية الأولى** : ١٧٥ ـ ١٨٢

(٢) البهكلي : **نفح العود** ٢٤٩

(٣) انظر مقارنة محقق نفح العود لمختلف روايات أعداد الجيشين (ص ٢٥٢ حاشية)

(٤) البهكلي : **نفح العود** ٢٥٥

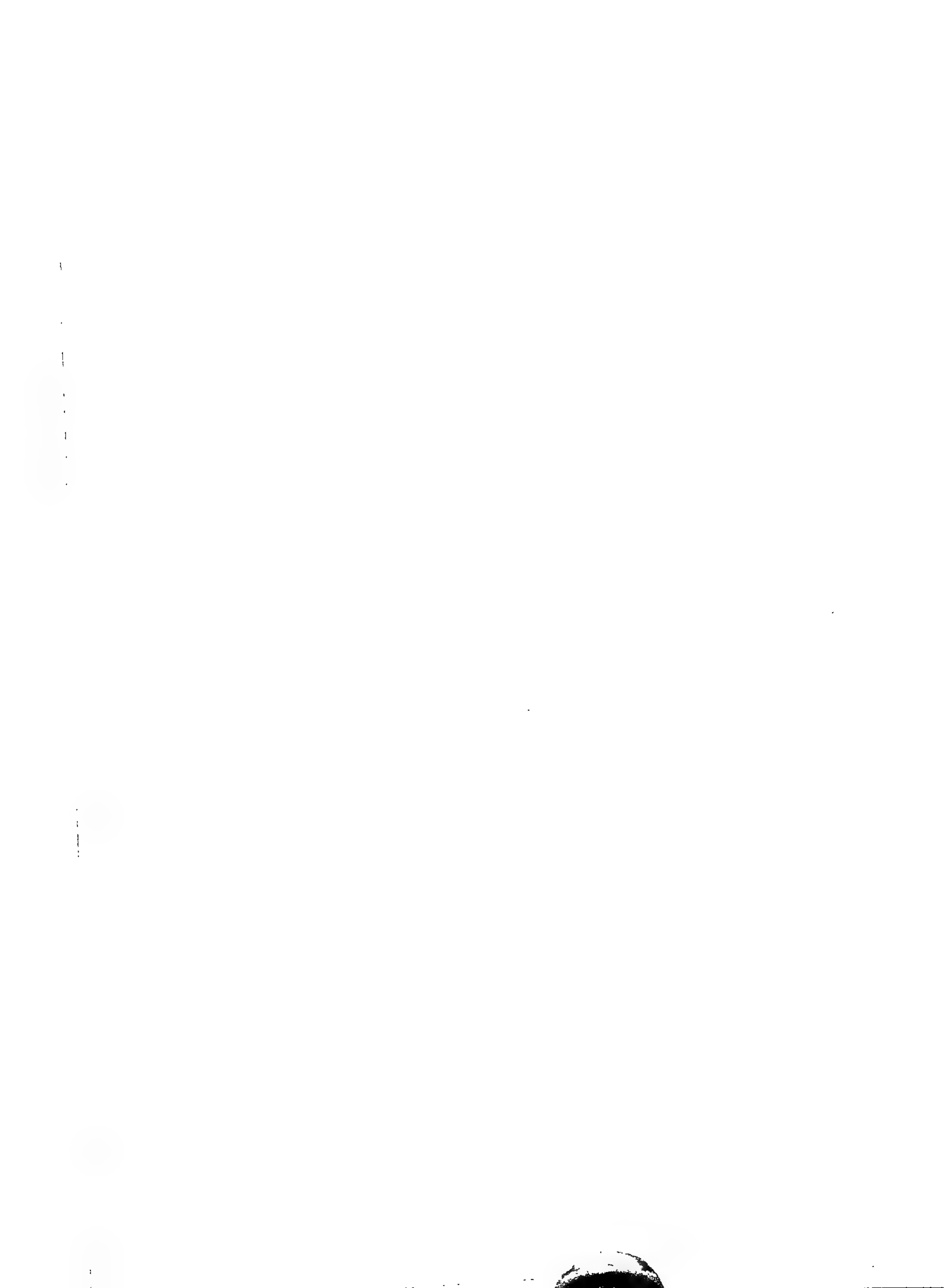
« وبعد عودة حشر من اليمن نادى كبراء القوم بالشداد من مطرح ضمد ، ورجعوا إلى الشام [أي شمالاً] ، وجاءت طريقهم على صبيا ، واختلف الناس في سبب شدادهم ، فكثير من الناس قال : إن الشريف منح كبراء القوم بشيء من المال فأظهروا لعامتهم أنا فعلنا مافعلنا وما يمكن منا التعدي إلى اليمن إلاَّ بعد الجواب من سعود بتعيين الأمير الذي بعد عبد الوهاب ، وعادوا ..»[1] .

وقد عين سعود على عسير كافة طامي بن شعيب الرفيدي خلفاً لعبد الوهاب أبي نقطة وهو قريب له ، فاستقر ببلدة طبب ، وأرسل بأمير على صبيا ومنطقتها مع رجال من عسير ، « وقد عهد إليه سعود ببذل الوسع في معاداة الشريف حمود ، والشريف حمود مستقر بأبي عريش يتتبع الغوائل لاستنقاذ صبيا ومخلافها ... وقصّر الشريف نظره عن التهيج إلى افتتاح الأمصار ، وطلب الزيادة من شيء غير هذه الديار ، بل قنع بما في يده من البلاد ...»[2] .

كانت هذه هي حال حمود في هذه الأوقات العصيبة ، وكان المنصور في صنعاء يعاني كذلك من أزمات حادة ، ولن تعود تهامة إلى سلطان صنعاء إلاَّ في مرحلة ثانية وفي ظروف مغايرة .



(١) البهكلي : نفح العود ٢٥٨
(٢) نفسه ؛ ٢٦٠ ـ ٢٦١ ؛ الشوكاني : البدر الطالع : ١/٢٤٠



الفصل الرابع

المتوكل أحمد وحكمه

(١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ / ١٨٠٩ ـ ١٨١٦ م)

المتوكل أحمد بن المنصور علي .

١ ـ تسارع الأحداث

٢ ـ اعتداء العنسي على الوزير العلفي

٣ ـ حركة آل الكبسي في الروضة

٤ ـ انقلاب الأمير أحمد

٥ ـ سيطرة الأمير أحمد على أزمة الأمور

٦ ـ المتوكل أحمد إماماً

٧ ـ حكم المتوكل أحمد (١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ / ١٨٠٩ ـ ١٨١٦ م)

٨ ـ حملة المتوكل على كوكبان وأسر آل شرف الدين

٩ ـ هدم القبور والحملة على تهامة

١٠ ـ الأحداث الأخيرة ووفاة المتوكل

المتوكل أحمد بن المنصور علي

(١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ / ١٨٠٩ ـ ١٨١٦ م)

في التاريخ اليمني بعض الأمثلة التي انتزع فيها الأبناء الحكم من آبائهم[1] . وأحمد بن المنصور علي واحد من الأمثلة ، كما أنه آخرها في تاريخ اليمن الحديث . بيد أن الأمير أحمد لم يفعل ذلك طموحاً للاستيلاء على السلطة ورغبة في الحكم ، بل لأنه كان شريكاً حقيقياً لأبيه في ذلك ، ولأن أوضاع البلد المتدهورة باتت تنذر بخطر محدق كان الأب والابن أول من يصاب به . فوجد الأمير أحمد نفسه أمام ذلك الخطر وجهاً لوجه ، كما ألقيت تبعة الأمور على كاهله وكان عليه أن يتحملها رغبةً وطموحاً أو كرهاً واضطراراً .

لقد كان هنالك العديد من المشاكل الحادة التي لا يمكن المزيد من الانتظار لحلها وبعضها بات مزمناً بدون حل أو حسم كمشكلة تهامة . كما أن مشكلة العصيان والفتن القبلية قد عادت من جديد إلى سيرتها التقليدية وباتت تهدد

(١) من أشهر الأمثلة على ذلك الإمام المطهر بن الإمام شرف الدين (٩٠٨ ـ ٩٨٠ هـ / ١٥٠٨ ـ ١٥٧٢ م) الذي كان له صولات وجولات مع أبيه ثم بمفرده في وجه الأتراك وقد استولى على الحكم في آخر أيام والده الذي توفي سنة ٩٦٥ هـ/١٥٥٨ م وحكم حتى مات في « ثلا » عام ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م ، وكان المطهر بطلاً إلاّ أنه كان دموياً وهو آخر الأئمة البارزين من آل شرف الدين ومثل آخر من أسرة القاسم التي حكمت بدل « آل شرف الدين » ذلك هو الإمام المنصور حسين بن القاسم الذي تحالف سنة ١١٣٩/١٧٢٦ م مع علي بن قاسم الأحمر رئيس حاشد وناصر جزيلان رئيس بكيل وآخرين ضد أبيه القاسم بن حسين في قصة طويلة ، وقد خلف أباه الذي مات بصنعاء في نفس العام ، وهو جد « المنصور علي » الذي نتحدث عنه الآن .

الأمن والاستقرار . غير أن مشاكل أخرى ذرت بقرنها لتضيف تعقيداً للأمور وإرباكاً للإدارة في صنعاء ، بل وخطراً على الإمام ، كحركة آل الكبسي في الروضة ، على بعد بضعة أميال فقط من العاصمة ، والأزمة الاقتصادية الخانقة التي لم تعد الدولة معها بقادرة على دفع مرتبات (جامكيات) وإقامات (أقوات) الجنود المتبرمين والغاضبين وبشكل خاص أولئك الجنود العائدون لتوهم من زبيد والذين كانوا في تهامة بقيادة السيد علي بن محسن المتوكل الذي مات هناك[1] . وبلغت الأزمة ذروتها عندما شدّد القاضي العنسي صاحب برط حصاره على صنعاء .

إن تلك الأحداث وما رافقها من ظروف وما نتج عنها من سقوط المنصور علي وظهور ابنه المتوكل أحمد منقذاً للإمامة الزيدية هو ماسوف نعرض له فيما يأتي .

☆ ☆ ☆

١ ـ تسارع الأحداث

يفتتح المؤرخ « جحاف » حوادث سنة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ م من حولياته بأنها « سنة العجائب والغرائب ، والنوائب والمصائب !»[2] وفي الواقع فإنها كانت كذلك !

عين المنصور إبنه محمداً والياً على ذَمَار والمناطق الوسطى التي بدأت الفتن تظهر فيها من جديد ، وكان لابد من حملة تطهير وقيادة قوية . ومن أول ماواجهه الأمير محمد خروج شيخين بارزين من قبائل الحدأ هما علي بن ناجي القوسي وسعد مفتاح البخيتي ، وقيامهما ببعض أعمال الشغب والخطف في المنطقة

---

(١) انظر (ص ١٠١) من الفصل السابق

(٢) جحاف : ٤٣٥

وقطع طريق ذمار صنعاء، وقد تمكن الأمير محمد من إعادة فتح الطريق والقبض على القوسي والبخيتي ومشايخ آخرين من خولان وعنس وأخذ منهم الأدب وأودعهم السجن في ذَمَار فهدأت الأحوال واستبشر الناس خيراً[1] .

ومن ناحية أخرى عاد سيف الإسلام أحمد بن المنصور من حراز غاضباً ، وكان سوَّى أمور المنطقة وأنهى المشكلات التي كانت قائمة ، وكان خلال ذلك ينتظر وصول المزيد من الرجال والمؤن ليتقدم صوب تهامة بعد أن رفض الإجابة على رسائل وصلته من الشريف حمود مع رسل يعرضون عليه دعوة حمود له والترحيب به وأنه سيدخل « في جَمعه » ، فأحمد لم يكن يرغب ولا يمكنه الذهاب إلى حمود إلاّ بقوة الفاتح وهيبة الدولة وليس بصفة المصالح أو الضعيف . لكن الوزير حسن العلفي ـ المتسلط في صنعاء ـ أخّر المؤن والمال والرجال ، كما فعل من قبل مع حملة القائد المتوكل[2] . ويبدو أن العلفي أدرك الخطر من مجيء أحمد فحاول إقناع المنصور بمنع ابنه من الوصول إلى صنعاء وتعيينه والياً على عَمْران على أن يتوجه إلى هناك مباشرة . وكان ذلك أول تحد صريح يواجهه أحمد في الصراع مع إدارة والده . فأبلغ صنعاء رفضه لهذا التعيين ومواصلته السير إلى العاصمة . وعندما وصل إلى المساجد التي تبعد نحو عشرين كيلو متراً غربي صنعاء توافدت إليه قبائل بني الحارث وهمدان وسنحان ، وخرج بعض الأعيان والناس من صنعاء ، وقام بالسفارة بين الإمام وابنه القاضي محمد بن علي بن عبد الواسع وتعقدت الأمور بينهما إزاء إصرار المنصور على عدم دخول أحمد صنعاء ، وحاول أحمد بدوره أن لا يظهر العقوق أو العصيان ، لكن شيئاً لم يكن يثنيه عن تصميه . وكان العلفي بدوره يدفع المنصور ويشجعه على موقفه ، وكاد الأمر يتفاقم وتصل وساطة السفير إلى طريق مسدودة حتى اجتمع الوزراء بالمنصور

---

(١) جحاف : ٤٤١ ـ ٤٤٢

(٢) انظره فيا سبق (ص ١٠١)

وتحـــدث عنهم الحسن بن علي حنش[1] والـوزير علي بن حسين الآنسي[2] (١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م) فـأفصحـا : « بـالتـدبير في منعـه من الـدخـول ، فنظر المنصور صدق ذلك فجنح إلى دخوله ، وكان قد رأى النـاس يخرجون إلى سيف الإسلام أفواجاً ، فأذن له بالوصول ، فدخل من آخر يومه إلى حضرة والده »[3] . وكان جو العاصمة متوتراً وأصبح مركز الوزير العلفي في خطر .

☆ ☆ ☆

ساءت الأحوال السياسية والاقتصادية بشكل لم يسبق لـه مثيل خلال أكثر من ثلاثين سنـة مضت من حكم الإمـام المنصـور ، وتعـددت أشكال الفـوضى واضطراب حبل الأمن وسلامة النـاس في كثير من المنـاطق . وارتفعت الأسعـار بشكل مطرد خطير ؛ ذلك أن المنصور جرى على تغيير عملتـه كلمـا واجهتـه أزمـة ماليـة ، وكانت نسبـة الفضـة تقل في كل سـك جـديـد ، كما أن الريـال أو القرش الفضي كان يختفي ويندر وجوده في أيـدي النـاس ، وقـد قـام المنصـور خـلال العامين الأخيرين بتغيير العملة ثلاث مرات أو أربعاً . وكانت آخر مرة قبل ذلك قـد تمت في بـدايـة عـام ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م وأصبـح قيمـة الريـال أو (القرش) ٣٥٠ حرفـاً من الحروف التي كان يصـدرهـا وهي (حرف ريـال) ، وبلغت ٤٥٠ حرفاً في مناطق اليمن الأسفل ، وكان عدد الحروف في الماضي أقل ، وبالتـالي قدرتها الشرائية أكبر ، ومنذ ذلـك العـام وفي كل تغيير - بـالإضـافـة إلى الأوضـاع العامة المتـدهورة - وعـدد الحروف في تصـاعـد وقيمتهـا في هبوط ، وكرر التجـار

---

(١) انظره فيما سبق (الفصل الثاني ص : ٥٧ و ١١٠)

(٢) كان الآنـي فقيهاً ورجلاً كفوءاً ، عمل سكرتيراً للأمير أحمد وعـاملاً على صنعـاء وعنـدمـا توفي الوزير أحمد فايع عـام ١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م (انظره) حل محلـه ثم عزل وتوفي بعـد ذلـك بخمس سنوات بعد معاناة طويلة من مرض الاستسقاء . (جحاف : ٤٩٣ ؛ زبارة : **نيل** ١٣١/٢)

(٣) جحاف : ٤٤٣

والناس شكاواهم من قلة الفضة في العملة وزيادة النحاس[1] .

وحين اشتدت الضائقة بالناس وشكوا غلاء الأسعار ، وزادت مطالبة الجنود بمرتباتهم المتأخرة لم يجد المنصور من حل إلاً منع الناس التعامل بالعملة السابقة ، وضرب عملة جديدة أمَرَ بالتعامل بها من يوم الأحد ١٣ جمادى الآخر سنة ١٢٢٢ هـ/ ٢١ أغسطس ١٨٠٧ م[2] ، وبهذا الإجراء زاد التدهور الاقتصادي ، وخسر الناس كثيراً من الأموال النقدية التي كانت في أيديهم . وازداد الفقراء فقراً كما أصبح التجار وبخاصة تجار الحبوب أكثر جشعاً ، وبلغ الأمر بأولاد الإمام إلى الخوف من الخروج لأداء صلاة الجمعة التي أعقبت الإصدار ، وتكرر الأمر نفسه في الجمعة التالية ٢٤ جمادى الآخرة وذلك « لعلمهم بما الناس عليه من الوجع » ، وبعد « الصلاة تجمهرت الأجناد المتأخرة جوامكهم وسَبَاراتهم وقصدوا قصر صنعاء وحاصروه وأرادوا ضبطه وفتح دار الضرب فمنعهم الشريف علي بن ناجي ورجاله وأغلقوا الأبواب ، وقتل رجل من أصحاب عبد الله بن الإمام ، وكادت تقوم فتنة لولا تدخل عقلاء الناس لدفعها كالنقيب فرحان ياقوت فأخذوا عليهم الصبر إلى الليل فإن تخرج أرزاقهم وإلاً عادوا ، فسكن شرهم قليلاً وتحملت الدولة دية القتيل ..[3] » إزاء هذا الوضع الصعب وثورة العامة ونزولهم إلى باب المنصور للشكوى وبناءً على نصائح مستشاري المنصور وبعض وزرائه قام المنصور بسجن تجار الحبوب المغالين في الأسعار وعاقبهم ، وكان سعر القدح الحنطة قد بلغ ستة

---

(١) جحاف : ٣٨٠ و ٣٩٨

(٢) نفسه : ٤٤٧ ويستخدم « جحاف : تعبير « كَسْر الضربة » لمعنى تغيير وإصدار عملة جديدة وكانت قيمة الإصدار الجديد مختلفة عن سابقتها فالريال يعادل قيمة نصف الريال الفضي من عملة ماريا تريزا النساوية التي تعادل قيمتها الفضية حوالي ستة دولارات أمريكية (في العام ١٩٨٣ م) وقد كانت هذه العملة تستعمل في اليمن حتى بعد ثورة ١٩٦٢ م واستبدلت بالريال الورقي الجمهوري عام ١٩٦٣ م ومنع التعامل بها نهائياً عام ١٩٦٥ م

(٣) جحاف : ٤٤٧ ـ ٤٤٨

قروش ، كما أنزل اليهودي المناط به دار الضرب » وضرب على رجله القيد وقال له شك لندس نعبث بالضربة وكثرة النحاس الذي بها ..[1] » لكن إجراءات المنصور على كل حال جاءت متأخرة .

وهكذا عانى سكان العاصمة كثيراً من هذه الأوضاع السيئة ، بالإضافة إلى حصار قبائل ذي محمد للعاصمة نفسها الذي استمر حتى ٥ رمضان من عام ١٢٢٢ هـ / ٩ أكتوبر ١٨٠٧ م حين أدرك عقلاء القبائل العيب في ضرب الحصار خلال الشهر الكريم ومعرفتهم بما يعانيه الناس ففكوا محاصرة الأبواب وعادوا إلى ديارهم[1] .

وماكاد أهل صنعاء يتنفسون الصعداء من فك حصار القبائل حتى وقعوا في محنة جديدة ، ففي يوم الجمعة ٢٠ رمضان غادر بعض جنود المنصور المدينة في حالة غضب لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم الموعودة ، وخارج العاصمة قاموا بمزاولة نفس الأعمال التي كانت ذو محمد تقوم بها . فأقفلت بوابات المدينة ، وقطعوا الطرق المؤدية إليها وقاموا بسلب المسافرين[2] .

وفي مساء السبت ٢٢ رمضان قام القاضي محمد بن علي الشوكاني ، قاضي القضاة ، والوزير حسن بن حسن العلفي والأمير عبد الله بن المنصور ، بزيارة سيف الإسلام الأمير أحمد في دار الذهب وبحثوا معه الحالة السيئة للعاصمة وضرورة فتح بواباتها وإعطاء الجنود مرتباتهم[2] . وليس واضحاً ماتم في تلك المقابلة ، كما أننا لانعرف ماإذا كانت قد تمت بتوسط من الإمام الشوكاني لما له من قوة تأثير حتى يجتمع الوزير العلفي بالأمير أحمد الذي كان له سيطرة واحترام في

---

(١) جحاف : ٤٥٥

(٢) نفسه : ٤٥٩

نفوس الجند ، فكل ما نعرفه أن أبواب المدينة تم فتحها في صباح اليوم التالي وعادت الحياة من جديد إلى مجراها الطبيعي .

☆ ☆ ☆

٢ ـ اعتداء العنسي على الوزير العلفي

وصل إلى صنعاء يوم الاثنين ١١ شوال سنة ١٢٢٢ هـ / ١٣ نوفمبر ١٨٠٧ م ، القاضي البرطي يحي بن عبد الله بن حسن العنسي مع بعض رجاله بغية مقابلة الإمام المنصور . وفي المساء دبر لاغتيال الوزير حسن بن حسن العلفي وتوجه بالفعل ليلاً إلى منزله لكن الأمر لم يتم . وأمضى عشرة أيام في صنعاء ينتظر مقابلة الإمام ويتحيّن الفرصة المواتية للانتقام من العلفي . حتى كان يوم الثلاثاء ٢٢ شوال / ٢٤ نوفمبر حينما توجه القاضي العنسي لمقابلة الإمام المنصور في دار الاسعاد ، وحيث كان ينتظر في ساحة الدار خرج إليه الوزير العلفي فعاجله بطعنتين إحداهما في ساعده والأخرى لم تكن قاتلة ، وألقى المصاب بنفسه على الأرض فظن العنسي أنه قد قتله ، ففر هارباً وصارخاً بأن الأسد الذي كان في قفص في ساحة القصر قد خرج من قفصه ليشغل الحرس والناس بذلك . وكان أصحابه ينتظرون خارج البوابة فانضم إليهم وتوجه ليختفي في أحد بيوت وكلاء برط قريباً من مدرسة الإمام شرف الدين في المدينة ، أمّا العلفي فقد قام بعد ذلك مضرجاً بالدماء ، وكان أحد رجاله قد حاول قتل العنسي إلاّ أنه سبقه بطعنة في جبهته وتمكن من الفرار ودخل الوزير على المنصور وهو في حالة سيئة بعد أن هرع لمساعدته القاضي محمد الشوكاني والأمير أحمد اللذان كانا في الدار . وفي لحظة غضب أهدر المنصور دماء قبائل العنسي ذي حسين في صنعاء ، فتلقفتهم العامة في الطرقات والأزقة وقتلوا ثمانية عشر رجلاً منهم[1] .

---

(١) الشجني : **التقصار** (ق ١٢ ب) ؛ جحاف : ٤٩٥

توجه الأمير أحمد بنفسه على رأس جماعة من الجنود وحاصر المنزل الذي اختفى فيه العنسي ، ولما رفض الاستسلام هدد الأمير بأنه سينسف البيت بمن فيه بالمدفع ، لكن العنسي وافق أخيراً على شرط أن يسلم نفسه في « وجه الأمير أحمد شخصياً » ، فتم ذلك ووضع الرجل في السجن مع بعض أقربائه . وفي اليوم التالي ونتيجة لمسعى الأمير أحمد في إنهاء المشكل أعلن المنصور - يوم الاربعاء - العفو والأمان لذي حسين . إلاَّ أن الأمر أخذ شكلاً (دراميا) مع فجر يوم الخميس حينما أمر المنصور بقطع رؤوس القاضي يحي بن عبد الله العنسي وابنه صالح ، وعمه يحي بن حسن ، وتم تنفيذ ذلك بجوار جامع البكيرية ، ودون تشاور مع الأمير أحمد بن المنصور أو علمه[1] .

☆ ☆ ☆

٣ - حركة آل الكبسي في الروضة

ينتسب السادة آل الكبسي إلى هِجْرة الكِبْس الواقعة بين اليانيتين العليا والسفلى في خولان على بعد نحوه ٣٥ كيلو متراً جنوب شرق صنعاء[2] . وهم من الناحية السلالية - مع أسر أخرى - ينتسبون إلى الإمام حمزة بن أبي هاشم الحسني المقتول في أرحب سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م[3] . ومنذ مقتل هذا الجد وعبر القرون التي مضت إلى الحقبة التي نحن بصددها لم يحاول أحد من فروع أسرة الإمام حمزة أن يدعو لنفسه إماماً ، بالرغم من أنه قد وجد من بينهم بعض العلماء ممن أحرزوا من العلم الصفات المرشحة لسدة الإمامة . ولقد لفتت هذه الظاهرة - على كثرة تسابق أسر أخرى للحكم - نظر والي صنعاء التركي حسين حلمي باشا فسأل في عام ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م عالمين كبيرين من آل الكبسي ، هما حسين غمضان الكبسي (ت ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م) وزيد بن أحمد الكبسي (ت ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م)

---

(١) الشجني : التقصار : ق ١٣ ؛ جحاف ٤٥٩ - ٤٦٠

(٢) زبارة : **نشر العرف** : ٢٥٠/١ ؛ أئمة : ٢٩/١

(٣) زبارة : **نيل الحسنيين** : ١١٦ و ١٧٣ - ١٧٦

لماذا لم تكن الإمامة في بيت من بيوتهم ؟ فأجابا بأن أسلافهم كانوا يؤثرون الخمول أي الميل إلى عدم الشهرة وإلى حب التواضع ، وسواء كان ذلك هو السبب أم أن الظروف العامة من عصبية وقلة المؤيدين والأنصار لم تكن دائماً مواتية ، وكيفما كان الأمر فحادثة آل الكبسي في الروضة هي نوع من الصراع السياسي الذي دخله هذا البيت غضبة للحق ضد المنصور أو طموحاً للمناصب ونفضاً لغبار الخمول .

لقد سكن بعض آل الكبسي في الروضة متنزه صنعاء الشمالي القريب منها ، ومازال منهم بقية هناك إلى أيامنا هذه . وكان جامع الروضة الكبير لا يخلو من عالم منهم يدرس فيه أو خطيب للجمعة وإمام للصلاة ، أو سادن يدير شؤونه أو كل ذلك في بعض الأحيان .

وفي شهر شوال من عام ١٢٢٢ هـ / نوفمبر ١٨٠٧ م تصدر آل الكبسي حركة ضد الإمام المنصور وإمامته في صنعاء . وكان مرشحهم العالم السيد حسين بن عبد الله الكبسي قاضي الروضة وإمام جامعها[١] . لكن هذا لم يكن الأمر الأول . ففي العام السابق لحركة الروضة كان عالم آخر من آل الكبسي هو إسماعيل بن أحمد الكبسي (١١٥٠ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٣٥ - ١٨١٧ م) الملقب بالمغلس[٢] قد غادر صنعاء حيث كان يُدرّس بجامعها وتوجه أواخر سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٧ م إلى ظفير حجة ومعه جماعة ، ودعا لنفسه وتلقب بالمتوكل على الله ، وبعث برسائله إلى

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ١/٢٢٠ ؛ جحاف : ٥٠١

(٢) كان عالماً ، فاضلاً أخذ على علماء صنعاء الكبار ومنهم الإمام الشوكاني الذي وصفه بالمعرفة التامة ، وفطرة سليمة ، وفاهمة قوية » وبأنه « كثير الطاعة ، قليل الفضول كثير الإقبال على شأنه ، صليب الديانة ، تعتريه حدّة لاسيا إذا شاهد شيئاً من المنكرات » **البدر الطالع** ١٤١/١ .

مختلف الجهات ، لكن أمره انتهى فيما بعد وتفرغ للتدريس والوعظ في عدة مدن آخرها ذَمار حيث توفي[1] .

أمّا حركة الروضة فقد كانت خطيرة لقربها من العاصمة ولسوء أحوال المنصور فيها . وقد أيد دعوة آل الكبسي بعض البيوتات الهاشمية كآل أبي طالب ، وآخرين . كما تمكنوا من جذب أحمد بن عبد الله بن المهدي عباس - ابن أخي المنصور - إلى صفهم ، ويبدو أن أحمد هذا نفسه كان طموحاً لمنصب الإمامة وعلى خلاف مع عمه المنصور[2] .

وقد آزر أهل الروضة الحركة « رغبة أو رهبة »[3] كما وصل بعض قبائل آل الكبسي من خولان ومعهم آخرون . وبعد إعلان العصيان أو الثورة ضد إمامة المنصور هوجمت داره في الروضة « دار البشائر » ونهبت كذلك بيوت أهل صنعاء المغلقة والتي يغادرها أصحابها من الموسرين في موسم الأعناب ، وطرد عامل المنصور ، كما أرسلت رسائل الدعوة إلى مختلف المناطق وخاصة إلى القاضي عبد الله العنسي صاحب برط[4] معلنين بأن ماقاموا به هو واجب « للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[5] .

قام المنصور بإرسال القاضي أحمد بن محمد الحرازي (ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) - الذي كان يقوم للمنصور بمهمات ووساطات -[6] إلى الروضة حاملاً

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ١٤١/١ ؛ زبارة : نيل الوطر : ٢٦٠/١ ؛ الشجني : **التقصار** ق١١٦.

(٢) الشوكاني : **البدر** : ١٤٤/١ ، الشجني : **التقصار** : ق ١١٦ ؛ جحاف :٩٥٤ - ٤٦٠ الذي أشار إلى أن آل الكبسي أرسلوا إلى محمد بن المنصور والي ذمار ليدعم موقفهم لكنه تجاهل ماوصله منهم .

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٢٠/١

(٤) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٢٠/١ ؛ جحاف : ٤٦٠ ؛ الشجني : ١٣

(٥) جحاف : ٤٦٠

(٦) انظره فيما سبق (ص : ١١٤)

منه رسائل كتبها قاضي قضاته الإمام الشوكاني تتضمن الموافقة « في كل ما طلبوه من العدل ، والأمان لهم ، فما رجعوا ، بل صمموا على ماعزموا عليه »[1] وبصعوبة تمكن العلامة الحرازي من أن يهرب ناجياً بحياته .

وحاول الأمير أحمد بن المنصور بدوره أن يقنع آل الكبسي بالتراجع عن موقفهم وأرسل (سكرتيره) الخاص حسن بن علي بن عبد الواسع بمهمة مشابهة إلاَّ أنها أيضاً لم يكتب لها النجاح .

وخلال هذه الأوقات العصيبة كرر الوزير حسن بن حسن العلفي حماقاته في تأخير المقرر لبعض القبائل التي كانت قد جهزت للهجوم على الروضة . فتدخل الأمير أحمد وقام بنفسه لتسوية هذا الأمر ، وتفرغ جدياً لإنهاء الخطر القريب في الروضة .

قام الأمير أحمد باستدعاء قبائل بني الحارث وبلاد البستان وبني حشيش وهي من القبائل القريبة إلى صنعاء والأكثر ولاءً للعاصمة . ولَّما تجمع له العدد المطلوب بالإضافة إلى بعض جنده غادر صنعاء في الأسبوع الأخير من ذي القعدة عام ١٢٢٢ هـ / ديسمبر ١٨٠٧ م وعسكر في قرية الجراف في منتصف الطريق تقريباً بين صنعاء والروضة التي تبعد / ١١ كم / ، وكان ذلك بعد مضي شهر على حركة آل الكبسي ، ومن الجراف أرسل العسكر ورجال القبائل للسيطرة على الطرقات المؤدية إلى الروضة وقطع ما يصل إليها من مواد غذائية وتموينية ، وفعل كذلك بمصادر المياه التي تأتي إلى المدينة من خارجها . ويبدو أن الروضة لم تكن مزودة بما يكفيها لتصمد في وجه الحصار ، إذ لم تمض إلاَّ أيام قليلة حتى استسلم آل الكبسي[2] ومؤيدوهم يوم الخميس ٢٧ ذي القعدة بعد مناوشات قليلة ،

---

(١) الشوكاني :البدر الطالع : ٢٢١/١

(٢) كان من أبرز آل الكبسي في الروضة في هذه الأثناء سمي الإمام المغلس إسماعيل بن أحمد الكبعي الروضي (١١٥٠ ـ ١٢٣٠ هـ/١٧٣٧ ـ ١٨١٧ م) وهو عالم ، فقيه ، نحوي ، مدرس ،

ودخل الأمير أحمد الروضة صباح اليوم التالي . وكان محمد بن يوسف الكبسي مع نفر في منزله قد رفض الاستسلام ، لكنه في اليوم الثاني استسلم .

وفي يوم السبت لعله الأول من ذي الحجة سنة ١٢٢٢ هـ / أول يناير عام ١٨٠٨ م اصطحب الأمير أحمد أسراه من آل الكبسي ، وابن عمه أحمد بن عبد الله ابن المهدي وغيرهم من المشاركين في الحركة ودخل بهم صنعاء مظفراً حيث أحضروا إلى « تحت طاقة المنصور » وقد كان الفضل للإمام الشوكاني في عدم إعدامهم فقد ذكر أنه بالغ في « الشفاعة لهم من القتل بعد أن كان قد وقع العزم عليه ، وقمت بالحجة الشرعية المقتضية لحقن دمائهم ، فأودعوا السجن »[1] .

وبعد ثلاثة أشهر توفي السيد حسين الكبسي في سجنه بقصر صنعاء ، وبعد عام لحق به أحمد بن عبد الله بن المهدي عباس الذي مات في السجن أيضاً في ٨ محرم عام ١٢٢٤ هـ / ٢٤ فبراير ١٨٠٩ م[2]

☆ ☆ ☆

٤ ـ انقلاب الأمير أحمد

كانت النتيجة المباشرة لإعدام المنصور القاضي يحي العنسي وابنه وعمه في

= شاعر ، عكف على التدريس بعد صنعاء في جامع الروضة ، وكان فاضلاً ، زاهداً به تشيع محمود ، وكان به شجاعة في مواجهة الحكام ومن ذلك نقده الشديد للمنصور فيا ارتكبته قبائل برط في اليمن الأسفل من نهب وسلب سنة ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م (انظر ماسبق ص : ١٠٠ وما بعدها) ، ولما ادعى سميه الكبسي الخلافة في حصن ظفير حجة ، ثم قامت حركة أقربائه بالروضة لاذ بالفرار إلى هجرة الكبس بخولان وبعد مدة عاد إلى صنعاء واستوطنها ومات بالروضة وعمره ٨٣ سنة وله شعر جيد ومراسلات كثيرة منها للإمام الشوكاني « انظر : الشوكاني : البدر ١٤٠/١ ؛ ديوانه ٢٥٤ ، جحاف : ٤٣٥ ، ٤٤٤ ؛ زبارة نيل الوطر ٢٦١/١ ـ ٢٦٦)

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٢١/١ ؛ الشجني : **التقصار** ق ١١٦ ت

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٢١/١ ؛ جحاف ٥٣٨

صنعاء عقب محاولة قتل الوزير العلفي كما تقدم[1] ، أن قامت قبائل ذي حسين بقيادة عبد الله بن حسن العنسي - والد يحي - بالتوجه نحو صنعاء للثأر والانتقام . وقد صادف مجيئهم موسم قحط وجفاف بالغ الصعوبة في مناطقهم ومناطق أخرى كثيرة في اليمن .

وفي صنعاء كانت الأوضاع لازالت سيئة رغم القضاء على معارضة آل الكبسي في الروضة قبل بضعة أشهر وما أعطى ذلك الدولة من هيبة ؛ فقد أكثر المنصور من احتجابه عن الناس ، وبلغ الخوف بوزيره العلفي أن زاد الحراسة على منزله الذي منه كان يدير أعماله ، ولا يقابل إلا رؤساء القبائل من نافذة مرتفعة وضع خارجها سياج من الحديد[2]

وصلت قبائل ذي حسين من برط بقيادة العنسي وعسكرت في عَصُر . وفي يوم الأربعاء ٢٤ من رجب سنة ١٢٢٣ هـ / ١٩ سبتمبر ١٨٠٨ م نزل مع رجاله إلى باب اليمن البوابة الجنوبية لمدينة صنعاء وأحكم الحصار على المدينة ، فلم يعد أحد يقدر على الخروج أو الدخول إليها . وزاول العنسي ورجاله خارج أسوار المدينة كل أنواع النهب والاعتداء والقتل على القرى المجاورة شمالاً وجنوباً . وزاد الطين بلة استمرار الوزير العلفي في سياسته العقيمة في تأخير مرتبات العسكر ، وعانى السكان شدة وضيقاً لم يسبق لهما مثيل[3] ، وبلغت بهم محنة الجوع أن أكلوا الميتة ، بل لقد ذكر جحاف « أن امرأة ماتت فكتمت أمرها امرأة أخرى وادخرتها

---

(١) انظر (ص ١٥٣ فيما تقدم)

(٢) الشجني : التقصار (ق ١٤ ب) ؛ جحاف : ٤٨٣

(٣) كان سعر القدح الحنطة في العام السابق حين حاصرت صنعاء قبائل ذي محمد قد بلغ ستة قروش ، وقد ضج الناس لذلك وعاقب المنصور المغالين من تجار الحبوب كما تقدم . أمّا في هذه الأزمة الشديدة فقد ارتفع سعر القدح إلى اثنين وعشرين قرشاً عددياً أي عشرة ونصف ريال فرانصي (قريب خمسة وستين دولاراً) وهذا مبلغ كبير لاطاقة لأحد في احتماله في ذلك الوقت إلا قلة من الأغنياء وميسوري الحال .

طعاماً ! فجافت فعلم الناس بها فأخرجوا مابقي منها ودفنوها .. وأدرك الناس الجوع الشديد ، وهلك بصنعاء من هلك ، ولم يقدر أحد أن يُخرج الأموات إلى المقبرة ، وظن الظّان أن مابصنعاء سوى النسوان ....[1]

أصبح واضحاً أن المنصور بات غير قادر على مواجهة الحالة الخطيرة التي وصلت اليها العاصمة ؛ بل والبلاد بشكل عام ، لكنه لم يكن قد « بلغ الخرف » كما وصفه قبل ذلك بعامين ڤالنتيا Valentia في كتاب رحلته التي كتبها عند زيارته للساحل اليمني عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥[2] وربما قصد الكاتب ـ مما سمعه في تهامة ـ إلى أن المنصور الذي هو الآن في الثانية والسبعين قد هَرم وشاخ وأصبح ضعيفاً ، وهو لاشك قد بات كذلك .

كان الأمل الأخير في إنقاذ الموقف المتدهور والمحنة القائمة هو الأمير أحمد ، الذي حاول بقدر الامكان ألا يدخل مع والده المنصور في صراع مباشر طيلة الأيام الأولى من الأزمة . ولكن عندما تجمع قادة الأجناد وجاؤوا اليه للتوسط والمساعدة عند وزير والده العلفي لصرف مقررات العساكر المنذرة بالشر ، استجاب لهم وقام في يوم الجمعة ٢٦ رجب / ٢١ سبتمبر بإرسال رسول خاص إلى العلفي ليشرح له الوضع ويطلب منه سرعة الدفع . وبدلاً من حلّ الأزمة ، رفض الوزير حتى استقبال الرسول والحديث معه[3] . فما كان من الأمير أحمد إلا أن أمر بعض الجنود بالتوجه إلى منزل العلفي وإلقاء القبض عليه وإحضاره إليه ، واعتقال بعض أقربائه ومؤيديه من متنفذين ومسؤولين في حاشية المنصور . وخلال ذلك دعا أحمد كبار العلماء وغيرهم من رجال الحل والعقد من أعيان ووجهاء إلى اجتماع عاجل معه حضره أخوه الأمير عبد الله أحد أمراء

---

(١) انظر تفاصيل جحاف لهذه المحنة فيما نشرناه مطولاً في مقدمتنا لديوان الشوكاني : ٢٤ ـ ٣٠

(٢) Valentia , voyages , 381 .

(٣) جحاف : ٤٣٢ ؛ الشوكاني : البدر الطالع ٤٦٦/١ ؛ الشجني : التقصار ١٤ ب

الأجناد ومتولي بلاد الحيمة وبلاد البستان وحضره كذلك أخوه الأصغر منه حسين وآخرون . وعرض أحمد للمجتمعين ماتخذه وماسيتخذه من خطوات ضرورية لاستعادة الأمن وسلامة الناس وبقاء الدولة ، وأوصل إلى المجلس الوزير العلفي الذي حاول أن يسوغ موقفه ويردد المعاذير ، فخاطبه أحمد بأن الناس قد ألجأتهم الضرورة وعظمت عليهم المصيبة ، وتحوّزوا وماتوا في حين أن العلفي معرض عن هذا الأمر وكأنه لا يعنيه ، وأيد هذا بقوة القاضي أحمد بن محمد الحرازي والقاضي الشاعر عبد الرحمن بن يحي الآنسي وغيرهما ممن حضر الاجتماع ، ثم أمر الأمير أحمد الوزير العلفي أن يطل من النافذة ليرى جموع الجند المحتشدة والمتربصة به لتقتله ، وأمره أن يتحدث إليهم ، فرجاهم العلفي المهلة إلى يوم الأحد ، فرفضوا ذلك إلا إذا أمر بذلك الأمير أحمد الذي هدّأهم وسكّنهم ، ثم فض الاجتماع وأمر بحبس العلفي وإيقاف الآخرين من أسرته ورجاله في القصر .

وقام الأمير أحمد بعد ذلك في المساء باستدعاء خدم أبيه وحراسه وأحل محلهم بعض العبيد والخيّالة من عنده فأحاطوا بدار الجامع التي يسكنها ومنعوا الناس من المرور أمامها أو الاقتراب منها ، وفي المساء نفسه وضع عساكر ورتب حراسة في مختلف المراكز والأماكن الرسمية والهامة في العاصمة . وخوفاً من استغلال ماحدث وسوء تفسيره فقد عجل أحمد بإرسال كتب منه إلى جميع العمال شارحاً لهم الموقف ومقراً لأعمالهم ، وقبل أن يمضي ذلك المساء أمر بآل العلفي فأودعوا السجن[1] .

أمّا المنصور المحصور في داره ، فلم يتبين من كل ماحدث من حوله إلاّ في ساعة متأخرة من الليل ، ولمّا استدعى وزيره العلفي قيل له إنه في السجن ، ولما حاول الخروج بنفسه أطلق عليه الرصاص فارتد راجعاً ، وأرسل الأمير أحمد

---

(١) جحاف : ٤٦٦

إخوته الصغار لتهدئة الأب الإمام ، وقد حاول ابنه الأمير عبد الله الذي كان بينه وبين أخيه أحمد بعض الحزازات والتنافس أن ينصر برجاله والده لكن ذلك لم يتيسر له . وفي صباح اليوم التالي زار الإمام النقيب نصر الله أحد الأمراء القدة من العبيد - ربما بتكليف من الأمير أحمد - وأبدى له المنصور رغبته في الخروج إلى القصر فاعتذر له وقال له : انه لا سبيل لخروجه من داره وان الرتب العسكرية محاصرة له ، فطلب اجتماعه بكبار الأعيان ، فأذن الأمير أحمد بذلك . وتوجه إليه من طلب وعلى رأسهم قاضي قضاته الإمام القاضي محمد بن علي الشوكاني ، الذي أفصح له باستصواب مادبره سيف الإسلام أحمد واستحسان ماصنع . لكن المنصور اشتكى من ذلك واعتبر الأمر مخالفة وعقوقاً من ابنه ، فأكد له المجتمعون بأن العكس هو الصحيح « وبأن ماعمله هو محض الطاعة ، وحسّنوا صنيع ولده وأنه الأولى بالتدبير في هذه الأمور ، ولولا ماصنع لكان الخطر متسعاً ، فأبت نفسه أن تقبل الصلاح ، فقال له الشوكاني : إن راجعت رأيت ماتكره ! وأخاف أن يأمر ولدك بما لا يمكن تداركه ، وقد فعل أمراً يحمده الخاص والعام ، والرأي إمضاؤك لفعله واتخاذك له وزيراً ومدبراً ، وإلاّ فالأمر خطير . فلما سمع ذلك علم أنه لا مجال لشيء فيما يريده من الأحوال ، فرضي .. »[1] .

وهكذا قام الإمام الشوكاني بدور الوساطة بين المنصور وابنه الأمير أحمد ، وتم الاتفاق أخيراً أن يكون أحمد مدبراً لجميع أمور البلاد ، ويكون بمثابة الوزير لأبيه ، واشترط المنصور « لنفسه حقوق بلاد يريم وعلى أن الخطبة والسكة ، وأبهة الخلافة غير متحولة عنه ، فقال ولده : ليس المراد إلاّ حفظ المملكة والذب عن ضعفاء الناس »[2] .

---

(١) الشوكاني : البدر : ٤٦٦/١

(٢) جحاف : ٤٨٤

رضي المنصور بكل ذلك ، وسرعان ماتبين له صحة مانصح به وصدق نوايا ابنه . وبعد أيام تشاءم من دار الجامع وطلب الانتقال إلى دار الإسعاد التي مكث بها مؤثراً الهدوء والعافية حتى مات بعد ثلاثة عشر شهراً[1] .

☆ ☆ ☆

٥ ـ سيطرة الأمير أحمد على أزمّة الأمور :

بعد مرور ثلاثة أيام على سحب السلطات من يد المنصور وبقائه في داره إماماً صورياً ، وحبس أعوانه من آل العلفي أو عزلهم ، قام الأمير عبد الله بن المنصور ـ الأخ الثالث للأمير أحمد ـ بحركة مضادة لأخيه ظاهرها الدفاع عن مركز وسلطات أبيه إلاّ أن الدوافع الحقيقية كانت تكمن في الخلافات والتنافس القديم بين الأخوين .

ففي يوم الاثنين ٢٩ رجب من عام ١٢٢٣ هـ/٢٤سبتمبر عام ١٨٠٨ م قام عبد الله بإرسال جماعة من جنده للإحاطة بدار الإسعاد والتركز في أماكن أخرى في المدينة ، فما كان من الأمير أحمد إلاّ أن دعا إلى اجتماع عاجل لكبار العلماء والحكام ووضع أمامهم مسألة أخيه وتصرفاته مكرراً بأنه لم يقم بما تم من إجراءات إلاّ بما يقتضيه الواجب لما حدث من إخلال بأمور الدين وإضرار بالناس وإخماد للفتنة والشر ، فأقر المجتمعون له بذلك ، وتم الاتفاق على أن يرسل إلى الأمير عبد الله القاضي محمد بن يحيى السحولي (ت ١٢٣٣ هـ/١٨١٨ م)[2] لينقل إليه الرأي ويصلح الشأن بين الأخوين ، وتم له ذلك ، ثم لم يلبث عبد الله أن نزل لزيارة أخيه وسويت المشكلة ، كما تصرف أحمد في تفريق رجال أخيه[3] والحد من خطرهم .

---

(١) جحاف : ٤٨٢ ـ ٤٨٥ ؛ الشوكاني : البدر ٤٦٦/١ ـ ٤٦٧ ؛ الكبسي : ق ٢٧٥ .

(٢) هو ابن قاضي القضاة السابق للشوكاني القاضي يحي السحولي (انظره فيا سبق ص : ٦٢) ، وكان عالماً فقيهاً ، وجيهاً ، عمل في القضاء والإدارة ، وقد قتل في عهد المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد في هجوم قبائل بكيل على صنعاء (انظر ص : ٢١٨ من الفصل الثاني)

(٣) جحاف : ٤٨٥ ؛ الشوكاني : البدر الطالع : ٢٦٦/١ ـ ٦٧

من ناحية أخرى غادر الأمير محمد - الابن الثاني للمنصور - والذي كان في ذلك الوقت يقوم بحملة لإخضاع الحَدَأ وعَنْس ومغرب عنس متوجهاً إلى يَريم لتأديب عاملها محمد بن علي بن إسماعيل الذي رفض أوامره ، ولشكاوى الناس من ظلمه . وكان هذا العامل قد تحصن مع رجاله في المدينة ، فضرب الأمير الحصار عليها مدة طالت ثلاثة أشهر[1] وقد رفض أوامر أخيه الأمير أحمد بفك الحصار والعودة . ولما ألح عليه ادعى بأنه تلقى من أبيه الإمام المنصور كتاباً سرّياً يأمره بأن يقوم بالحصار وأطلق يده في اليمن الأسفل . غضب الأمير أحمد لهذا الأمر غضباً شديداً ، واستدعى قاضي القضاة العلامة الشوكاني وطلب منه أن يذهب إلى أبيه ويتحرى الحقيقة لما في ذلك من إخلال بما تعهد به من عدم التدخل في شؤون الدولة وإدارة ابنه أحمد . فأنكر المنصور بشدة أن يكون قد أرسل أي كتاب ، كما أقسم للشوكاني أيماناً مغلظة بذلك وبالتزامه بما تم الاتفاق عليه[1] .

استخدم الأمير أحمد صلاحياته فاستدعى القبائل التي في معسكر أخيه ، وأرسل النقيب علي بن عبد الله الشايف ، أحد زعماء بكيل ، لإقناعهم بذلك ، وبحث الأمر مع عليّ سعد الحاج[2] الساعد الأيمن للأمير محمد والذي كان موجوداً في ذَمار . وقد أفلح الشايف في مهمته فعاد إلى صنعاء وبصحبته الحاج ومعظم القبائل التي هناك . أعقب ذلك استدعاء الأمير أحمد أخاه محمداً الذي طلب مالاً

---

(١) ذكر جحاف أن عامل يريم بعث وهو محصور إلى علماء ذمار ووجهائها ورؤساء الناس بها بأنه ولي أمر يريم بأمر من الإمام المنصور فإن « كان عندكم أن نكث العهد مباح ، وأنه لالوم عليّ في طاعة البدر [محمد] وخلع بيعة الإمام أرشدتموني ، وإن كان الأمر بالعكس زجرتم الرجل ، فأبلسوا ! وذهبوا إلى وزيره علي سعد الحاج » انظر الحاشية التالية .

(٢) علي سعد الحاج من قبائل مغرب عنس وقد اتفق الشجني وجحاف على وصفه بالغلظة والجفوة والجهالة ؛ وقد ذكر جحاف أن علماء ذمار سألوه في تصرف الأمير محمد وحصاره فقال : « ليس له جواب سوى أن فعله هذا عن رأي أبيه ، فكان ذلك من الجوابات المسكتة » .
(جحاف : ٤٨٧ ؛ الشجني : ٨ ب)

ومواد غذائية لرجاله . وافق أحمد على طلبات أخيه وتبادلا الخطابات والمواثيق ، وكتب أحمد لأخيه « عهداً على ظهر مصحف ، وطلب منه عهداً على السلوك والدخول تحت الأمر ، فتعهد بذلك[1] » .

أما القاضي العنسي وحصاره العاصمة صنعاء ، فبمجرد معرفته لما حل بالوزير العلفي ، اتصل بالأمير أحمد الذي وعده خيراً ورفعت ذوحسين حصارها . وما هي إلاّ أيام قليلة حتى وجد الأمير أحمد فائدة من وجود قبائل العنسي فضمهم إلى قبائل استدعاها من الحَيْمة و بلاد البُسْتان وهَمْدان وعِيال سُرَيْح ، وسيّر الجميع بقيادة أحد قادته من العبيد الأمير فيروز أحمد في حملة ناجحة على كوكبان (على بعد ٣٦ كم شمال غرب) لإخضاعها . وانطلقت الحملة من صنعاء يوم الجمعة ٩ شعبان عام ١٢٢٣ هـ / ٤ اكتوبر ١٨٠٨ م ، والتقت في الطريق بالقبائل المؤازرة لها ، وفي يوم الاثنين ١٢ شعبان / ٧ أكتوبر كانت أول معركة مع أهل حبابة شبام سقط فيها بعض القتلى ونهب باب المدينة فكان من ذلك مئة رأس غنم وعشر بقرات وغير ذلك ، ثم أطبق الحصار على حَبَابة وطلعت قوات أخرى لحصار حصن كوكبان حتى تم إخضاعها والمنطقة كلها لسلطة صنعاء[2] .

ولمّا عادت قبائل ذي حسين من مهمتها أمضت أياماً في صنعاء حيث أكرمهم الأمير أحمد وعادوا إلى بلادهم برط راضين . إلا أنهم وهم في طريق عودتهم وعلى بعد نحو عشرة أميال من صنعاء هجموا على قرية الحُشَيْشِيّة ونهبوا أربعين جملاً . وسرعان ما وصل خبر الاستغاثة إلى الأمير أحمد فخرج من فوره على رأس بعض الجند ولاحق ذا حسين فهرب منهم من هرب وتسلم ما نهبوه وأعاده إلى

---

(١) جحاف : ٤٨٨

(٢) نفسه : ٤٨٦

أصحاب الخشيشية ، وعاد إلى صنعاء بعد أن اعتذر له من بقي من ذي حسين ، والتحقوا بأصحابهم خجلين من فعلتهم [١] .

☆ ☆ ☆

بعد أن اطمأن الأمير أحمد إلى استقامة الأمور في العاصمة وحله للمشاكل العاجلة التفت إلى قضية تهامة وبدأ يجري اتصالات مع الشريف حمود المتحكم في أبي عريش والمسيطر على قسم كبير من تهامة ، والذي كان خائفاً من علاقته المتردية مع السعوديين وأصبح بعد هزيمته الأخيرة في مركز ضعيف . وما كان يهم أحمد بشكل عاجل هو أمن المخا وسلامتها باعتبارها مصدراً رئيساً للدخل من الساحل التهامي . وكان عامل المخا منذ فترة طويلة أحد الأمراء العبيد سلطان حسن الذي لم يعترف بالتغييرات الجديدة التي تمت في العاصمة . وهو لم يهمل إرسال الإيرادات والضرائب إلى صنعاء فحسب ، بل طمح إلى أن يستقل بنفسه ، وأقام صلات خاصة مع الشريف حمود . ولتقوية مركزه وقوته فقد صرف الدخل في التحصينات ودعم قوته العسكرية باستئجار ألف وخمسمئة جندي مرتزق من العبادلة (نسبة إلى سلطان عدن العبدلي)[٢] .

وحاول الأمير أحمد ألا يدخل في صراع مباشر مع عامل المخا رغم نشاطه المشبوه فأرسل إليه في جمادى الأولى ١٢٤٤ هـ الفقية أحمد بن إسماعيل فارع ـ شقيق وزيره ـ في مهمة تفتيشية استطلاعية ، فلم يحسن التدبير ، وكان معه سعد غدارة وبعض الخواص وأنفق بعض المال في استدراج بعض أعوان سلطان الذي تبين له الأمر فحدّ من نشاط فارع وأصحابه . وأرسل الأمير أحمد مرة ثانية

---

(١) جحاف : ٥٢٩

(٢) Playfair, A History of Arabia, 127 - 8;
جحاف : ٥٣٦ الذي ذكر أنهم كانوا « ستمئة أو أكثر » .

بعد استدعاء فارع السيد يحي السراجي ومعه الأمير ياقوت محمد المنصور مع ثلاثين مرافقاً ، فاستقبلهم سلطان بالترحيب والإكرام لكنه لم يغير موقفه من صنعاء وإشعارها بالولاء للإمام المنصور الذي توفي في الشهر التالي فأسقط في يده واعترف بإمامة ابنه أحمد فسرعان ماعزله وتخلص منه[1] .

☆ ☆ ☆

٦ ـ المتوكل أحمد إماماً :

توفي الإمام المنصور علي في يوم الأربعاء ١٥ رمضان ١٢٢٤ هـ / ٢٥ أكتوبر ١٨٠٩ وقام الإمام الشوكاني بالصلاة عليه في مسجد والده « قبة المهدي عباس » ودفن في بستان المتوكل بالقرب من باب السبحة[2] .

وبوفاة المنصور أصبح ابنه الأمير أحمد البالغ من العمر خمساً وخمسين عاماً إماماً شرعياً وحاكماً مطلقاً لليمن ، ففي مساء اليوم نفسه كان الإمام الشوكاني ـ قاضي القضاة ـ أول من بايعهُ ، ثم كان المسؤول ليلتئذ عن أخذ البيعة لأحمد من إخوته وأعمامه ، وكافة أسرته من آل القاسم ، وكذلك من العلماء والوجهاء والأعيان ورؤساء القبائل كافة[3] .

تلقب أحمد بالمتوكل على الله ، وبدأ ـ أو بالأصح ـ واصل جهوده المضنية « لإصلاح ماقد أفسدَ والده » كما لخص الكبسي[4] ، وذلك عبر سنوات سبع من النضال والقتال أثبت فيها جلداً وحزماً وبعد نظر .

---

(١) جحاف : ٥٣٦ ـ ٥٣٧ : Playfair , 128

(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** ٤٦٧/١ ؛ الشجني : **التقصار** (ق ١٥ أ) ؛ زبارة : **نيل الوطر** : ١٤٢/٢ ـ ١٤٤ .

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٨٧/١ ؛ الشجني : **التقصار** (١٥ ب) ؛ زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٤/١ و ١٢٧/٢

(٤) الكبسي : ٣٧٥

عين المتوكل (سكرتيره) المؤتمن الفقيه علي بن إسماعيل فارع (ت ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م) وزيراً أول يساعده القاضي حسن بن علي بن أحمد بن عبد الواسع العلفي[١] . ولم يكن الوزير فارع كسلفه العلفي وزير المنصور قابعاً في العاصمة أو على خلاف حول أرزاق الجند ، بل منفذاً ومتعاوناً مع إمامه ، مرافقاً له في حروبه وحملاته العسكرية في خولان والحَدأ وآنس واليمن الأسفل وحيثما كان اضطراب أو عصيان . وقد وصف بأنه كان « فقيهاً ، كاملاً ، ماهراً ، حاذقاً »[٢] كما مدحه وأثنى عليه الشاعر القاضي عبد الرحمن الآنسي بعدة قصائد من شعره الحكمي والحميني[٣] وعندما توفي فارع قبل عام من وفاة المتوكل عين المتوكل ابنه عثمان بن علي فارع وزيراً مكان أبيه .

وكان المتوكل قد عين إداريين ومسؤولين جدداً في الأشهر الأخيرة قبل وفاة والده وبعضهم أبناء لرجال ممن عمل في إدارة المنصور ؛ كمحسن بن يحي المتوكل ـ ابن القائد المعروف سابقاً ـ الذي عينه المتوكل والياً على حفاش وملحان ، وعبد الكريم الجرافي ، ابن القاضي علي الذي كان وزيراً وصادره المنصور[٤] الذي تعين عاملاً على صنعاء ، وهو أحد المناصب الهامة التي سبق أن شغلها المتوكل أحمد نفسه[٥] كما كانت العادة قد جرت في الغالب أن يكون عامل العاصمة أكبر أبناء

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٧٩/١ ؛ الشجني : **التقصار** (ق ١٥ ب) ، زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٤/١ و ١٢٧/٢ ، وحسن بن علي العلفي هو حفيد العلامة عبد الواسع بن عبد الرحمن العلفي القرشي ، الأموي (ت ١١٠٨ هـ) ، وذكر الشوكاني الحفيد هذا في ترجمة جده مع أخويه ، واصفاً إياه بأنه « أحد رؤساء الدولة وأعيانها ، وهو كثير الخير ، كثير العدل ، قوي العقل ، محمود السيرة طيب السريرة » البدر ٣٧٥/١

(٢) زبارة : **نيل الوطر** : ١٢٧/٢

(٣) الآنسي : ديوانه « ترجيع الأطيار » ٢٥٥ ـ ٢٥٨ و ٣٦٨ ـ ٣٧١ .

(٤) انظره فيما تقدم (ص : ٧١)

(٥) جحاف : ٥٢٩

الإمام أو أجدرهم لكن المتوكل لم يعين ابنه الأكبر عبد الله البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً في صنعاء ربما لصغر سنه أو لرغبته في أن يكون بعيداً عنه ليتدرب ويعتمد على نفسه ، ولهذا فقد عينه عاملاً على ريمة والجبي وبلاد كسمة بدلاً من حميد بن عبد الله العلفي . وعيّن معه قاسم بن إسماعيل فارع - شقيق وزيره - كاتباً (سكرتيراً) له . وأمر ولده بالاعتماد عليه و « الإذعان له » ، وعندما تجهز عبد الله للسفر في أول مهمة يليها خرج والده أحمد يوم الأربعاء ٢٤ رجب ١٢٢٤ هـ / سبتمبر ١٨٠٩ م يشيعه ويودعه في موكب كبير من رجال الدولة والحاشية إلى دار سَلْم على بعد / ٩ كم / جنوب صنعاء وعاد إلى صنعاء في اليوم التالي[1] .

تتالى عزل معظم آل العلفي ، أو مؤيديهم وتعيين آخرين ممن يثق بهم أحمد في مناطق وعمالات مختلفة ، وما إن تسلم الحكم رسمياً حتى تخلص من إدارة والده ولم يبق إلاّ من كان على ثقة من إخلاصه وولائه أو الحاجة إلى كفايته ، وكان على رأسهم الإمام الشوكاني وآخرون ممن كان موقفهم واضحاً من سوء إدارة المنصور وفساد حاشيته .

☆ ☆ ☆

٧ - حكم المتوكل أحمد (١٢٢٤ - ١٢٣١ هـ / ١٨٠٩ - ١٨١٦ م)

كانت حقبة حكم المتوكل على قصرها مليئة بالصراع والمحاولات الجادة لإيجاد الاستقرار والأمن . فما يكاد المتوكل يخمد فتنة أو عصياناً في مكان حتى يذر بقرنه عصيان آخر في مكان آخر . وكانت شخصية الرجل (الديناميكية) ونشاطه الفعال يُتلقى باستحسان وتقبل من الناس ، وانعكس ذلك على كتابات

---

(١) جحاف : ٥٣٤ - ٤٣٥

المؤرخين[1] وسوف نحاول أن نرسم صورة عامة للسبع السنوات التي قضاها المتوكل في محاولاته تثبيت مركزية الدولة وديمومتها .

فبعد مضي بضعة أشهر من توسد المتوكل سدّة الخلافة ، وإنهائه بعض مشاكله العاجلة التي أشرنا إليها ، حدث أن خرج الشيخ سالم شديق الطاهري صاحب ضَبعان مع بعض أصحابه مؤيداً بجاره الخولاني سعيد أبي حليقة[2] وقام بالهجوم على الطريق الجنوبي الرئيسي المؤدي إلى صنعاء فهدد أمن المسافرين وقطعت الطريق . بادر المتوكل سريعاً فغادر صنعاء في محرم ١٢٢٥ هـ / فبراير ١٨١٠ م على رأس جيش ليطهر الطريق الجنوبي وتوجه شرقاً إلى خولان على بعد نحو ٤٠ كم فهاجم بقواته اليانيتين وخولان العالية وأدَّب المعتدين . وقال في ذلك الشاعر الآنسي قصيدة دعائية قبل الحرب أو خلالها منها :

أإن تَـكُ خَـوْلانُ بنُ عَمْرو تنَمَّرَتْ ... فَلَيْثُ الشَّرَى في القـائمِ المَتَـوكِّـلِ

وذكر سالم شديق وسعيد أبا حليقة وغيرهما محذراً ومنذراً :

فما سَالِمٌ - أعني شديقاً - بِسَالِمٍ ... عَلَيْـهِ ولا منـه سعيـداً بمعْـزِلِ

وكانت قبائل الحدأ لازالت تثير المشاكل ، ويبدو أن الأمير محمد والي يريم والمنطقة الوسطى الذي كان قد ذهب إلى هنالك في العام السابق وقبض على بعض المشايخ كالقوسي والبخيتي قد أهمل أمر المنطقة حين أنشغل بحصاره لعامل

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٧٨/١ ؛ **الشجني : التقصار** (ق ١٥ ب) ؛ الكبسي : ق ٣٧٤ - ٧٥ زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٤/١

(٢) كان أبو حليقة قبل ذلك بقليل قد اتصل بحميد العلفي عامل ريمة الذي رفض تعليمات أحمد قبل وفاة والده المنصور ، وقد فشل تحالف العلفي وأبي حليقة في مواجهة القوات المرسلة من صنعاء بقيادة عبد الله بن الأمير أحمد (المتوكل) ومساعده ومستشاره قاسم فارع (جحاف : ٥٣٧ - ٣٨ . وعن أبي حليقة انظر ماتقدم ص : ١١٩)

يريم وما تبع ذلك من خلافه ثم اتفاقه مع أخيه أحمد[1] . لهذا فقد توجه المتوكل من خولان إلى الحدأ وأخضعها بعد أن اعتقل الشيخ علي بن ناجي القوسي وآخرين . وعاد من الحدأ غرباً إلى بلاد آنس مواصلاً حملته في مختلف مناطق القلاقل ، وكان قد دخل الشهر الثاني صفر / مارس ، فوصل إلى ضوران مركز آنس التي كان يرهبها ابن وازع أحد رجال بكيل وممن كان يتنقل مع بعض رجاله بغرض السلب والنهب وقد قبض عليه المتوكل وأمر برأسه فقطعت وعاد بعد كل ذلك إلى صنعاء[2] .

☆ ☆ ☆

لم يمض إلاّ عام واحد على حملة المتوكل السابقة حتى جاءت الأخبار بأن بعض قبائل بكيل قد وصلت إلى تعز ومناطق اليمن الأسفل وبأنها تعيث فساداً هناك ، ومرة ثانية غادر المتوكل عاصمته على رأس حملة عسكرية قادها نحو اليمن الأسفل حيث أمضى ثمانية أشهر يطهر الحصون ويطارد المهاجمين ويتنقل من مدينة إلى أخرى ، واستقر نحو شهرين في تعز[3] وقد كان قاضي القضاة الإمام الشوكاني فيمن كان بصحبة المتوكل كوزيره فارع وغيره من كبار دولته ومستشاريه ، وكان يؤم في الصلاة ويدرس الحديث في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما في كل الحواضر التي كانوا يستقرون بها ، وقد أشاد الشوكاني بأعمال المتوكل العسكرية وانتصاراته[4] .

☆ ☆ ☆

---

(١) انظر ماسبق (ص : ١٦٤)

(٢) زبارة : **نيل الوطر** : ٥٥/١ ـ ١٥٧ ؛ ديوان الشوكاني : ٣١ ، ٢٥٧

(٣) زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٧/١ ؛ الشجني : **التقصار** : ٢١ ب .

(٤) الشوكاني : **البدر الطالع** ٩٨/١ ؛ الشجني : **التقصار** : ٢١ ب ؛ وانظر **ديوان الشوكاني** : ٥٩ ـ ٦٠ ـ ١٩٢ ـ ٢٣٧ ـ ٢٥٧ ـ ٣٤٥ .

٨ ـ حملة المتوكل على كوكبان وأسر آل شرف الدين

بعد تلك الحملة الناجحة التي أخضع بها المتوكل أحمد منطقة كوكبان قبل نحو شهر من وفاة والده المنصور ثم تسلمه رسمياً[١] الحكم قام المتوكل بما سبق أن فعله جدّه المهدي عباس حين أرسل القاضي يحي السحولي قبل ٦٣ عاماً لإقرار أمر الصلح مع أمير كوكبان[٢] . ففي أوائل عام ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م بعث المتوكل القاضي العالم محمد بن يحي السحولي ـ ابن السابق ـ ليقوم بمهمة أبيه نفسها في عقد الصلح والتأكد من ولاء أمراء كوكبان من آل شرف الدين لسلطة صنعاء . وعاد السحولي بعد أن نجح في إيقاف أمير كوكبان من سك عملة كانت باسمه ، وبتعميم أن تكون خطبة الجمعة في مختلف مساجد البلاد باسم الإمام المتوكل ، وقطع أي علاقات واتصالات بالشريف حمود ، حيث كانت مراسلات قد جرت بين الشريف حمود وآل شرف الدين أواخر أيام المنصور حين جاءت عساكر حمود إلى حجة وكان الهدف ضم كوكبان إلى الدعوة الوهابية ، وبالفعل استقبل شرف الدين ابن أخي الشريف حمود ، حيدر بن ظافر بن محمد وجماعة من عسكره وسمح لهم آنئذ باستخدام أراضيه المتاخمة لمناطق حجة منطقة انطلاق ، لكن الأخر توفي وأرسل قائد آخر فمات أيضاً وقد فشل حمود كما سبق في السيطرة على المنطقة وخاف شرف الدين من صنعاء حتى كان الاتفاق الأخير الذي أجراه السحولي[٣] .

كان المتوكل سعيداً بالنتائج واستقرار أحوال كوكبان وهو نفسه لم يحاول قبل ذلك استغلال النزاع العائلي الذي حدث بين آل شرف الدين قبل عام من تلك الحوادث ـ كما فعل جدّه من قبل ـ بل أرسل إليهم السيد العالم عبد الله بن

---

(١) انظر ماسبق (ص : ١٦٧)

(٢) انظر الفصل الأول فيا سبق

(٣) جحاف : ٥٣٠ ؛ البهكلي : **نفح العود** : ٢٤٢ ـ ٢٤٣

محمد الأمير (ت ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م) في مهمة إصلاحية وحمّله رسالة كتبها الإمام الشوكاني واستقرت الأحوال واستمر ولاء آل شرف الدين لصنعاء لأربع سنوات تالية[1] . حتى كان مطلع عام ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣ م عندما استوثق آل شرف الدين من مركزهم وعادت آمالهم في الاستقلال عن صنعاء من جديد .

اضطر المتوكل أن يقود بنفسه جيشاً كبيراً وغادر به العاصمة في صفر عام ١٢٢٨ هـ / فبراير ١٨١٣ م ليخضع به التمرد على سلطته . وقد عسكر في البداية في مدينة ثلا وأخضع قبائل المنطقة ، ثم صعد إلى حصن كوكبان مركز آل شرف الدين ، وبعد أن أمضى ثلاثة أشهر في حملته هذه عاد إلى صنعاء واصطحب معه أمير البلاد كبير آل شرف الدين السيد شرف الدين بن أحمد (١١٥٩ ـ ١٢٤١ هـ / ١٧٤٦ ـ ١٨٢٥ م) وأخاه عبد الله بن أحمد (١١٧١ ـ ١٢٣٢ هـ / ١٧٥٧ ـ ١٨١٧ م) الذي كان شاعراً وأديباً وكان بمثابة الوزير لأخيه ، وغيرهما من آل شرف الدين مع آخرين من كبار الأسر المتنفذة في المنطقة . وعين المتوكل القاضي الشاعر عبد الرحمن الآنسي والياً على المنطقة[2] . وكما كان الإمام الشوكاني مع المتوكل في حملته على اليمن الأسفل ، فقد كان معه أيضاً في حملته هذه على كوكبان وقد سجل لنا الشوكاني ما رآه من عبرة في أسر آل شرف الدين الذين أنزلوا من الحصن إلى مدينة شبام الواقعة عند أقدام الجبل الشامخ فوقها ، فقال :

وَيَوْمَ شبام قَدْ رَأَيْتُ مَواعِظاً ... تُخَبِّرنا أنّ الحَياةَ غُرُورُ
رَأيتُ مُلوكاً طأطأ الدَّهرُ مِنْهُمُ ... ودَارَ بِهِمْ والدائِراتُ تدُورُ
وأَنْزَلَهُمْ من مَعْقِلٍ شَامِخِ الذُّرَى ... وعُطِّلَ منهُمْ مِنْبَرٌ وسَريرُ
ومَنْ يأمِنِ الدُّنيا يكنْ مثلَ قَابضٍ ... دُخَاناً وإمساكُ الدخانِ عَسيرُ ![3]

---

(١) جحاف : ٥٣٥

(٢) زبارة : **نيل الوطر** : ١٥٨/١ و ٦١/٢ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٧٦/١

(٣) الشوكاني : **الديوان** : ١٩٢ ، وانظر (ص : ٨٦ منه أيضاً) ؛ الشجني : التقصار ٢١٦

وقام الشاعر الآنسي أيضاً بوصف ما حدث في قصيدة مدح فيها المتوكل وأثنى عليه[1] . وأمضى آل شرف الدين عاماً أو أكثر قليلاً في ضيافة المتوكل في صنعاء شبه مأسورين ، وقد ذكر الإمام الشوكاني أنه وجد الأمير شرف الدين بن أحمد حين كان يجتمع به خلال مدة وجوده بصنعاء ، « من الظرافة واللطافة وحسن المحاضرة وجميل المعاشرة وقوة الدين وكثرة العبادة ما يفوق الوصف » والشوكاني ـ كما ذكر ـ كان قد نصح المتوكل بترك غزوته على حصن كوكبان « لأنه لا سبب شرعي يقتضي ذلك فصمم ولم يقبل » ، ولهذا نجده قد تعاطف مع شرف الدين فما زال معولاً على المتوكل « بإرجاعه بلاده على ما كان عليه ، وكثرت وساطاته في ذلك حتى ألهمه الله إلى ذلك »[2] .

عاد الأمير شرف الدين إلى كوكبان ومعه أخوه عبد الله في جمادى الأولى عام ١٢٢٩ هـ / مايو ١٨١٤ م ومعهما الآخرون بعد عفو المتوكل عنهم وفوض شرف الدين في إدارة المنطقة باسمه ، بيد أن عبد الله بن أحمد لم يمكث بكوكبان إلاّ أربعة أشهر ثم غادرها في شهر رمضان / سبتمبر والتحق بالشريف حمود في أبي عريش حيث بقي لديه حتى وفاته[3] . ولا ندري هل كان ذلك ناتجاً عن خلاف مع أخيه أم نكاية في المتوكل أم محض رغبة واختيار .

☆ ☆ ☆

٩ ـ هدم القبور والحملة على تهامة :

ذكر الإمام الشوكاني أن المتوكل ووالده المنصور من قبله ، بل والشوكاني نفسه كانوا يتلقون رسائل من الأمير سعود بالدعوة إلى « التوحيد وهدم القبور

(١) الآنسي : **ديوانه** : ٢٥١ ـ ٢٥٥
(٢) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٢٧٦/١
(٣) الشوكاني : نفسه ؛ زبارة : نيل الوطر ٦١/١

المشيدة والقباب المرتفعة ، ثم وقع الهدم للقباب والقبور المشيدة في صنعاء وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها ، وفي جهة ذمار ، وما يتصل بها .. »[1] . وكان طبيعياً هدم القبور المشيدة والقباب إذ إن ذلك يتفق مع آراء الزيدية ومذهبهم ، وربما أراد المتوكل بالاستجابة إلى ذلك ليؤكد لصاحب الدرعية بأنه لا يوجد خلاف فيما تذهب إليه الحركة الوهابية باستثناء التكفير للآخرين أو التعصب ، وقد جرى ذلك في نفس عام حملة المتوكل السابقة على كوكبان[2] وتفكيره في إرسال حملة على الشريف حمود في تهامة ولهذا فربما كان يهدف أيضاً إلى كسب ابن سعود إلى جانبه أو على الأقل حياده في حربه مع صاحب أبي عريش .

أعد المتوكل حملة بقيادة وزيره علي بن إسماعيل فارع لتتوجه إلى تهامة[3] . ومن جانب آخر أمر والي حجة يحيي بن علي سعد بالنزول من جانبه على رأس قوة من بكيل لمهاجمة الشريف حمود الذي بلغ المتوكل وجوده في مختارة التي أسسها في الغرب من حجة على أعلى وادي مور ، وفي مختارة جرت المعركة بين الجانبين أواخر عام ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م حيث هزم حمود بل أصيب هو نفسه بجراحات وقتل عدد كبير من أصحابه ، كما أصيب كبار الأشراف بجراحات مختلفة ، وقتل بعض رجال الإمام بعد أن قتلوا في رجال حمود . وفي آخر يوم من أيام المعركة عاد جنود صنعاء إلى معسكرهم . وأدرك حمود أن تلك الهزيمة لم تكن الهدف النهائي لحملة المتوكل بل هدفها استعادة المنطقة والقضاء المبرم عليه ، فأعمل الحيلة في الليل برشوة القبائل بالمال « فلبثوا بعد ذلك جملة أيام ، وقوضوا من مطرحهم الخيام ، وأضربوا عما توجهوا إليه من جهة الإمام ! »[4] ولابد أن يكون خلاف

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٢٦٢/١ وانظر رأي الشوكاني في « ديوانه » : ١٥٤ ـ ١٥٨ . وانظر هذه الرسائل في مجموع رسائله التي طبعت بعنوان (ذكريات الشوكاني : ص ١١٣ ـ ١٣٠)

(٢) زبارة : نيل الوطر : ١٥٨/١

(٣) زبارة : نفسه ؛ الشجني : التقصار (ق ١٥ ب) .

(٤) البهكلي : **نفح العود** (التكلة) ٢٨٢ ـ ٢٨٤

كبير قد وقع في معسكر الإمام ، فلم القائد يحي بن علي سعد بعد ذلك جنده وتوجه نحو حيس جنوباً . وانتهز حمود الفرصة فاستدعى من أبي عريش أحد رجاله المعروفين الشريف محسن بن علي الحازمي الذي كان مع قريبه حسن بن خالد في بعثة إلى المنصور عام ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م ، وجهزه بجيش كثيف إلى بلدة حيس وهناك التقى بقوات يحي بن علي في معركة قتل فيها الحازمي وتشتت جيشه ، أما الشريف حمود فقد دخل في خلاف وصراع شديدين مع أقربائه من الأشراف[١] .

من ناحية أخرى استفاد المتوكل من حرب محمد علي باشا والي مصر في الجزيرة العربية مع ابن سعود والحركة الوهابية . وكانت الحرب قد بدأت منذ عام ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، فتبادل المتوكل مع الباشا الرسائل والهدايا التي كان من بينها فيل أرسله الباشا فكان سايسه يطوف به في الأسواق ليتفرج عليه الناس[٢] . وأكثر من ذلك فلقد تلقى المتوكل من محمد علي رسالة في شهر ذي الحجة ١٢٢٨ هـ / يناير ١٨١٣ م يطلب فيها مساعدته بإرسال السفن لحمل الجنود والمؤن ولعلم محمد علي بأن المتوكل يبارك حرب السلطان مع الوهابيين والتي يقوم بها والي مصر نيابة عنه ؛ أو كما جاء في كتابه « ... وبحسب علمنا وتحققنا مزيد خلوصكم لطرف الدولة العليّة والسدة الخسروانية ... »[٣] وقد استجاب المتوكل لطلب محمد علي بإرساله السفن المتوفرة إلى السويس والقصير وأجابه أن طلبه « يسير غير عسير ومرام ليس بالكثير ، وقد أمرنا عمالنا والمحافظين على بنادرنا بأن يحملوا صحبة رسولكم الآغا يوسف كل ما وجدوه هنالك منها ... » وجاء رده هذا الذي كتبه الإمام الشوكاني بمثابة التأييد والتحالف لقدوم قوات الباشا

---

(١) البهكلي : **نفح العود** (التكلة) ٢٨٤ ـ ٢٨٥

(٢) الكبسي : ٧٤ ـ ٣٧٥ ؛ الشوكاني : **البدر الطالع** : ٢/٢٢٧

(٣) **ذكريات الشوكاني** : ١٤٣ ـ ١٤٥

« إلى الأقطار الحجازية والمواطن المشرفة المكرمة المكية محامياً ومجاهداً ومدافعاً وذائداً ... فجهرنا بالدعوات الصالحات والتقربات المباركات بالنصر والثبات وسطوع أنوار الإيمان في تلك المعاهد المخصوصة بمزيد الرحمة والرضوان ، ونرجو الرب المعين ـ أن تقر من بعد حين أعين المؤمنين بارتفاع أعلام الدين وخفوق رايات المجاهدين بالنصر المبين إلى يوم الدين .. »[1] .

استمر المتوكل في جهوده (الدبلوماسية) والحربية لاستعادة تهامة من يدي الشريف حمود الذي رأى فيه الخطر الحقيقي وليس ابن سعود ، ومع ذلك فإنه كان يرى أنه بدون ابن سعود ما كان يمكن للشريف حمود التطاول والاستقلال ، وفي الخلاص من صاحب الدرعية في حروبه مع قوات محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا خلاص أيضاً من الشريف الذي خدع الطرفين . وقد أثمرت جهود المتوكل وعادت تهامة لحكم الإمام في صنعاء لكن ذلك لم يتم إلا بعد ثلاث سنوات من وفاة المتوكل وفي عهد ابنه المهدي عبد الله ، وانخرط الإمام الشوكاني نفسه في المفاوضات كما سيرد معنا في الفصل التالي[2] .

☆ ☆ ☆

١٠ ـ الأحداث الأخيرة ووفاة المتوكل

في شوال من عام ١٢٢٩ هـ / أكتوبر عام ١٨١٤ م ظهر القاضي العنسي على مسرح الأحداث من جديد ، فقد جاء مع رجاله إلى خُشم البكرة على بعد نحو / ١٥ كم / شمال صنعاء شرقي الروضة وضم إليه جمعاً من قبائل أرحب ونهم وقبائل أخرى من بكيل وتهيأ لهجوم كبير . بلغ المتوكل ذلك فقام بهجوم مضاد وتمكن من هزيمة العنسي وتشتيت قبائله .

---

(١) ذكريات الشوكاني : ١٤٦

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٣٦٨/٢ ـ ٧٢ ؛ الكبسي : ٣٧٤ ـ ٧٦ ؛ الشجني : التقصار : (ق ١٥ ب) .

وفي العام التالي ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م جاءت قبائل من نهم يقودها النقيب هادي أبو نخوم ونزلت في الضواحي الشمالية من العاصمة ، وقاموا بالهجوم ونهب المسافرين والطرقات ، وعندما خرجت عساكر المتوكل من صنعاء لمواجهتهم تحولوا إلى جنوب صنعاء حيث لحق بهم العسكر وبعض القادة ونشب قتال بين الطرفين سحابة يومهم ، ومع الليل هربت القبائل راجعة إلى بلادها[1] .

وكان المتوكل في مطلع هذا العام قد قام بحملته الثانية على اليمن الأسفل حين « أظهر الشيخ أحمد بن علي سعد الجماعي الفساد هناك » وقضى المتوكل على الشغب هناك وبعد أن أمضى بعض الوقت عاد إلى صنعاء[2] .

كان عام ١٢٣١ هـ / ١٨١٥ م آخر أيام المتوكل أحمد فقد توفي في الشهر العاشر (شوال / سبتمبر) بمرض الاستسقاء وعمره إحدى وستون سنة ، ودفن بجوار والده المنصور علي في بستان المسك[3] . وخلفه ابنه الشاب الأمير عبد الله وتلقب بالمهدي وكان له إخوة منهم قاسم وحسن ومحمد إلاَّ أنهم لم يكن لهم أي دور يذكر في حياة والدهم ، كما أنهم كانوا على هامش الحياة السياسية أيام حكم أخيهم الذي بقي عشرين سنة إماماً .

ولما توفي المهدي عبد الله تولى الحكم ابن أخيه الناصر عبد الله بن حسن فحكم من عام ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م حتى قتلته جماعة من همدان ويام مع بعض أصحابه في وادي ضهر ، فتولى الحكم بعد مقتله عمه محمد وتلقب بالهادي واستمر إماماً حاكماً لليمن مدة ثلاث سنوات من عام ١٢٥٦ ـ ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٠ ـ ١٨٤٣ م وسجن ابن

---

(١) زبارة : **نيل الوطر** : ١٦٠/١

(٢) **الشجني : التقصار** (٢١ ب) : زبارة : نيل ١٥٩/١

(٣) الشوكاني : البدر الطالع : ٧٩/١ : الشجني : التقصار (ق : ١٩) : زبارة : **نيل الوطر** : ١٦١/١ : حوليات يمانية : ١٣ : الكبسي (خ) : ق ٣٧٦ وقد ذكر وفاته في شهر القعدة وهو خطأ .

أخيه علي بن المهدي عبد الله خشية منازعته الحكم ، وهكذا كان عهده بداية لحقبة تـاريخيـة اتصفت بـالفـوضى والصراع بين أئمـة ضعـاف مما أدى إلى عـودة الأتراك العثمانيين إلى اليمن واستيلاء الإنجليز على عدن .



الفصل الخامس

حُكْمُ المهدي عبد الله

« ... **ثم إن نهايته** - [الجد] - في أربعة أبناء من عقبه : ذلك أن باني الجد عالم بما عاناه في بنائه ، ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه ، وابنه من بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذه عنه ... ثم إذا جاء الثالث كان حظّه الاقتفاء والتقليد ، خاصة ، فقصّر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ، ثم إذا جاء الرابع قصّر عن طريقتهم جملة ، وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم ، واحتقرها ، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف وإنما هو واجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم ، وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلّة بين الناس ، ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سبيلها ، ويتوهم أنه النسب فقط ! .. » .

(ابن خلدون - **المقدمة** : ١ / ٢٤٨)

المهدي عبد الله وحكمه

(١٢٣١ ـ ١٢٥١ هـ / ١٨١٦ ـ ١٨٣٥)

١ ـ الإمام الشاب :

أصبح المهدي عبد الله ـ على عكس والده ـ إماماً على اليمن وهو شاب صغير لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ولم يكن له دربة أبيه في الادارة والحرب والسياسة باستثناء السنوات القليلة الأخيرة عندما تولى عمالة ريمة وما جاورها ثم عمران شمال صنعاء ، وكانت عمران مركزاً هاماً لأنها في وسط قبائل حاشد ومستودعاً للغلال والحبوب وبها بعض اصطبلات خيول الدولة التي كان الأمير الصغير مغرماً بركوبها . ولكن الأهم من محدودية الخبرة والدربة ، هو الظروف الصعبة والأوقات العصيبة التي نشأ فيها عبد الله وتلقى دروسه وتعليمه خلالها . ولعلّ هذا ما يفسر قول الإمام الشوكاني في ترجمته التي لم تزد على نصف صفحة بأنه « في كل حين يزداد كمالاً » وأضاف « مع عقل تام ، وأخلاق شريفة ، وخصال محمودة ، وفراسة بديعة ، ورماية فايقة ، ورصانة بالغة ، وهو أكبر أولاد أبيه[1] .. » وليس في هذه الصفات أي إشارة إلى علمه ومشايخه ـ بله اجتهاده ـ وإصابة الرأي إلى غير ذلك من الشروط الأساسية غير الذكورة والنسب وسلامة الحواس ، لكنه الملك والوراثة وعامل القوة وحب السلطان ، لا شروط الخلافة

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** : ٣٧٦/١

(الإمامة) وشورى الأمة[1] وقد كان الأمر كذلك في مختلف الأرجاء الإسلامية وفي معظم فترات التاريخ الإسلامي منذ الدولة الأموية .

وقد وفق مساعد الجراح الإنجليزي روبرت فينلي R. Finlay الذي زار صنعاء عام ١٢٤٣ هـ /١٨٢٣ م وعالج المهدي عبد الله ، في وصفه « بسرعة الانفعال واستخدام عادة تغييره لوزرائه وإيذائهم »[2] ، وهذا بالفعل ماسنراه بعد قليل .

☆ ☆ ☆

توفي المتوكل ليلة الخميس ، وفي فجر يوم الأربعاء ١٧ شوال عام ١٢٣١ هـ / ١٢ سبتمبر عام ١٨١٥ م أعلن ابنه عبد الله نفسه إماماً متلقباً بالمهدي وارتدى الملابس السوداء حداداً على وفاة أبيه وهي بدعة غير معروفة من قبل ولم تتبع فيما[3] بعد . وقد بايعه بعد الفجر قاضي القضاة الإمام الشوكاني ، وبعد الصلاة على والده ودفنه أخذ له البيعة بقبة بستان المتوكل ، من « جميع أمراء

---

(١) انظر شروط الإمامة عند « الزيدية » فيما تقدم (الفصل الثاني ، ص : ٨٠) ؛ ومن المفيد الإشارة إلى أن صاحب « **الحوليات** » المجهول ذكر (ص ١٣) أن المتوكل قد نصّ بأن ابنه الثاني قاسماً هو الذي يخلفه ، ولكن الوقت كان ضده وبدلاً منه أصبح عبد الله ولم يذكر آخر ذلك ، كما أن العادة أن الابن الأكبر هو الذي يخلف أباه . وكان قاسم أصغر من أخيه عبد الله بثلاث سنوات ، فهو من مواليد عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م ، وعند وفاة والده في العشرين ، لكن اهتمامه الأدبي والعلمي كان أفضل من أخيه فقد أخذ عن الشيخ محمد عابد السندي ولازم الإمام الشوكاني كثيراً وقرأ عليه صحيح البخاري ومسلم ، وقد وصفه الشوكاني « بالفهم الجيد والحفظ الصالح ، مع اشتغاله بقراءة علم الآلة وانكبابه على كتب الحديث ، وله بالسنة المطهرة شغف عظيم وقد توفي في شرخ شبابه ٢٢ رجب ١٢٣٩ هـ/مارس ١٨٢٣ م (الشوكاني : **البدر** ٢ ٤٠ ؛ زبارة : **نيل** ١٧٥/٢ .

(٢) Playfair .041

(٣) ذكر « أبو هلال العسكري » في كتابه « الأوائل » ص : ٣٧٧ أن أول من لبس السواد هم شيعة محمد بن إبراهيم بن محمد الإمام » وذلك حين قتله مروان بن محمد .

صنعاء وحكامها ، وجميع آل الإمام [بيت القاسم] ، وجميع الرؤساء والأعيان وبايعه بعد ذلك جميع أهل القطر اليمني » كما ذكر الشوكاني[1] إلاّ أننا نستفيد من مؤلف « سيرة المهدي عبد الله »[2] بأنه بعد الصلاة والبيعة الأولى السريعة ، توجه المهدي عبد الله إلى القصر - كما جرت العادة بذلك - وقد لبس السواد وأعلن الحداد على أبيه وبدأ يستقبل العلماء والأعيان والأمراء وغيرهم لتقبل العزاء وتلقي البيعة وجاء إلى القصر آل المهدي عباس يرأسهم طالب بن المهدي عباس لكنهم رفضوا الدخول على الإمام المهدي الذي يستقبل الناس في الديوان وتوقفوا في ساحة القصر ولفتوا بذلك أنظار الناس ، فخرج إليهم الوزير عثمان بن علي فارع وحاول إقناعهم بالدخول لكنه فشل أمام إصرارهم على أنهم لن يحضروا المجلس إلاّ إذا أطلق المهدي أملاكهم من الصوافي وأعاد إليهم بصائرهم (وثائق الملكية) . ويبدو أن تلك الأملاك التي يطالبون بها قد صودرت من قبل والده المتوكل أو جده المنصور الذي سبقت الاشارة إلى عتاب الشوكاني له في إحدى قصائده بأن أبناء أبيه المهدي عباس أصبحوا يتسولون ويسألون الناس إحساناً[3] ! ولم تنته الأزمة التي كان يمكن أن تتطور إلى قضية أكبر إلاّ بعد أن تدخل الإمام الشوكاني فتوسط بينهم وبين قريبهم الإمام الجديد الذي وافق على مطالباتهم[4] .

وبعد أسبوع من ذلك قام المهدي في يوم الاثنين ٢٣ شوال عام ١٢٣١ هـ / ٨

---

(١) الشوكاني : **البدر الطالع** ٣٧٧/١ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ٦٤/٢ ؛ الشجني : التقصار : ق ١٦ ؛ حوليات : ١٣

(٢) « **سيرة المهدي عبد الله**» ترجمة كتبت على هوامش « درر نحور الحور العين » لجحاف بدون ذكر اسم المؤلف ، وقد تحقق عندي من أسلوبها بل من التصريح في إحدى فقراتها بأنها لجحاف نفسه ، ومن سوء الحظ أنها تتوقف فجأة عند حوادث ٢٣ ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ/١٨١٨ م ولا أعلم أن منها نسخة كاملة لكن هذا قد يكون مدعاة للبحث في المستقبل .

(٣) انظر ديوان الشوكاني : ص ٣١٠ ، وراجع ماسبق ٤٣

(٤) سيرة المهدي : ٢

سبتمبر عام ١٨١٥ م بزيارة الروضة ونزل بدار البشائر حيث استعرض الأجناد وأمراءهم من القادة والفرسان في احتفال كبير ووزع عليهم قطع الذهب والفضة ، وأجل منح ذلك لحاشيته وأقربائه واتباعه إلى اليوم التالي . وقد لاحظ المهدي أن الوزير حسن بن علي بن عبد الواسع لم يعجبه « بذل الإمام الكثير » - أو بالأصح إسرافه - « فوجَدَ الأمام لذلك أشد المَوْجِدة » ولا بد أنه أضمر الأمر في نفسه ، وقبل ذلك وفي بداية الاستعراض كان المهدي قد دعا أخاه قاسماً وحمل الحربة التي كان يجيد استخدامها وتطارد مع أخيه في سباق على الخيل أظهر فيه فروسية وبراعة[١] ، ولو أخذنا برواية صاحب الحوليات من أن المتوكل كان قد « نص » على أن يخلفه قاسم لما كان قد شارك في مثل هذه الاحتفالات وإن كان السباق ربما يظهر ما كان يعتمل في نفس الأخوين من تنافس غير معلن[٢] .

وفي اليوم التالي عزل المهدي سالم بن محمد الطشي من ولاية الوقف لاشتراط العلامة الشوكاني عليه ذلك يوم البيعة لجهل الطشي بأحوال الوقف وإهماله - أيام المتوكل - ، وقد نصح الشوكاني بتعيين العالم المجرب والخبير في أعمال الأوقاف السيد إسماعيل بن حسن الشامي لكنه كان كبير السن ، فلم يطل عمره بعدها سوى ثلاثة أعوام وتوفى سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م[٣] وإذا كان ذلك العزل وهذا التعيين مناسباً وله أسبابه ، فإن المهدي عبد الله قد بدأ بعد شهرين من توليته لعبة تغيير وزرائه وأمرائه ومصادرة أملاك بعضهم . وباتت هذه السياسة الطائشة وغير المسؤولة السمة الغالبة على حكمه الذي استمر نحو عشرين عاماً .

☆ ☆ ☆

---

(١) سيرة : ٢ - ٣

(٢) راجع الحاشية (١) من الصفحة ١٧١

(٣) سيرة : ٣ ؛ وانظر ترجمته عند الشوكاني : **البدر الطالع** ١٤٥/١ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ١٦٩/١

٢ ـ تغيير الوزراء ومصادرة الأملاك :

كان الضحيّة الأولى لسياسة المهدي الخرقاء وزير والده الحسن بن علي بن عبد الواسع ، الذي أظهر مرة ثانية عدم ارتياحه من كرم المهدي الزائد عن حدوده ، فنصحه بعدم توزيع المال والكسوة والهدايا على الجنود وأمرائهم من الضباط بمناسبة عيد الأضحى ، وكان المهدي يريد بذلك الأبهة وعمل شيء لم يكن يتبع أو ربما قد انقطع في السنوات الأخيرة نتيجة الظروف المالية السيئة . وهو إذ عمل بالنصيحة إلاّ أنه بيت أمراً للوزير . فلم تمض إلاّ أربعة أيام حتى أمر المهدي فتاه الأمير ميسور الحَبَشي في يوم الاثنين ١٤ ذي الحجة عام ١٢٣١ هـ / ٧ نوفمبر عام ١٨١٦ م بالقبض على الوزير حسن بن علي وصادره بسبعة ألاف قرش ، بدعوى أنه سجن عامل صَهْبان حسن بن محمد الأكوع أيام المتوكل لدين كان عليه لبيت المال فمكث في السجن طويلاً ، ويظهر أن أعداء الوزير أثاروا الأكوع للشكوى فاهتبل المهدي الفرصة وطلب كاتب الدولة قاسم بن علي العَفّاري فقرر أن الطالع للأكوع سبع مئة قرش ورغم تكذيب الوزير لهذا ، بل رغم أن الأمر ربما لم يكن يستحق ماحلّ بالوزير ، إلاّ أن هوى المهدي وقراره قد أنفذا[1] .

وفي نهاية الأسبوع بعد صلاة الجمعة ١٨ ذي الحجة / ١١ نوفمبر خرج المهدي من الجامع راكباً فرسه واتجه بالناس في موكبه حتى وصل إلى باب اليمن وهناك سابق وزيره عثمان بن علي فارع ولعب معه بالحربة ساعة ، ثم توجه إلى ميدان القصر حيث وقف مع حاشيته مقابل جامع البكيرية واستعرض الجند وأهل البوادي والخيّالة ، ثم قفل راجعاً إلى القصر مكان إقامته . وفي المساء وعلى غير توقع أمر المهدي الأمير العبد فيروز المتوكل بأن يقبض على الوزير عثمان بن علي

---

(١) سيرة : ٣ ـ ٤

فارع الذي كان يلاعبه ويسابقه في نفس اليوم ! وأمر بإقفال وتسمير بيوت آل فارع في صنعاء وجبلة وذي السفال في آن واحد . كما أمر الأمير فتح الله المتوكل بالقبض على أخي الوزير محمد بن علي فارع . وكان الوزير يومئذ في ضيافة السيد محمد بن علي بن يحيى الشامي[1] فلم يصدق الأمر حتى تبينه . وقد أوقف الشامي نفسه في منزل الأمير فتح الله ونقلت نساء آل فارع إلى بيت الشامي . ولعل الإجراء الأخير كان بغرض سهولة مصادرة محتويات البيوت والتي تم نقلها على الجمال إلى القصر لعدة أيام وكانت تشتمل على أثاث وملابس وذخائر وغير ذلك .

وكانت آخر مفاجآت ذلك المساء هو تعيين وزير المنصور ـ جدّ المهدي عبد الله ـ ذي السمعة القديمة السيئة حسن بن حسن العلفي خلفاً للوزير المنكوب فارع الذي كان ينتظر في درج القصر إذن المهدي بالدخول عليه ، فلم يأذن له ، وبعد قليل وصل العلفي وعبر الرجل داخلاً إلى المهدي ونقل بعدها فارع إلى السجن[2] .

☆ ☆ ☆

قام المهدي بتغيير معظم المسؤولين في إدارة والده ونقل بعضهم إلى مناصب أخرى ، فبالإضافة إلى تعيين الوزير العلفي مسؤولاً عن مناطق : ريمة ، وصابين ، وحراز ، وحفاش ، وتعز وما يتبعها ؛ عين القاضي محمد بن علي بن عبد الواسع ـ أخا الوزير المعزول ـ وزيراً مسؤولاً عن جِبْلة وإبْ وحُبَيْش والمخا وقعطبة ؛ والقاضي عبد الكريم الجرافي لمناطق : آنس وذَمَار والمنطقة الوسطى .

---

(١) كان والده (ت ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م) الوزير المشهور أيام المهدي عباس والمنصور علي انظره فيما تقدم ص : ٦٧ .

(٢) سيرة المهدي : ٥ ـ ٦ ؛ حوليات : ١٤

بالإضافة إلى مسؤوليته عن مخازن القصر ، وخيول الدولة . وبحكم مسؤوليته عن المخازن فقد كلف باستلام ما صودر من منازل آل فارع وحفظه كما كلف الفقيه القاضي محمد بن علي العمري بالحضور لجردها وتسجيلها رسمياً[1] . ويبدو من هذا أن مصادرة أملاك آل فارع كانت لصالح بيت المال وليست لصالح المهدي شخصياً ، أو هكذا يظهر .

وعين المهدي أخاه الأمير محمداً مسؤولاً عن همدان وسنحان وعين له الفقيه علي بن محمد العمري مستشاراً (وسكرتيراً)[2]

وكان من الوجوه الجديدة في إدارة المهدي عبد الله (سكرتيره) الفقيه قاسم بن علي العَفّاري الذي قدر له أن ينهض بدور العلفي في إدارة المنصور إلا أن الفارق أن العفّاري كان يُعزل ويُصَادَر وأحياناً يُسجن ثم يعاد إلى منصبه ! وقد حدث له هذا عدة مرات كما حدث لغيره ممن تعرض لغضب هذا الإمام المتقلب .

كما كان الفقيه حسين بن محمد حنش أيضاً من المعينين في الإدارة الجديدة وقد عين مسؤولاً عن شؤون قبائل برط : ذي محمد وذي حسين وهو منصب صعب لما لتلك القبائل من مشاكل كثيرة ، بالإضافة إلى وظيفة وساطة الباب وهي ما يشبه وظيفة وزير القصر . وكان حنش قد كلف حصر أملاك آل فارع ومصادراتها وتسميز بيوتهم في اليمن الأسفل[3] .

وكان أحمد بن محمد بن المنصور وهو ابن عم المهدي أميراً للأجناد ، ولا ندري هل كان كذلك من أيام المتوكل أم عينه المهدي بعد تسلمه مقاليد الحكم ، وما نعلمه

---

(١) سيرة المهدي : ٥

(٢) نفسه : ٤

(٣) نفسه : ٦

أنه في السادس من محرم عام ١٢٣٢ هـ / ٢٧ نوفمبر ١٨١٦ م قد تم استبداله بالأمير ريحان المتوكل عامل صنعاء الذي لم يلبث أن عزل بدوره في الشهر التالي ، وعزل معه قائد حراس القصر الشريف علي بن ناجي الجوفي[1] ، وأمرا بالإقامة الجبرية في منزلها . وقد عين بدلاً عن الأول الأمير فرحان المتوكل ، كما حلّ محل الثاني عبد آخر هو النقيب فتح فيروز .

ولم يسلم من هذه التغييرات أخو المهدي الأمير محمد بن المتوكل الذي لم يكد يمضي عام على قيامه في منصبه السابق حتى عين عاملاً لصنعاء في مكان الأمير ريحان ، كما غير المهدي في الوقت نفسه قادة حراس أبواب العاصمة[2] .

☆ ☆ ☆

٣ ـ بعض الحوادث والمفارقات

نجد في (سيرة المهدي) بعض الإشارات والملاحظات العابرة لكنها في الواقع مفيدة جداً لما تلقيه من ضوء على الحياة الاجتماعية والأوضاع والعادات القائمة آنذاك .

ولقد سبق أن أشرنا نقلاً عن (السيرة) إلى أن المهدي عبد الله ارتدى الملابس السوداء حداداً على وفاة أبيه وهذا تقليد غير معروف في اليمن من قبل وذكر جحاف صاحب السيرة الناقصة ، أن المهدي عبد الله أعاد « سنة الختان لصبيان المسلمين » فكما لو كان هذا الأمر قد تلاشى . ففي ١١ محرم عام ١٢٣٢ هـ / ٢ ديسمبر عام ١٨١٦ م تم ختان صبيان المسلمين « بباب داره ، وأطعمهم وأطعم الواصلين بهم ، وأنالهم ، وكان قد ترك ذلك منذ أعوام »[3] ولعل المقصود بهؤلاء الصبيان أولاد القبائل أو المناطق خارج العاصمة لحثهم على السنة في الختان .

---

(١) هو من السادة الأشراف ممن سكن الجوف شمال شرق صنعاء وهم من أحفاد الإمام حمزة بن أبي هاشم بن الحسن الحسني الطالبي المقتول في المنوي من بلاد أرحب سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٢ م وقبره في بيت الجالد من بلاد أرحب (زبارة : نيل الحسنيين : ١١٦) .

(٢) سيرة المهدي : ٨ ـ ٩

(٣) سيرة : ٧

وثمة شيء آخر قام به المهدي في عامه الأول ولـه مغزاه . ففي يوم الخميس ٢٤ ذي الحجـة عـام ١٢٣١ هـ /١٤ نوفمبر عـام ١٨١٥ م « استعرض الإمـام المحـابيس ، وأعطى كل واحدٍ ثوباً وأربعـة ريـالات ، وعرض عليـه أهل قـايفـة = [قيفـة] قطّاع الطريق ، فطلب السيف واستشهد وزيره عند ذلك بالبيت السائر :

بِسفْكِ الدّماء يـاجَـارَتي تحقنُ الـدّمـا   وبـالقَتْلِ تنجُـو كُـلُّ نَفْسٍ مِنَ القَتْـلِ

وتعرّض جماعة من عقّال القبائل للشفـاعـة لهم ، فـأخّرهم إلى اليوم التـالي ، يوم الجمعـة ، ثم أصبح وكسـا وزراءه الـذين سلف ذكرهم ، فجمّـل بهم المـوكب ، وأعظم النـاس تـدبيره ، ثم خرج للصلاة وأمر بـإنـزال قـايفـة ، وصلى وخرج من الجامع ، فلما وصل البستان أمر بضرب أعناقهم ، وكانوا ثمانية ، فضربت فكان لهـا في البلاد موقع عظيم ، فإنها تزلزلت لها قلوب طوائف الفساد »[١] .

ومن الإجراءات التي اتخـذهـا المهـدي إطـلاق السيـد محمـد بن علي الشـامي الموقوف في حملتـه على آل فـارع وقـد أهـداه وابنـه فرسين نجيبين لكسب ودهـا ، وأطلق أملاكاً مصادرة لمحسن بن يحيى بن محسن المتوكل الذي عينـه عـاملاً على ثلا وعمران .

وفي نهـايـة شهر محرم عـام ١٢٣٢ هـ /ديسمبر عـام ١٨١٦ أرسل المهـدي الأمير فيروز المتوكل كاشفاً على عامل المخا الفقيه صالح بن صالح العـامري ، وكان بلغـه عنه تبادله الرسـائل « مع الأعـداء » (لعل المقصود الشريف حمود) . وقـد حمّلـه المهدي كسوة للعامري على غير عادة وحـاملهـا على درجـة عـاليـة ، فـما أن وصل الأمير إلى ذَمَار في طريقه إلى المخا حتى كان الخبر قد وصل العـامري الـذي أوجس خيفة لعلمه بمزاج الإمام وما بلغه من أخبار . وباقتراب الأمير فيروز من المخـا قرر العامري الانتحـار فبلع فصّ مـاسٍ ومـات لسـاعتـه ! ووصل الأمير وسمّر المخازن

---

(١) سيرة المهدي : ٦

والدار واستدعى المسؤولين وأدار المنطقة حتى تأتيه أوامر المهدي من صنعاء[1] .

☆ ☆ ☆

أشرنا في آخر الفصل السابق إلى تبادل المتوكل أحمد الرسائل والهدايا مع والي مصر محمد علي . وقد استمر ابنه المهدي عبد الله في السياسة نفسها مستخدماً سفير والده العالم محمد عابد السندي (ت ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م)[2] . وما يهمنا هاهنا هو الإشارة إلى حادث طريف يظهر المفارقة بين المتوكل وابنه المهدي في ذكرنا هذا لبعض حوادث المهدي وتصرفاته . فقبل وفاة المتوكل كان قد تلقى هدية بديعة من حاكم مصر كان من بينها أحد فيلة الباشا الصغيرة . وكان هذا الفيل يخرج مع الخيل في الاستعراضات ، ويمر به أحياناً في الأسواق فيتفرج الناس عليه باستغراب لندرة وجود الفيلة إلاّ ما يسمع عنها من حكايات وأخبار . وعندما خلف المهدي أباه أرسل بهدايا إلى محمد علي في عام ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م . لكنه من السخرية بمكان ماذكره صاحب (الحوليات) من أن المهدي عبد الله أعاد ذلك الفيل إلى محمد علي مع ماأرسل له من هدايا ، معتذراً بأن « أرض اليمن فقيرة لاتستطيع إطعام فيل يحتاج إلى أكل كثير[3] ! » .



---

(١) سيرة : ٨

(٢) أصله من السند وقد جاور جدّه بمكة ، وبعد وفاة والده ورد مع عمه الطبيب المشهور إلى الحديدة وقد استفاد محمد هذا من علم عمه وعرفه الناس طبيباً ماهراً وفقيهاً ولغوياً وقد طلبه المنصور إلى صنعاء عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م وانتفع به الناس في العاصمة وانضم إلى حلقة دروس الإمام الشوكاني فقرأ عليه وأثنى على فهمه الجيد ، ثم عاد إلى الحديدة وكان يتردد إلى صنعاء كثيراً ثم كلفه المتوكل والمهدي سفارات إلى مصر (الشوكاني : **البدر الطالع** ٢/٢٢٧) .

(٣) **حوليات يمانية** : ١١ و ١٦ : الشوكاني :**البدر** ٢/٢٢٧ الذي ذكر أن المهدي « أرسل بهدية منها فيل » ولم يذكر تعليل صاحب **الحوليات** الذي يتصف بالمبالغة وعدم الدقة في أحيان كثيرة ، ومثل الشوكاني ذكر جحاف (سيرة : ٣١) .

٤ ـ تمرد الشريف علي بن ناجي واعتصامه في ذَهْبان ثم مقتله

في السادس عشر من صفر عام ١٢٣٢ هـ / ٥ يناير عام ١٨١٧ م أناط المهدي مسؤولية الإشراف على المخا بوزيره الفقيه قاسم العفاري بدلاً من الوزير القاضي محمد بن عبد الواسع . وعيّن الأمير علي بن مسعود الماس عاملاً على المخاء . وفي الوقت نفسه أفرج عن الشريف علي بن ناجي الجوفي ، أحد القادة العسكريين ، من معتقله في إقامته الجبرية بمنزله ، وأمره أن ينضم إلى الأمير الماس في مهمته الجديدة لكنه تلطف في الاعتذار عن عدم قبول ذلك ، ولعل سبب اعتذاره اعتقاده أن المهدي يرغب في التخلص منه ، أو لأنه سيكون تابعاً للأمير العبد الماس وليس هو المعتمد الأول[1] . وإزاء إصرار المهدي تظاهر الجوفي بالموافقة وخرج ليلحق بصاحبه الذي كان ينتظره خارج العاصمة . وبدلاً من التوجه جنوباً غيّر طريقه في الليل شمالاً إلى قرية ذَهْبان على بُعد نحو ١٤ كم من صنعاء ، ومعه بعض رجاله . وهناك ، حيث يملك بيتاً على حصن وأرضاً كان المتوكل قد أقطعه إياها ، بقي حانقاً على المهدي[2] .

وبعد مضي أسبوع جاءتْ قبائل نِهْم وقضاة برَط وذبحوا عقيرتين بباب الإمام شفاعة للشريف علي بن ناجي ـ الذي لا بد أنه راسلهم للتوسط في الأمر ـ ، فقبل منهم المهدي ذلك على شرط عوده إلى بيته بصنعاء محبوساً كما كان ثم ينظر بعد ذلك في أمره . ذهب الوسطاء ثم عادوا ثانية إلى المهدي بعد أيام ، فاستقبلهم بمَفْرج دار الصافية ببئر العزب ، وكان اقتراحهم عودة الرجل بضمانهم وفي وجوههم ، على أن يكون من جملة الخيّالة ، ويصرف له مقرره وجامكيته وألا

---

(١) السيرة : ٩ ـ ١٠ ؛ وذكر جامع **الحوليات** (ص : ١٥) أن المهدي عين الشريف الجوفي عاملاً على المخا غير أن رواية **السيرة** أكثر قبولاً لتفسير الرفض من ناحية ولقرب صاحبها (جحاف) من مركز الأحداث من ناحية أخرى .

(٢) السيرة : ٩

يعود إلى الحبس في بيته ، وكان في المجلس أحمد بن علي الجوفي ، أحد قادة الحرس ولعله ابن الشريف الجوفي أو قريبه ، فزكى الاقتراح وأيده « فأغلظ له الإمام القول . فهرب من صنعاء على تلك الحال وقصد الشريف علي إلى ذهبان » ، وهذا يعني أن المهدي لم يقبل بما جاؤوا به وأنه كان متشدداً في القضية .

وفي صباح اليوم التالي ، الثلاثاء ٢٤ صفر عام ١٢٣٢ هـ / ١٣ يناير عام ١٨١٧ م خرج من صنعاء أربع مئة جندي بقيادة محسن بن يحيى بن محسن المتوكل والفقيه حسين بن محمد حنش ومعهم المدافع ، وعقب وصولهم أحاطوا بذهبان ، وجرى تبادل النار فضربت النوبة التي بها الشريف الجوفي الذي استمر ومن معه في القتال . وما إن استسلم أصحابه حتى كان قد تمكن الجوفي من الفرار من إحدى الطرق والتجأ إلى أرحب على بعد نحو / ٢٥ كم / من المنطقة .

وفي يوم الأربعاء أرسل حنش ثلاثة وعشرين نفراً من أصحاب الشريف الجوفي مغلولين إلى صنعاء . أما محمد بن علي الجوفي فيبدو أنه لم ير على نفسه خطراً كبيراً ، أو أنه أحسن الظن بالمهدي فسلم نفسه إلى حنش متشفعاً به ، فأدخله معه إلى صنعاء . ولم يمهل المهدي أي شفاعة أو طلب للعفو ، بل أمر من فوره بسلب الرجل ونهبه ثم كانت نهايته المحزنة كما كتبها حجاف ، قال :

« ثم ضرب أسواطاً كثيرة ، ووطئه الخدم بأرجلهم ـ لعدم إحسانه إليهم وإطلاق لسانه عليهم [لعل ذلك كان أيام إمارته] فشاهد الموت عياناً ، ثم أقيم فلم يَقم ، فحُمل على رجل أسود ، وضربت عليه المرافع [الطبول] ، وطيف به ببئر العزب ، فمات في السايلة من صنعاء ، وجيء به إلى باب الإمام فأمر بدفنه »[1]

☆ ☆ ☆

---

(١) سيرة المهدي : ١٠ ـ ١١ ؛ **حوليات** : ١٥

٥ ـ إخضاع حاشد :

أُمِرَ القائد المتوكل بالتوجه من ثقبان مع رجاله وبعض رجال القبائل إلى عمران أكبر حواضر حاشد والتي تبعد نحو ٥٠ كم شمال صنعاء وذلك لتمرد وقع من أهلها ، على أن يتوجه منها إلى الجنات على مقربة من عمران للسبب نفسه و « لخروج أهلها عن طاعة الإمام » . وحين وصلت العساكر رفض أهل المدينة في أول الأمر فتح أبوابها ، لما يعرفونه من مَعرَّة دخول الجيش وتمكن محسن بن يحي المتوكل من حلّ المشكلة باستبعاد بني جبر وآخرين من قبائل خولان من الدخول .

ومن عمران قاد السيد المتوكل يوم ١٤ ربيع الأول عام ١٢٣٢ هـ / ٢ فبراير عام ١٨١٧ م هجوماً على الجنات بعد أن عزّزه المهدي من صنعاء بمدفع وثلاث مئة جندي ومبلغ سبعة آلاف ريال[1] . قامت العساكر بالحصار حول المنطقة التي كان أهلها قد اعتصموا بالتحصينات والمتاريس ، وخرج رجالها بقيادة المشايخ عامر الشنبلي ، محمد رضوان ومقبل الشجمة وآخرين لمواجهة عساكر الإمام ، وجرت معركة قتل فيها فيمن قتل المشايخ الثلاثة وضربت النوب والتحصينات وأخضعت الجنات وأرسل إلى العاصمة ثمانية عشر من رؤساء القبائل مقيدين .

وفي اليوم التالي ١٥ ربيع الأول / ٣ فبراير احتفل المهدي في صنعاء بذلك النصر ، وأصدر بياناً رسمياً أرسل ووزع على جميع المناطق والجهات يذيع فيه أنباء الانتصار ويهدد كل من يفكر في الخروج عليه بالويل والدمار . وفيما يلي نص البيان نقدمه لما فيه من فائدة كبيرة من حيث الطريقة أو الصياغة أسلوباً ولغةً أو الغاية منه :

---

(١) كان المهدي في الخامس من هذا الشهر قد ضرب أول عملة باسمه ولقبه وقد ذكر جحاف أن الناس حمدوا له ضربته لأنهم وجدوها بعكس ضربة والده« رزينة وفضتها كثيرة ، فتيسرت بها للضعفاء المعيشة » .

الحمد لله الفاتح لمغلقات الحصون ، المبرم للأمر بين الكاف والنون ، مانح النصر والظفر ، ومبيد من جحد النعمة وكفر ، والصلاة والسلام على المؤيد بنصر الله وفتحه ، محمد الذي جعل الله رزقه تحت ظل الرماح والسيوف الباترة ، والليوث العادية ، الكاسرة .

وبعد فالذي نبديه إلى حكامنا وعمّالنا ، وسائر الأعلام ببلادنا ، ومن تحوزه مملكتنا ، والمشايخ والرعية ، وسائر أهل المدارس الشرعية . أنها لما تخبطت أحوال أهل الجنات من أعمال عمران ، ونجح في مناجزتهم الشيطان ، وظهر منهم التعصّي والإباء ، وظنوا أن لهم في العجرفة بناء ، وحلمنا لم يزل عليهم وما زال الناصح مشيراً إليهم ، وقد ارتدوا جلباب الإصرار على قدر الاستكبار فبعثنا عليهم جريدة من عساكرنا المنصورة ، وشرذمة من أجنادنا المشهورة المذكورة ، فأحاطت بمعاقلهم ، وتواثبت على مراتبهم ومنازلهم فما هي إلاّ أن قامت الحرب على ساق ، وأنزل الله النصر لتدمير أهل الشقاق ، فحملت الأجناد حملة صادقة ، وكل طائفة تأخرت فكانت سابقة ، فتزلزلت معاقلهم والأركان ، وذهبت بهجتها وكان لها من قبل شان واحتزت رؤوس شياطينهم ، وامتلأت البطحاء بأشلاء أساطينهم [وأحضرت] الرؤوس إلى الحضرة ، فكانت للناظر أعظم عبرة ، فبعثنا بهذه البشرى لنبشر بها كل محب مُيسر لليسرى .

هذا وإن أجنادنا المنصورة منيخة بعرصاتهم ، مقيمة بمحل محاضراتهم ، آكلة لزروعهم ، منزلة بكل قلب أعظم وجَل ورَوع فحال وصول كتابنا ووفود مثالنا مأخوذ عليكم ببث هذه البشرى ، وإيقاد النار ، وليعلم كل مسيء أن ذنبه برقبته ، وأن عصيانه مسيء له

ولعشيرته وبدنته . ولأهل الطاعة عندنا الرعاية ومزيد العناية وصلى الله على سيدنا محمد مسك الختام .

حرر خامس عشر ربيع الأول عام اثنين وثلاثين ومئتين وألف[1] » .

☆ ☆ ☆

بُعَيْد ذلك قام المهدي بعزل حسين حنش من منصبه وساطة الباب مدعياً بأنه أنفق اثني عشر ألف ريال في الحملة على ذَهبان « في غير طائل » ، فلقد تمكن الشريف الجوفي من الفرار إلى أرحب ، كما أن تكاليف الحملة على عمران والجنات قد كلفت عشرين ألف ريال وهو كثير .

ثم أبدل حنش بقاسم العفّاري الذي اتخذ من سكن حنش بالقرب من باب السَبْحة مقراً له[2] .

وفي الوقت نفسه عاد من المخا الأمير فيروز المتوكل بعد أن نفذ أوامر المهدي وأحضر معه ما خلفه العامل المنتحر صالح العامري .

أما الوزير حسن العلفي الذي لم يكن مرغوباً فيه بشكل عام فقد أدرك ذلك وأراد أن يقضي أيام شيخوخته راكناً إلى العافية فطلب إعفاءه من عمله واعتزل .

وفي هذه الأثناء قرر « المهدي » أن يقوم شخصياً بالتفتيش على أعمال قائده « المتوكل » العسكرية في « حاشد » ، فغادر صنعاء لهذا الغرض وليقوم بنفسه

(١) **سيرة المهدي : ١٣ ـ ١٦ ؛ حوليات : ١٥ .**

(٢) **سيرة المهدي : ١١ ؛ حوليات : ١٥ .**

تأديب بعض القبائل « كعيال سريح » الذي توجه إليها بقوته ونزل من « بني زيد » حيث أمر بهدم دار أحد مشايخها أحمد بن علي الضُّلْعي ، ومن « عيال سريح » قدم بجولة زار فيها « الجنات » و « زَيْدة » و « حمده » وغيرها من مناطق « حاشد » ، وأمر بهدم بعض القلاع والتحصينات التي كان من بينها « حصن شاجر » الذي كان قد احتمى به شيخ « خارف » القُفيلي مع بعض رجال قبيلته . وقد جرى قتال عنيف لم يستسلم في آخره الشيخ القفيلي إلاَّ بعد أن سقط عدة قتلى من الجانبين كان منهم ستة من « همدان » ممن كانوا مع « المهدي » ، وبعد استسلامه أخذ ومعه خمسة وثمانون وضعوا مع آخرين من « الجنات » في سجن عمران[1]

وبعد ذلك صعد « المهدي » إلى « شاجر » حيث اطلع بنفسه على عدد القتلى وعلى التحصينات التي أمر بها فهدمت .

وفي يوم الجمعة الثالث من جمادى الأولى / ٢٢ مارس ١٨١٧ ، غادر المهدي حَمِدة إلى عمران مخلفاً محسن المتوكل ليواصل هدم حصون مناطق حاشد وقلاعها وفي اليوم التالي في عمران أمر المهدي بهدم سور المدينة فجاء سكان عمران يرجونه إبقاءه لأنه يحميهم من أي غارات قبلية خارجية . خاصة وقد قبض المهدي على الرؤوس المسببة للعصيان ومن يسمونهم بالبغاة ولم يبق إلاَّ الضعفاء والمساكين ومن ركن من الناس إلى العافية ، فقبل المهدي رجاءهم وأبقى السور الذي لا زال لحسن الحظ منه بقية إلى الآن . واستدعى من صنعاء السيد قاسم بن أحمد بن المنصور حسين وعينه عاملاً على منطقة عمران وعيَّن يحي بن علي الرّضي مساعداً له .

وبعد أن أمضى المهدي عشرة أيام زار فيها المنطقة وقبض على من بقي من

(١) سيرة المهدي : ٢٣ ـ ٢٤

مشايخ عمران والجنات ، أمر يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى / ٢إبريل بإزالة المعسكر وتقويض الخيام المنصوبة للأجناد وغادر عمران إلى الروضة في طريقه راجعاً إلى صنعاء . وكلّف الأمير فيروز مع بعض جنوده باصطحاب السجناء جميعاً والمثول بهم أمام إمامه يوم الثلاثاء في باب شعوب البوابة الشمالية للعاصمة . ثم دخل المهدي صنعاء قادماً من الروضة يوم الأربعاء ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٣٢ هـ / ٤ إبريل ١٨١٧ ، وكان السجناء قد أودعوا السجن[١] .

وبعد عود المهدي إلى صنعاء أرسل السيد علي بن حسن الدرّة مع بعض الجنود لهدم حصون جبل عِيال يَزيد لكن الدرّة وجد مقاومة شديدة فأرسل المهدي أمير الجند فيروز المتوكل على رأس ألف جندي ومعه النقيب هادي بن علي أبو لحوم كبير نِهْم مع نفر من أصحابه ممن كانوا في عَمران وخافت قبائل جبل عيال يزيد من مواجهة القوة الجديدة فلم تبد أي اعتراض على أوامر هدم الحصون والقلاع التي تم تدميرها فور وصول الأمير فيروز[٢] .

ومن ناحية أخرى كان الاقتتال قد نشب بين قبائل قايفة (قيفة) في الجنوب الشرقي من ذمار فأرسل المهدي الشيخ حسين بن سعيد أبا حليقة ومعه ألف مقاتل من قبيلته خولان القريبة من قيفة لإنهاء القتال والتدخل بالقوة كما جرت العادة في مثل هذه الحالات . فحاول الشيخان سعد مفتاح وعلي بن ناجي القوسي ـ بحكم تزعمها للحدأ وبحكم الجوار ـ التوسط في حل الإشكال . بيد أن الشيخ علي بن سعيد الحاج (من قيفة) عامل رداع والذي ربما كان له مصلحة في النزاع قبض على الحاج مع آخرين وأودعه سجن ذمار إنفاذاً لأوامر المهدي[٢] .

☆ ☆ ☆

(١) سيرة المهدي : ٢٤ ـ ٢٦

(٢) نفسه : ٢٦ ـ ٢٩

٦ ـ عفو وعقاب في صنعاء

تميزت الأسابيع التالية لعودة المهدي من حاشد بالطمأنينة والأمن والأريحية والكرم من جانب المهدي ففي ٢٩ جمادى الآخرة عام ١٢٣٢ هـ / ١٦ مايو عام ١٨١٧ . عاد الشريف علي بن ناجي الجوفي إلى صنعاء بعد أن منحه المهدي العفو والأمن بعدما هرب من ثقبان إلى أرحب كما تقدم ذكر ذلك .

من ناحية أخرى أطلق من السجن عثمان بن علي فارع الوزير المغضوب عليه ، وأمر بالإقامة في نُوبة الحاج توفيق في بستان المهدي نفسه ، وكان ذلك بمثابة التخفيف عن الرجل وخطوة في الطريق لإطلاق سراحه . وعلى عكس هذه الإجراءات جاء دور الوزير المتنفذ الفقيه قاسم بن علي العفاري الذي ألقي به في السجن بتهمة تقليل نسبة الفضة في سك العملة و « لشدة حِدّته » وعين بدلاً منه السيد إسماعيل بن قاسم الأمير (حفيد العلاّمة ابن الأمير) ، لكن سجن العفاري لم يطل فقد أطلق بعد شهرين[١] وفي الوقت نفسه أطلق المهدي سجناء حاشد بعد وساطات بعض المشايخ والوجهاء الذين كان من بينهم يحيى بن مفتاح ناشر[١] .

وإذا كان المهدي قد عفا عن المناوئين وأطلق سراحهم ، فقد كان يضيق صدره من نقد أقربائه ، بل أقدم على معاقبتهم . ففي الخامس من رجب / ٢١ مايو بلغه أن أعمامه أبناء المنصور علي « يقدحون في ملكه » فقبض أولاً على خيلهم جميعاً وبعد يومين ـ بعد صلاة الجمعة ـ أودعهم السجن ، وهم قاسم وإسماعيل ويحيى ومحمد وزيد . ثم أمر أيضاً بسجن عمّ أبيه طالب بن المهدي عباس وكان قد امتنع وقاوم فتوقف الحرس المكلفون باعتقاله وعادوا إلى المهدي فأرسل إليه وزيره القاضي محمد بن علي عبد الواسع ورئيس الخدم ، وفي الوقت نفسه

---

(١) سيرة المهدي : ٣١

ذهب إليه ـ ربما بإيعاز من المهدي أو خوفا من الفتنة ـ أخواه يعقوب وصلاح الدين ابنا المهدي عباس » وحذره الجميع من المباينة فامتثل الأمر وأودع السجن » . وبعد أسبوع قام هذا الإمام المتقلب المزاج والمضطرب العاطفة بزيارة أعمامه يوم الجمعة في السجن ، وأراد التخفيف عنهم فأمر بنقلهم من السجن العام من القصر إلى البيت الذي سبق لجده المنصور أن سجن فيه منافسه اللدود السيد العلامة علي بن أحمد إسحاق ، ولعله لم يدر بخلده آنئذ أن يوماً سيأتي يودع فيه أبناؤه في المكان نفسه ، لكن الأمر لم يطل بهم فقد عاد المهدي وأطلق سراحهم في منتصف الشهر التالي[١] .

لقد تصادف إطلاق سراح أعمام المهدي بحادثين متناقضين .

الأول ـ ولعله سبب التعجيل في الإطلاق ـ كان زواج المهدي من جديد في ذلك المساء بابنة السيد إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد (ت ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م[٢] ، وتزوج أخوه إبراهيم بن المتوكل أحمد بابنة القاضي يوسف بن إسماعيل الصديق[٣] .

---

(١) جحاف : **سيرة المهدي** : ٣١ ـ ٣٣ ، وعن ابن إسحاق انظر ماسبق (ص : ١١٢) .

(٢) هو ابن العلامة عبد القادر بن أحمد ، شيخ الإمام الشوكاني ، وكان زميلاً له (انظر ترجمته في **البدر** ١٧/١ ـ ١٨)

(٣) **سيرة المهدي** : ٣٣ : ولم يكن هذا زواج المهدي الأول ولا الأخير . ففي الأول من صفر ١٢٣٣ هـ / ١٣ ديسمبر ١٨١٧ م ـ بعد مرور ستة أشهر فقط على هذا الزواج ، تزوج ثانية بابنة السيد عبد الكريم بن أحمد بن إسحاق (ت ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م) ، وفي نهاية الشهر نفسه تزوج أخوه محمد بابنة الشيخ علي بن محمد خليل صاحب همدان . وفي ١٢٣٥ هـ/١٨١٩ م عاد المهدي فتزوج ابنة السلطان الرصاص في البيضاء وبعد أن طلقها تزوج بأختها (**سيرة** : ٤٣ : **حوليات** : ٢٨) وعن القاضي يوسف بن إسماعيل الصديق الذي خلف والده في القضاء وأخذ على الشوكاني انظره في ترجمة أبيه (**البدر الطالع** : ١٥٨/١) .

الحادث الثاني كان بعد أفراح العرس بساعات حيث كان على المهدي أن يوجه في صباح فرحه هجوماً قاسياً وسريعاً قامت به قبائل أرحب بقيادة بعض مشايخهم ومعهم الشريف علي بن ناجي الجوفي الذي عفا عنه المهدي فعاد إلى صنعاء قبل ذلك بخمسة أسابيع ، وكان معه في الهجوم شريف آخر من كبار الجوف .

☆ ☆ ☆

٧ ـ هجوم أرحب

لانجد حاجة للبحث حول الدوافع والأسباب لهجوم أرحب لأن ذلك يكمن في الغالب وراء حمايتهم للشريف علي بن ناجي الجوفي ورجاله . وإن كنا لانعلم في الواقع متى لجأ إلى أرحب وطلب حمايته للمرة الثانية ، ولماذا كان ذلك بعد أن عفا عنه المهدي وعاد إلى صنعاء فحماية الجوفي من ناحية وربما الاعتقاد بضعف قوة صنعاء بعد حملة المهدي على حاشد جعل أرحب تتحفز لتمرد ما على الإمام ، وهي بذلك تسبق أي هجوم تأديبي محتمل ضدها كما فعل المهدي قريباً مع حاشد .

كل مانعرفه هو أنه في يوم الخميس ١١ شعبان عام ١٢٣٢ هـ / ٢٧ يونيو عام ١٨١٧ م غادرت بعض قبائل أرحب أراضيها التي لاتبعد أكثر من ٤٠ كم شمالاً عن صنعاء يصحبها الشريف علي بن ناجي الجوفي ، وأحد أكابر الجوف الشريف محسن الدّامر[١] ومعهم ست عشرة مئة محارب وبعض الفرسان على عشرة خيول ووصلوا الروضة منتصف ليلهم ، ومع الصباح هجموا على شعوب وبعض ضواحي صنعاء الشمالية وحاولوا التمركز والتحكم فيها ، فخرجت لهم خيل المهدي بقيادة

---

(١) ينتسب الشريف الدامر كالشريف الجوفي إلى الإمام حمزة بن أبي هاشم الحسني المقتول بأرحب سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م والمدفون بها في بيت الجالد ـ كما تقدم عن الجوفي في حاشية سابقة . انظر الحاشية : ١ من الصفحة : ١٩٢ ـ ولعل هذا من أسباب علاقة أشراف الجوف بأرحب .

الأميرين فرحان المتوكل وفيروز وكان عددهم كبيراً ، وانتاب المهاجمين الخوف فتراجعوا مع أول الليل إلى جَدِر شمالاً ـ نحو / ١٥ كم / ـ وتبعتهم الخيل إلى هناك ، وكان ذلك المساء ليلة إعراس المهدي ، فبكر من صباحه على رأس جماعة أخرى من جنوده وانضم إلى الفرسان ، وطارد أرحب إلى ديارهم ثم عاد وطلب على عجل قبائل خولان ونهم وغيرها ليعد حرباً على أرحب[1] .

وفي ١٨ شعبان / ٤ يوليو وصل إلى صنعاء النقيب حسين أبو حليقة استجابة لاستدعاء المهدي وأحضر معه ثلاثة آلاف محارب من قبائله نصفهم بقيادة النقيب الصوفي ، وتبعهم ألف وخمس مئة مقاتل أخرى يقودهم النقيب القيري ، وعسكر الجميع على مقربة من الروضة . وفي الوقت نفسه وصل من عمران عاملها السيد قاسم بن أحمد ومعه نفر من الرجال من أهل الجبل وعيال سِريح وخلال تلك الاستعدادات قام جماعة من فرسان الأشراف بهجوم سريع على ذهبان ـ ولعله لجس نبض قوات المهدي ـ فلحق بهم بعض خولان وقتلوا فرساً وأسروا صاحبها وتوافدت قبائل أخرى من همدان و بلاد البستان و سنحان . وخرج المهدي إلى الروضة وبعد صلاة الجمعة ١٩ شعبان / ٥ يوليو استعرض بجوار دار البشائر جنده وجماعات القبائل ثم عاد إلى صنعاء .

من جهة ثانية كانت أرحب قد اتصلت ببني جرموز للتحالف (المؤاخاة) فأرسل المهدي الأمير توفيق مع قوات ليمنع أي تحالف بين أرحب وبني الحارث وبني حشيش فقام بتوزيع العساكر بين أرحب وتلك االقبائل ، كما أرسل النقيب أبا حليقة ليكون بين بني جرموز و أرحب فتمركز مع بعض خولان على باب شراع من أرحب ؛ التي تبين لها أي موقف صعب قد تورطت فيه .

---

(١) سيرة: ٣٢ ـ ٣٣

أدركت قبائل أرحب المطوقة بعساكر المهدي وقبائله التي استدعاها، أن لاقدرة لها على القتال وأن النتائج وخيمة ، فقام رؤساؤها بالتوسل والتوسط بزعماء القبائل التي معه ، فقام الشيخ مظفر خليل بالوساطة فعرض على المهدي أن تقدم أرحب من العقائر (الذبائح) ومن الرهائن (في الأغلال) ماسبق أن قدمته عمران وأن يمتنعوا عن أي عمل عدائي ويسلكون في طاعة الإمام ، وإرجاع مادخل من تحالف بني الحارث - وهم بنو جرموز - معهم ، غير أن هذا جاء متأخراً ، فرفضه المهدي . فاتجهت أرحب إلى طلب العون من قبائل بكيل وكانت أحد فروعها وأعلنت مايسمى « بالنَّكَف » في تقاليد القبائل . وقد استجابت لهذا « النكف » بعض قبائل بكيل كذي محمد وذي حسين ، وقبائل يام وآخرون . أما نهم البكيلية بقيادة النقيب هادي أبي لحوم فقد سبق لها أن أرسلت بألف وخمس مئة مقاتل لتأييد الإمام المهدي بعد خلافات حادة بين قادتها حول ذلك . فقد كان بعضهم يحبذ الحياد والبعض الآخر يتحسب لأي « نكف » من قبل أرحب وسيكون عيباً في رده[1] .

☆ ☆ ☆

حسم المهدي الأمر بمغادرته صنعاء يوم ٢٣ شعبان عام ١٢٣٢ هـ / ٩ يوليو عام ١٨١٧ م تتقدمه الجنود والمدافع وألف مقاتل وصلوا أخيراً من بني جبر - المعروفة الآن بخولان الطيال - وتوجه إلى ميدان القتال . وفي الوقت نفسه توجهت قبائل همدان من أراضيها يقودها الأمير ريحان صوب أرحب . وهناك جرى قتال شديد لعدة أيام . وفي أحد الاصطدامات بين نهم وأرحب وحلفائها تمكنت نهم بعد أن كادت تهزم لنزول مقاتلين عليها من الجبال ، من أن تقتل الشريف محسن الدامر رأس الجوف وأربعين من المتحالفين مع أرحب ، ومع ذلك

---

(١) سيرة : ٣٣ - ٣٤

لم يتمكنوا من الاستيلاء على القرية الأرحبية رمانٌ لغزارة الرماية من بيوتها . وفي معركة ثانية بين همدان وأرحب فقدت أرحب فيها ثمانية وعشرين مقاتلاً ، وكانت خسارة همدان خمسة وعشرين . وعلى غير عادات التقاليد القبلية أقدمت أرحب على حزّ رؤوس قتلى همدان مما زاد في العداوة بين القبيلتين فسلكت همدان مسلك الأولى فقام يحيى بن علي خليل الهمداني بإحضار أول رأس من أرحب إلى بين يدي المهدي الذي منحه عشرة ريالات و « مشخصين من ذهب »[1] .

ولم تكن قبائل خولان قد شاركت في القتال المحتدم مما دفع المهدي إلى أن يرسل الوزير السيد إسماعيل بن قاسم الأمير إلى حسين أبي حليقة يعاتبه على تقاعسه ، فتعلل بعدم قدوم بعض الآخرين ، ووقتئذ كانت نهم تقاتل في رمان فتوجه بمن معه نحو قرية شعب وكان بها عدد كبير من الرماة وتعتبر أحد مراكز أرحب الهامة ، وجرى قتال تقدمت فيه خولان ولكن بعد أن كادت خولان تستولي على شعب جرت خدعة لإخراجهم وتعرضوا لهجوم مضاد أفقدهم السيطرة على مراكزهم[1] .

ويبدو أن المدافع الصغيرة التي كانت قد أحضرت مع الجند لم تكن قد استخدمت ضد التحصينات القوية ربما لعدم نجاعتها أو لبعد الأهداف ، لهذا نجد الاهتمام كبيراً بوصول مدفع كبير يسمى الأشرم من صنعاء يوم ٢٨ شعبان / ١٤ يوليو ووصل معه المَدفَعي الشهير الحاج حسين التركي ورجاله . وبوصوله أمر المهدي أن يتقدم التركي بمدفعه ليضرب أحد تحصينات أرحب القوية وهي نوبة غانم بن مهدي الواقعة في مركز (استراتيجي) هام . فتقدم التركي وقام بمحاولات فاشلة قتل فيها ستة من رجاله وانتهت بحلول الظلام . وبعد منتصف الليل هرع

---

(١) سيرة : ٣٥ ـ ٣٦ : والمشخص قطعة أكبر من الجنيه الذهبي بضعفين أو أكثر قليلاً .

الأمير فيروز مع بعض رجاله وبادر بسرعة إلى الانتقال إلى مركز آخر أكثر ملائمة وبعيد عن أهداف رماة النوبة وجرى بعد ذلك استخدام المدفع مع آخر وتم تهديم النوبة والتحصينات على رؤوس من فيها .

وكان يوم الاثنين ٢٩ شعبان / ١٥ يوليو يوماً فاصلاً فقد شددت قبائل خولان ونهم وهمدان من حصارها واستدعى المهدي قادتها وتقدم بجنده وسقطت شعب وغيرها وهزمت أرحب وحلفاؤها من بكيل بعد أن خسرت في القتال الأخير مئة وثمانين قتيلاً بينما لم يقتل من جانب المهدي سوى ثمانية عشر رجلاً وجرح ستة عشر لأن المدفعية كانت مؤثرة في الأخير ولانتقال قوات المهدي إلى المراكز الدفاعية المرتفعة[١] .

وفي الرابع من رمضان / ٢٠ يوليو عاد المهدي إلى صنعاء منتصراً لكنه كان مرهقاً منهك القوى فلم يستطع الصيام . واصطحب معه الأسرى من كبار أرحب وغيرهم ، ولم يطل بهم السجن فسرعان ماأطلقوا في منتصف الشهر إلاَّ أنه احتفظ بعدد قليل منهم كان منهم الشيخ العذري فقد قطع رأسه في الرابع من شوال ١٢٣٢ هـ / ١٨ أغسطس ١٨١٧ م[٢] .

☆ ☆ ☆

٨ ـ إصلاح النقد وتغيير في الإدارة

ونتيجة لحملة المهدي عبد الله على أرحب وما صاقبها من عدم استقرار عام فقد عادت الأسعار إلى الارتفاع وإلى انخفاض قيمة صرافة القرش (الريال) وضعف قيمتها الشرائية . ففي الأول من رمضان عام ١٢٣٢ هـ / ١٨ يوليو عام

---

(١) سيرة المهدي : ٣٦ ـ ٣٧

(٢) نفسه .

١٨١٧ م ارتفعت أعداد الحروف من مئتي حرف للريال (أو القرش) إلى ثلاث مئة ، ولم يكن في أيدي الناس في الواقع إلاّ هذه الأحرف التي يصدرها الإمام ، أمّا الريال فهو نادر في أيديهم أو قليل . وارتفعت أسعار الحبوب بعد أن كانت مواتية ومناسبة ، ففي رمضان كان القرش يشترى به : (قدحان ونصف حنطة ، أو ثلاثة أقداح ذرة أو خمسة أقداح شعير)[1] .

وبعد أربعة أشهر ازداد عدد الحروف مقابل الريال . فأصبحت أربع مئة ، وكان على المهدي أن يعمل على الحدّ من هذا التصاعد الخطير . ولهذا فقد قام في اليوم الأول من العام الهجري الجديد ١٢٣٣ / ١١ نوفمبر عام ١٨١٧ م بالأمر بفتح دار الضرب وأصدر عملة جديدة ثبّت سعرها بأربع مئة للريال الواحد ، ويأتي هذا الإصدار بعد مرور عشرة أشهر على أول عملة سكت باسمه ، وكان الناس راضين بها حامدين كثرة فضتها كما تقدم ذكر ذلك[2] .

وهكذا كان ، ومع بداية الاستقرار المؤقت وعودة الحياة العامة إلى مجراها الطبيعي أصبح القرش يعطي (ثلاثة أقداح حنطة ، أو أربعة أقداح ذرة ، أو خمسة أقداح شعير) ثم رخصت الحبوب أكثر ، وكذلك أسعار البضائع والمواد الاستهلاكية بشكل عام[3] .

ولم تمر هذه الأشهر القليلة بدون الاستمرار في تغيير المهدي للوزراء فقد تم عزل السيد إسماعيل الأمير وسجن عند النقيب أحمد مَشْرح وأرسل المهدي من يصادر أمواله ومدافن الحبوب التي يملكها في اليمن الأسفل . وأعاد المهدي الفقيه قاسم العَفّاري إلى

---

(١) **سيرة المهدي** : ٣٨ : وقارن الأسعار والحالة الاقتصادية في عهد المنصور علي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م (ص : ١٥٠ فيما تقدم) .

(٢) انظر (ص ١٥١ حاشية : ٢ فيما سبق) .

(٣) جحاف : **سيرة المهدي** : ٤٣

الوزارة ، كما عين الفقيه يحي بن علي العنسي مسؤولاً عن « شؤون القبائل » وعاملاً لصنعاء . وفي الوقت نفسه أصبحت وساطات النقيب هادي أبي لحوم مقبولة عند المهدي وذلك لموقفه مع قبائله في مؤازرة الحملة على أرحب وظهرت نتائج وساطاته في إطلاق سراح بعض رؤساء القبائل من السجن[1] .

وإذ بدت الأمور هادئة والأحوال العامة مستقرة ، تورط المهدي في مشكلة خطيرة مع قبائل بكيل داخل العاصمة صنعاء .

☆ ☆ ☆

٩ ـ معاقبة بكيل وإهانتها

لأسباب لا نعرف تفاصيلها ، أو على الأقل تاريخها ـ قرر المهدي عبد الله إعداد حملة عسكرية ضد الشريف حمود لاستعادة تهامة . ولهذا الأمر قام المهدي باستدعاء قبائل ذي محمد وذي حسين البكيلية إلى صنعاء . ويبدو من الصعب تصديق رواية الشجني الذي ذكر أن دعوة تلك القبائل إلى العاصمة كان بناء على رأي وخطة من الوزير قاسم العفاري « اقتضاها عقله القاصر وسعيه الخاسر أنه يحسن للإمام أن يجمعهم جميعاً إلى صنعاء ، ثم يقع القبض على كبارهم إلى السجون ، ثم ينادى في الجند من أصحاب الدولة وأهل صنعاء بقتل صغارهم ، فإذا فرغوا منهم قتلوا من في السجن من كبارهم فيستريحون من شغلتهم !! »[2] .

وكيفما كانت صحة هذه الرواية ، فقد وصلت أعداد كبيرة من القبيلتين[3]

---

(١) جحاف ، سيرة المهدي : ٤٠ ـ ٤١

(٢) الشجني : التقصار (خ) ١٧ ب

(٣) من أعداد الخيول والجمال التي تم مصادرتها على هذه القبائل بعد الإيقاع بها يمكن التخمين بأن عددهم كان على الأقل ثلاثة آلاف مقاتل . وللمقارنة بأعدادهم في مناسبات وحوادث سابقة نجد أن المنصور علياً كان جمع منهم سبعة آلاف وأرسلهم قبل هذا الوقت بعشر سنوات إلى زبيد كما يُستفاد من مخطوط نادر نحققه للنعمي التهامي حول هذه الفترة (ورقة ١٧٢ب)

يتقدمهم كبارهم ، واستقبلهم المهدي فأكرم وفادتهم وقرّر لهم المرتبات وأمر لهم بالطعام والإقامة . وبعد بضعة أيام أمرهم بالتوجه إلى تهامة مع قبائل أخرى لتنفيذ خطته في الحملة عليها ، غير أنهم طالبوا بالمزيد من المال وغالوا في الشروط ، فمنع المهدي مغادرتهم العاصمة . حينئذ استشعروا الخطر وأنهم أصبحوا شبه أسرى داخل أسوار المدينة ، وقام زعيمهم النقيب علي بن عبد الله الشايف بكتابة رسالة إلى المهدي يهدده فيها بأنه مالم يسمح للقبائل بمغادرة صنعاء إلى ديارها فليس لهم من خيار إلاّ القتال وبأن دار المهدي نفسه ستكون أول أهدافهم « فأقام الإمام ذلك الكلام وأقعده ! »[1] .

وذكر صاحب « الحوليات » أن اعتقاد القبائل كان قائماً على أن المهدي ووزيره العفاري خائفان منهم ولن يتخذا ضدهم أي إجراء[2] .

وفي يوم السبت ١٧ ربيع الأول عام ١٢٣٣ هـ / ٢٦ يناير ١٨١٨ م استدعى المهدي رؤساء كبار القبائل واستقبلهم في بستانه بحضور وزيره العفاري وحدث بينه وبينهم حوار شديد أمر على إثره بغلهم بالزناجير وحبسهم إلى الليل بأسفل داره التي كان لتوه قد بناها ، ثم أمر أخاه محمداً أن يسوقهم في أغلالهم إلى السجن . وحاول المهدي في اليوم التالي إرسال القبائل بقيادة الأمير الفتح إلى تهامة لتنفيذ خطته ، لكنهم أظهروا العصيان ورفضوا الأوامر . وربما نُصح بأن الوزير القديم حسن بن حسن العلفي خير من يتعامل معهم وبينه وبين بكيل عداوات قديمة[3] ، فاستدعاه ليكون مسئولاً عن (وساطة الباب) لكن اعتذر متعللاً بشيخوخته وكثرة أسقامه[4] .

---

(١) جحاف : سيرة : ٤٣ ؛ الكبسي : ٣٧٦

(٢) حوليات يمانية : ١٨

(٣) انظر ماسبق (ص : ١٥٣ ومابعدها)

(٤) سيرة : ٤٤ ، المجهول : حوليات ١٩

مضت خمسة أيام ولم يتم التوصل إلى حل ، فعاد المهدي واستدعى النقيب الشايف وكرّر عليه الأمر بتنفيذ أوامره بالتوجه إلى تهامة فكان رده بالرفض وأجاب مهدداً بأن « صنعاء مملوءة من أولاد غيلان ، وأنهم غير ممتثلين للأمر »[1] وكانوا في الواقع قد حصّنوا أنفسهم في منازل كثيرة استأجروها بجوار سور المدينة الشمالي وفي أحياء أخرى متجاورة وبعض السماسر (الخانات) والنزل التي حلوا بها بحارات (الوادي وباب شعوب وسَمْرة) وصمموا على إطلاق سجنائهم واستعدوا للقتال . وأمر المهدي بدوره الجنود بمحاصرتهم وتمركزت بعض العساكر لحماية المباني الرئيسية في المدينة ، وأرسل أحد المدافع إلى حارة سَمرة ثم أمر « بالصائح عليهم »[2] .

مضت سحابة ذلك اليوم والحصار مشدد على القبائل ، ومع الليل بلغهم أن باب شعوب مفتوح فشدوا رحالهم وأمتعتهم وتوجهوا صوبه ، فإذا الرصاص ينهمر عليهم ، وسدت الأجناد عليهم مسالك الطرقات والحارات « فتركوا جميع ما معهم ، وألقوا بأنفسهم من الدوائر إلى البرية فتجرحوا وتكسروا ، وأصابهم من البلاء مالا يعرفون ، وبقيت منهم بقية من بني الشايف وبني جُزَيلان وغيرهم في بيوت وسماسر ، ففروا تلك الليلة ولحقوا بأصحابهم ، واختفى منهم جمع بالبيوت المطرّفة . وفرّ الخارج منهم إلى أرحب يطلبون الأمان ويفرون من الموت »[3] . وقد قتل بعضهم وسجن من تم القبض عليه . أما ما خلفوا وراءهم وتم الاستيلاء عليه فمئتان من الخيول العربية النجيبة ، وستمائة ناقة من البيض الهجان ، وكمية كبيرة من الأسلحة والعتاد أحضرت جميعها إلى المهدي ، بالإضافة إلى ما انتهبته

---

(١) سيرة : ٤٤

(٢) سيرة : ٤٤ : حوليات : ١٩ ، الكبسي : ٣٧٦ : الشجني : التقصار : ١٧ ب ـ ١٨ أ فقد ذكر أيضاً أن « شيخ الإسلام الشوكاني كان يستغيث بالله من هذا الأمر ويكرر الكتب إلى الإمام يعرفه بعواقب ذلك وأنه لا يتم ما يراد منهم »

(٣) سيرة : ٤٤ ـ ٤٥

العامة من متاعهم وبعض بضائع كانوا هم أنفسهم انتهبوهـا من أهل صنعـاء . وكان جملة من خلّفت بكيل وراءها في صنعـاء خمس مئـة سجين بينهم معظم كبرائهـا ، ولكن الأهم من كل ذلـك هو مـا لاقوه من ذل وعـار[1] . يتضـح ذلـك في الحـوار الذي جرى بين القبائل الهاربة وبين أحد زعمائها العتيـدين القـاضي عبـد الله بن حسن العنسي البرطي الـذي لم يكن مع رؤسـاء القبـائـل في هـذه المرة ، بـل كان يراقب الأحداث عن كثب في بوسان من أرحب على بضعة أميـال شمال صنعـاء . وسوف ندع جحافاً يروي لنا ذلك بأسلوبه الموجز المفيد :

« ولما وصلوا إلى عبد الله بن حسن البرطي في تلك الحـالـة ، وقـد علم مـا نـزل بهم ، فقـال : الآن تطرش عشر من الخيـل إلى الطريـق التي جئتم منها ، لأني أخاف عليكم غازية الإمام .

قالوا : الخيل مغلق عليها في صنعاء !

قال : فعشرين من الإبل

قالوا : والإبل تركناها كذلك !

قال : فاجمعوا لي عشرين من عقّالكم .

قالوا : كل العقال في السجن !

فقال : فلا بكيل بعد اليوم ! قد ذهبت أيديكم وأرجلكم ورؤوسكم ! ؛ أمّا الأيدي فالخيل ، وأما الأرجل فالنوق ، وأمّـا الرؤوس فـالعقـال ، وقـد كنت من قبـل أنظر عن يميني فـأشتم البـارود ، وأنظر عن شمالي فـأشتم الفتيل ، وأنظر بين يـدي فـأنظر حُمر العيون ! والآن إنمـا أنتم الطيب والزباد ، وأنظر جماعـة البغـايـا ! اذهبوا إلى نسـائكم سوّد الله وجوهكم ! خرجتم من الحصون وكنتم من قبل تَخرِجون من بها .

---

(١) سيرة : ٤٤ ـ ٤٥

وأمر لهم بأربع نوق فذبحت وعشّاهم . »[1]

أمّا المهدي عبد الله فقد عجل بطلب خولان ، فوصلت إليه بأعداد كبيرة ، فأكرمهم بالمال وأعطاهم من الخيل ، وأمرهم بالبقاء غربي صنعاء . وقام بزيارة القصر حيث سجناء بكيل فأوجسوا خيفة من ذلك وخشوا إعدامه لهم لكنه لم يعرهم بالاً ، وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم الفتكة عمم المهدي يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ / ٣٠ مارس ١٨١٨ م بياناً على عماله والولاة في مختلف أنحاء البلاد يشرح ماحدث ، ويعد ويتوعد حتى يرهب بذلك بقية القبائل ، بل وبكيلاً نفسها فيما لو حاولت الانتقام . ولعل من المفيد أن نثبت هاهنا نصّ البيان فهو وثيقة من وثائق العصر تصور أسلوب الحاكم وعقليته وتفكيره ، وطريقة معالجته لمثل ذلك الحادث ، بالإضافة إلى كونه ضمن مخطوط نادر :

« الحمد لله القاهر فوق عباده ، المنتقم ممن حاد عن طاعته وإرشاده ، والصلاة والسلام على الماحي لرسوم الكفر ، الكاسر لأوتاده ، نبينا محمد ، القامع لأعدائه وحسّاده ، وعلى آله الذين جعلهم الله أئمة لعباده في بلاده .

وبعد : فالذي نبديه إلى حكامنا وعمالنا ، والعلماء وسائر الرعية والمشايخ والعقال وكل من له مزيّة . أنا لما طلبنا الطائفة من بكيل ، وأردناهم للمنفعة على الحال المرعي الجميل ، ووصلوا إلى حضرتنا الشريفة ، وأظهروا محو ماسلف بيننا من الصحيفة ، قابلناهم بالكرامة ، وحملناهم على كرسي الرئاسة والزعامة ، وأنلناهم الأموال الجزيلة ، وغمسناهم في النعم الجليلة ، ثم عزمنا على توجيههم للمنفعة ،

---

(١) سيرة : ٤٥

فلاحت عليهم محبة الحياة وإيثار الدعة ، وأظهروا كفران النعمة ، ومابالوا بحلول السخط ونزول النقمة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، وأوقعهم في دركات الأعداء على شُرف الخُسْران ، ولما كان ظننا بهم مستحسناً راجعناهم للمنفعة التي هي أحسن ، فلاحت لنا الخيانة من جباههم ، وصدق عليهم قول الله ﴿ ودّوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ [آل عمران / ٣] وذلك لما أراد الله من كسر جاههم ، فقبضنا على سلاحهم ، وصفدنا مردة شياطينهم ، وسقنا جميع الصناديد والرؤساء إلى ظلمات المطابق في الحبوس ، وصاروا - ولله الحَمْد - في شرك الرداء ، وخمد صيتهم بالحكمة الإلهية من الابتداء ، وأردنا أتباعهم أن يسيروا على الاختيار ، فقهقروا على قدم العصيان والاستكبار ، فهدّرناهم في المدينة لما بدا على قلوبهم من الأحقاد والضغينة ، وأنزلنا بهم الطامة ، وأبحناهم للخاصة والعامة ، وأوقعوا بهم قتلاً وسلباً ، وأزلقوهم بالبيوت التي كانوا بها طعناً وضرباً ، فناحت عليهم النوائح ، وضربت الأزقه عليهم الصوائح ، وحامت الطير على جثثهم ، جزاءً لعجرفتهم وعبثهم ، ومازالت تهجم عليهم الغوائر ، والكثير منهم ألقوا نفوسهم الليل من الدوائر ، فوقعوا على الذل والهوان ، وتكسروا من أعالي البنيان . وهكذا تكون عاقبة أهل الطغيان ، وجاءت العامة والخاصة بأمتعتهم وفراشهم وجمالهم وخيولهم إلى ساحات أبوابنا ، واستقام لعراضة ذلك العامة والخاصة من أمرائنا ونوابنا ، وظهر الشنار ، وحلّق على الأعداء طائر الدّمار ، فحال الوقوف على كل الموصّف الموصوف أقيموا بالحافل الصفوف ليسمعه الغريب والمعروف ، وليعلم المسيء أن أمرنا بيد الله مرهوب مخوف ، وأن كل كبير من كبراء الضلال بالأغلال مكتوف ، ولأهل السمع

والطاعة الرعاية ومزيد العناية ، وصلى الله على محمد وآله مسك الختام .

حرر يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول ، ثالث يوم الفتكة العلوية سنة ١٢٣٣ من الهجرة النبوية »[1]

☆ ☆ ☆

١٠ ـ ثارات بكيل

لم يكن في صنعاء من شك في أن المدى لن يطول ببكيل حتى تعود قبائلها للانتقام والثأر لما حلّ بها . لهذا وجد المهدي نفسه ومعه وزيره العفاري وبقية رجال الإدارة في حاجة لاتخاذ بعض الاحتياطات العسكرية لحماية العاصمة من أي هجوم غير متوقع . فبالإضافة إلى استدعاء قبائل خولان وطُلبت نهم البكيلية التي لها كذلك علاقات طيبة مع المهدي . ووزع بعض الجنود الرسميين المسلحين بين سكان الضواحي والقرى المجاورة لصنعاء وجرى خلال هذه الاستعدادات خلع قائد حرس المهدي الأمير توفيق المتوكل ومعاقبته لاتصالاته المريبة مع زعماء بكيل . ثم نفيه في ١٦ ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٨١٨ م إلى جزيرة زيلع . وأمر المهدي بإلقاء القبض على المحصورين في البيوت من بكيل وإيداعهم السجن مع سابقيهم من زعمائهم ، وكلف الفقيه يحي بن أحمد الآنسي التفتيش عليهم والتشديد على قيودهم وحراستهم .[2]

وفي يوم الخميس ١٥ ربيع الثاني / ١٢ فبراير اتخذ المهدي قراراً خطيراً . ففي صباح ذلك اليوم غادر المهدي صنعاء إلى الغراس الواقعة على بعد نحو ٢٥ كم شمال العاصمة . حيث قام بزيارة قبر جده الأعلى المهدي أحمد بن حسن بن قاسم بن

---

(١) سيرة : ٤٦ ـ ٤٧

(٢) سيرة : ٤٧

محمد (ت ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م) ، وفي طريق عوده أمر بإحضار النقيب علي بن عبد الله الشايف من سجنه في القصر إلى بستان المتوكل ، وفي آخر النهار أمر بقطع عنقه ، وعلقت جثته لثلاثة أيام ، وللمزيد من الإذلال والإهانة فقد دفنت بعد ذلك في (محل النجاسات والقاذورات) في مكان بين باب شعوب وبئر البانيان خارج سور المدينة[1].

جرّ عمل المهدي هذا « الذي كان فتاكاً لا يبالي بالعواقب » كما وصفه الكبسي ، إلى نتائج وخيمة . ومع ذلك فقد أخاف بهذا العمل مختلف القبائل ، باستثناء برط التي عمد زعماؤها وخاصة آل الشايف إلى استغلال الحادث لإثارة قبائلهم وطلب العون والتأييد من حلفائهم للثأر وغسل العار الذي حلّ بهم .

ويفيدنا النعمي في حولياته[2] بأن الشريف حمود الذي كان المهدي يريد أن يجهز عليه حملته التعسة ، قد أفزعه ماصنعه المهدي وأوجس منه خيفة !



مضى شهران في الاستعدادات الدفاعية في العاصمة وضواحيها حيث يسيطر جو من المخاوف والقلق ؛ فوزعت قبائل خولان لحماية شعوب والجراف والروضة شمال صنعاء ، وتم حشد بعض العساكر لدعم حامية المدينة ، في حين أهمل الجزء الغربي منها وهو حي بئر العزب وكان أشبه بالضاحية منه بأحياء المدينة القديمة ،

---

(١) سيرة : ٤٨ ولم يذكر الدفن بمحل النجاسات ، حوليات المجهول : ٢٠ ؛ الكبسي : ٣٧٦ ، الشجني : التقصار ١٨ آ ؛ تجدر الإشارة إلى أن (آل الشايف) عملوا فيما بعد - ربما في مطلع هذا القرن - على إقامة مايشبه القبر المرتفع في هذا المكان ، وقد بقي معروفاً حتى اليوم حيث زحفت من حوله المباني الحديثة في الشارع الممتد من الشرق إلى الغرب شمال السور القديم ، ثم اشترى المقاول سلاّم علي ثابت عام ١٩٦٤ القبر من بعض آل الشايف وأدخله في أرضه التي اشتراها وأقام عليها مؤسسته . زبارة : نيل الوطر ٦٦/٢

(٢) النعمي : (خ) ١٨٧ ب

يسكنه بعض الموسرين والرسميين وبعض دور للإمام وأقربائه بالإضافة إلى بعض الفلاحين وأصحاب المزارع والحقول التي كانت منتشرة فيه ، وإلى جوارهم من الجنب الغربي الأقصى يمتد من الشمال إلى الجنوب (قاع اليهود) - ميدان العلفي الآن - حيث كانوا يسكنون . وكانت حراسة هذا الجزء من المدينة قاصرة على بعض أعداد قليلة من الجنود والحراس العاديين من أبناء الفلاحين أو من كانوا يسمون (قبائل بئر العزب) . وهكذا كان الدفاع حول العاصمة قائماً باعتبار أن قبائل برط لو هاجمت المدينة فسوف تأتي من الشمال حيث طريقها الطبيعي . وربما كان طول الانتظار قد بعث الملل وفتور التنبه لأي هجوم قريب . لكن الكارثة حلت يوم ١٥ جمادى الآخرة ١٢٣٣ هـ / ٢٣ أبريل ١٨١٨ م عندما هجمت قبائل برط بقيادة النقيب حسين بن عبد الله الشائف في منتصف الليل والناس نيام آمنون في بيوتهم . وقد أحضروا معهم سلالم تسلقوا بها السور الغربي للقاع كما نقبوا فيه أماكن عبروا منها إلى المدينة . وبدؤوا الهجوم على منازل اليهود ثم انقلبوا على بئر العزب فنهبوا كل ماوجدوه من مال ومتاع حتى النوافذ والأبواب قلعوها وحملوها[1] ، وقتلوا أكثر من خمسين رجلاً من بينهم بعض الأعيان أمثال القاضي محمد بن يحيى السحولي أحد القضاة البارزين وابن قاضي القضاة السابق ، والسيد يحيى حطبة عامل الوقف ، والسيد قاسم بن الصادق ،

---

(١) بقي الحادث ماثلاً وذكراه مترددة حتى وقت قريب لهذا فقد وجدنا المؤرخ زبارة يذكر في معرض حديثه عن مسير سيف الإسلام أحمد (الإمام أحمد حميد الدين ت ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م) سنة ١٣٥١ هـ) إلى حرف سفيان وإخضاعه قبائل دهمة التي منها هذه القبائل ، ووصل جيشه إلى جبل برط بأنه أمر أخاه الحسن بتوزيع الجيش على أخماس ذي محمد ، « وقد بلغ ولي العهد أن في بعض بيوت كبراء ذي محمد أبواباً مزخرفة أخذها أسلافهم من بئر العزب من دار المهدي عبد الله بن المتوكل في وسط القرن الثالث عشر ، فأمر أخاه سيف الإسلام الحسن بالبحث عنها واقتلاعها وإرسالها إلى مخيم المنصور ، وبالفعل وجدت في بيوت آل مضمون وآل دمينة وبيوت البحور آل ذي زيد وغيرهم ، وقد أعيد بعضها إلى بئر العزب ! » (زبارة : أئمة / قسم ٢ / ٣١٣)

ويحي الحرازي وغيرهم ، بالإضافة إلى جرحى عديدين . وقد ذكر صاحب التقصار أن شيخ الإسلام الشوكاني الذي كان قد انتقل إلى السكن ببئر العزب في إحدى دور الإمام ، قد تمكن من الهروب من المذبحة بمعجزة إلى صنعاء القديمة والمحمية والتي كانت القبائل تعرف صعوبة مهاجمتها ، حتى إنها لم تخطط لشن هجوم على القصر الذي به سجناؤها[١] . وكان اليوم الثاني أكثر سوءاً على بئر العزب وأهلها ، فلقد أمر الوزير العفاري قبائل خولان بطرد برط ومواجهتها ، وكانت برط قد تحصنت ببعض البيوت والأماكن الحصينة وخلفت وراء السور الغربي خيولها وإبلها مع بعض الحراس ، ولمّا لم يكن بوسع خولان المواجهة بيسر فقد كان أسهل عليها من إكمال ماصنعته برط فنهبوا من بقي من السكان إن كان بقي بقية ![٢]

وهكذا أصبحت بئر العزب المنكوبة أسيرة لقبائل برط التي أسرع رؤساؤها بالكتابة إلى شيخ الإسلام الشوكاني « يهنئونه بالسلامة ويطلبون منه السعي في إطلاق من في السجن منهم وإرجاع خيلهم وإبلهم ، وماذهب من سلاحهم » في المرة السابقة ، ويغادرون بئر العزب ويرجعون إلى بلادهم مقابل ذلك[٣] .

بذل الشوكاني جهداً كبيراً في إقناع المهدي بحل الأزمة الصعبة ، فوافق أولاً على عزل الوزير العفاري وعين مكانه الفقيه حسين حنش فتعاون مع الشوكاني للخروج من هذه المحنة وذيولها ، وسجن العفاري بصفته المسئول المباشر عن تفاقم القضية من أولها وتعامله معها بحماقة ودون ترو أو استشارة ، ورغم أن المهدي هو صاحب الأمر والنهي إلا أن سوء إدارة وزيره وضيق عطنه جعل الأمور أكثر سوءاً ، ولما أدرك المهدي كل هذا السوء كاد يقطع رأس العفاري لولا تدخل

---

(١) الشجني : التقصار (خ) ١٨ آ ؛ حوليات المجهول : ٢٤ ؛ النعمي : (خ) ١٧٨ ب
(٢) الشجني : نفسه
(٣) الشجني : التقصار : ١٩ آ ؛ حوليات : ٢٤

الشوكاني الذي كان يرى أن السجن يكفي ويهدىء من خواطر برط[1] .

سمح المهدي لكبار عقال برط وبينهم النقيب عبد الله بن أحمد الشايف ـ وند النقيب علي بن عبد الله المقطوعة عنقه والمتورطة بمقتله برط ـ للنزول من السجن لمقابلة القاضي الشوكاني للتفاوض في إنهاء المشكل ومغادرة بئر العزب والعودة إلى ديارهم . وبعد أخذ ورد ونقاش وجدل طويل توصلوا إلى تسوية تم بموجبها إطلاق سجناء بكيل جيعهم وإعادة معظم ماأخذ منهم في الإيقاع بهم في صنعاء قبل شهرين على أن يغادروا جيعاً بئر العزب وصنعاء ويعودوا بسلام إلى بيوتهم .

وفي يوم ٣ رجب ١٢٣٣ هـ / ٩ مايو ١٨١٨ م أطلق من في السجن فنزلوا من صنعاء وانضموا إلى أصحابهم في بئر العزب وغادروا العاصمة بعد ثمانية عشر يوماً عانى فيها أهل بئر العزب الويلات والشدائد وعاشت صنعاء خلالها في جو متوتر من الخوف والقلق .

وبعودة برط إلى بلادهم هدأت الأحوال بعض الوقت ، ولم تكن عودتهم في بعض مواسم الجفاف في السنوات القليلة التالية وتهديداتهم بحصار العاصمة إلا بمثابة « روتين » معتاد كانت تتم مواجهته وإنهاؤه إما بدفع مبلغ من المال أو الاستعداد ومواجهتهم بقوة عسكرية تردهم أو بالاثنين معاً في بعض الأحيان .



١١ ـ استعادة صنعاء السيطرة على تهامة :

انزج الشريف حمود حاكم أبي عريش في قتال العساكر التركية ـ المصرية التي تمكنت في آخر المطاف من حروب محمد علي باشا باسم السلطان من القضاء على

(١) الشجني : التقصار : ١٩ آ ؛ حوليات : ٢٤

الدولة السعودية الأولى ، وذلك حين سقطت عاصمتها الدرعية في يد العساكر المصرية في ١١ ذي القعدة ١٢٣٣ هـ / ٢ سبتمبر ١٨١٨ م .

واستسلمت مدن نجد ، وأرسل زعيمها الأمير الوهابي عبد الله بن سعود إلى مصر أسيراً ثم إلى الأستانة حيث أمر السلطان محمود الثاني بإعدامه[١] وقبل ذلك بقليل توفي الشريف حمود في ١٤ ربيع الآخر ١٢٣٣ هـ / ٢٣ فبراير ١٨١٨ م[٢] وبوفاته انتهى دور أسرة الأشراف من آل أبي مسمار في منطقة عسير والمخلاف السليماني فقد خلفه ابنه أحمد بن حمود ، وسرعان ما توجهت قوات محمد علي بقيادة خليل باشا صوب عاصمة إمارته أبي عريش بعد أن فرغت من السيطرة على الدرعية في قلب نجد واستسلم أحمد بن حمود في مطلع عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م ، وحاول الشريف حسن بن خالد الحازمي الساعد الأيمن لحمود وابنه من بعده أن يدافع عن بلاد عسير التي تحصن بها ، لكن خليلاً هاجم عسيراً وقتل الحازمي . وهكذا باتت المنطقة كلها من عسير شمالاً إلى زبيد جنوباً تحت إمرة خليل باشا الذي لم يتأخر كثيراً في القبض على أحمد بن حمود المستسلم ومن ثم إرساله إلى مصر حيث مات هناك[٣] . وأرسل محمد علي باشا بكتاب مؤرخ في ربيع الأخر ١٢٣٤ هـ / يناير ١٨١٩ م إلى المهدي عبد الله يزف له بشرى هزيمة أحمد بن الشريف حمود سلفاً ، ويعترف له بأن مراسلاته مع والده المتوكل تؤيد حق صنعاء في تهامة . إلاّ أن من الضروري دفع مبلغ من المال للسلطان كل سنة مقابل إعادة ما كان تحت سيطرة الشريف . ومحمد علي يساوم المهدي في ذلك متنصلاً من أن له غاية أو مأرباً ؛ أو كما قال :

---

(١) الرافعي (عبد الرحمن) : **تاريخ الحركة القومية** : ١٥٥/٣

(٢) البهكلي : **نفح العود ، التكملة** : ٣٠٧ ؛ وقد اجتهد المحقق العقيلي فذكر أن وفاة حمود يوم السبت ١٠ ربيع الآخر ؛ كما ذكر النعمي أن حموداً مات متأثراً بمرض ذات الجنب .

(٣) الشوكاني : **البدر الطالع** ٣٧١/٢ ؛ النعمي (خ) ١٧٩ ؛ أباظة (د . فاروق : **الحكم العثماني** ٣٤)

" .. فالذي عندنا من الصواب أن ما كان يرسل به في الزمن الأول تجددوه وتزيدون ، فإن هذا بعث معلوم لا ينكر عند الفهوم . ولا تظنوا أنا نرغب في شيء من أمثال ذلك ألا وحق مالك الممالك ! ولا يخطر ذلك لنا قطعاً ، ولا نلحظه أصلاً ! "

ثم أبلغه أن قائده خليل باشا هو المسئول عن التفاوض في أمر تسليم تهامة وكل الأمور المتعلقة بالموضوع[1] .

وقام خليل باشا بدوره بإرسال كتاب إلى المهدي مؤرخ في جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ / يونيو ١٨١٨ م وضم إليه خطاب سيده وأشار فيه إلى استسلام أحمد بن الشريف حمود وإلى أنه « قد سلّم نفسه والبلاد لطاعة سلطان الزمان ... وأعطيناه الأمان على نفسه وماله ، وأبذلنا الأمان للحاضر والباد ... » ولم يكن قد لاحق الشريف حسن الحازمي ، ولهذا فقد ذكر قائلاً : « وأما ابن خالد الحازمي فقد شرد إلى جبال عسير ، فنرجو المولى عن قريب أن يأتوا به أسيراً .. » ، وقد تم ذلك كما تقدم حيث قتل الحازمي ، وطلب خليل باشا في آخر رسالته الرد مع من يثق به المهدي[2] ، فعجل المهدي بإرسال جوابي تهنئة من إنشاء الإمام الشوكاني لمحمد علي باشا ولقائده خليل باشا مؤرخين في ٢٦ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ / ٢٢ فبراير ١٨١٩ م وقد كرر فيهما التذكير بأن الله « انتقم لنا بصنيعكم الحسن من الباغين علينا والجاحدين لإحساننا وإحسان آبائنا والباسطين أيديهم على بلادنا لا بحول منهم ولا بقوة بل استجاشوا علينا أهل المَرْق من عُربان الشرق .. »[3] .

---

(١) رسائل الشوكاني : (المطبوعة باسم ذكريات الشوكاني) : ١٦٧ ـ ١٦٨

(٢) نفسه : ١٦٩ ـ ١٧٠

(٣) نفسه : ١٧١ ـ ١٧٤

وقد تجاهل الردان موضوع المطالبة بضريبة أو أي خراج سنوي يدفع للسلطان ، لكن ذلك بات أمراً لا مفر منه عندما جرت المفاوضة بين الجانبين . ففي البداية ـ وبناءً على طلب من خليل باشا ـ أرسل المهدي ـ بتزكية من قاضيه الشوكاني ـ القاضي محمد بن أحمد الحرازي (ت ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م)[١] مبعوثاً من لدنه ومعه جماعة مرافقون ، وحمل معه رسائل المهدي الجوابية إلى خليل باشا في أبي عريش ، وليتفاوض معه في المسألة مشافهة ، كما أرسل معه فرسين نجيبين هدية خاصة لخليل باشا . وبقي الحرازي هناك أسبوعاً عاد بعده إلى صنعاء في رجب ١٢٣٤ هـ / مايو ١٨١٩ م ومعه ممثل خليل باشا يوسف أغا الرومي ومعه مرافقون[٢] فاستقبل المبعوث في صنعاء استقبالاً حافلاً مميزاً أظهر به الإمام المهدي مدى اهتمامه بمحمد علي باشا وإلى مصر ودوره في المنطقة[٣] .

وبعد أن استقبله المهدي كلف قاضي قضاته الشوكاني مقابلته والتباحث معه ، فوجد فيه الشوكاني : « رجلاً في أعلى درجات الكمال من كل وجه بحيث لا يوجد نظيره في رجال العرب إلاّ نادراً »[٤] . وكان محور مفاوضاته مع الشوكاني هو فحوى الكتاب الذي حمله معه من خليل باشا إلى المهدي ، وفيه الاعتراف بالحق التاريخي للإمام بتهامة وطلبه مقداراً من البن سنوياً ومئتي ألف ريال مقابل تسليمها . قال في تلك الرسالة :

---

(١) كان الحرازي كوالده (انظر فيما سبق ص : ١١٤) فقيهاً ، عالماً ، حسن الأخلاق ، جيد الإدراك ، قوي العقل ، خلف والده في القضاء وأعمال الحكومة ، ونهض بدور في المفاوضات حول تهامة ، ثم أصبح وزيراً مسئولاً عنها وعن بلاد ريمه وتعز لثلاث سنوات وقد أثنى عليه الشوكاني كثيراً (الشوكاني : البدر الطالع : ١٢٣/٢ : الشجنى : التقصار (خ) : ١٩ب : زبارة : نيل الوطر : ٢٣٤/٢)

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ٣٦٩/٢

(٣) Playfair, History, 131

(٤) الشوكاني : البدر ٣٦٩/٢

« .. فنعرف جنابكم أن هذه الأقطار كلها كانت إلى طرفكم حسبما عرفتمونا ، فنحن جل مطلوبنا أنها تكون إليكم ، لأنكم أهل لذلك كابراً عن كابر ، ولكن تفهمون أن هذه الأماكن انصرف عليها من الأموال ، لا يحصى عدّه ، ومثلكم يفهم حقيقة ذلك ، فإن كان لكم نظر في هذه الجهات كما ذكرتوا [كذا] لنا أنها تحول إلى طرفكم فلابد من تعيين ثلاثة آلاف قنطار(☆) بُن قهوة إلى مطبخ حضرة سلطان الزمان في كل عام ، وكذلك أيضاً مأتين ألف [كذا] ريال فرانصة لأجل قيام الفرض في تهامة ، فإن رأيتوا [كذا] ذلك واستحسنتوه فيصلنا منكم الجواب فإن رأيتم خلافه فعرفونا ، وأنتم فاهمين [كذا] أن الدولة نصرهم الله تعالى ما عندهم عجز في ضبط تهامة ، وأيضاً تعرفوا [كذا] أن الأشراف يدفعوا هذا القدر وزيادة ولكن نريد أن يكون الأمر في أهله ومحله »[1] .

وقد جادل الشوكاني في دعوى أن اليمن كانت تدفع شيئاً للباب العالي وتأخرت في دفعه قائلاً : « فلم يكن عليها فيما مضى شيء ، ولكن بعض تجار اليمن الذين يرتحلون إلى مصر كذب على الباشا محمد علي أنه كان عليها مرجوع إلى السلطنة ، فوقع التصميم من الباشا خليل ورسوله هذا أنه لابد من ذلك ، فأوضحنا لهم أنه لم يكن عليها شيء منذ انتزعها أولاد الإمام القاسم إلى الآن ، زيادة على مئتي سنة » .

(☆) القنطار المصري مائة رطل مصري ، والدمشقي ٢٥٦ كيلو غراماً أي مائة رطل دمشقي ، والمصري ٤٤ كيلو غراماً و ٩٢٨ في الألف من الكيلو غرام أي نحو ٤٥ كيلو غرام ، فيكون مقدار المطلوب على هذا الأساس ٣٠٠٠ × ٤٥ = ١٣٥٠٠٠ كيلو غرام (ملحق لسان العرب : ٤١/٣) وكان نيبور قد قدر ـ قبل نصف قرن ـ مقدار ما يصدر شهرياً من البن من الموانى اليمنية بخمسة آلاف جنيه انجليزي (راجع الفصل الأول) .

(١) ذكريات الشوكاني : ١٧٥ ـ ١٧٦

ثم يشير الشوكاني إلى كتاب خليل باشا السابق واقتراحه بقوله « بأنه يقع مقدار من البن في كل عام ، وهو شيء يسير يصير إلى مطبخ السلطان ، ويقع تسليم شيء من النقد في حكم بغشيش للجنود الرومية المنتزعة للبلاد من يد الأشراف ، فوقعت المساعدة لكونهم بدؤوا بالإحسان ، وتبرعوا بالجميل ، ولم يصدق الناس ذلك ، ولا خطر ببال أحدهم صحته ، وعدوه مكراً وخداعاً ! وناصحوني بالرسائل من الجهات البعيدة فضلاً عن الجهات القريبة ، بما حاصله أن الركون إلى هذا لا يقع من عاقل، ولا يدخل فيه من له فطنة ، وحذروني من ذلك غاية التحذير ، فكنت أجيب عليهم أن هؤلآء عرضوا علينا المسالمة والمصالحة ابتداء ، فليس لنا أن نرد ما عرضوه علينا بادئ بدء ، وأن الله سبحانه يقول ﴿ وإن جَنَحوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال / آية ٨ /] ومع هذا فقد اعتقد الخاص والعام ، والكبير والصغير أنهم سيطوون جميع الديار اليمنية بأيسر عمل ، لأن القلوب قد ارتجفت بعد استيلائهم على صاحب نجد ، وهو صاحب الجيوش الكثيرة .. »[١] .

ولم يكن - في الواقع - هدف هذه الحملة المصرية السيطرة على اليمن[٢] بل القضاء على الحركة الوهابية وتتبع فلولها في تهامة اليمن التي كان حمود قد استقل بها ، وإعادة هيبة السلطنة العثمانية في مختلف ولاياتها ، وبشكل خاص الهيمنة والإشراف على الحرمين الشريفين ، ولّما تحقق ذلك فعودة تهامة إلى حكم صنعاء يخفف العبء على الباب العالي وعلى محمد علي ويجعل الإمام ممتناً وداعياً للسلطان ، وفوق ذلك تم ضمان تصدير كمية ثلاثة ألاف قنطار من البن اليمني ذائع الشهرة (إلى مطبخ السلطان) سنوياً مجاناً ، وذلك أفضل أو ربما الشيء الأساسي

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٣٦٩/٢ - ٣٧٠

(٢) سيكون هذا هدف الحملة التالية (١٢٥١ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٥ - ١٨٤٠ م) انظر ذلك فيا يلي ص : ٢٢٨

الوحيد الذي تملكه اليمن آنذاك وله قيمته العالمية ، بالإضافة إلى ما طلبه خليل باشا وأكده مبعوثه من النقد .

وإذا كان المهدي عبد الله قد وافق من حيث المبدأ على ما تفاوض به الشوكاني ويوسف آغا ، فقد ظهر تبرمه من مقدار كمية البن واعتذاره من عدم مقدرته على دفع المبلغ المطلوب لأن مصدر الدخل هو الموانئ التي لم يكن لصنعاء سيطرة عليها ، وطلب تنجيم المبلغ أقساطاً على حسب الظروف ؛ ورد هذا في الخطاب الجوابي الذي حمله معه المبعوث يوسف آغا لخليل باشا ، ومما جاء فيه حول ذلك قوله :

« .. ومارسمتم من الثلاثة آلاف قنطار البن في كل عام إلى مطبخ حضرة السلطان الأعظم .. فذلك مقبول ، وعلى كاهل الاحتمال محمول ، وإن كان فيه بعض الإجحاف .. وأما ما ذكرتم من المئتي الألف الريال المقابلة لرفع العرضي [الجيش] ولغرامة الجهاد ، فلا يخفاكم أن ذلك إنما يتيسر من دخل البنادر ، وأما سائر الديار اليمنية فَخَرْجها أكثر من دَخلها ، وشرّها أكثر من خيرها ! ، وقد دار الخطاب بيننا وبين الحاج يوسف آغا - كثّر الله من رجال السلطنة العليّة من أمثاله - على تنجيم ذلك بحسب ما يقتضيه الحال ... »[1] .

وبالمعنى نفسه وبتاريخ ١٢ رجب ١٢٣٤ هـ / ٨ يونيو ١٨١٩ م - كتب المهدي رداً على محمد علي باشا الذي رفض تخفيض الكمية المفروضة من البن ، وجاء في إحدى وثائق الدار القومية بالقاهرة قوله : « لقد أعطيته بدل البن بلاداً واسعة في نظير المقدار من البن المتفق عليه »[2] .

---

(١) رسائل الشوكاني : ١٨٤ .

(٢) نفسه ١٨٥ ؛ وانظر : البطريق (من تاريخ اليمن الحديث) ص : ٥١ الذي ذهب إلى أن مقدار البن المطلوب هو مقابل المائة ألف ريال المفروضة كجزية

واستمرت المراسلة بين مطالبة خليل باشا ثم بعده أحمد يكن باشا والي مكة والمدينة واعتذارات المهدي والشوكاني حتى نهاية العام التالي متعللين بأن التأخير بسبب الجراد أحياناً والمحل والجفاف أحياناً أخرى ، لكن بعض الدفعات قد تم إرسالها بالفعل ولا ندري كم استمر ذلك .

أما أمر تهامة فقد حسم لصالح الإمام ، حيث نزل من صنعاء مع يوسف آغا إلى الحديدة القاضي محمد الحرازي ومعه مسؤولون تم تعيينهم عمالاً على مختلف المناطق ، وكذلك بعض الجنود ، وتم استلام المنطقة كلها من خليل باشا قائد العساكر المصرية باستثناء أبي عريش التي وافق المهدي أن يحكمها باسمه الشريف علي بن حيدر الذي كان على خلاف مع قريبه الشريف حمود ومنافساً له . وليظهر المهدي أن تعيين هذا الشريف كان عن رغبته وثقته فقد أرسل إليه « عهد الولاية والكسوة والمركوب »[1] وبذلك انسحبت القوات المصرية وعاد قائدها خليل باشا إلى الحجاز .

وهكذا عادت سيطرة إمام صنعاء على كل أراضي تهامة ، واستمر بها الحال قريب أربع عشرة سنة . حتى كان عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢ م عندما انعكست مشاكل القوات والإدارة المصرية في الحجاز على تهامة . فلقد حدث أن ثار بعض ضباط الجيش المصري العثماني الذين كان معظمهم من الأرناؤوط والترك بقيادة « تركي بيلماز » Turkchi Bilmás وأحدثوا فتنة في جدة بدعوى تأخر مرتباتهم ، وتطور الأمر إلى عزلهم والي الحجاز خورشيد بك وحبسه ونصبوا بيلماز والياً بدله ، وقد أيدهم في ذلك بعض أهالي مكة وبخاصة أتباع المذهب الوهابي انتقاماً من المصريين ونكاية بمحمد علي الذي كان هو نفسه قد خرج في هذا العام عن

(١) الشوكاني : البدر الطالع : ٢٧١/٢ ؛ العقيلي : تاريخ المخلاف ٥٤٣/١ ؛ حوليات : ٢٥ ـ ٢٦ الجرافي : المقتطف : ١٩٤ ـ ١٩٥

طاعة السلطان وجيوشه تقاتل جيوش السلطان في بلاد الشام . ولهذا فقد أصدر الباب العالي فرماناً يقر فيه ولاية تركي بيلماز معتبراً ذلك تأكيداً لسلطة السلطان على الحجاز . بيد أن حاكم مصر الطامح في إقامة دولته العربية الكبرى لم يعترف بذلك الفرمان السلطاني وبخاصة أنه يتعلق بمنطقة الحرمين الشريفين ومركزهما الديني والسياسي الهام ، بالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية لمواني البحر الأحمر وصلة التجارة بين مصر والهند . فعجل محمد علي بإرسال قوة من أربعة آلاف مقاتل بقيادة واليه السابق على الحجاز أحمد يكن باشا فاحتل جدة بعد أن انسحب منها تركي بيلماز ومعه ألف رجل هم عساكره وحاول أن يحتل قنفذة ، لكن حاميتها المصرية صدته ، فاستمر في هروبه صوب ساحل تهامة اليمن فاستولى على مدن الحديدة ، والمخا ، وزبيد ، وكان عنيفاً في مواجهة عساكر الإمام القليلة الذين لم يستطيعوا مواجهته ، فقد كان مستميتاً مع رجاله ، وأصاب الناس الدهشة بقبضه على عمال الإمام السيد عبد الله دريب والفقيه أحمد لطف طامش وإسراعه في إعدامهما . وجاءت لنجدة الساحل اليمني قوات عسير بقيادة أميرها علي بن مجثل فحقق نصراً على تركي بيلماز فانحصر هذا مع قواته في المخا ، واستمر ذلك حتى وصلت قوات أحمد يكن باشا من الحجاز في مطلع العام التالي ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م بعد أن أمره محمد علي بالتحرك للقضاء على المتمردين ، فتعاون مع الأمير العسيري في محاصرة المخا حتى سقطت في أيديهم ، وتمكن تركي بيلماز من الهروب على إحدى السفن البريطانية ، وبذلك انتهى أمره . وقد أجبر القائد المصري القوات العسيرية في تسليم المخا لقواته ، وتوفي الأمير علي بن مجثل في طريق عوده إلى وطنه عسير . وكان لتطور الأحداث في هذا الاتجاه استمرار الوجود العسكري المصري في المنطقة ثم تعزيزهُ بقوات كبيرة وبخاصة بعد تعيين إبراهيم يكن باشا عام ١٢٥١ / ١٨٣٥ قائداً اتخذ من الحديدة مركزاً لإدارته وانطلاق عملياته الحربية ، وكان هذا بعد وفاة المهدي عبد الله وسنعود إلى ذلك

في الفصل الأخير[1] .

☆ ☆ ☆

١٢ ـ فترة من الاستقرار :

تميزت السنوات القليلة التي أعقبت استعادة صنعاء حكم تهامة بنوع من الاستقرار العام . وقد وجد المهدي عبد الله في ذلك متسعاً من الوقت ليشيد بعض المباني الخاصة والعامة . كما اقتفى أثر والده المتوكل في قيادة بعض الحملات التأديبية بعيداً عن العاصمة وحقق في ذلك نجاحاً . ففي عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م قام المهدي بإحدى أطول حملاته ضد قبائل بكيل في مناطق اليمن الأسفل حيث كانت تلك القبائل تعيث فيها فساداً[2] . وبعد عوده إلى صنعاء بدأ بتأسيس قصر كبير في بستان السلطان ، وفي حديقته الجميلة بنى مفرجاً بديعاً أمامه بركة واسعة تتدفق منها مياه الشاذروان بأشكال بديعة متعددة غير مألوفة . وعمر القصر والمفرج بشكل رائع يبرز الفن المعماري اليمني المتميز الجميل ، وحشد له المهدي معظم المهندسين (الاساطية) في العاصمة ، وعدداً كبيراً من العمال الذين لم يفرغوا من بنائه إلاّ في عام ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م[3] .

وبعد أن فرغ من قصره بدأ في ذلك العام ببناء مسجده المشهور في صنعاء (قبّة طلحة) وهي تشبه قبة جد والده المهدي عباس التي عمرها سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م من جوانب كثيرة إلاّ أنها أصغر منها ، ووقف المهدي عبد الله لقبته أوقافاً كثيرة لا زالت باقية حتى الآن . ويذكر له أيضاً مباني الطلبة الوافدين لدراسة العلم من خارج العاصمة بجوار الجامع الكبير بصنعاء ، وبنى عدداً

---

(١) الكبسي (خ) : ٣٧٧ ؛ الرافعي : تاريخ الحركة القومية : ٣٤٣/٣ ؛ العقيلي : **تاريخ** ٥٣٥/١ ـ ٥٣٦ ؛ البطريق : من تاريخ اليمن : ٦٢ ـ ٧١ ؛ النعمي (خ) : ١٨٦ ؛ أباظه : الحكم العثماني : ٣٥ ؛ Playfair, **History** : 142 - 4 ; Bury, Arabia, 13.

(٢) النعمي : (خ) ١٨٣ ؛ زبارة : نيل الوطر ٦٦/٢

(٣) المجهول : حوليات : ٣٢ ـ ٣٣

من الحمامات العامة التي مازالت فوائدها ومنافعها للناس حتى اليوم ، ومن أشهرها : حمام المتوكل في باب السبحة (باب السبح) ، وحمّام السلطان القريب من قصره ، والحمام الكبير شمال دار الجامع ، كما قام بتوسيع بعض ميادين العاصمة ، وبنى حمام (وادي ظهر) الحالي[1] .

وفي بداية فترة الاستقرار هذه أمر المهدي في عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م عامل صنعاء القاضي محمد بن علي الحيمي بأن يعيد النظر فيما سمي (بقانون صنعاء)[2] ففعل وأضاف إليه « زيادات » ثم أصبح بعد ذلك قانوناً يعمل به . وهذا القانون عبارة عن مجموعة من التنظيمات والقواعد والتعاريف والموازين والأسعار المنظمة للحياة التجارية والتموينية والضرائبية ، ومختلف أجور العمال والفنيين من بنائين وحدّادين ونجارين ونحوهم . وهو أيضاً يحدد مسئوليات سكان المدينة والمنظمات الشعبية فيما يتعلق بالخلافات ، وتقسيم الأحياء ، وواجب الحراسة الليلية ، أو الدفاع عن المدينة في حالة حدوث شغب أو اعتداء خارجي عليها . والقانون بشكل عام بديع بسيط محكم متناسب مع ظروف زمانه ، كتب بلغة سهلة معظم مصطلحاتها باللهجة الصنعانية الدارجة وتناولت أدق التفاصيل وغرائب المسميات التي قد لانجد لبعضها ما يقابله في الفصيح ، وهو ما عمد إليه المشرع بغرض تيسير فهمه على عامة الناس . وذلك نفسه سبب الصعوبة التي واجهها والجهد الذي بذله

---

(١) الحجري : مساجد صنعاء : ٣٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٦٥/٢ ؛ حوليات : ٣٣

(٢) يرجع أصل هذا القانون إلى الامام المتوكل إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ / ١٦٤٤ - ١٦٧٦ م) فقد كان أول إمام يحكم اليمن كاملاً - بعد استقلاله عن حكم العثمانيين الأتراك - فتم له توحيده من حضرموت وعدن جنوباً في حدود عمان إلى حدود الحجاز شمالاً ، ولا يبعد أنه كان هناك قواعد وأنظمة أو (قوانين) كانت تنظم الحياة التجارية والمدنية العامة قبل هذا القانون - وقبل مجيء الأتراك - لهذا كان هنالك قوانين أخرى مشابهة لقانون صنعاء هذا لانظن أنها وجدت من العدم (كالقانون التجاري) أو « قانون البيع والشراء » الذي صدر أيام المتوكل اسماعيل أيضاً عام ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م ليحد به من جشع البانيان الذين غالوا في ثمن أسعار المواد التموينية في صنعاء والذين كانوا يتنافسون في ذلك مع مزاحيهم من تجار اليهود .

في تحقيقه ونشره القاضي العلامة حسين بن أحمد السياغي قبل نحو عشرين عاماً[1] .

كانت فائدة ذلك القانون بالغة في تيسير أمور الناس وحل مشاكلهم ، ليس في أيام المهدي عبد الله فحسب بل فيما تلا عصره خلال فترة الاضطرابات والفوضى حين جاء على صنعاء زمن كانت فيه تحكم بشيخها دونما إمام إلاّ في يوم الجمعة ثم يعزل !!

☆ ☆ ☆

١٣ ـ المهدي عبد الله ونهاية حقبة تاريخية

في عام ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م قام المهدي بحملة في اليمن الأسفل بعد حملته السابقة على قبائل بكيل في العام السابق ، وكانت حملته هذه كأختها السابقة طولاً ونجاعة ، ووصل إلى قعطبة ، كما عسكر في تَعز وذي السّفال والعُدَين . وفي طريق عوده إلى العاصمة قام بتفتيش أوضاع مناطق الحدأ وعنس ويريم في منتصف الطريق بين تعز وصنعاء ، وعاقب بعض المشايخ وآخرين من الخارجين على أوامر الدولة أو من مسببي الحوادث وقطع الطرق .

ولعل من الطريف والمفيد أن نذكر أن المهدي رغب حين كان في تعز أن يقوم بزيارة قبر الصوفي الشهير أحمد بن علوان (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) في يفرس القريبة من تعز ، لكنه نُصح بأن لا يفعل ، إذ إن مثل هذه الزيارة قد تعمق الاعتقاد عند العامة بولاية ابن علوان وتقديس قبره ، ومن المحتمل أن

---

(١) طبع في القاهرة عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ ؛ وقام مؤخراً البروفسور (آر . ب . سرجنت) بالتعاون مع المؤلف في ترجمته إلى الانجليزية مع دراسة تاريخية وتحليلية تضمنتها الصفحات ١٧٩ ـ ٢٤٠ من كتاب سرجنت الثمين عن صنعاء المعنون :

Sana, a An Arabic Islamic City , london 1983

صاحب النصيحة كان الإمام القاضي محمد الشوكاني الذي كان مرافقاً له في هذه الرحلة[1] . وقد عبر الشوكاني عن إعجابه بهواء مدينة تعز وأعجب بقاتها المشهور في أثوانه ونضرته وأنشد :

أمــا تَرى تَعِـزّ في الليـل غَـدا يَرْتَقِصُ الجـوُ بهـا مِنَ الطَرَبْ

كأنمـا القـاتُ المـؤاتي بهـا قُضْبـانُ يـاقـوتٍ وأقراطُ ذهبْ

ومـاؤهـا يَحكي الهـواء رِقّـةً كما حَكَى ذَوْب اللُجين في الصَّبَبْ

استقرت أوضاع اليمن الأسفل بعد ذلك لأكثر من عشر سنوات ، حتى كان عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢ عادت بكيل من جديد فذهب المهدي للمرة الثالثة على رأس قوة أبعد تلك القبائل وشتتها وكانت تلك آخر حملاته هناك[2]

☆ ☆ ☆

لم يكن لسنوات الاستقرار النسبي أن تمر دون حوادث أو عصيان قبلي . ففي عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م عين المهدي السيد أحمد بن حسن الشامي عاملاً على ضُوران آنِس ، وهناك قام اثنان من عسكر حامية المركز بقتل العامل الجديد ، وظهر أن ذلك كان حركة تمرد حقيقي وعصيان في المنطقة . فتحرك المهدي بسرعة وأمر الوزير الفقيه قاسم بن محمد العمري بإعداد جيش لحملة كبيرة قادها بنفسه . وبعد مغادرته صنعاء توجه نحو أول الأهداف وهو حصن ضاف الذي كان يسيطر عليه مع قبائله النقيب علي بن صالح الهيّال صاحب بني جبر من قبائل خولان . ويقع ذلك الحصن بين جهران وآنس على بعد نحو /٥٦/ كم جنوب غرب صنعاء ، وكان قد اتخذ مرتكزاً للهجمات على قرى المناطق المجاورة ، وتعداها إلى تهديد أمن الطريق الرئيسي بين صنعاء وتعز وغيرها من الطرق

---

(١) المجهول : حوليات : ٣٢ ـ ٣٣ : الشوكاني : ديوان : ٩٠ ، وقارن : ص ٢٦٠ أيضاً .

(٢) حوليات : ٤٧

القريبة . وتمكنت مدافع الجيش من تدمير الحصن وقبض الهيال وجماعته . وتقدمت عمليات التطهير غرباً حتى وصل المهدي مدينة ضوران فدخلها ظافراً ، وحتى يسلم الناس من العقاب أصر على تسليمه قاتلي الشامي . ولّما تم له ذلك عاد بهما وبأسرى آخرين إلى صنعاء حيث أمر بالرجلين فضربت عنقاهما وعلق رأساهما على باب اليمن[1] .

ولم تسلم تهامة خلال تلك الفترة من هجمات قبائل يام وبخاصة عندما كان العمال من الضعفاء . فمن ذلك هجومها في ذي القعدة ١٢٣٧ هـ / اغسطس ١٨٢٢ م بقيادة الحسن المكرمي على مدينة زَبيد ، فنُهب كل ما يملكه أهلها من غال ورخيص وكان عاملها فتح الله المهدي[2] . وبعد أربع سنوات قامت هذه القبائل بالهجوم على الحُدَيدة ، غير أن الأمر كان مختلفاً هذه المرة عن سابقاتها فقد قتل بعضهم وهزموا من قبل العامل وحاميته[3] . وربما كان لهذه الهزيمة أثرها في قبائل يام إذ تجمعت أعداد كبيرة منها في عام ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ م وتوجهت إلى حراز الجبلية الصعبة والواقعة على منتصف الطريق بين صنعاء والحديدة وقامت بهجومها واحتلت بعض القرى فيها . وكان الوزير قاسم العمري لا زال مسئولاً عن الجيش في صنعاء فأرسل جماعة من العساكر بقيادة أخيه علي بن محمد العمري . وكانت يام قد تحصنت في المنطقة الجبلية المرتفعة مما جعلها في مركز قوي فواجهت قوة العمري من ذلك موقفاً صعباً ومقاومة شديدة قتل فيها عدد

---

(١) حوليات : ٣٩ ـ ٤٠

(٢) النعمي (خ) : ١٨٢ ـ ١٨٣ وقد ذكر أن المهدي أمر في سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م بنفي أميره العبد فتح الله هذا في جزيرة كمران حتى كان عام ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م فقام المذكور بعصيان في الجزيرة فأمر المهدي عامله في اللحيّة بأن يسيطر على الجزيرة ، ففعل وقبض على فتح الله ، ثم أطلق بناء على أمر المهدي وأعطاه ورقة عتقه ومنحه خمس مئة ريال توجه بها إلى مكة للحج .

(٣) نفسه : ١٨٥ ب

من الجانبين ولم يحرز أي تقدم . واضطر المهدي من جديد أن يقود جيشاً بنفسه ، وأمر أن يرسل من المخا أحد المدافع الثقيلة ليستخدمه هناك في عملياته لأن اجتلابه من هناك أسهل من إنزال ذلك من صنعاء . واصطحب المهدي معه وزراءه وفيهم قاسم العمري وقاضي القضاة الشوكاني الذي سجل ذلك الحدث في إحدى قصائده ، ونصح المهدي فيها أن ينيخوا بحصن مَسَار الغربي المرتفع المنيع لا بحصن شِبام الذي ربما يكون هرماً ، ومن مسار ينطلق الهجوم على يام المتحصنة في صَعْفان وبذلك يقول :

تهتَزُّ كُلُّ الأرضِ رُعْباً وهَيْبَةً وأحْجارُها مَعْ نَجْدِها وتِهام

ولابد أن الشوكاني قد استلهم ذلك بحسه التاريخي فمن ذلك الحصن أعلن الملك علي بن محمد الصليحي دعوته سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م وانقض منه كالصقر لتوحيد اليمن وإنهاء تجزئتها[١] .

وكان ذلك كذلك فقد تم الهجوم ـ وإن كان المهدي غير الصليحي ـ وتشتتت يام وقضي عليهم في حراز . ورغم أننا لانعرف أن المهدي كان يقرض الشعر فقد ذكر أحمد بن الإمام الشوكاني أن المهدي رد على قصيدة والده بأبيات ذكر له أولها[٢] .

☆ ☆ ☆

١٤ ـ الأحداث الأخيرة ووفاة المهدي

من الأحداث الهامة التي يمكن ذكرها في السنوات الأخيرة لحكم المهدي عبد الله مغادرة عمه يحي بن المنصور علي ـ الذي كان على درجة كبيرة من الاحترام ـ

---

(١) انظر الهمداني (د . حسين) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن : ٧٥ ومابعدها .

(٢) الجرافي : تحفة الأخوان : ١٠ : حوليات : ٤١ ـ ٤٢ ، ديوان الشوكاني : ٣٢٦ ـ ٣٢٧

صنعاء غاضباً في عام ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م والتجأ إلى أرحب ، فحاولت التوسط بينه وبين ابن أخيه المهدي ، إلا أنه لم يستجب لتلك الوساطة . وتطور الأمر حين رفضت أرحب إعادة جارها يحي إلى قتال حقيقي بينها وبين عسكر المهدي الذي أرسله إليهم . وكانت النتيجة هزيمة أرحب بعد أن قتل من الجانبين نفر . وتمكن السيد يحي بن المنصور من الهروب مع ابنه محمد إلى تهامة[١] . وإذ لم نسمع للأب بعد ذلك أي أخبار ، فإن ابنه محمداً قام بدور هام بعد وفاة المهدي بعشر سنوات وأصبح إماماً بعد أن نازع الحكم وحارب علي بن المهدي كما سنذكره في الفصل الأخير[٢] .

وكان من المفارقات في القتال بين أرحب وقوات المهدي أن الشريف علي بن ناجي الجوفي حليف أرحب وصديقها الذي حمته وقاتلت من أجله المهدي[٣] كان في هذه المرة من كبار قادة الحملة عليها بعد أن صَلُح شأنه مع المهدي وعاد إلى خدمته لعدة سنين . وقد استمر كذلك حتى مطلع عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م عندما اتهم ابن عم له وهو علي بن حسن الجوفي ، بالخيانة في مهمة كلفها إلى تهامة . وليس لدينا تفاصيل كافية عن تلك المهمة إلاّ ماذكر من حمله لرسائل وهدايا متبادلة بين المهدي والأمير علي بن ترابة وتغييره في ذلك ، كما أننا لانعلم ما علاقة ذلك بالشريف علي بن ناجي ، وكل ما نعلمه أن الاثنين وبقية أقربائهما قد تم اعتقالهم ومصادرة أملاكهم . وانتهى أمر الشريفين وثلاثة آخرين معهم بمأساة ، فقد قطعت رؤوسهم في ٢٥ صفر عام ١٢٥٠ هـ / ٤ يوليو ١٨٣٤ م[٤]

وإذا كان غضب عم المهدي السيد يحي بن المنصور ومفارقته لصنعاء قد يفسر

---

(١) المجهول : حوليات ٤٤ ـ ٤٥

(٢) راجع (ص ٣٠٨ فيما يلي)

(٣) انظر (ص ١٩٥) فيما سبق

(٤) حوليات : ٥٦ ـ ٥٧ .

بموقف شخصي نتج عن إهمال له أو مطالبته بزيادة في راتب أو مركز لم يستجب إليه المهدي ، فإن الأمر لم يكن كذلك في خروج السيد العالم أحمد بن علي السراجي[١] ، الذي كان أحد كبار علماء صنعاء ومشاهير أصحاب حلقات العلم في جامعها ، بالإضافة إلى « شدة تواضعه وسعة صدره ، ومكارم أخلاقه ، وكان للفقراء [من طلبته] كالأب الشفوق ، يسعى في إصلاح أحوالهم وتسهيل مطالبهم ، وكان جماعة من أهل الخير بمدينة صنعاء يسلمونه كل ما يأمرهم بتسليمه لبعض الطلبة من كسوة ونفقة وغيرها »[٢] ويبدو أن هذا العالم الجليل كان كثير التشيع ، فقد حدث قبل خروجه بنحو ست سنوات أن قبض المهدي على عالم مُغالٍ في تشيعه مُبَالغٍ في خصومته لعلماء الزيدية وجمهور أهل السنة ومنهم الإمام الشوكاني[٣] هو الفقيه الشيخ محمد بن صالح السماوي المعروف بابن حَرِيْوَة ، والذي انتهى أمر خلافه الشديد مع المهدي بأن أعدم في الحديدة في مطلع عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م « والناس في حاله في طرفي نقيض »[٤] ونجد أن معظم من ترجم للسراجي قد ربط بين خروجه على المهدي وبين مقتل السماوي[٤] ، رغم أن ذلك لم يتم إلاّ بعد سنوات ، قد يكون ذلك أحد الأسباب ؛ فقد استخلص الجرافي « أن السبب في قيامه بالدعوة إلى نفسه ماظهر من تخبط المهدي في السيرة وقتله الشيخ العلامة محمد صالح السماوي عندما ندَّد بحكومته وانتقد بعض تصرفاتها[٥] » . وإذا كانت تلك هي الأسباب فلابد أيضاً من أن العلامة السراجي قد آنس في نفسه الأهلية واكتمال شروط الإمامة ليخرج على المهدي ويناهض

---

(١) ينسب السادة « آل السراجي » المعروفون في صنعاء والسِرّ ـ شمال صنعاء ـ ، وقرية الضّبعات جنوب شرق ، جميعاً إلى جدٍّ حسني لهم دعي بسراج الدين لجمال طلعته (زبارة : نيل الحسنيين ١٣٧) .

(٢) زبارة : نيل الوطر ١٥٠/١ ـ ١٥١

(٣) انظر عن الموضوع كتابنا « الشوكاني : فقهه وفكره »

(٤) زبارة : نيل الوطر : ٢٧٤ ـ ٢٧٩ : النعمي (خ) : ١٨٤

(٥) الجرافي : المقتطف : ١٩٥

حكمه . لكنه لم يعلن ذلك فجأة حتى ولو كان معه بعض العلماء والأنصار ، فقد كان لابد من إقناع القبائل وطلب نصرتها وإلاّ فالموت نصيبه ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينبغي لهما أن يتجاوزا درجة النصح أو الإرشاد ، في حين أن السراجي قد أعد نفسه لأمر جسيم ومسئولية كبيرة دونها النصر أو الموت .

وهكذا غادر السراجي صنعاء في شهر صفر عام ١٢٤٧ هـ / يوليو ١٨٣١ م « مهاجراً إلى الله ، وفي صحبته جماعة من العلماء كشيخه القاضي عبد الرحمن بن عبد الله المجاهد وولده أحمد بن عبد الرحمن ، والسيد العلامة الحسين بن علي المؤيدي والسيد العلامة الحسن بن محمد الشرفي الدرواني وغيرهم[١] » وبعد ثلاثة أشهر من التجوال بين القبائل أجمع من بصحبته من العلماء وغيرهم من رؤساء بعض القبائل على أن يدعو لنفسه بالإمامة « فدعا إلى الرضى من آل محمد في شهر جمادى الأولى ١٢٤٧ هـ / [سبتمبر ١٨٣١ م] ، فاجتمع إليه وأجاب دعوته الكثير من أهل بلاد خولان وأرحب ونهم ، ومن بلاد حاشد وبكيل[١] » . ولقب نفسه بالهادي ، وبعد أن استوثق من نفسه ، جمع حوله جيشاً من تلك القبائل انطلق بها من نِهم ليحاصر المهدي ويسقط حكمه في صنعاء . ولم يكن الهادي السراجي في الأساس قائداً عسكرياً بل لم يكن يعرف القتال ولا فن القيادة وموهبة الزعامة ، كما أن معظم من لحق به من القبائل لم يكن يعنيه أو ربما لا يدرك معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبالتالي الخروج على الحاكم الظالم إذا تجاوز حدّه ، فكل ما كان يعنيهم هو الهجوم على العاصمة ومايمكن أن يستفيدوه من جراء عزلهم لإمام بإمام آخر ، ففي هذا ذريعة وشرعية ثم فوائد مستقبلية فيما لو انتصر إمامهم ، وإن ضعف مركزه فذلك مجال للمساومة مع الآخر . وقد حدث هذا دونما معارك أو قتال .

« فلما كان بالقرب من صنعاء أظهر بعض من أجاب دعوته من القبائل

(١) زبارة : نيل الوطر : ١٥١/١

التعدّي على بعض الرعية ، فألزمهم الكف عن الرعية والضعفاء ، فتفرق من لديه من جموع القبائل[1] » ، لكن هذا ليس بسبب كاف لتتخلى القبائل بسهولة عن إمامها وأهدافها وأطماعها المأمولة على ماقد يظهر من طريقة الرجل وسلوك القبائل ؛ لكن الأهم منه هو أن المهدي في صنعاء - والذي لاشك قد أفزعته الأخبار - لم يكن مجرد منتظر لمصيره ، فلابد أنه قد أجرى استعداداته ، كما أن هذه القبائل قد جربت الحرب والتعامل معه ، ولهذا فأي بادرة للصلح مع المهدي يدخل ضمنها بعض المال أولى كثيراً من الاكتفاء من الغنيمة بالإياب ! وما استخلصه صاحب « المقتطف » يؤكد لنا ذلك حين قرر « وتفرقت القبائل التي كانت حول صنعاء عندما أُرسلت الأموال لرؤسائها ![2] »

وهكذا انتهى أمر الإمام الهادي السراجي وعاد أدراجه مهيض الجناح إلى نِهْم حيث مكث يحث القبائل من جديد ويبعث بالرسائل إلى مختلف الجهات ، وكانت نهايته في روايتين ؛ الأولى : أن « أنصاره قد قتلوه في سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م ونسبوا قتله إلى فقيه عنده ، فقتلوه به حالاً[3] » ، والأخرى تضفي نوعاً من الخيال و « الدرامية » فقد ذكر أن فقيهاً قد جاءه من الحيمة ، قيل إن أعداءه أرسلوه إليه ليقتله ، وبعد أن « بقي لديه مدة حتى انفرد به ، وضربه بالسيف على عاتقه أولاً وثانياً ، فمات رحمه الله من حينه .. في يوم الأربعاء ٢٦ صفر ١٢٤٨ هـ [٢٥ يوليو ١٨٣٢] وقيل ١٢٥٠ هـ ، وقبر بموضع قتله في العيضة من بلاد نِهْم ، ثم كان قتل ذلك الفقيه هنالك[4] » .

---

(١) زبارة : نيل الوطر ١٥١/١

(٢) الجرافي : المقتطف ١٩٥

(٣) العرشي : بلوغ المرام ٧١ ؛ حوليات :٥٤

(٤) زبارة : نيل الوطر ١٥١/١ - ١٥٢ ؛ وانظر : العمري : مصادر التراث ١٢٢ ؛ المجهول : حوليات : ٥٢ - ٥٤ ؛ الواسعي : تاريخ ٢٣٢ ؛ المجهول : حوليات : ٥٢ - ٥٣

أمّا شيخه العلامة المجاهد فكان قد رجع إلى صنعاء حيث توفي بها سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م ومعه عاد ابنه وبقية العلماء الذين عفا عنهم المهدي[١] .

☆ ☆ ☆

ذكرنا قبل قليل إعدام المهدي للشريف علي بن ناجي الجوفي وبعض أقاربه ، وبعد أربعة أشهر ظهر رد الفعل . ففي رجب عام ١٢٥٠ هـ / ديسمبر ١٨٣٤ م عاد المهدي مريضاً من ذهبان بعد أن خرج مع بعض العساكر ليواجه قبائل أرحب التي قامت بهجوم انتقامي على المنطقة بقيادة سعيد ناصر الهجّام ثأراً لمقتل الشريف الجوفي فشتتها المهدي[٢] .

وقبل ذلك بشهر توفي قاضي القضاة شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني آخر عظماء علماء اليمن المجتهدين ، وكان لوفاته وقع وأثر كبيران لدى مختلف طبقات الناس[٣] .

وعاش المهدي نحو عام بعد ذلك ، لكن نشاطه قل بسبب مرضه ، واستمرت صحته في التدهور حتى مات في ٦ شعبان عام ١٢٥١ هـ / ديسمبر ١٨٣٥ م وعمره حينئذ ثلاث وأربعون سنة[٤] ، وهو عمر قصير إذا عُدَّ بالسنوات لكنه كان مليئاً بالحيوية والأحداث والمتناقضات . وبوفاته خلفه ابنه علي الذي لم يدم حكمه أكثر من عام وبضعة أشهر فقد خلع وأعيد عدة مرات . وكان ذلك بداية حقبة مضطربة دخلتها اليمن وسادتها الفتن والفوضى ، ثم حكم الأتراك في الشمال والإنجليز في عدن .

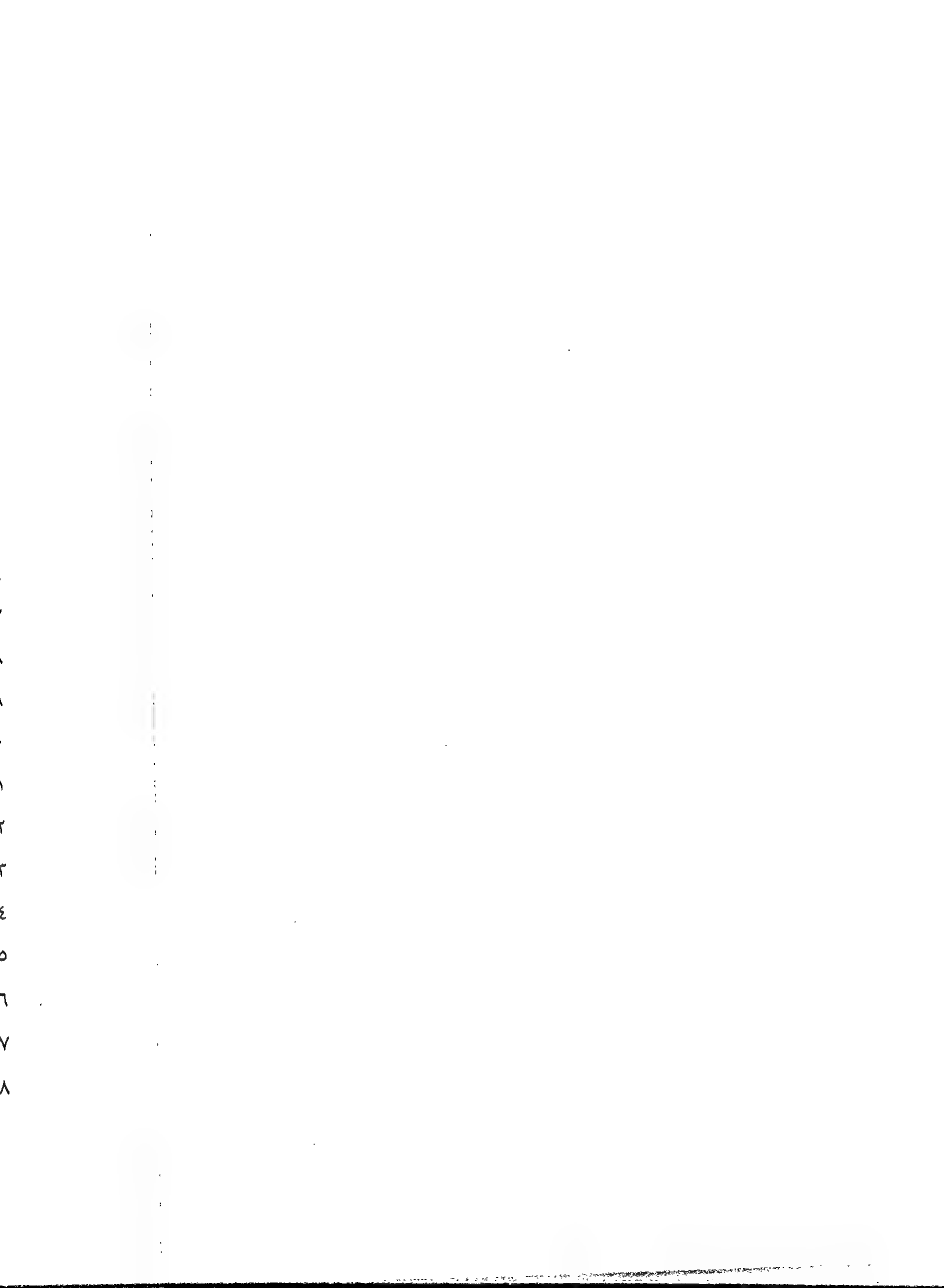
---

(١) زبارة : نيل الوطر ٣٣/٢ ؛ المقتطف : ١٩٥ ؛ حوليات : ٦١

(٢) المجهول : حوليات ٥٩

(٣) الجرافي : المقتطف : ١٩٥ ، زبارة : نيل الوطر : ٣٠٢/٢ ؛ حوليات : ٥٨

(٤) الكبسي : ٣٧٨ ؛ زبارة : نيل الوطر : ٦٦/٢ ، حوليات : ٦٠



الفصل السادس

صراع الأئمّة وقدوم الأتراك العثمانيين إلى اليمن

١ ـ علي بن المهدي عبد الله

٢ ـ خلع علي بن المهدي ونصب الناصر عبد الله بن حسن

٣ ـ التوسع المصري والاضطرابات القبلية في اليمن الأسفل

٤ ـ التنافس المصري البريطاني والاستيلاء على عدن

٥ ـ تعصب الناصر ومصرعه

٦ ـ محمد بن المتوكل من السجن إلى الخلافة

٧ ـ ثورة الصوفي الفقيه سعيدوالعنسي وسيطرته على اليمن الأسفل

٨ ـ الهادي يواجه الفقيه سعيداً ويقضي عليه

٩ ـ حكم الهادي حتى وفاته

١٠ ـ عودة علي بن المهدي إلى الحكم ثانية

١١ ـ محمد بن يحي بن المنصور مغامر يطمح إلى العرش

١٢ ـ تحالف الشريف حسين مع محمد بن يحي

١٣ ـ المهدي علي ومحمد بن يحي وجهاً لوجه

١٤ ـ المتوكل محمد بن يحي يثبت سلطانه

١٥ ـ قتال الحليفين

١٦ ـ إنقاذ الشريف حسين من الأسر وسقوط زبيد في يد يام

١٧ ـ بداية النهاية

١٨ ـ مجيء الأتراك العثمانيين ونهاية المتوكل

عظَّم اللهُ يَـــاحَبيبي لَـــكَ الأجْـ ـرَ ولي في الخِـلاَفَـةِ القَـاسِمِيّـه
كُـلُّ مُلْـكٍ في العَـالَمينَ سَيَفْنَى غَيْرَ مُلْكِ المَلِيكِ رَبِّ البَرِيّه

. . . .

وَتَـلاشَى أمْرُ المُلُـوكِ بني العبـ ـاسِ حتى لَمْ يَبْـقَ فيهم بَقِيّه
ومُلُـوكٌ في قُطْرِنـا اليَمَن الميـ ـمُون صَارُوا أحْـلامَ نَـوْمِ العَشِيّه !

. . . .

مـا قَضَى اللهُ قَـطُّ خُلْـداً لِمُلْـكٍ غيرَ مُلْكِ السَّعَـادَةِ الأبَـدِيّه
فـإذا زَالَ عَنْ - بني القَـاسم - الملـ ـكُ فَصَبْراً عَلَى عَظِيمِ الرَّزِيّه

(محسن بن عبد الكريم إسحاق يرثي دولة آل القاسم)

. . . .

الْمَق

المؤ

لُحْ

الع

وص

على

أولا

وبا

يو

قد

علي

---

(١)

(٢)

(٣)

صراع الأئمّة وقدوم الأتراك العثمانيين إلى اليمن

١ ـ علي بن المهدي عبد الله

مضى المهدي عبد الله في سبيله بعُجره وبُجْره ، وكان رغم عاطفيته ومزاجه المُقلِّب « آخر الملوك أهل الصولة والإقدام ، والحل والإبرام » على حد تعبير المؤرخ الكبسي[١] ، ذلك أن اليمن في الواقع قد دخلت في حقبة تاريخية جديدة لُحْمتها الصراع والفوضى الداخلية وسداها التسابق العثماني والأوربي للسيطرة على العالم العربي واليمن جزء منه . وكان الحكام من الأئمة على قدر العصر ضعفاً وطمعاً وصراعاً واستهانة بمسؤولية الإمامة وحقوق المواطنين ، بل وسيادة الوطن .

وأول هؤلاء هو علي بن المهدي عبد الله ، الذي خلف والده ونصّب ثاني يوم على وفاة والده (السبت ٧ شعبان ١٢٥١ هـ / ديسمبر ١٨٣٥ م) وتلقب بالمنصور أولاً[٢] . وكان أمره عجباً في تاريخ الأئمة ، إذ إنه حكم وعزل أربع مرات ، وبالتالي فقد غير لقبه في كل مرة يعود فيها إلى الحكم ! وإذا كان ذلك بحد ذاته يوضح لنا شخص المنصور علي هذا ، فهو يوضح كذلك حال الأوضاع وأي مدى قد وصلت إليه الأمور . ويبدو أن علياً هذا كان معجباً بجد والده المنصور علي بن المهدي عباس[٣] ولهذا تلقب بلقبه ، كما أنه كان متلافاً للمال مثله ، فقد

---

(١) الكبسي : ق ٣٧٨

(٢) زبارة : نيل الوطر : ١٤٢/٢ ، حوليات : ٦٠

(٣) انظر الفصل الثاني فيما سبق .

كان كريماً » ولكنه يضع الحقوق في غير مواضعها لعدم اختباره بأحوال الناس ، وبقي الذهب فوق كل شيخ وكل من عرفه ، وكان يتخلق بأخلاق جده المنصور علي في الكرم ، والرجل غير الرجل ! »[1] ؛ وإذا كان الرجل غير الرجل فالزمان كذلك غير زمانه ، فقد جاء في وقت « قد تضعضعت فيه المملكة ، لم يبق إلاّ المدخر في خزائن بيوت الأموال من آلة الحرب والذخائر ، فكان ينفق منها ويعوّل عليها ، ومواد البلاد انقطع ، وكان الجند يهجمون عليه ، ويتسلطون في المطالب ، ولم يكن له عليهم يد ... »[2] . ومن أين يكون للدولة موارد وتهامة عادت ثانية بمختلف موانيها إلى سيطرة الإدارة المصرية التي عززت مراكزها بقوات جديدة من الحجاز ومصر عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م[3] .

وقد زاد من سوء الأحوال قحط وجفاف عام لم يشهد الناس لها مثيلاً منذ سنوات بعيدة في مختلف المناطق ، إلاّ أن مصيبة صنعاء وما حولها كانت أكبر ، فقد انتشر فيها بعد أشهر قليلة من حكم المنصور علي وباء لعله التيفوس ، « وهلك بذلك خلق كثير من الفقراء والأغنياء ، وكانت الجنائز لا تنفك ساعة من كل باب ، حتى كانت النساء تخرج الجنائز إلى مغتسل باب اليمن مع ضعف قوة الرجال ، وكان الصياح لا ينفك ساعة لا في ليل ولا في نهار »[4] .

وفي هذه الظروف الصعبة بدأ حكم المنصور علي الذي استوزر بعض الوزراء الجدد قليلي التجربة ، والبعض الآخر ممن يُشتكَى من ظلمه أو جشعه . ولم يكن قد حال الحول على تنصيبه إماماً حتى خرج عليه خارجان .

---

(١) المجهول : حوليات : ٦٠ ـ ٦١

(٢) الكبسي : ٣٧٨ ـ ٣٧٩

(٣) العقيلي : تاريخ المخلاف ٤٨٣/١ وانظر : أباظه : **الحكم العثماني** ٣٦ ؛ البطريق من تاريخ اليمن : ٧٥

(٤) Playfair, A History, 145

أولها : السيد قاسم بن منصور الذي غادر صنعاء مغاضباً واتجه إلى اليمن الأسفل حيث اتخذ من تعز مقراً لدعوته بعد أن تلقب بالهادي . ولا نعرف الكثير عن أصله ودعوته إلاّ ما جاء عند Playfair[1] وما حدثنا عن ذلك صاحب الحوليات قائلاً : « إنه خرج إليه من صنعاء خلق كثير ، ومن موالي الإمام بأسلحتهم وخيولهم ، وأجابته أكثر الناس ، ولكنهم أبناء الدنيا ، والدنيا كما قيل شعراً :

كلُّ مَنْ في الوُجودِ طالبُ صَيْدٍ غَيْرَ أنَّ [الشباكَ] فيها اخْتِلاف

ولّما علموا قلّة ما في يد هذا تركوه ، ووهن أمره ، واستدعى الترك [أي عساكر محمد علي الموجودة في المخا وتهامة] إلى تعز ، ودخلوا المدينة وملكوا البلاد ، وصالحوا من في الادراك من ذي غيلان والتوابع بالمال ، فلمّا فتحوا باب الدراهم تهافتوا [كذا] عليهم العرب تهافت الذباب ، وهم منهم أحذر من الغراب ، ولا زالوا يدبوا [كذا] في البلاد دبيب العقارب ، وأصلحوا في المدينة الخارب ، واطمأنوا إليهم [كذا] مشائخ بلاد الحجرية وشرعب »[2] .

وسوف نعود إلى موضوع هذه القوة التي احتلت تعز وتقدمت شمالاً لتسيطر على قسم من اليمن الأسفل .

أما أمر ذلك الهادي السيد قاسم بن المنصور فلم يعد له ذكر بعد أن سلم تعز للقائد المصري إبراهيم يكن مقابل عشرة آلاف ريال وراتب شهري مقداره أربعة آلاف ، واتخذ من المخا سكناً له[3] .

---

(١) Playfair, A History, 145 وقد ذكر Playfair أن عدد الجنائز التي كانت تخرج من أبواب صنعاء لاتقل عن مائة وخمسين جنازة في اليوم بالإضافة إلى نحو ثلاثين ممن يموتون من الجوع .

(٢) حوليات : ٦٣ ـ ٦٤

(٣) البطريق : من تاريخ اليمن : ٧٩

والخارج الآخر على المنصور علي بن المهدي عبد الله ، عالم من بيت المؤيد ، عرف في صنعاء بالتقى والزهد وأصبح أستاذاً ومرجعاً في الأحكام ، هو السيد حسين بن علي المؤيدي ، كان من تلاميذ العلامة المجاهد والإمام السراجي ومن مدرستهما ذات التوجه الشيعي ، ولهذا فقد كان من أنصار السراجي وممن خرج معه من صنعاء وقاتل المهدي عبد الله عام ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م . ولما فشل السراجي كان المؤيدي فيمن عاد من العلماء إلى صنعاء[١] ، لكنه لم يكن راضياً عن الأوضاع ، ولهذا فلم يمكث في صنعاء طويلاً حيث « لم يصف له بها كدر ولا طاب له فيها مستقر »[١] فاستجاب لدعوة من أهل جهات صعدة الذين وصلوا إليه يستدعونه إلى بلادهم « للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المحوف ، فأجابهم إلى ذلك ، وكان خروجه من صنعاء ثانياً في سنة ١٢٥١ هـ ، وقيل سنة ١٢٤٩ هـ وصحبه عدة من أكابر العلماء في صنعاء منهم القاضي عبد الله بن علي الغالبي والسيد العلامة عبد الكريم أبو طالب وغيرهما »[٢] لكن هذا الخروج من صنعاء إلى صَعدة ليس في الواقع مجرد نقمة على الأوضاع وعلى المهدي عبد الله الذي بات مريضاً ، بل لمؤامرة مسبقة لأصحاب هذا الاتجاه الذي قاده أولاً السراجي ثم المؤيدي ، ومن بين أقطابه القاضي المجاهد السابق ذكره ، ثم القاضي الغالبي العالم الكبير وعرف كزميله المؤيدي بالورع والزهد والتشيع ، ولم يكن له بيت بصنعاء بل كان يعيش في أحد منازل الجامع ، فقد كان فقيراً متقشفاً ، وكان يقوم بدور الداعية في صعدة فيما بعد لأئمة آخرين ، كما كان فيمن سبق أن خرجوا مع السراجي من قبل[٣] ، ومن هؤلاء الذين كانوا في معظمهم طلبة علم وأساتذة في حلقات الجوامع تكونت جماعة لم تجد لها من مرشح أو بديل للمهدي عبد الله إلاّ زميلاً لهم في حلقات الدرس والوعظ في المساجد هو

---

(١) زبارة : نيل الوطر ٣٩٢/١ ـ ٣٩٤

(٢) نفسه .

(٣) زبارة : نيل الوطر ٨٩/٢ ـ ٩٠

عبد الله بن الحسن بن أحمد بن المهدي عباس ، كان إماماً لقُبّة المهدي عباس بل ساكناً في أحد بيوت وقفها ، فهو إذن أحد أحفاد المهدي عباس من الفرع الذي حرم الحكم .

وسوف نفصل أمره بعد الفراغ من خروج المؤيدي وخلع علي بن المهدي . فلقد ذكر صاحب الحوليات أنه في « شهر ربيع من السنة [١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م] أجمع رأي الفقهاء والطلبة مع هذه التربشات [الفوضى] على مبايعة سيدي العلامة الفخري عبد الله بن حسن بن الإمام المهدي سراً - وكان من جملة الطلبة - وجعلوه إماماً لهم ، ولم يفشوا سرّهم .. »[١] .

ويؤكد هذا ماذكره زبارة من أن خروج المؤيدي إلى صعدة قد تم سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م وقيل في سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م وهو يتفق مع صاحب الحوليات على خلطه أحياناً بين الحوادث وتواريخها وأن سبب ذلك : « كانت قد حصلت المراجعة فيما بين المترجم له [المؤيدي] وبين الإمام الناصر للدين [لم يكن قد أصبح إماماً] عبد الله بن الحسن رحمه الله بصنعاء على خروج المترجم له إلى جهات صعدة لتمهيد بلاد خولان الشام وما إليها للإمام الناصر .. »[٢] .

وهكذا خرج المؤيدي ومن معه في مهمة ظاهرها الاستجابة لدعوة أهل صعدة « للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وباطنها التمهيد لدعوة الإمام البديل عن المهدي عبد الله والمرشح الأقوى والأفضل في نظر هؤلاء العلماء . وبعد أن وصل المؤيدي وتحدث إلى المعنيين من رجال صعدة وغيرها من المتمسكين

---

(١) حوليات : ٥٢ وقد أضاف خطأ أو وهماً خروج السراجي في نفس العام بعد أن رأى أن الأمر « لا يتم في تلك الحال وإذا ظهر فخطره أكثر ، فأجمع رأيه ورأى الفقهاء على الهجرة من صنعاء .. إلخ » وهذا الخروج في الواقع كان قد تم قبل ذلك بعامين ومؤامرة صنعاء هي رد فعل لفشل السراجي (انظر ص : ٢٣٦ فيما تقدم) .

(٢) زبارة : نيل الوطر ٨٩/٢ - ٩٠

بالمذهب ، والذين لا بد قد أقنعهم المؤيدي وأصحابه بسوء أحوال المهدي وإدارته « طلب بعضهم الإعلان بالدعوة إلى الخلافة والإمامة العظمى ، فامتنع عن الإعلان بذلك ، ولم يزل آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حتى توفي في سنة ١٢٥٢ هـ [١٨٣٦ م] ، وقبر بجنب قبر الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان [ت ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م] بهجرة حَيدان من بلاد خولان الشام وقيل : إنه مات مسموماً »[1] .

☆ ☆ ☆

٢ ـ خلع علي بن المهدي ونصب الناصر عبد الله بن حسن

لم يكن مضى على حكم المنصور علي بن المهدي عبد الله سوى عام وثلاثة أشهر في تلك الظروف التي ألمحنا إليها ، لكن نهايته السريعة أوشكت بظروف شبيهة بما كان يحدث لبعض أبائه من قبل ، وبخاصة ماحدث لجده المنصور علي المتشبه به ، من حصار القبائل لصنعاء وتذمر العساكر داخلها لتأخر مرتباتهم ونحو ذلك ، والغريب أن قبائل برط وقادتها التقليديين من آل العنسي كانوا هم أنفسهم في كلا الحالتين .

ففي مطلع شهر ذي القعدة عام ١٢٥٢ هـ / فبراير ١٨٣٧ م وصل حسين بن يحيى بن عبد الله البرطي مع قبائله وآخرون معهم من أرحب وقبضوا على حصن عطان (عضدان) المواجه لصنعاء جنوبي غربها ، وأخافوا المنطقة وبدؤوا يساومون علي بن المهدي كما جرت العادة ، غير أنه أعرض عنهم ورتب حَدّة القريبة منهم ، ثم استدعى قبائل خولان فوصلوا بقيادة النقيب حسين بن سعيد

---

(١) زبارة : نيل الوطر : ٢٩٤/١ : وذكر صاحب الحوليات أن السيد حسين المؤيدي دعا خلال ذلك في صعدة « وآل أمره إلى التلاشي ، ولكن قد أفاد أهل تلك البلاد بتعليم الشرائع والصلاة وغيرها من معالم الدين لأن أكثر بلاد الشام بداوة » ص : ٥٥

أبي حليقة . لكن وصولهم كان في وقت قد بلغ الخلاف مبلغه بين علي بن المهدي ومن تبعه من الأجناد بسبب تأخر جوامكهم ، بل أنهم قد أوقفوه وقطعوا عليه الطريق بعد رجوعه من صلاة الجمعة ، وكان بعض الأشرار قد ألقى في روع الأجناد أن علياً سيستبدل بهم قبائل خولان[1] وقد ذكر الكبسي أنه « لم يكن له عليهم يد ، ومن لوائح الإدبار أنه عزل أمير الأجناد الذي كانت له اليد القوية عليهم الأمير عنبر يسر ، فبقي الأجناد على طريقة الفساد .. »[2] .

وبدلاً من أن يحل المنصور علي مشكلته مع قواته في داخل العاصمة ترك الحبل على الغارب ، فأسرع الجند للتجمع والتآمر ، والبحث عن البديل الذي وجدوه جاهزاً عند الفقهاء وطلبة أصحاب عبد الله بن حسن بن أحمد بن المهدي عباس الذي سبق أن رشحوه سراً منذ عامين ، لكنهم كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لإعلانه إماماً . وما أن حلت ليلة الأربعاء ٣ ذي القعدة عام ١٢٥٢ هـ / فبراير ١٨٣٧ م حتى قاد الأمير فرحان صالح العلفي (وهو أحد الأمراء العبيد من تابعي آل العلفي سابقاً) الأجناد الثائرة التي كان من رؤسائها بعض نقباء بيت الشاوش أصحاب جَدِر وسعد هديان من الرحبة وغيرهم ، وتوجهوا إلى دار الإمام في بستان المتوكل بعد أن أجمعوا على خلعه[3] ، وفي طريقهم اصطحبوا معهم الخلف وتركوه ينتظر في أحد منازل مسجد حجر القريب من الدار التي هجموا عليها وقبضوا على المنصور علي بن المهدي عبد الله ، فكان هذا أول خلع له ، وبعد أن فرغوا من نهب ما في الدار من مال ونفائس وأثاث ، أحضروا الإمام المرشح ، الذي أرسل في الحال لأنصاره ومؤيديه من بعض السادة والفقهاء ، وقام الأجناد بحراسة الدار وبعض المناطق الهامة تحسباً لأي ردة فعل ، رغم شيوع الخبر

---

(١) حوليات : ٦٤

(٢) الكبسي : ٣٧٩

(٣) حوليات : ٦٥

قبل وقوعه ومعرفة الكثيرين به ومنهم أقرباء الإمام المخلوع وعلى رأسهم عمه محمد بن المتوكل أحمد . ومع الصباح أرسل الإمام الجديد الذي تلقب بالناصر ، للعلماء والأعيان والحكام لأخذ البيعة منهم فحضروا إليه بعد أن أمر بإحضار علي بن المهدي ليشهد نهايته بعينه ، وطلب عمه محمد بن المتوكل للوصول للبيعة ، فجاء يقدم رجلاً ويؤخر أخرى « ولما بايعه أقعده إلى جنب ابن أخيه سيدي الجمالي ، وقد أظهر في نفسه القبض عليهما وحفظهما ، ولما استكمل البيعة وقد حضرها كل فقيه من الطلبة وغيرهم ... » يضيف صاحب الحوليات بسخرية : « وأشرقت لهم الأرض ببلوغ الأمل وظنوا أن قد ملكوا الأرض إلى أقصى جبل قاف ! »[1] وكما كانت العادة فقد طلع الإمام الجديد إلى قصر صنعاء في يومه الأول في موكب فخيم أطلقت فيه المدافع ، حيث بقي أياماً يستقبل وفود المهنئين ، ثم نزل ونقل أسرته من بيت الوقف المتواضع التابع لقبة جده المهدي عباس إلى دار بستان المتوكل ، وأغلق دار بستان السلطان الشهيرة وحفظ مفاتيحها لديه ، بعد أن سجن سلفه المخلوع وعمه محمداً وشدّد القيود والحراسة عليهما ، « والناس متعجبون من أمر الله وقضائه ! »[2] .

ولا شك في أن شخصية عبد الله بن الحسن تختلف عن علي بن المهدي ، بل على نقيضه من جوانب عديدة أهمها العلم والشجاعة والانتماء إلى فريق ذي مذهب سواده الأعظم من فقراء الفقهاء وطلبة العلم ، وكان عبد الله ومعه أسرته ، يشاركهم الرأي ويقاسي الفاقة وبالتالي ينقم معهم على البيت الحاكم المتسلسل في أبناء المنصور علي ابن جدهم المشترك المهدي عباس .

ومنذ البداية لا نكاد نجد شيوخاً وأساتذة تتلمذ علي بن المهدي عليهم ، ولا حتى إشارة أو إشادة بعلمه أو نبوغه باستثناء القول « بأنه نشأ بحجر الخلافة في

---

(١) حوليات : ٦٦

(٢) نفسه : ٧٧ ؛ الكبسي : ٣٧٩

أيام والده ... »[1] وهذا ـ بالطبع ـ لا يعني أنه نشأ جاهلاً فلقد كان حول والده علماء كبار كالإمام الشوكاني وطبقته وتلاميذه ، ولا بد أن علياً قد أخذ من علوم اللغة والفقه والأدب قدراً قليلاً أو كثيراً لكنه في ذلك كغيره ، فلم يجهد نفسه ولم يظهر منه نبوغ معين حتى يشار إليه ، فكأنا بحاله كحال أبيه من قبله أو كغيرهما من كثيرين من أبناء الأئمة أو الملوك الذين يعيشون عيشة رافهة وينتظرون أن يسعى العلم إليهم سعياً ، وإذا حضروا حلقات الدرس مع غيرهم فهم في الغالب يحسون بالتميز والميل نحو اللعب واللهو ، وقليل منهم من يتخذ الجد والاجتهاد في تحصيله حتى يبرز وينبغ بل ويتخذ من العلم غاية وهدفاً ، وقد كان من آخر من مرّ معنا من ذلك القليل بعض أبناء المهدي عباس قبل أكثر من نصف قرن على ابن حفيده علي بن المهدي عبد الله[2] .

أمّا عبد الله بن الحسن المولود في سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م فقد « عكف على ملازمة الجامع المقدس بصنعاء من صغره لدرس العلوم وملازمة القراءة .. » وكان معظم شيوخه من سبق أن ذكرنا ميولهم وخروجهم على المهدي عبد الله فقد قرأ على الإمام أحمد بن علي السراجي ، والقاضي عبد الرحمن بن عبد الله المجاهد ، والقاضي عبد الله بن علي الغالبي ، والسيد أحمد بن زيد الكبسي ، والسيد أحمد بن يوسف زبارة ، والإمام الحسين بن علي المؤيدي ... وغيرهم »[3] أخذ عنهم الفقه والصرف والمنطق والمعاني والبيان والحديث والتفسير وعلم الكلام ... وقد ذكرت أسماء كثير من كتب تلك العلوم المشهورة التي عكف على درسها « حتى حقق جميع المعارف العلمية ، ودَرّس في فنونها ، وتخرج به جماعة من العلماء .. » ؛ وأصبحت قبة المهدي عباس مركز عمله ونشاطه ، فقد أصبح إمام

---

(١) زبارة : ١٤٢/١

(٢) انظر الفصل الثاني (ص : ٥١ فيما سبق) .

(٣) زبارة : نيل الوطر ٧١/٢

الصلاة فيه وأحد مشاهير أساتذتها » وكانت ترد إليه السؤالات فيجيب عنها بأجوبة دالة على غزارة علمه .. وكانت له ملكة في الشعر »[1] و« قد نشأ على الصلاح والتقوى ، وصبر على الكد في الطلب صبراً جميلاً مع شدة فاقته وحاجته هو وأهله ، وهو لا ينفك عن الدرس والتدريس ، حتى إنه فاق السادات من قرابته ، وسلك مسلك سلفه »[2] .

وإذا كان هذا علم الرجل وحاله ، فقد كان - أيضاً - « شجاعاً لا تروعه النوازل ولا تقرعه الزلازل »[3] فأصبحت منزلته لذلك كبيرة في نفوس عارفيه ومريديه ، وهو وإن كان « أسود اللون ، في بدنه ووجهه آثار الجدري أثر جلي »[4] ، فقد كان « ربعة في الرجال ... عظيم الصدر والمنكبين ، يملأ العين مهابة »[3] ولعل ما أضيف إليه من صفات أخرى قد جاءت فيما بعد من أنصاره ، فقد قيل : « وتظهر على وجهه سمات الفضل والبركة والجلالة ، وتلوح عليه أنوار النبوة والخلافة ! »[3] .

تلك كانت شخصية عبد الله بن الحسن ، الذي كان يبحث عن دور سياسي دوافعه الطموح ومسوغاته الإصلاح وإزالة الفساد ، وهو - فيما يبدو - كان يجد في نفسه الأهلية الكاملة لمنصب الإمامة ، ولهذا فقد كان يعمل للأمر من قبل وفاة المهدي عبد الله حين رشحه أصحابه عام ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ، ولم يكن وقتئذ قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره . ثم تحقق له الأمر بالطريقة والظروف المتقدمة فأصبح الإمام الناصر وعمره ستة وعشرون عاماً .



---

(١) زبارة : نيل الوطر ٧١/٢

(٢) حوليات : ٦٦

(٣) زبارة : نيل الوطر ٧١/٢

(٤) حوليات : ٦٦ ، زبارة ٧٠/٢

لم يكن الناصر على سعة علمه وما قيل فيه من صفات متسامحاً مع أعدائه أو معارضيه ، فقد كان قاسياً في تشديده على قريبه المخلوع علي بن المهدي وعمه . بل خائفاً منها ينقلها معه في سفره من سجن إلى سجن ! وكذلك كان مع المخالفين لمعتقداته وآرائه التي كان بعضها غريباً ، أو مغالياً إذا كان مذهباً أو شرعاً . فلم يكد يمضي أسبوع على حكمه حتى ألقى القبض على كل من كان له منصب أو عمل أو علاقة بسلفه علي بن المهدي أو إدارة والده ؛ وأمر بحبس الجميع وفيهم « أمناء الشريعة والوكلاء [المحامون] ، وحاكم الحضرة القاضي يحي بن علي الشوكاني[1] وابن أخيه العلامة القاضي أحمد بن محمد[2] حتى صار في الحبس جميع الأعيان ، وقبض الرايات ، وأراد إبدال خلق جديد والأمر لله ! »[3] .

وكان الناس بشكل عام قد استبشروا خَيْراً وفرحوا بقيام الناصر خلفاً لعلي بن المهدي ، لما مضى عليهم من الشدة والمرض والخوف والجوع ، و « ظنوا أنه المجدّد » . وإذا لم يكن يعنيهم مباشرة إجراءاته من سَجْن وعزل أو ربما اعتبروها سياسة وقائية دعتها الحكمة من الإمام أو الضرورة ، فإنهم استغربوا ، بل وأنكروا بعض التصرفات الشاذة ، وتنفيذ بعض الأحكام ، بالإضافة إلى اعتماد الناصر على بعض أصحابه الذين أطلقوا العنان للمصادرة والاستيلاء على أموال الناس حقداً

---

(١) شقيق شيخ الإسلام الشوكاني وتلميذه : عالم ، فقيه ، شاعر ، خلف أخاه على القضاء بعد وفاته عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م حتى كانت هذه المحنة ، ثم أفرج عنه مع ابن أخيه وزاول القضاء حتى توفي بصنعاء عام ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١ م (انظر : **البدر الطالع** ٣٣٨/٢ ؛ **نيل الوطر** ٣٩٥/٢) .

(٢) هو الابن الثاني لشيخ الإسلام ، خلف عمه على القضاء بعد وفاته ، وكان عالماً فقيهاً ، كما كان كوالده لا يخشى في الحق لوماً للائم ، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي دخل فيها السجن ؛ فقد تعاقب على أيامه عدد من الأئمة اختلف مع بعضهم وسجن ؛ وفي آخره كان مرجع القضاء ومنفذ أحكام الشريعة بدون أوامر الإمام حتى توفي في الروضة سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م حيث كان قد استقر (**نيل الوطر** ٢٢٢/١ ، وانظر مقدمتنا لديوان والده : ٣٥ ـ ٣٦) .

(٣) حوليات : ٦٨

لكونهم كانوا معسرين أو فقراء ودونما وجه حق ، وينقل لنا صاحب الحوليات صورة جليّة لتلك التصرفات والمواقف ، وهي على بساطة لغتها وسردها عميقة الدلالة ثاقبة التحليل ، قال في ذلك :

« .. وكان جلساؤه جماعة من الطلبة الفقهاء الذين كانوا في المنازل وغيرهم الذين لاعقول لهم ! وإنما همُّهم أهويات نفسانية ، وأظهروا الكامن في صدورهم على الناس ، وحملوا الناس على غير السلامة ، والإمام طبعه كطباعهم (وشبه الشيء منجذب إليه !) فمن أشوارهم ربط اليهود فوق قبور السادة والخلفاء ! ؛ ومن ذلك أنهم أشاروا بنبش قبر شيخ الإسلام الشوكاني ! رحمه الله وإخراجه من القبر ثم تحريقه ! نعوذ بالله من أن يكون ! وأشار إليهم بعض أهل الرأي بعدم هذا الشور[1]

ومن ذلك حدّ الفقيه محسن العصامي ، وجلده على رؤوس الأشهاد ، حدّ ماله رأس [أي غير صحيح] ولا أقر بالزنى ، ولا بالشرب ! . واستخلص الإمام الحاج سعد علي ، ومحمد بن أحمد السقا ، وكان مدار الأمور الخاصة عليهم ، والفقيه محسن الجبري الأعمى ، صاحب المشورة وغيره . ومع ما مضى من المجاعة والقحط ،

---

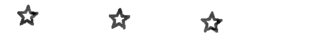
(١) وقد أشار الحافظ محمد بن علي العمراني (ت ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م) تلميذ الشوكاني سابقاً وخصمه اللدود فيا بعد إلى فكرة نبش القبر هذه في كتابه اتحاف النبيه بتاريخ القاسم بن محمد وبنيه وذلك في معرض حديثه عن قيام الناصر الذي كال له التهم وأنه رافضي خبيث .. كا ذكر سجنه لآل الشوكاني وغيرهم وقد أعارنا كتاب المؤلف (الأصل) نجل حفيده القاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني الذي كان ممن له الفضل في نقل رفات الشوكاني وحملها إلى قبره الجديد في جامع الفليحي وذلك حين جرى في عام ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م نقل رفات الإمام الشوكاني من مقبرة خزيمة إلى مسجد الفليحي في مراسم جنائزية مهيبة عندما تقرر تأسيس مبنى نادي الضباط الحالي (انظر كتابنا عن الشوكاني) .

فقلوب هؤلاء بالجوع مغذاة ! وفي أنفسهم على من كان ذا مهنة أو حرفة لا يسأل الناس ، فلم يزالوا ينقلون بالناس إلى الإمام ، وهو مؤمن بصدقهم في أقوالهم وأفعالهم - تجاوز الله عنهم - وما صلحت أحوالهم وحَسُن ظنهم بالناس إلاّ بعد مدة طويلة ، وقد صاروا هم الأغنياء دون غيرهم ! وشبعت بطونهم ، وتنعمت أجسامهم باللباس فتيقنوا أن الناس لا ذنب لهم يُوجب أذيتهم لهم ! »[1] .

وحتى يكون صاحب الحوليات منصفاً فقد رأى للناصر مناقب هي في نظره ظاهرة مخففة لما ذكر من مثالبه وتصرفات أصحابه ومستشاريه :

« ومن مناقبه الظاهرة منع المزامير والدفوف ، والمعازف ، ومنع النوبة ، ومنع النساء من الحمام ! وخروجهن من وقت المغرب ودخولهن السوق ، وهذه من أعظم المناقب ! وبعد ذلك رخص لهن في الحمام بشرط التستر داخله وخارجه ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وتولى الصلاة بالناس يوم الجمعة بنفسه والخطابة في بعض الأوقات ، وأمر بتعليم الصلاة وإقامة الجماعات ، ووصل الأرحام ، وكفل الأيتام من قرابته وأصلح سريرته ونيته ! »[2] .

تلك كانت شخصية الإمام البديل ، وأيامه الأولى في الحكم ، فكيف كانت الأوضاع العامة في اليمن وكيف واجه تحديات المواقف الصعبة التي كانت في الواقع قائمة ومتشابكة قبل وصوله إلى سدة الحكم ؟ .



(١) حوليات : ٦٧ - ٦٨

(٢) نفسه : ٦٩ - ٧٠

٣ ـ التوسع المصري والاضطرابات القبلية في اليمن الأسفل

بين وفاة المهدي عبد الله وخلع ابنه علي بعد خمسة عشر شهراً من حكمه كانت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا يكن (ابن أخت والي مصر محمد علي وشقيق أحمد باشا يكن حاكم الحجاز والقائد العام للجيش) قد استكملت سيطرتها على الموانىء اليمنية الرئيسية كاللحية ، والحديدة ، والمخا ، وتقدمت براً بقيادة إبراهيم باشا فقبضت بيت الفقيه وزبيد ، وتم وضع حاميات قوية في كل منها كما عين محافظاً وموظفين لإدارة شؤونها وجماركها ولم يبق أمام يكن إلاَّ إتمام مهمة حملته في الداخل[1] .

وصحيح ماذهب إليه قائد الحملة أنه لولا ضعف علي بن المهدي في صنعاء وخروج قاسم بن المنصور عليه في تعز وعصيان الشيخ حسن بن يحيى علي سعد في المنطقة لما تمكنت الحملة من تحقيق أي نجاح لها في اليمن .

« .. فالأول : كان السبب ـ كما ذكر إبراهيم يكن في رسالة لمحمد علي ـ (في رغبة الناس عنه ، ونفورهم منه ، ومشايعة أنصاره للمصريين) ؛ والثاني : بخروجه على المنصور علي بن المهدي وإيغار الصدور عليه ، والثالث : بمساعداته القيمة بضم القبائل ووجوه مدينة تعز إلى المصريين ضد إمام صنعاء ، وقد ذكر إبراهيم يكن أنه نفحه بمبلغ كبير من المال ليسهل مهمة الحملة في إقليم تعز تمهيداً للتقدم نحو صنعاء . وفعلاً تم في يونيه عام ١٨٣٧ م [ربيع الأول ١٢٥٣ هـ] تسليم تعز للحاكم المصري ، وتم الاتفاق بين إبراهيم يكن وقاسم عم الإمام[2] على

---

(١) البطريق : من تاريخ اليمن : ٧٥ ـ ٧٦

(٢) لم يكن عماً للإمام علي بن المهدي وذكر Playfair. 145-6 أن المبلغ تسعة آلاف دفعة واحدة ثم ثلاث مئة راتباً شهرياً وهو المعقول ، كما ذكر أن هذا المبلغ (الذي كان مقابل الخيانة قد =

أن يتخذ قاسم مخا مقراً لسكنه ، في نظير منحه مبلغ عشرة آلاف ريال ، ومرتباً شهرياً قدره أربعة آلاف قرش »[1] .

لم يكن أمام الناصر عبد الله بن حسن - وقد تسلم الحكم - من خيار إلاّ أن يعد نفسه لحرب يواجه فيها القوات المصرية التي أصبحت متمركزة في تعز لتتخذ منها قاعدة انطلاق صوب اليمن الأسفل في طريقها شمالاً لتصل إلى صنعاء ؛ « .. فأما إن فتحنا صنعاء - كما هو غاية أملنا - ، ورفعت أيدي المفسدين ، وشملنا أصحاب أشجار البن بعين المراحم الخديوية ، وغرست أشجار البن بكل اعتناء ، زاد المحصول سنة بعد أخرى ، وبلغ مركزه الأول » كما جاء في رسالة إلى محمد علي يغريه فيها قائده إبراهيم باشا بفوائد الاستيلاء على صنعاء لمعرفته باهتمامه باحتكاره تجارة البن « حتى إنه أنشأ له في اليمن ديواناً خاصاً سمي بديوان البن لتنظيم هذا الاحتكار »[2] .

وكان على الناصر أن ينهي في أول أمره مشكلة قبائل برط المرابطة مع رئيسها القاضي حسين بن يحيى بن عبد الله البرطي ، ومعهم بعض أرحب على مرمى البصر من صنعاء في حصن عُطّان ، فصالح القوم بمال وأدخلهم العاصمة[3] حيث استخدمهم مع قائدهم في حملته على اليمن الأسفل ومحاولته الفاشلة لصد الزحف المصري بعد نحو شهرين من بداية حكمه . ولعله بذلك أراد إيجاد نوع من التوازن مع قوة الأجناد الرسمية التي لها الفضل في إحضاره إلى الحكم ، وبالتالي

= اقترضه إبراهيم باشا من تجار المخا بسبب العجز المالي عنده) كما إنه أخذ سبعة رهائن من رئيس الجماعة التي كان عددها مئتين والتي كانت مع قاسم ورافقت القوات المصرية إلى تعز وذلك خوفاً من الغدر وكان لها نصيب من المبلغ المذكور وقد سمّى بليفير رئيس القبائل Ibn Dumari في حين ذكر المؤرخ التهامي النعمي أنه محمد بن أحمد بن دمّاج الحمدي وأنه باع تعز باثني عشر ألف ريال (خ) ق : (٧٩) .

(١) البطريق : ٧٩
(٢) البطريق : ٨١
(٣) حوليات : ٦٧

فكل شأنها شأن أي فرق أو قوات عسكرية في التاريخ العالمي أو الإسلامي تصبح في مثل هذا الموقف هي صاحبة السلطة الحقيقية والمتحكمة في الأمور . وقد لمس الناس ذلك فذكر صاحب الحوليات أن « الأجناد يحسبون أنفسهم أنّ لهم الحل والعقد بعد أن أخذوا ما في بيوت الأموال لنفوسهم .. »[1] . ولم يكن الناصر استثناءً في الأمر ، لكنه استفاد من الحل مع قبائل العنسي وأسرع في معالجة أطماع العسكر وأنصاره المحتاجين للمال والمؤملين في جني نجاح إمامهم بأن جمع مابقي في بيت المال وما صادره من الحلي والحلل وأضاف إلى ذلك الكثير من النحاس وأمر بحمل كل ذلك إلى « دار الضرب » في قصر صنعاء حيث أمر اليهود القائمين على سك العملة بإخراج أول ضربة باسمه . وكان من حسن حظه أن سلفه المخلوع علي بن المهدي كان قد جمع ما استطاع خلال حكمه القصير ، وأعد ضربة جديدة كانت جاهزة ولم يبق ناقصاً إلاّ طبع اسمه عليها ، فخرجت العملة كلها باسم الناصر[2] وبهذا وذاك قوي مركز الناصر المادي والمعنوي . وصادف في مطلع العام الجديد محرم عام ١٢٥٣ هـ / إبريل ١٨٣٧ م - أي بعد مرور شهرين على الناصر في الحكم - أن وصلت الأخبار بمجيء بضع مئات من قبائل ذي محمد البرطية قادمة من اليمن الأسفل محملة بالكثير من الأموال والمواد الغذائية كالسمن والعسل مما نهبوه خلال وجودهم هناك مع آخرين غيرهم ممن بقي ولا زال يعيث فساداً منذ العام الفائت .

وقد حطت ذو محمد رحالها في الصافية[3] جنوب العاصمة بالقرب من حمر العلب . ويبدو أن تلك القبائل كانت مستصحبة السلامة لأنها كانت مثقلة

---

(١) حوليات : ٦٨

(٢) نفسه : ٦٨

(٣) أصبحت الصافية من الأحياء الحديثة الواسعة لصنعاء ، وكانت تعرف بصافية باذان آخر حكام الفرس من الأبناء في اليمن حيث أسلم في السنة العاشرة للهجرة ، وكان له أراض وبساتين كثيرة كان منها مكان عمارة الجامع الكبير بصنعاء (انظر تاريخ صنعاء - ط ٢ -) .

بأحمالها وكان عبورها بصنعاء على غير عادتها عندما كانت تأتي محاصرة أو مطالبة بأموال .

واهتبل الناصر الفرصة فأراد تحقيق عدة أهداف بضربهم : فهم أولاً ممن يثيرون الاضطرابات والفتن في اليمن الأسفل ، وهو ينوي الخروج إلى هناك لتأديبهم ، وهزيمة هؤلاء يؤثر في البعيدين ، وهو اختبار لمدى ولاء القاضي العنسي ومن معه في صنعاء . ثم إن هؤلاء قد عادوا محملين بما نهبوه من رعايا الإمام المسؤول عن حقوقهم وأمنهم ، وهو كذلك إشغال لعساكره بدل البقاء في صنعاء والتفكير فيه ، كما أنه اختبار لقوتهم ، وفي الانتصار دعم لمركز الإمام وهيبة الدولة . وهكذا أمر الإمام بعض القادة من الأمراء العبيد منهم النقيب ألماس بَلّسه ، والأمير محمد طاشخان أمير بئر العزب ، والأمير خير أمير البساتين ، ليسير كل منهم على رأس عساكرهم للخروج لمواجهة ذي محمد ، الذين توجهوا شرقاً للتمركز في جبل نقم ، فحصرتهم العساكر هناك ، وأدركوا آخر نهارهم أنهم لن يخسروا المعركة فحسب بل وكل ما يحملون ، فاستسلم عقالهم ، وبعد التفاوض دفع مال فدية للآخرين ، فقبض عليهم وأدخلوا إلى السجن رهائن وسمح للباقين بالرحيل إلى ديارهم بما بقي معهم من أحمال على أن لا يعودوا إلى السلب مرة أخرى[1] .

وكما كان الشاعر الكبير عبد الرحمن الآنسي قد استمر في تسجيل أحداث أئمة عصره ووقائعهم حتى توفي عن اثنين وثمانين عاماً في سنة وفاة صديقه الإمام الشوكاني (١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) فقد أصبح الشاعر البليغ والرقيق محسن بن عبدّ الكريم بن إسحاق[2] هو المسجل للحوادث والماجريات ، وكان الناس

---

(١) حوليات : ٦٨ ـ ٦٩ ؛ زبارة : نيل الوطر ٧٢/٢

(٢) محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق (١١٩١ ـ ١٢٦٦ هـ / ١٧٧٧ ـ ١٨٤٩ م) ، شاعر ، أديب ، فقيه ، ألمعي ، ظهر نبوغه مبكراً ، وهو من بيت شعر وأدب وعلم ، ومن آل =

يرددون شعره و يترغون بقصائده ، كما كانوا يفعلون مع معاصره الأشهر الآنسي ، وهو الذي استهللنا هذا الفصل بأبياته البديعة التي يرثي فيها ساخراً دولة آل القاسم وكان أحد رجالها . وعندما انهزمت ذو محمد على يد قوات الناصر قال ابن إسحاق قصيدة مطلعها :

أَلقَتْ إليكَ قيادَها الأبطالُ وتَفَتَّحتْ لكَ في العُلَى الأقْفالُ

ومنها :

فليهْنِ صَنْعاءَ بعد طُولِ عَنائِها عِـزٌّ تقادَمَ عَهْدُهُ وجَلالُ
فَلَقدْ حرسْتَ فِناءَها وحَجَبْتها عَنْ أنْ يُلِمّ بسُوحِها مُغْتالُ

وكان ذلك وغيره بمثابة التأييد المعنوي والأدبي للناصر من شاعر وعالم كبير له وزنه وأهميته خاصة وقد سبق لابن إسحاق أن هنأ الناصر بتولي الإمامة قبل شهرين وعدّد فيها مناقبه وشهد فيها بعلمه وفضله وبلاغة خطبه ومواعظه[1] .

☆ ☆ ☆

كان عام المحل والجفاف ، ومصائب الوباء والمرض قد ولّى ، واستبشر الناس خيراً بل لقد تحسنت أحوالهم بنزول أمطار غزيرة وبشائر خير واستقرار . وزاد

= القاسم ، وكان تلميذاً للإمام الشوكاني ، ولابن شيخه إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد ، والحسين السياغي ، ويعتبر شعره الحميني - شأنه شأن الآنسي وابنه - من أرق الشعر اليمني ومن أعلى الطبقات ، وشعره بصنفيه الحميني والحكمي متداول محفوظ عند اليمنيين وله ديوان شعر اسمه « ذوب العسجد في الأدب المفرد » منه نسخه بمكتبة الجامع الكبير رقم ١٥٥ أ و ب ، وله رسائل فقهية وأراجيز انتقادية ومؤلف في سيرة الإمام الهادي محمد بن أحمد (ت ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م) الآتي فيما بعد . انظر : (الشوكاني : البدر الطالع ٧٨/٢ ؛ ديوانه : ١١٠ ؛ الشجني : ١٢٦ ب ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٠١/٢ - ٢٠٧ ؛ مصادر الحبشي : ٣٥٦ ، ٣٩١ ، ٤٥٥ ؛ غانم (الدكتور) شعر الغناء الصنعاني : ١٦٢ وملحقات الكتاب) .

(١) زبارة : نيل الوطر : ٧١/٢ - ٧٢

من أمن الناس واطمئنانهم - خاصة في العاصمة - تمكن الناصر من القضاء على ذي محمد ، ومن قبلهم التسوية مع أبناء عمومتهم ودخولهم في خدمة الدولة . لكن اضطرابات المناطق الوسطى واليمن الأسفل كانت شاغل الإمام في صنعاء ، كما كانت سبباً في تمكن العساكر المصرية من الوصول إلى تعز وبالتالي تَقَلُّص سلطة العاصمة . ولم يكن للناصر بدّ من أن يقوم بحملة كبيرة يُطهر فيها تلك المناطق ويعيد إليها استقرارها ، ومن ثم يواجه القوات المصرية ويبعدها إلى تهامة ، وإن استطاع أن يخرجها منها فذلك أمله وواجبه . وهكذا قرر الناصر الخروج من صنعاء على رأس جيش كبير ضم فيه إلى قواته النظامية بعض قبائل من حاشد وبكيل ومن كان لديه من أصحاب القاضي العنسي ، وغادر صنعاء في ٧ محرم عام ١٢٥٣ هـ / ١٤ إبريل ١٨٣٧ م وبات أول ليلة له في وِعْلان حيث دعا إليه هناك مشايخ سنحان فانضموا إليه ، واصطحب معه سجينيه علي بن المهدي وعمه محمد بن المتوكل خوفاً من أن يقوما بأي عمل مع أنصارهما وهو غائب عن العاصمة[1] . وعندما وصل إلى جهران في اليوم التالي دعا مشائخ آنس والحدأ وواصل سيره حتى ذَمار ، حيث أقام بها شهراً ونصف الشهر ، وعين وزيراً له خلالها القاضي محمد بن علي الإرياني (ت ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م) الذي عرف بالعلم والنزاهة وحسن الإدارة ، وقد سبق له العمالة على يريم وقعطبة وغيرهما[2] ، وأودع الناصر سجينيه في سجن ذمار[3] وفيه بعض الجناة ، ونفذ بعض الأحكام الشرعية ، وكذلك فعل في يَريم التي بقي فيها شهراً وبضعة أيام وأخرج المتغلبين من بكيل في جبل رياب وبني مسلم ومنها بعث برسائل إلى القبائل المتحكمة في

---

(١) الحوليات : ٧٠ ؛ زبارة : نيل الوطر ٧٢/٢

(٢) زبارة : نيل الوطر ٢٩٦/٢

(٣) أفادنا الوالد العالم القاضي الأستاذ إسماعيل بن علي الأكوع بأن الناصر قد سجن في ذمار بعض القضاة وعلماء الزيدية المتحررين أمثال العلامة محمد حسن الشجني تلميذ الإمام الشوكاني وجدّ آل الأكوع وآخرين ممن لا تتفق آراؤه معهم .

اليمن الأسفل يطلب منهم الوصول إليه ، فلم يستجب منهم إلاّ القليل ، فتوجه إلى المخادر . والناصر في كل وقفاته بجيشه الكبير يحاول بإجراءاته القمعية وتطبيق الأحكام على الخارجين استقرار هذه المناطق تمهيداً وإرهاصاً لمن في بقية اليمن الأسفل وأولئك المتعاونين مع المصريين في تعز ، ولهذا فما إن توجه إلى إبْ بعد المخادر حيث عسكر إلاّ وقد سبقته الأخبار ، فاستعد من استعد ، وخاف من كان في مركز ضعف ، وهناك كان امتحانه الكبير كما قال الكبسي في مواجهته للقوات المصرية[1] .

أمضى الناصر بضعة أسابيع في إب يعد فيها قواته النظامية والقبلية للتوجه إلى تعز لمحاربة القوات المصرية ، لكنه انشغل أيضاً بمحاربة بعض قبائل من بكيل كانت قد اتخذت لها مراكز وحصوناً تدافع عنها ، فتمكن بالحرب مرة كما فعل مع المتحكمين في مَدَر وهي قرية اشتهرت بسادتها ، وبالعطاء والهبات مرة ثانية حتى بدأت أمور المنطقة تستقر[2] .

وفي أوائل جمادى الأولى عام ١٢٥٣ هـ / أغسطس ١٨٣٧ م وجّه الناصر جيشاً إلى تعز لمحاربة المصريين ، ويبدو أن معظم قياداته أو كلها كانت من رؤساء القبائل الذين كان على رأسهم القاضي حسين بن يحيى العنسي البرطي ، والنقيب علي بن سهل الهيّال الحميري صاحب خولان ، والنقيب مثنى الأعوج من رؤساء نهم ، مع قبائلهم وبعض العساكر والفرسان ، وربما احتفظ الناصر ببعض جنده وقادتهم معه للحالة غير المطمئنة التي كانت من حوله في إب . وكانت الخديعة قد وقعت في تعز بتمالؤ القبائل هناك برئاسة الشيخ حسن بن علي سعد مع المصريين فقد أرسل الشيخ حسن ابنه قاسماً مع بعض رجاله إلى الناصر يؤكدون له الوفاء معه ضد المصريين ، وبأنهم سيفتحون المدينة لقواته . وبالفعل عاد قاسم إلى تعز

(١) الحوليات : ٧١ ؛ زبارة : نيل الوطر ٧٢/٢ ؛ الكبسي : ٣٧٩

(٢) حوليات : ٧٣

مع القوات المرسلة لتحارب المصريين[1] . وإذ وصلت قوات الناصر إلى قريب المدينة خرجت إليهم القوات المصرية ، فدارت معركة عظيمة قتل فيها الكثير من الجانبين ، وآزرت المصريين فيها القبائل المتعاونة معهم برئاسة حسن بن علي سعد ، وقد ذكر صاحب الحوليات أن المعركة كانت في محل « القصيبة » وأن المصريين ومن معهم انهزموا وتراجعوا إلى المدينة ، وأرسلت الرؤوس إلى الناصر حيث علقت في باب إب و « قد عجب الناس من كثرتها وشناعة خلقها »[2] لعدم معرفتهم من قبل بمثل تلك الرؤوس التركية أو الأرناؤطية ، ثم يعزو إلى إدارة الناصر ووزرائه في عدم موافاة القوات فيما بعد بالمدد والتموين سبب التراجع والهزيمة بحيث لو وقعت معركة أخرى لانتهى أمر المصريين « ولكنه وقع المكر من عدم الإرسال لمن في المطرح بالعطا والمسيرة .. »[2] في حين حدد لنا الكبسي مكاناً آخر للمعركة التي يظهر أنها كانت الفاصلة ، وذلك حين قال : « فخرج من في تعز من العساكر المصرية والتقوا أصحاب الناصر إلى محل يقال له الهشمة وحصلت حروب عظيمة قتل فيها القاضي حسين بن يحيى بن عبد الله العنسي كبير أهل برط والنقيب علي بن سهل الهيال الحميري ، والنقيب مثنى الأعْوَج من رجال نهم ، وانهزم العسكر الناصري »[3] .

وإذ يذكر صاحب الحوليات نفسه مقتل أولئك القادة ، فلا بد أن ماذكرهُ بعد ذلك ليس إلاّ من استطراداته الحماسية ونقمته الواضحة على وزير الناصر القاضي الإرياني[4] يؤكد ذلك أن القوات المصرية تقدمت بعد ذلك جنوباً

---

(١) حوليات : ٧٤
(٢) نفسه : ٧٥
(٣) الكبسي : ٣٧٩
(٤) حوليات : ٧٥

فـاتجهت إلى العُـدين التي لاتبعـد كثيراً عن مـدينـة إب وكان قوامهـا نحو ألفين[1] وبناء على رواية صاحب الحوليات التي أكدها معاصر الحملة النّعمي[☆] أيضاً « فقد استدعاهم الشيخ سعيد بن أحمد علي سعد إلى بلاد العدين ، وخـان أمـانتـه ، وهو عامل من جهة الإمام ، فنهض من العجم قدر ألفين حتى وصلوا مدينـة العـدين ، وفتحت لهم المدينـة وأظهروا القوة والزينـة واستولوا على البلاد .. »[2] ولا بـد أن ذلك قد حدث ، فلم يمض إلا أيام حتى انتقل الناصر إلى ذي جبلة على بعد بضعة أميال من إب ومن العُدين ، وأرسل بنحو خمسمائة من قواته الرماة وبعض القبائل بقيادة الأمير ألماس بَلَسه « وقد اشتاق النـاس للقـاء الأتراك طمعـاً في الغنيمـة من أسلحتهم والسـلامـة من شرهم ! »[2] ، ووقعت منـاوشـات قتـل فيهـا عـدد من المصريين لكن النتيجـة النهـائيـة كانت في صـالحهم ، فتراجـع أصحـاب النـاصر خائبين[3] .

تراجع الناصر أواخر جمادى الأولى نفسه / أغسطس إلى إب مرتبكاً مخذولاً ، وإذا به يواجه من عاد من القبائل المنهزمـة في تعز ، وعلى رأسهم أقربـاء من قتل هناك ، ومنهم النقيب علي بن سهل ، وهم ناقمون ساخطون ، كما استعـادت بعض قبائل ذي محمد مواقعهـا في الحصون القريبـة ومنهـا القبـائل التي في بَعْـدان حيث طردت حامية الناصر وقتل عدد من رجاله ، منهم النقيب هادي الشـايف الـذي

---

(١) ذكر في الوثائق المصرية أن حملة اليمن تكونت قواتها من ١٨٠٠ جندي من القوات المـدربة إلى جانب اسطول يحمل سبعمائة بحّار مع معدات وذخائر ومؤن كبيرة (انظر البطريق : ٧٤) .

(٢) نفـه : وذكر د. البطريق (ص : ٨٢) أن دخول القوات المصريـة العـدين بقيـادة البكبـاشي صادق كان في ٢٠ أغسطس ١٨٣٧ م .

(٣) الكبسي : ٣٧٩

(☆) جّاء في مخطوط النعمي : « فبعد ذلك بـاع تعز محمد بن أحمـد بن دمـاج المحمـدي على إبراهيم باثني عشر ألف ريال ، وقد باع سعيد بن أحمـد علي سعـد على إبراهيم بـاشـا مـدينـة العدين وجهز الباشا محمد صادق .. » (ق ٧٩) .

كان معه مع بعض أصحابه من برط ، وجاءت قبائل أخرى ممن أخذ الناصر منها رهائن حبسها بعد أن خضعت له قبل ذلك بأسابيع ، مطالبة بالإفراج عن أصحابها ، وبات الناصر في محنة حقيقية وحصار ضارب ، فلم يعد معه « إلاّ ألفان من القبائل لم يكن تحتهم طائل »[1] وأصبح حتى أمل الخروج والهروب من الصعاب وعندما قرر الهروب ناكصاً إلى صنعاء « كان يوم خروجه يوماً عبوساً ، فكل فرد من أصحابه أيقن بالهلاك بسبب انقطاع جميع المسالك ، وكل واحد يريد ينهب الآخر ، وما وصل الإمام إلى المخادر إلاّ بشق النفس ، وكثرة الأثقال بقيت في مدينة إب ... ورجع بخفي حُنين ، ونعق بينه وبين اليمن [الأسفل] غُراب البين ! ولم يزل الخوف والفساد وراءه حتى وصل صنعاء »[2] .

أما الرواية المصرية لما حدث ، فقد وردت بصيغة تقريرية متفاخرة في الرسالة التي بعث بها قائد الحملة المصرية إبراهيم يكن إلى محمد علي يبشره بإتمام فتح إقليم تعز بأكمله ، قالت الرواية : « بعد ست معارك ، قاتل الجيش المصري فيها قتال الأبطال ، والآن تحتل جنودنا المنصورة كل الأماكن التي استولت عليها ، حيث يرابطون معتزين بما أحرزوا من مجد وشهرة بعدما ولّى الإمام الناصر الفرار إلى صنعاء مدحوراً خائب الرجاء »[3] .

☆ ☆ ☆

٤ ـ التنافس المصري البريطاني والاستيلاء على عدن

كانت بريطانيا ترقب عبر وكلائها وجواسيسها باهتمام بالغ تحركات والي مصر محمد علي الطموحة لإنجاز مشروعه في إقامة امبراطورية عربية قلبها مصر

---

(١) الكبسي : ٣٨٠

(٢) حوليات : ٧٩ ؛ الكبسي : ٣٨٠ ، زبارة : نيل الوطر : ٧٢/٢

(٣) البطريق : من تاريخ اليمن ٨٠

وجناحاها بلاد الشام وما يليها إلى الأناضول شمالاً[1] ، والجزيرة العربية بما فيها اليمن جنوباً . وها هي قواته تسيطر على كل موانئ البحر الأحمر في اليمن بعد الحجاز ، وبات يسيطر على تجارة البن اليمني العالمية ، بعد أن كان للأمريكيين والأوروبيين المجال الأوسع للتحكم فيها منذ القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) وتدر عليهم أرباحاً كبيرة ، كما كان ذلك مجال صراع وتنافس خطير بين البريطانيين والأمريكيين ، كان للأمريكيين فيه نصيب الأسد ، ففي عام ١٢٢٣ / ١٨٠٨ م حملت إحدى السفن الأمريكية من ميناء المخا أكثر من ٥٣٢ ألف رطل من البن ، كما حملت السفن الأمريكية والأوربية في العام التالي مليوني رطل من بن المخا كان معظمه من نصيب أمريكا[2] وقد تعرقلت بعد ذلك التجارة منذ عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م بسبب إعلان أمريكا الحرب على بريطانيا ، لكنها عادت إلى الانتعاش مرة ثانية بعد نحو سبع سنوات ، بيد أن الأمريكان بعد ذلك « لم يتركوا كبير مجال للبريطانيين ليشاركوا مشاركة ذات بال في تجارة المخا .. »[2] . وتعقدت خلال ذلك وبعده المصالح العالمية وكانت بريطانيا الاستعارية - وهي إحدى القوى الكبرى - تسعى جاهدة لحماية مصالحها في الهند والشرق بالسيطرة على موانئ البحر الأحمر والخليج العربي وبخاصة بعد أن احتلت منافستها الأخرى فرنسا الجزائر عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م . وإذا كان طموح محمد علي في هذه الفترة قد شكل عقبة في طريق تنفيذ بريطانيا لمشاريعها البعيدة بما في ذلك احتلال مصر ، فقد كان ذلك مرحلياً ولم تكن بريطانيا حتى

---

(١) كان محمد علي قد فتح السودان (١٨٢١ - ١٨٢٣ م) ، كما وجه حملتين على سورية وما إليها قادها ابنه إبراهيم باشا (١٨٣١ - ١٨٣٣ م) و (١٨٣٩ - ١٨٤٠ م) ، بلغ فيها الأناضول ولم يوقفه إلاّ التدخل الأوروبي (اتفاقية كوتاهية ١٨٣٣ م ومعاهدة لندن ١٨٤٠ م) وبذلك انحصر حكمه على مصر التي عمل على النهوض بها وتنميتها وتطويرها علمياً وثقافياً وزراعياً بعد أن كان قد بناها عسكرياً .

(٢) ماكرو : اليمن والغرب ٦٧ - ٦٩ (تعريب المؤلف) .

بداية عام ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م ترغب أن تقدم « على خطوة عدائية عنيفة [ضده] ولا سيا أن محمد علي كان يبذل أقصى ما في وسعه لإقناع السلطات البريطانية في الهند وفي انجلترا أنه راغب في المحافظة على المصالح البريطانية في الجزيرة العربية كلها وفي البحر الأحمر ، وكان يعتقد أنه نجح في ذلك بدليل أن الممثل البريطاني في القاهرة سلم إليه في ذي القعدة ١٢٥٢ هـ / فبراير ١٨٣٧ م خطاباً من الحاكم البريطاني في بومباي .. » يؤكد فيه المشاعر الطيبة ودعم الصداقة والتبادل التجاري بين البلدين ، وطلب السماح للإنجليز أن يقيموا محطة فحم في جزيرة كمران ـ مقابل ميناء الصليف ـ والواقعة تحت حكمه ـ لتزويد بواخرهم بالوقود . وقد قبل محمد علي ، وأمر حاكمه في اليمن إبراهيم باشا بذلك وبتسهيل مهمة السفن البريطانية في المياه اليمنية ، وجاءه شكر وزير الخارجية البريطاني على ذلك ، فزاد من اطمئنانه وتوثيق علاقاته ببريطانيا[1] .

وماهي إلاّ بضعة أشهر حتى توغلت القوات المصرية في داخل اليمن بعد استيلائها على تعز وتراجع الناصر أمامها في العُدين وبَعْدان في منطقة إب ، فزادت مخاوف بريطانيا من استيلاء محمد علي على ميناء عدن وكان لها فيه محطة لتزويد بواخرها بالفحم منذ عام ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م ، إلاّ أنها فشلت لعدم توفر اليد العاملة[2] ، وكانت بريطانيا ـ قبل حملة محمد علي هذه ـ قد أرسلت القبطان س . ب . هينز (الذي كان الاحتلال بعد أربع سنوات على يده) . من قبل حكومة بومباي عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ لدراسة المواقع التي تصلح محطات لتزويد السفن بالوقود من خليج عدن والقيام بمسح ساحل حضرموت ، وقد رفع في العام التالي تقريراً بيّن فيه مزايا عدن كميناء . وأكد من شكوك بريطانيا في نوايا محمد علي التقرير الذي رفعه إلى وزارة الخارجية النقيب جيمس ماكينزي

---

(١) البطريق : ٨٣ ـ ٨٤

(٢) ماكرو : اليمن والغرب ٧٠

Captain J . Mackenzie بعد أن زار جدّة والحديدة والمخا أواخر عام ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م في طريق عودته إلى انجلترا من الهند ، وكشف النقاب عن أن محمد علي كان يخطط للاستيلاء على عدن ، كما أكد « ضرورة استيلاء بريطانيا على عدن بسرعة ، ليس فقط لإحباط خطط والي مصر ، بل أيضاً لتثبيت وجود بريطانيا في عدن كمركز تجاري ومحطة لتزويد السفن البخارية الجديدة التي تسافر بين السويس والهند بالوقود[١] » وقد قدم ماكينزي في تقريره وصفاً دقيقاً للقوات المصرية وأسلحتها وأسطولها بسفنه المرابطة في البحر الأحمر من السويس والعقبة شمالاً إلى مضيق باب المندب جنوباً ، مع خارطة للمواقع المصرية في اليمن والتي بينت أن عدن لم تعد بعيدة كما « أن صنعاء لم تعد هدفاً عصياً[٢] » فمركز الناصر ضعيف في العاصمة بعد عودته مهزوماً ، والإنجليز يتابعون باهتمام وضعه وكيف ستكون علاقاته بمحمد علي ، فإذا لم يصل إلى اتفاق يناسب محمد علي فليس هنالك ما يمنعه من الاستيلاء على صنعاء ثم الهيمنة على اليمن كله . وبالفعل فبعد مرور عام قام الناصر بإرسال السيد عبد الرب بن إسماعيل اللاهوري نسباً والكوكباني بلداً[٣] إلى أحمد باشا يكن القائد العام والذي كان وقتئذ مقيماً في عسير ، وحمله رسالة إليه مؤرخة في أول جمادى الأولى ١٢٥٤ هـ / اغسطس ١٨٣٨ م ممهورة بتوقيع الناصر وخاتمه[٤] وطلب منه فيها تسهيل سفر مندوبه إلى

---

(١) نفسه : ٦٩ ـ ٧٠

(٢) البطريق : ٨٥ ـ ٨٦

(٣) اسمه ولقبه من نص الرسالة ، ولم أجد له ترجمة ولعله ممن جاء إلى اليمن من علماء الهند وكان يتردد بين مصر والحجاز واليمن حيث استقر في بلدة كوكبان .

(٤) نشر نصها الدكتور البطريق ملحقاً بكتابه المفيد بتوثيقه (من تاريخ اليمن) وهي من وثائق عابدين (دار الوثائق القومية بالقاهرة) برقم ١٧٩ محفظة ٢٦٣ ؛ ومن الطريف أنه وقع خطأ مطبعي في تاريخها فجاء عام ١٢٤٥ هـ بدلاً عن ١٢٥٤ هـ فجاء الدكتور أباظة ينقل عن الأول بدون روية فكرر الخطأ لكن الأهم أنه كان يعزو إلى تلك الوثائق وغيرها كما لو كان =

القاهرة ليقابل « سيف الإسلام وحامي حمى سلالة النبي محمد بن علي باشا » ، وقد عمل يكن على ذلك ، وبعث من جانبه ماستخلصه من حديث الرسول المندوب ، وكان أهمه أن « الناصر يقر بأن تظل جميع المناطق التي تسيطر عليها القوات المصرية كما هي تحت الحكم الجديد على شرط أن تظل صنعاء تحت حكم الإمام » لكن هذا - في الواقع - لم يكن ما يريده محمد علي أو قائده الذي أضاف أنه أبلغ المندوب « .. بأن من الحكمة الآن أن يُسمح بإقامة حاكم مصري إداري في صنعاء ، ويقبل اتفاقاً بموجبه يتناول الإمام من مصر مرتباً محترماً يوازي المرتب المعين لشريف مكة ، وأن مثل هذا الاتفاق يمكن أن يوافق عليه محمد علي[1] » وهذا يتفق مع الرسائل التي بعث بها ابن أخت محمد علي وأخو الأول قائد الحملة إبراهيم يكن يحث فيها محمد علي على فتح صنعاء ، ومن ذلك ما كتبه في ٢٩ ذي القعدة ١٢٥٣ هـ / ٢٤ فبراير ١٨٣٨ م حيث قال : « إن موارد اليمن تزداد نتيجة لاستتباب الحكم المصري ، حتى إن إقليم تعز وحده يدر حوالي ٧٠٠،٠٠٠ (سبعمائة ألف) ريال سنوياً ، وأن رؤساء القبائل الحانقين على حكم الإمام يتوافدون عليه طلباً للانضواء تحت الحكم المصري ، وقد آن الأوان لفتح صنعاء[2] » . والناصر من جانبه كما لو كان يدرك رأي القيادة المصرية هذا ، فهو في رسالته يذكر مُبطناً « .. ففي اليمن من الغوغاء والقبائل مالا يطفئ نارها إلا تدبيرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى ! ومن الربش والتخليط مالا يصلحه إلاّ سعينا بمشيئة الله ! لميلهم إلينا وطاعتهم لأمرنا ... فقبائل اليمن قد ألفت الفساد ، وسلكت سبيل العناد لأول وهلة ، وكتبهم إلينا في كل حين ، والواصلون منهم إلى مقامنا لا زالوا

= قد اطلع عليها بنفسه دون الإشارة إلى المصدر الذي نقل عنه ! وليس في ذلك عيباً بل تحميلاً للمسئولية ووفاء للأمانة العلمية (انظر كتابه عدن والسياسة البريطانية : ١١٦ - ١١٧)

(١) البطريق : ٧٦ - ٧٧

(٢) نفسه : ٨١ ؛ وهي وثيقة رقم ٢٨٦ محفظة ٢٦٢

يحثوننا على المنازعة وكأنهم لنا ناصحون ! ونحن بحمد الله على بقاء الود لحامي حمى الحرمين وبها إن شاء الله واثقون فائزون .. »[1]

ولم يكن ثمة من نتائج لبعثة السيد عبد الرب اللاهوري الكوكباني ، فقد أصبح الصراع المصري البريطاني على أشده ، وسيطرة السياسة الاستعمارية البريطانية على الموقف ، ليس فقط في احتلال عدن والتحكم في الملاحة في الخليج والبحر الأحمر لحماية مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية ، بل وفي التآمر والعمل السريع على قصر محمد علي على حكم مصر وحدها والقضاء نهائياً على أحلامه في إقامة امبراطورية عربية . ولم تكن بريطانيا في حاجة إلى ذريعة تحتل بها عدن ، فقد كانت تدبر لذلك منذ زمن ، ومع ذلك فقد استغلت حادثة السفينة الهندية التي كانت تحمل علمها والتي جنحت في عدن ونهبت في شوال ١٢٥٢ هـ / يناير ١٨٣٧ م تمهيداً لمجيء الكابتن هينز Haines في مطلع العام التالي للتفاوض والاتفاق مع سلطان لحج على التنازل عن عدن . وإذ عاد مرة ثانية في شعبان عام ١٢٥٤ هـ / ٢٤ اكتوبر ١٨٣٨ م لجس النبض في تسلم المدينة دون مقاومة فقد تراجع لينتظر وصول قطع الأسطول البريطاني التي تحمل جنود الاحتلال لتنفذ قرار « الوزارة البريطانية في أن تتخذ حكومة الهند الاجراءات العسكرية كافة للاستيلاء عنوة على عدن » وبالفعل وصلت قطع الأسطول في ٢٥ شوال ١٢٥٤ هـ / ١٦ يناير ١٨٣٩ م ، وطلب منها هينز قصف عدن بالمدافع صباح ٢٨ شوال / ١٩ يناير ، وبعد ساعتين تهدم الحصن وفر المدافعون وخلت المدينة من معظم سكانها[2] » ، ثم نزل جنود الاحتلال إلى الميناء ورفع العلم الانجليزي على قصر السلطان في الساعة الثانية عشرة ظهراً ـ كما جاء في تقرير هينز ـ الذي ختمه

---

(١) رسالة الناصر / الملحق / ص : ١١٣

(٢) كان عدد سكانها قريب ١٠٠٠ ، في حين نقل الدكتور أباظة (ص : ١٨٧) عن الوثائق البريطانية بأن العدد لم يزد عن ستمائة ، وأكد هذا وأنهم : (١٨٠ يهود ، ٣٠ ـ ٤٠ بانيان ، والبقية عرب)

بقوله : « إن جميع الممرات من عدن نحو المناطق كلها أصبحت تحت سيطرة الإنجليز ، وإن السلطان محسن بن فضل أرسل إليه اعتذاراً عن سلوكه السابق[1] » !

وأصبح هينز أول معتمد سياسي بريطاني في عدن واستمر حتى عام ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م ، وقد واجه الاحتلال ردود فعل عنيفة وغارات متعددة من القبائل اليمنية المجاورة[2] .

☆ ☆ ☆

أمّا محمد علي ووضع إدارته في تهامة والحجاز فقد تعقد وضعها تعقد علاقة محمد علي بالسلطان العثماني ، ولم تعد المسألة الشرقية تعني مصر وتركية بقدر ما أصبحت تهم بريطانيا وفرنسا والدول الأوربية الثلاث الكبرى (روسيا وبروسيا والنمسا) . وفيما يعنينا هاهنا هو حقيقة ظهور متاعب الحكم المصري منذ احتلال البريطانيين لعدن ، وسعيهم بالقمع والمال في التوسع خارج إطار عدن ، بل لقد كان ضربة موجهة إلى مشروعاته وآماله و « أنه بداية لإجلاء قواته لا عن اليمن فحسب بل عن الجزيرة العربية كلها ، وأنه فقد الأمل نهائياً في كسب صداقة الإنجليز مهما أبدى لهم من تنازلات ..[3] » ، ومن ناحية أخرى فقد كان التنافس الفرنسي الانجليزي يغذي القضية ، فالصحافة الفرنسية كانت في هذا الوقت تشجع محمد علي ، على تأسيس امبراطورية عربية ، ورأت بريطانيا أن ذلك كان بوحي رسمي ، وبالفعل فقد أبلغ قنصل فرنسا في القاهرة محمد علي في

---

(١) البطريق : ٩٠ ـ ٩١ ، وانظر تفاصيل ذلك عند أباظة : عدن والسياسة البريطانية ١٥٦ ـ ١٩٧ ومصادره ، وخاصة كتاب Playfair المتقدم ذكره فهو أقدمها ص : ١٦١ ـ ١٦٣ ؛ الجرافي : المقتطف ١٩٦ ـ ١٩٧

(٢) ماكرو : اليمن والغرب ٧٢ ـ ٧٣ ؛ أباظة **عدن** : ٢٠٦

(٣) البطريق : ٩٤

صفر عام ١٢٥٥ هـ / ابريل ١٨٣٩ م بأن « امتلاك البريطانيين لعدن لم يكن الغرض منه احتكار تجارة البن في اليمن ، وجعل الجزيرة العربية كلها سوقاً لبضائعهم ومصنوعاتهم فحسب ، بل إنهم يهدفون أيضاً إلى السيطرة على مدخل البحر الأحمر حتى يساعدهم ذلك في المستقبل على غزو مصر وضمها إلى أملاكهم[١] »

ورغم أن الحكومة البريطانية أبلغت محمد علي عن طريق ممثلها في مصر كامبل في شعبان عام ١٢٥٥ هـ / اكتوبر ١٨٣٩ م رغبتها في جلاء قواته عن اليمن لارتباطها بالمصالح البريطانية إذ لاعلاقة لها بانتهاء (المسألة الشرقية) بينه وبين السلطان العثماني والتي تتفاوض بشأنها الدول ، فقد حاول محمد علي أن يكسب الوقت أمام هذه المفاجأة القاسية ، فما كان من بلمرستون وزير الخارجية إلاّ أن عين العقيد هودجز Hodges خلفاً لكامبل وزوده بتعليمات جديدة على رأسها « البعد عن أسلوب المجاملة واستخدام لغة الحزم والعنف مع الباشا لإقناعه بالجلاء عن اليمن[٢] »

وجاء هودجز إلى القاهرة ، وكان أول تقرير أرسله إلى وزير الخارجية بالمرستون Palmerston في ١٩ محرم ١٢٥٦ هـ / ٢٤ مارس ١٨٤٠ م يقول فيه « إن حاكم عدن الإنجليزية هينز أفاده بأن قوات الفرسان التابعة للباشا أخذت في الازدياد في اليمن ، وأن العرب القاطنين بجوار عدن يتجمعون ضد الحكم البريطاني في عدن بتحريض من المصريين ، [ولعل الأهم هو] أن محمد علي قد أرسل مبعوثاً اسمه السيد حسين إلى إمام اليمن يعرض عليه اقتراحين خطيرين :

الأول : أن الباشا على استعداد لمساعدة الإمام بالمال والمؤونة ، ومده بالرجال والذخيرة ، إذا أقدم الإمام على مهاجمة الإنجليز وطردهم من عدن ،

---

(١) نفسه : ٩٥ عن وثائق وزارة الخارجية البريطانية (F.O. 378 - 377)

(٢) نفسه : ١٠١ ـ ١٠٢ عن وثائق الخارجية (78 - 375)

ويتعهد له أنه بمجرد الانتهاء من الحرب سوف يسلم كل الأراضي المفتوحة في اليمن إلى الإمام حتى يظل الجنوب العربي في يد عربية .

والاقتراح الثاني الذي عرضه السيد حسين على الإمام : أن يقبل الإمام السيادة المصرية على صنعاء على أن يمنح مرتباً كبيراً مدى الحياة[(١)] »

ولاشك في أن هذا التقرير لم يصل إلاّ بعد أن كان محمد علي قد أصدر أمره في ٩ محرم عام ١٢٥٦ هـ / ١٣ مارس ١٨٤٠ إلى حاكم اليمن وقائد القوات المصرية بالجلاء عن اليمن بعد أن تحالفت عليه الدول الكبرى الخمس عقب اندحار الجيش العثماني في موقعة « نزيب » في ربيع الأول ١٢٥٥ هـ / ٢٤ يونيو ١٨٣٩ م وانحياز الأسطول التركي إلى محمد علي « ثم تلا ذلك إرسال المذكرة المشتركة في ٢٧ يوليو عام ١٨٣٩ إلى الباب العالي ، وأدرك محمد علي أنه قادم على حرب خطيرة مع الحلفاء ، شغلت باله وتضاءلت معها مسألة اليمن ... في الوقت الذي لم تتوقف فيها إنذارات بريطانيا تطالبه بالجلاء[(٢)] »

وغادر إبراهيم يكن وقواته اليمن في صفر عام ١٢٥٦ هـ / ٩ مايو ١٨٤٠ م بعد أن سلم تهامة إلى الشريف حسين بن علي حيدر (ت ١٢٧٣ هـ / ١٨٦٦ م) وكان عاملاً لأبيه على صبيا ثم على الزهراء ، وكان في عام ١٢٥١ / ١٨٣٥ م في استقبال القائد المصري في الحديدة ، ثم كان في عام ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م يعمل

---

(١) البطريق : ١٠٢ عن نفس الوثائق (من هودجز إلى بالمرستون) برقم 385 - 78 وقد وقع خطأ مطبعي في رقم الوثيقة كرره الدكتور أباظة ! (انظره ص : ٢٢٣) ، وقد نبه الدكتور البطريق إلى أن وثائق عابدين لم تشر إلى الاقتراح الأول (مهاجمة الإمام للإنجليز في عدن) ولكن العرض الثاني ورد في كثير منها ، وقد ضمن الدكتور أباظة هذا في متن كتابه وكان أميناً في نسبته إلى صاحبه لكنه كعادته لم يشر إلى أن مصادره وتلك الوثائق المشار إليها هي كذلك نقلاً عن الأول (٢٢٢ ـ ٢٢٣)

(٢) البطريق : ١٠٣

كاتباً لدى الحاكم المصري في المخا وأصبح الآن حاكماً لأبي عريش[1] . أما تسليمه المنطقة بدلاً عن إمام صنعاء فلأن الإمام رفض أن يدفع للباب العالي ضريبة سنوية لسوء أوضاعه وضعف إمكاناته ، وكان شريف مكة محمد بن عون يطمع كذلك في السيطرة على تهامة ، لكن إبراهيم باشا يكن « رأى في حسين حاكماً أكثر قدرة من الآخرين ... كما أن محمد علي كان قد أرسل ، مرة على الأقل ، بعثة يطلب إليه طرد البريطانيين ، ولكن الإمام وقف عند رأيه القائل باستحالة ذلك عليه ، ونتيجة لذلك سلم إبراهيم باشا مقاليد الأمور إلى حسين على أن يدفع ضريبة إلى القسطنطينية ، وأرسل هينز سفينة إلى الحديدة خلال عملية التّسْليم والتّسَلّم هذه لحماية المصالح البريطانية ، وأظهر حسين الذي أصبح يسيطر على تهامة ـ بعد الجلاء ـ عداءً شديداً للبريطانيين في عدن ، وكان هذا العداء ينصبّ بصفة خاصة على نائب القنصل البريطاني والرعايا البريطانيين في المخا[2] . »

☆ ☆ ☆

٥ ـ تَعصّب النّاصر ومَصْرَعُه

عاد الناصر إلى صنعاء بعد هزيمته أمام الجيش المصري في بعدان والعدين وهروبه من حصار القبائل له في إب ، وخلال ذلك بلغته وفاة أخيه علي بن حسن بن أحمد المهدي الذي يبدو أنه كان معتمده في صنعاء ، فأرسل أخاه الآخر محمد بن حسن مع بعض من يثق به من عسكره لينوب عنه في العاصمة التي كان يقلقه الوضع فيها بلا شك[3] .

---

(١) البطريق : ١٠٣ : ماكرو : اليمن والغرب ٧٣ : العقيلي : تاريخ المخلاف : ٥٠٩ ـ ٥١٢ : أباظة : ١١٨ ـ ١١٩ : زبارة : نيل الوطر ٣٨٩/١

(٢) ماكرو : اليمن والغرب : ٧٤

(٣) حوليات : ٧٧

ولم يُعَمّر أخوه هذا فسرعان ماتوفي عقب عودة الناصر في بداية عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م . وكان الأخوان علي ومحمد هما الوحيدين للناصر عبد الله[١] ، ولا نعرف من أخبارهما غير ذلك ، كما أننا لا نعرف عن والدهم شيئاً ، ولعل السبب ماتقدم من الحديث عن بيت الناصر هذا ، وأنه لثلاثة أجيال من أحفاد المهدي عباس لم يشارك في الحكم ، كما أنه لم يظهر فيه أي شخصية هامة أو نابه ذي شأن علمي أو أدبي حتى جاء الناصر الذي كسب عداواتهم بانتزاعه الحكم من سلالة أبناء عم أبيه وربما كسب بالتالي دعم ومؤازرة الفروع الأخرى المهملة من أحفاد المهدي عباس ، بل بعض أسر آل القاسم المحرومة من المشاركة في الحكم ، وقد يفسر لنا هذا حماس الشاعر عبد الكريم بن إسحاق في إطرائه في عدة قصائد للناصر وحكمه ، فجدّه العلامه علي بن أحمد كان ذلك المنافس الخطير للمنصور علي بن المهدي عباس[٢] ، وقد يكون هذا هو السبب في أن الناصر بعد وفاة أخيه محمد بن حسن (الذي كان قد لقب بسيف الإسلام وهو لقب كان يمنح لولي العهد أو الرجل الثاني في الدولة بعد الإمام) قد عين خلفاً له عبد الله بن عبد الرحمن بن المهدي عباس الذي لم نجد له ترجمة ، وكان والده من أصغر أبناء المهدي عباس ، وكان شاعراً أديباً ، ظريفاً ، محبوباً عند الخاصة والعامة[٣] » وباستثناء إعجاب المتوكل أحمد بعمه هذا وملازمته له حتى مات عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م (قبل حكم الأخير بثلاث سنوات) فلم يذكر أنه قد شارك في عمل رسمي أو منصب كبير ، وكيف يكون لمن تلك صفاته الانخراط في مسائل الحكم ومشاكل الدولة ؟!![٤] .

---

(١) حوليات : ٨٢

(٢) انظر (ص : ٦٢ و ١٠٢ فيما تقدم)

(٣) جحاف : ٤٢٧

(٤) انظر (ص : ٥٦ فيما تقدم)

وبعد ثلاث وثلاثين سنة من وفاته ظهر اسم ابنه عبد الله ، الذي أثنى عليه صاحب الحوليات (على قلة ثنائه على معاصريه) فقد قال : إنه « أجلّ قدراً وأعظم ذكراً ، ما كان أحقه بالإمامة لكمال شروطه ، وسلك في الناس والأجناد مسلك أهل الصلاح والرشاد[1] » .

نذكر هذا ونربطه بانشغال الناصر وهمّه بأمر سجينيه الإمام المخلوع علي بن المهدي وعمه محمد بن المتوكل . فبالرغم من أن هناك من المشاكل العظام التي كان عليه أن يواجهها كقضية تهامة وأوضاع اليمن الأسفل ، بل ماحوله في منطقة صنعاء كهَمدان وبلاد البستان ، فإنه قرر في مطلع العام أن يتخلص من الرجلين بإعدامهما « حتى يستريح منهما ، ويزيل مافي خواطر الناس ![1] » ولابد أنه أراد بهذا إشغال الناس عن نفسه وعن فشله في التصدي للمصريين وعصيان القبائل في اليمن الأسفل بعد مرور لواذ أربعة عشر شهراً له في الحكم . وقد وجد من يشجعه على ذلك من مستشاريه ، كما وجد عدم فائدة من الاستماع إلى نصح الأمير القائد عنبر يسر ومن لا يرون مصلحة في ذلك . ومع ذلك فقد أراد صبغة شرعية للإقدام على إعدام الرجلين ، فجمع لذلك كبار العلماء ورجال دولته وأعيان العاصمة فحضروا إلى ديوان القصر الذي كان يعرف « بديوان الحرض[2] » وأمر حرسه وعسكره بأن يحيطوا بالمجتمعين وهم مدججون بأسلحتهم المشرعة ليرهبهم وينتزع منهم في هذا الموقف الموافقة أو « رخصة في قتلهم ، ويريد إلزام الناس بالموجب والمساعدة وبعدم الخلاف والمعاندة ! » على حد قول صاحب الحوليات الذي أضاف مستشهداً بذكاء ومعرفة بقول أبي العلاء :

---

(١) حوليات : ٨٢

(٢) ديوان كبير كان في قصر صنعاء وربما سمي بذلك لأن جدرانه كانت مبلطة ومزخرفة بقطع الحرض : والحُرْض بالضم في القاموس الجِصُّ (١٨/٢٩٢) لكنه في لهجة اليمن بالفتح ويستخرج من مناجمه .

حَكَمُوا باطِلاً وانْتَضَوْا صَارِماً   وقَالُوا صَدَقْنا ! فَقُلْنا نَعَمْ[1]

لكن ذلك الإرهاب لم يؤثر على كل الناس ، ففي كل زمان ومكان يوجد من يقول كلمة الحق مهما كان بطش الحاكم ، فمها كان سوء علي بن المهدي ، فهو وعمه ومن معهما مجرد سجناء لا حول لهم ، وكان على الناصر أن يحاكم أو يحكم عليهم في حينه ، ولهذا فقد صدقه القول بعض من دخل عليه ونصحوه بعدم الإقدام على القتل ، كما جاء إليه بعض خواصه وأسرّوا إليه بأنهم سمعوا الناس يتحدثون « لإن فعل هذا لتكون فتنة كبيرة لا تنفك ويثور فيها العامة ويهلك خلق كثير .. [2] »

وإذ أراد الناصر أن يتخلص من الحرج الذي وقع فيه حوّل النقاش بإثارة قضايا غريبة لا بد أنها كانت من بنات أفكاره وأصحابه . وأولها أنه تحدث بأن عدد القضاة والحكّام أصبح كبيراً وبأن القليل منهم فقط يكفي للقيام بأعباء القضاء . ثم أثار سؤالاً حول صحة الصلاة في المساجد التي بناها الظّلَمة ! وكان هذا الموضوع ـ كما هو واضح ـ على درجة كبيرة من الخطورة ، وسوف يلز الحاضرين إلى خلافات ومتاهات لا حصر لها ، كتحديد من هو الظالم وأي مسجد بناه ، وبالتالي إذا كانت الصلاة لا تصح فيه فهل يهدم ، ثم من قال هذا الكلام الغريب على تعاليم الإسلام وروحه ؟[3] . مع التسليم بوجود حكام ظَلَمة في معظم عصور التاريخ الإسلامي في مختلف الأرجاء واليمن منها ، ومنهم أسلاف للناصر نفسه ! وكان جو الاجتماع بدون شك قد خيم عليه الوجوم والخوف لولا

---

(١) حوليات : ٨١

(٢) نفسه : ٨١

(٣) جاء في « شرح الأزهار » ـ عمدة الزيدية ـ حول هذا الموضوع ماهو بمثابة الرد على الناصر ، حيث نفى : « واعلم أن الإمام وإن جاز له تضمين الظلمة فإنه (لا) يجوز له أن (ينقض له) أي لأجل التضمين (ماوضعوه من أموالهم في قربة كصلة الرحم وإطعام الجائع وكسوة العريان ، ووقف أرض أو دار ، أو عمارة مسجد أو نحو ذلك ... » (انظر شرح الأزهار المسمى المنتزع المختار .. لابن مفتاح : ٤/٥٥٨)

أن أتقذ الموقف أحد العلماء الأجلاء السيد أحمد بن زيد الكبسي (ت ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م[١]) الذي كان يتمتع بإجماع على تقديره وإجلاله فتحدث وتولى الجواب بعبارات مناسبة ومنطق بليغ ، لكن صاحب الحوليات ـ للأسف ـ لم يذكر لنا فحوى رده ، إلا أنه كان من الواضح اقتناع الناصر ، وكان موعد صلاة العصر قد حان فقام جميع من في المجلس إلى الصلاة التي أديت مرتين لشك الناصر في استقبال القبلة[٢] !

وفي اليوم التالي وضح هدف الناصر من حديثه عن كثرة القضاة الحكام . فلقد كلف وزيره القاضي إسماعيل بن حسين جغمان[٣] المعروف بتشيعه الغالي والسيد يحي بن محمد الأخفش[٤] باختبار الحكام وانتقادهم ، ويذكر مما ذكره صاحب الحوليات أن ما كان يدور حوله ذلك الاختبار هو مدى التزام أولئك الحكام بآراء المذهب الزيدي من وجهة النظر الهدوية والإمامية ، وتظهر المغالاة

---

(١) عالم ، حافظ ، واعظ ، أخذ عن الإمام الشوكاني وكبار علماء صنعاء ، وأصبح أحفظ علماء عصره وإمامهم في النحو والصرف واللغة والفروع والأصول و « مرجعهم لحل المشكلات والمبهمات ، وتلاميذه كثيرون ، وكان له وجاهة ومهابة ويضرب المثل بحسن هيئته الجميلة » (الشجني : التقصار زبارة : نيل الوطر ١٠١/١ ـ ١٠٤)

(٢) حوليات : ٨٢

(٣) كان العلامة جغمان فقيهاً ، عالماً ، أديباً ، مؤرخاً ، تأثر في تمذهبه ببعض شيوخه كالإمام السراجي (انظره ص : ٢٣٦) والقاضي محمد السماوي (ابن حريوه) الذي بمقتله (عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥) ترك جغمان صنعاء إلى موطن أسرته بخولان ، ثم عاد واستقر بالروضة مدرساً بجامعها حتى جاء حكم الناصر فعينه على قضاء صنعاء وكان أحد المقربين إليه حتى قتل معه سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م كما سيأتي معنا . له تراجم لبعض معاصريه وديوان شعر أغلبه مدائح في آل البيت . (انظر : العمري : مصادر التراث ١٢١ ـ ١٢٤ ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٧٠/١ ـ ٢٧٣ ، مصادر الحبشي ١٤١ و ٤٥٤) .

(٤) كان الأخفش من تلاميذ الإمام الشوكاني لازمه وأخذ عنه وعن غيره من علماء صنعاء وكان فقيهاً شاعراً ، ولي القضاء في كوكبان ثم في صنعاء حيث بقي من حكامها وتوفي في تعز عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ م . (الشجني : التقصار ؛ زبارة : نيل الوطر ٤٠٠/٢ ؛ حوليات : ١٤٠)

في تقديرهم بأن « هذا يحب الصحابة لرسول الله ! ويعدوا مثالب هي في الحقيقة لهم [الحكام] محامد [1] » ويرى صاحب الحوليات على بساطته أن في هذا قطعاً لدابر دولة هذا الإمام [1] ، وقد يكون استوحى ذلك من آراء مجالسيه ذوي المعرفة والرأي .

☆ ☆ ☆

لم تظهر أي نتيجة لمثل هذه المواقف والآراء للناصر ، لكن المحقق أنه كسب عداوات جمهور العلماء وكثير من الناس ، فالتعصب المذهبي كان ممقوتاً محارباً من كبار علماء الزيدية ، بل لقد رأينا كيف كان بعض الأئمة أنفسهم يحاول أن يكون حكماً لا خصماً حين كان الخلاف يتطور إلى صراع أو تحزب ، كما حدث أيام المهدي عباس بين ابن الأمير وخصومه ، أو في عهد ابنه المنصور علي ، أو حتى في عهد حفيده المهدي عبد الله [2] .

أما الناصر ، فقد أظهر مع أصحابه تعصباً ومغالاة في التشيع و « حب آل البيت » الذين يحبهم ويجلهم كل المسلمين [3] . لكن الأمر كان أكثر خطورة

---

(1) حوليات : ٨٢

(2) انظر ذلك فيما سبق ص : ٢٦ ، ٩٧

(3) يرى القاضي ، العالم ، المؤرخ ، عبد الله بن عبد الوهاب الشماحي في كتابه (اليمن : الانسان والحضارة ص : ١٥١) أن « الناصر أراد إيقاف الدعوة السلفية الوهابية فتشدد في إحياء التشيع فقتلته همدان » وهذا ربط لا أساس له في الواقع ، فالتشيع اتجاه قديم استمر له أنصاره ، ومعارضوه من الزيدية من قبل ظهور الحركة الوهابية بزمن طويل ، ولم يكن لها أي تأثير مباشر في حركة التنوير والاجتهاد التي لمع واشتهر من أعلامها ابن الوزير ، والحسن الجلال (ت ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ م) والمقبلي (ت ١١٠٨ هـ / ١٧٢٨ م) ، وابن الأمير (ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م) وبلغت أوجها ومنتهاها مع العلامة الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) ، وكان الأخيران معاصرين للحركة الوهابية ، ومعلوم مراسلاتها واتفاقها أو اختلافها مع أفكار وآراء الدعوة الوهابية التي حطم محمد علي باشا عاصمتها الدرعية عام ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م =

بالنسبة للناصر في عدائه الواضح لنفر من الباطنية الإسماعيلية[1] أقربهم الساكنون في جبل طيبة المطل على وادي ضهر (ظهر) القريب من صنعاء بنحو خمسة عشر كيلو متراً شمالها الغربي ، وهم من قبائل همدان المحادة لصنعاء . وأبعدهم بعض قبائل يام في نجران ، وآخرون يسكنون الجانب الشرقي من جبال حراز غرب صنعاء .

ومنذ بداية حكم الناصر عبد الله كانت باطنية همدان قد تشاءمت من تلقب هذا الإمام بالناصر لتجربة قاسية مروا بها مع إمام سابق كان قد تلقب بالناصر[2] .

= وتراجعت الحركة بعد أن امتد نشاطها إلى تهامة اليمن وذلك قبل حكم الناصر بعشرين عاماً (راجع ماسبق)

(١) ظهرت الدعوة الاسماعيلية الباطنية في اليمن في وقت متفق تقريباً مع خروج الهادي يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨ هـ / ٩١١) إلى اليمن (الربع الأخير من القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي) وذلك على يد منصور بن حسن بن حوشب (ت ٣٠٢ هـ / ٩١١ م) وعلى بن الفضل الحميري ، وقد استقر الأول بسور حجة والثاني أسس ملكاً كانت مذيخرة عاصمته حتى قتل سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، واذ انحصرت الدعوة الاسماعيلية بعد صراع طويل ليصبح كل أتباعها أقلية لا يتجاوزون بضعة آلاف في كل أنحاء اليمن فذلك لطبيعة الألغاز والمعميات الغريبة التي يتلقاها الأتباع عن طريق الدعاة الممثلين للإمام المستور . والإسماعيلية الباطنية موزعة مشتتة في أقطار أخرى كسورية وإيران والهند ولها فرق وأسماء كثيرة (انظر : بدوي (د . عبد الرحمن) مذاهب الاسلاميين ٩٧/٢ ـ ٤١٠ ؛ الشماحي : اليمن ٩٧ ـ ١٠٩ ؛ الهمداني : الصليحيون : ٢٧ ـ ٦١ ، زيد محمد زيد : معتزلة اليمن ٨٤ ـ ٩٢ ، ١١١ ـ ١١٤ ؛ تاريخ الفلسفة الإسلامية : كوربان (هنري) : ١٣٢ ـ ١٥٦

(٢) ذهب الأستاذ الباحث عبد الله الحبشي (محقق الحوليات) إلى أن ذلك الإمام هو (الناصر صلاح الدين بن علي بن محمد) ت ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م الذي عرف تاريخه بحربه للباطنية (٨٠) في حين ذكر القاضي عبد الله الشماحي (ص : ١٠٩) أن الذي شن الغارات على الإسماعيلية وغيرهم هو الإمام الناصر أحمد بن الهادي (ت ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) الذي ثبت سلطة الزيدية في صعدة بعد وفاة علي بن الفضل ، وقد قيل إن غزواته وصلت إلى عدن . وهناك على كل حال أئمة آخرون كان لهم مع الاسماعيلية حروب طويلة في مختلف فترات التاريخ اليمني .

وقد حدث في آخر شهر صفر ١٢٥٤ هـ/مايو ١٨٣٨ م أن خرج الناصر كعادته للنزهة إلى وادي ضهر (ظهر) حيث كان ينزل في « دار الحجر » ، ولما اقترب من الوادي « حيل بينه وبين الوصول ، واجتمعت همدان إلى الطرق ومنعوه المرور ، ورتبوا في رؤوس الجبال حيث قد امتلأت قلوبهم عليه[1] » ولا ندري سبباً مباشراً لما أقدمت عليه همدان ، فلم يكن الناصر قد اتخذ ضدهم إجراء معيناً ، باستثناء ما يبدو من الاختلاف المذهبي ومشاعر الكراهية المتبادلة نتيجة لذلك ، إلاّ أن يكون الناصر قد عزم على قرار عدائي وبلغهم ذلك ، فهذا مالم تخبرنا به المصادر المتوفرة . وكيفما كان الأمر فإن الناصر عسكر حيث منع وأرسل إلى العاصمة فخرجت إليه المدافع وبعض عسكره ومعهم خيام ، وطلب في الوقت نفسه قبائل بني الحارث فهبت لنجدته ، وتطور الأمر إلى قتال ذهب ضحيته بعض القتلى من الجانبين ، ثم انتهى القتال والخلاف بصلح تم على أن يعود الناصر إلى صنعاء ومعه أربعة مقيدين من صغار همدان . لكن الحادث ترك آثاره السيئة لدى جميع الأطراف فالناصر أحس بالمهانة والمرارة ، وبنو الحارث كان أكثر القتلى منهم ، وزاد الطين بلة أن همدان احتزت رؤوس القتلى وذاك عار وخزي كبيران في عرف القبائل المتحاربة[1] .

عاد الناصر إلى صنعاء ليعد أمراً لهمدان ، وتحالفت بنو الحارث مع أرحب للانتقام من صنيع همدان بقتلاهم . وخلال الشهرين اللذين أعقبا الحادث أخذ الناصر يعد العدة للحرب ، ثم خرج في نهايتهما إلى الروضة ومعه عسكره ومقاتلون من قبيلة سنحان وجرّت في موكبه بعض المدافع ، وتجمعت قبائل بني الحارث وأرحب بأعداد كبيرة ، وتوجهت الجموع إلى وادعة همدان والجاهلية لتأديب همدان التي كانت قد « أعلنت الفساد وألزمت نفسها الحرب » . والتقى الناصر ومن معه بهمدان ووقعت حرب شديدة هزمت فيها همدان وقطعت

---

(١) حوليات : ٨٣

رؤوس من قتلاها أرسل بها الناصر إلى صنعاء فعلقت على باب شعوب . وهدم سوق جَرْبَان ، وبعض معمر الذيب ، وخضعت همدان لشروط الصلح فأحضرت عقائر البقر ونحرت بين يدي الناصر و « سلموا شيئاً من المال إليه ، وأدخلوا قبائل إليه في الزناجير من وادعة حتى يسلموا المعيّن عليهم ، ورجع الإمام إلى صنعاء مؤيداً منصوراً »[1] .

☆ ☆ ☆

عام وبضعة أشهر قضاها الناصر بعد ذلك قبل أن تكون نهايته القريبة على يد الباطنية الإسماعيلية من همدان . وبسيطرة المصريين على تهامة ولواء تعز وكذلك القبائل على معظم اليمن الأسفل انحصرت سلطة الناصر في صنعاء ومنطقة الشمال منها ، وجنوباً إلى يريم ومناطقها حتى رداع ، وغرباً إلى حراز ونواحيها . وخلال أزمة الناصر وحربه مع همدان اضطربت الأوضاع في رَيْمة ووصاب . وفي رداع وقعت فتنة ذهب ضحيتها الحاج عبد الله الخولاني الذي كان مسؤولاً أيام المهدي عبد الله ، فقد وثب عليه أهل رداع « وقتلوه غيلة وأخذوا ما كان قد جمع من المال وغيره ووصلوا بالرأس إلى الإمام[2] » ويظهر أن للناصر يداً في ذلك أو كان راغباً فيه على الأقل ، إذ إن « الرأس صلب قدر نصف شهر[2] » .

ومن ناحية أخرى خرجت قبائل يام التي منها باطنية إسماعيلية (مكارمة) في مطلع عام ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩ م برئاسة القاضي أحمد بن محمد المكرمي ، ومعه من العقال قادة القبائل مانع بن جابر وآل نصيب ، وانضمت إليهم قبائل جشم والعجمان وآل فاطمة ، وتوجهت من أقصى الشمال مهاجمة لتهامة نتيجة قحط

---

(١) حوليات : ٨٣

(٢) نفسه : ٨٢ ـ ٨٣

وجدب شديدين في مناطقهم[١] . وفي تهامة واجهتهم عساكر مصرية أرسلها الوالي المصري إبراهيم يكن وجعل على رأسها الشريف حسين بن علي حيدر مع بعض رجاله ، ووقعت بين الطرفين معارك تمكن معها الشريف حسين من إرغامهم على الإدبار[٢] وصولح بعضهم بالمال فتوجه نحو ألفين من مكارمة يام إلى حراز بعد أن تراسلوا مع أصحاب المنطقة الذين يشترك قسم منهم مع يام في التمذهب بالباطنية . وكان سلوك أهل حراز في الغالب هو رد فعل لما حلّ بإخوانهم في همدان على يد الناصر في العام السابق ، بالإضافة إلى ما يفيدنا صاحب الحوليات « بأن أهل حراز مالقيوهم [يام] إلاّ من شدة مانابهم من جور العمال والوزراء حتى هانوهم وأغلظوا عليهم ، فهان عليهم الفرقة الكفرية والباطنية وأقبلوا لطاعتهم بالسر والعلانية ![٣] » .

وهرب عامل الناصر ، الفقية محمد أحمد الحيمي ، فتبعته يام وانتهبوه . ولما وصلت الأخبار إلى صنعاء أرسل الناصر جماعة من أتباعه بقيادة الأمير خير الذي وصل ومن معه إلى الحيمة القريبة من حراز ، وربما تبين له صعوبة لقاء يام المتحالفة مع حراز والمقيمين بين ظهرانيهم ، فعاد بخفي حنين[٤] .

☆ ☆ ☆

واقتربت نهاية الناصر مع بداية أول العام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ، فقد عزم على أن يعد حملة عسكرية يعيد بها هيبة الدولة في المناطق الوسطى واليمن الأسفل . فجهز بعض الأجناد والمدافع بعد أن بعث برسائل إلى مختلف الجهات يطلب فيها مقاتلة يتقوى بهم في حملته على أن يلحقوا به إلى ذمار .

---

(١) حوليات : ٨٥

(٢) اباظة : عدن والسياسة البريطانية : ١١٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٨٩/١

(٣) حوليات : ٨٥ ـ ٨٦

(٤) نفسه : ٨٦

وفي اليوم التاسع من ربيع الأول[☆] كانت بعض عساكر قد سبقته إلى سيان على بعد نحو ٢٥ كيلومتراً جنوباً من صنعاء ، إلاّ أنه بدلاً من أن يلحق بها كما كان مقرراً عنّ له أن يمضي يومه متنزهاً في وادي ضهر (ظهر) ربما قبل أن يبدأ رحلة شاقة لم يكن يدري كم تطول ومدى نتائجها ، وقد فوجيء أصحابه بهذا القرار الذي تم حيث أمضى الناصر وخواصه سحابة يومهم في الوادي وتناولوا طعام الغداء في دار الحجر ، ثم مع العصر خرج الناصر ومن معه عائدين إلى صنعاء .
ويظهر أن جماعة الباطنية من يام وأهل الوادي[1] ظنوا خطأً أن زيارة الناصر المفاجئة واستعداداته في صنعاء خدعة لها شأن بهم ، فأعدوا له كميناً عند مدخل الوادي في شعب تحيط به بعض الجبال وتسيطر عليه . وكان وصل إلى علم الناصر ما دبر ، ونصح بالعودة من طريق قرية القابل من الجانب الآخر لدار الحجر ، إلاّ أنه لم يصغ إلى ذلك . ولم يكد يصل مع حاشيته إلى قرب الضربة في مخرج الوادي حتى أطلقت نيران البنادق عليهم ، فأصيب الناصر بثلاث رصاصات ، وقتل أحد خدمه وفشل حرسه وأصحابه ، فرجع هارباً ببعض من معه إلى دار الحجر ، وانقض المهاجمون ينهبون الخيل والأسلحة . وتجمعت القبائل فتبين لهم أن الناصر لم يقتل وأن إقدامهم على ذلك سيكلفهم الكثير ، فقرروا اللحاق به إلى الدار للخلاص منه فالنتيجة واحدة ، ويكونون على الأقل قد انتقموا لأنفسهم منه . وهكذا تم الهجوم على الدار ولم يجدوا دفاعاً جدياً من داخلها ، فتمكنوا من

---

(١) تؤكد جميع المصادر مشاركة بعض قبائل يام الباطنية في مؤامرة اغتيال الناصر وقد ذكر صاحب الحوليات (٨٧) أن الحاج كريشة ومعه عشرة من يام كانوا مع جماعة أهل الوادي ممن كمن للناصر وهذا يعني أن هنالك إعداداً مسبقاً للعملية تم الاتصال والإعداد له .

(☆) يختلف صاحب الحوليات مع الكبسي على الشهر ففي حين يذكر زبارة (نيل الوطر ٧٣/٢ و ٢٢٦) أن ذلك كان في شهر ربيع الأول ذكر الكبسي شهر صفر بينما لم يحدد الشهر صاحب الحوليات لكن الخبر جاء على أول رأس السنة لكنه لما تحدث عن خلف الناصر ودعوته عقب الحادث حدد يوم الحادي عشر من ربيع الأول وبهذا يكون ماذكرناه هو الأصح .

الوثوب على الناصر المثخن بجراحاته وذبحوه وحملوا رأسه معهم بعد أن قتلوا من كان معه ، وأهمهم وزيره القاضي إسماعيل بن حسين جغمان ، والأميران عنبر يسر ، ومحمد طاشخان ، والسيد صلاح الدين محمد بن عبد الله بن المنصور وغيرهم . وتمكن الأمير الماس بلسه ، والسيد عبد الله بن عبد الرحمن بن المهدي ، والنقيب محمد بن محمد الجدري ومعهم عدد كبير من التحصن في أعالي الدار حيث بقوا إلى اليوم الثاني عندما منحوا الأمان من همدان . وقد حمل رأس الناصر فطيف به « إلى عند مشايخهم وأظهروا البشارة وأوقدت النيران . وفي اليوم الثالث ردّوا الرأس إلى الجثة ودفن في مقبرة الوادي[1] » .

☆ ☆ ☆

٦ ـ محمد بن المتوكل من السجن إلى الخلافة

كان لمقتل الناصر ردود فعله المتباينة . فمن ناحية استبشرت بقتله الباطنية وقبيلة همدان ومنها بعض الباطنية ، كذلك تنفس الصعداء علماء صنعاء ممن اضطهدهم الناصر مع زملاء لهم في مناطق أخرى[2] خلال سنوات حكمه الثلاث والأشهر الأربعة ؛ ومن ناحية أخرى اضطربت الأحوال بشكل عام وخاف الناس من الفوضى والاقتتال ، وأصيب أصحاب الناصر والمتحمسون لمغالاته بخيبة الأمل والقنوط[3] .

ووصلت الأخبار إلى صنعاء عشية يوم الحادث مع من نجا من أصحاب الناصر . وقد فرَّ آخرون من أصحابه إلى بلاد أرحب يؤلبون الناس للأخذ بثأر

(١) حوليات : ٧٧ ـ ٨٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٧٣/٢ ؛ العرشي : بلوغ المرام ٧١ ، الكبسي (خ) : ٢٨٠

(٢) راجع ما سبق ص : ٢٨٠ ؛ وقد تواتر النقل عن العلامة العمراني (المشار إليه في ص : ٢٥٦ الحاشية ١) أنه قال في منفاه في زبيد : إن مقتل الناصر يوم عيد للمسلمين !؛ أمّا علماء ذمار ممن سجنوا في زيارة الناصر لمدينتهم في طريقه إلى اليمن الأسفل فقد عبر عن سرورهم العالم الأديب القاضي محمد بن حسن الشجني في قصيدة مشهورة .

(٣) العرشي : بلوغ المرام ٧١ ؛ الكبسي : ٢٨٠

الناصر ، وكان بينهم السيد يحي بن محمد حميد الدين (جد الإمام يحي حميد الدين) الذي كان من أنصاره (ت ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م) وله قصيدة يرد فيها على من نظم في مدح المتمالئين على قتل الناصر[1] ، وكذلك الوزير القاضي الإرياني والفقيه العفاري[2] .

وكما جاء الجند بالناصر لينصبوه إماماً ويلقي بعلي بن المهدي عبد الله وعمه محمد بن المتوكل في سجن القصر ، وساقته الأقدار ليقتل في الوادي في حين كان يعد العدة للتوجه إلى اليمن الأسفل ، فقد كان الأمر كذلك مع خلفه رهين السجن محمد بن المتوكل . فبعد صلاة العشاء قام عاقل الركاب (قائد الحرس) محمد بن أحمد بن علي الجوفي بإطلاق السجينين علي بن المهدي وعمه محمد بن المتوكل وتوجه بهما إلى دار الذهب (دار المتوكل أحمد) . واجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والأعيان وتقرر تنصيب محمد بن المتوكل أحمد إماما وتلقب بالمتوكل تيمناً بأبيه . ثم لم يلبث أن غير لقبه إلى الهادي بعد ثلاثة أشهر[3] . أمّا ابن أخيه الإمام السابق علي بن المهدي فقد اكتفى مسروراً بالخروج من السجن على أن دوراً آخر ما زال ينتظره .

☆ ☆ ☆

كانت قبائل أرحب تعد العدة للثأر من قتلة الناصر ، فقد اعتبرت ذلك غدراً من همدان وإخلالاً بالوعود ، وكان يحثها على ذلك أنصار الناصر ، وتحالف معها نهم وخولان وحاشد . ووفرت أرحب على الهادي محمد بن المتوكل مشكلة التورط في قتال كان لابد منه مع أنه خرج من السجن بمقتل الناصر وأصبح خليفة عدوه بالأمس .

(١) زبارة : نيل الوطر ٢/٤٠٩ ـ ٤١١

(٢) الجرافي : المقتطف : ١٩٧ : حوليات ٨٩

(٣) زبارة : نيل الوطر ٢/٢٢٦ : حوليات ٨٩ و ٩١ . الجرافي ١٩٧ : الكبسي : ٣٨٠

وفي الشهر التالي ربيع الآخر عام ١٢٥٦ هـ / يونيو ١٨٤٠ م قامت أرحب وحلفاؤها بالهجوم على همدان في وادعة والجاهلية والمنقب وأثخنوا في القتل ، وانتهبوا جميع القرى والمواشي ، فأسرعت القرى النائية من همدان بالعقائر وطلب الصلح وقبول الشروط على تقاليد القبائل ، وكان وقع ذلك قاسياً على همدان ، وأرسلت إلى صنعاء مائة وعشرين رأساً علقت في البستان . وطويت بذلك صفحة من الصراع القبلي المذهبي الذي كان الناصر عبد الله بن حسن مسئولاً عنه إلى حد كبير ، وكان آخر من ركب موج التعصب من الأئمة .

☆ ☆ ☆

لم يعترض أحد على تنصيب الهادي إماماً ، بل ربما كان هنالك رضى واعتقاد بعودة الشرعية ومن ثم عطف عام بعد تجربة الناصر وما لاقاه الهادي نفسه مع آخرين كثيرين على يديه من السجن منذ اليوم الأول لحكمه حتى مقتله . ويبدو أن عدداً من رجال الناصر العسكريين كانوا يرون فيه بديلاً صالحاً للحكم . فقد ذكر الكبسي « أن طائفة من أصحابه [الناصر] ممن رجع أخرجوا محمد بن المتوكل من سجن الناصر ونصبوه في دست الخلافة »[1] ولم يكن هنالك بطبيعة الأوضاع والظروف الصعبة العامة أحد من البارزين قد رأى في نفسه أن يكون مرشحاً للإمامة أو مزاحماً في هذا الوقت العسير .

حاول الهادي منذ الأيام الأولى أن يثبت حسن نواياه تجاه أنصار الناصر فاستدعى من هرب منهم إلى أرحب ومنهم الوزيران الفقيه محمد بن أحمد العفاري والقاضي يحي بن علي الأرياني واستوزرهما وإن كان قد عزل الأرياني وسجنه بعد ذلك بشهرين بسبب لا نعلمه لكنه لم يصادره[2] ، وقد عاد بعد ستة أشهر إلى

(١) الكبسي : ٣٨٠
(٢) حوليات : ٨٩ ـ ٩٠

الوزارة ثم عزل وعين أكثر من مرة حتى توفي عام ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م[١] .

ومن ناحية أخرى فقد أظهر الهادي حزماً في معاقبة متسببين لفتنة جرت في نهاية الأسبوع الأول لحكمه ، رغم أن مرتكبيها من العبيد والعسكر . فقد حدث خلال مقتل الناصر أن السيد محمد الكوكباني (الذي يظهر أنه كان من قادة الأجناد) ومعه بعض رجاله كان في محل ذهبان القريب من الوادي ويربطهما الجبل الغربي لذهبان وقد صادف هروب بعض أصحاب الناصر وغيرهم عن طريق ذهبان فكان الكوكباني ينهب كل من مرّ به . وحين دخل صنعاء كانت أخباره قد سبقته إليها ، ويفهم من كلام صاحب الحوليات (على سقم وصعوبة فهم مقصده في هذا الحادث) أنّ الكوكباني قد جرت محاولة اعتقاله في القصر ، إلاّ أنه كان يأمل مساعدة أصحابه رفقاء السلاح ، لكنهم ـ أمام ما صنع ـ خذلوه . وكان الحادث يمكن أن يمر بسلام لو استسلم ودخل القصر لكنه مانع وحدث تبادل إطلاق النار وقتل حارس أو أكثر ، وجرى ذلك يوم الجمعة بعد خروج الهادي من الصلاة ، وقد جُسّم الحادث وربما خاف الهادي أن يكون بداية لحوادث أخرى أكثر خطورة ، ولهذا فقد أمر في اليوم الثاني بإعدام الكوكباني وعلق على خشبة مكان الفتنة . وكان ممن شارك معه عبدان فأمر أولاً بتعزيرهما في أزقة المدينة وعلى ظهرهما كانت تضرب الطبول (المرافع) ثم ضربا بالسياط ، وضربت بعد ذلك أعناقهما على رؤوس الأشهاد[٢] وكان لذلك أثره ووقعه في نفوس الأجناد والناس .



---

(١) حوليات : ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٩ ، ١٦٢

(٢) حوليات : ٨٩ ـ ٩٠

٧ ـ ثورة الصوفي الفقيه سعيد العنسي وسيطرته على اليمن الأسفل

واجه الناصر من بداية حكمه مشكلة القبائل واضطراب الأمن في اليمن الأسفل وخطر الزحف المصري عليه فتوجه إلى هناك بقواته بعد شهرين ، ثم حل به ما حل من هزيمة ، كذلك فإن الهادي محمداً وجد نفسه في الموقف الضعيف نفسه مع اختلاف الأسباب والنتائج .

إن هروب الناصر من منطقة إب عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م ، وانسحاب القوات المصرية من تعز ثم من اليمن عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ، تركا المنطقة كلها مفرغة من أي شكل من أشكال سلطة الدولة ، فبقي اليمن الأسفل كله نهباً لطغيان قبائل بكيل الشمالية من ذي محمد وغيرهم من القبائل وبعض مشائخ المنطقة من المتنفذين ، فعانى الفلاحون وغيرهم الأمرّين من الظلم والاستغلال وانتهاك الحرمات ، وخيم الخوف وتفاقمت حوادث السلب والنهب وقطع الطرقات . وفي هذه الظروف العصيبة المدلهمة أعدت الأقدار دوراً قيادياً لفقيه كان غارقاً في نوبات تصوفه في قريته الدَّنْوة[1] بين حبيش ونعمان غربي إب . كان ذلك الفقيه سعيد بن صالح بن يس العنسي ، الهتار[2] ، المذحجي[3] ويدل اسمه على أن أسرته ممن سبق أن ارتحلوا واستوطنوا المنطقة كأسر كثيرة من مختلف قبائل الشمال التي كانت تنزل المنطقة محاربة في الغالب أو مسالمة مهاجرة . ولا أحد يذكر لنا شيئاً عن ماضي الرجل أو أصله ، وهم لا يذكرونه إلا بعد أن اشتهر أمره وقوي أثره . ونستفيد من قول الكبسي « أنه من متصوفة اليمن

---

(١) الدَّنْوه : بفتح الدال وسكون النون ، قرية من عزلة بني محرّم (معجم الحجري : ٤٩/١ و ٤٦/٢)

(٢) أضفنا هذا اللقب من معجم الحجري (مخطوط) السابق وقد انفرد بهذا

(٣) عن الشماحي وحده : اليمن ١٥١

[الأسفل] »[1] فنرجح أن حركة صوفية قد نمت في هذا القسم الشافعي من اليمن خلال نصف القرن المنصرم الذي اضطربت فيه أحوال هذه المنطقة كثيراً ، وأمست عرضة لهجمات القبائل ومسرحاً للفوضى والصراع ، فكان التصوف عند بعض الفقهاء والمتدينين ردّ فعل لمن لم يجد بمقدوره حولاً ولا طولاً أمام هذه الشدائد فانكفأ فانياً بنفسه باقياً بالله كما يقول المتصوفة ، ولابد أن الفقيه سعيد كان واحداً من هؤلاء ، بل هو أبرزهم والوحيد بينهم الذي تطورت حاله من العزلة والفناء بنفسه إلى مصلح اجتماعي وثائر من صفوف الشعب ثم إلى داعية سياسي لقب نفسه إماماً مهدياً ، وهنا وقع المحذور ودخل حلبة الصراع ثم النهاية .

« كان في بدء أمره ظاهر الصلاح ، دعا الناس إلى الخير والفلاح ... ودعا الناس إلى الهجرة إليها [الدَّنْوة] فأجابه أرذاذ[2] الناس ، والتجأ إليه كل غريب ولاذَ ، فما زال مشتغلاً بتقواه ، موافقاً في سره ونجواه ، وكان له في الزهد الحظ الوافر ، لو عرضت عليه الدنيا بأسرها فما تأملها [أرادها] ، وتزينت بين يديه ما تمثلها ، حتى صارت حضرته محلاً لأهل الدين ومحط رحى المهاجرين ، وكان فيهم للصغير أباً وللكبير أخاً بسجيَّة تنجلي عنها الظلماء[3] ، وخلق مزاجه عسل وماء ! فأقام على هذا أربعين عاماً معتكفاً على الدراسة ، معتزلاً لأهل النفاسة والرياسة ، مقبلاً عليهم بموعظة وخشوع وكثرة سجود وركوع ، فسمع به القاصي والداني ... »[4]

ذلك كان شأن الفقيه سعيد وسيرته بين الناس ، حتى حلّت الفوضى بشكل

---

(١) الكبسي : (ق ٣٨٠)

(٢) الرّذاذ : المطر الضعيف ، ورذّت القربة : سال مافيها : والمقصود أشتات من الناس

(٣) كأن الواصف أراد أن يضمن هنا قول الأخطل في وصف مصعب بن الزبير حين قال :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ......................ـه تجلت عن وجهه الظلماء !

(٤) حوليات : ٩٢

خطير ، ولابد أن أعداداً كبيرة من الضعفاء والفارين من بيوتهم والمطرودين من أراضيهم قد التجؤوا إلى الرجل يشكون ما حلّ بهم ويستعينون به قوة لضعفهم . ولا ندري كيف حدث التحول والاستجابة للتصدي لما حل بالناس ، وهل كان ذلك بدوافع دينية تغلب فيها الواجب على الخضوع الصوفي وقبول المشيئة ، أم أن التصوف انقلب إلى روح دافعة للقيام بدور إيجابي ، أم أن الرجل كان في كل ذلك يعد نفسه لعمل قيادي وطني ، وكان ينتظر الفرصة المواتية بما في ذلك الأعوان والمؤيدون ، وربما كان ذلك كله فإذا الفقيه سعيد يعلن نفسه « إمام الشرع المطهر المهدي » ، ويضيف من كتب عنه ـ أنه أضاف إلى كنيته « المهدي المنتظر » ! وهم على كل حال من أنصار الهادي[1] فلا يعقل أن يسمى نفسه مهدياً منتظراً ، كما وسموه بالسحر والشعبذة[1] . وقد استجاب لدعوته كل الناس ، فقد كان أهم مافي دعوته الثورة ضد ظلم القبائل المسيطرة على مصائر الناس ، وتمكن في وقت قصير من تقوية سلطانه وتطهير مختلف المناطق من تلك القبائل : « فأفرغوا المعاقل فأخربت ، وبذلوا ما أخذوه ظلماً على الرعايا فانتهبت ، وفي قريب شهر هدم نحو ثلاث مئة حصن من حصونهم وغنم ما فيها من نفيس أموالهم ، وأمرهم بالارتحال على الفور فارتحلوا .. »[2] .

وإذ تم له ذلك ضرب باسمه السكة من الفضة الخالصة وأقام الولاة وعين القضاة وخُطب باسمه على المنابر ، وامتد سلطانه من زبيد غرباً إلى يافع شرقاً وشمل منطقتي تعز وإب ، واقترب شمالاً إلى يريم حيث بدأ الخوف والقلق ينتاب إمام صنعاء الجديد ودولته الزيدية كلها ،[3] كيف لا والناس ملتفون حوله حباً

---

(١) الكبسي : ٣٨٠ ؛ حوليات : ٩٢ ـ ٩٣ ؛ الجرافي : ١٩٣ ، الشماحي : ١٥١ و ١٥٨ زبارة : نيل الوطر ٢٢٧/٢

(٢) حوليات : ٩٣

(٣) الكبسي : ٣٨٠ ؛ الشماحي : اليمن : ١٥٨ ـ ١٥٩ ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٢٧/٢

لا خوفاً وأصبح في نظرهم منقذاً وولياً : « .. فأتوه بالنذور والزكوات ، وكان يطعم الطعام لمن وفد إليه ، وارتعب المشرق والمغرب حين رأوا بكيل قد فارقوا تلك الحصون وخرجوا عنها وارتحلوا إلى اليمن [الشمالي الأعلى] مرعوبين مرهوبين »[1] .

وهكذا ساد الأمن والعدل المناطق التي يحكمها الفقيه سعيد وتنفست جماهير الفلاحين أنفاس الراحة ، نرى صداها في الأبيات الشعبية التي ننقلها عن المؤرخ الشماحي[1] :

يَابَاه سَعِيدْ يابَاه | يا ساكِنَ الدّنوه
أسلمتنا المحنة | والعسكر الزّوْبَة
فأبقى لنا ياباه !

☆ ☆ ☆

٨ ـ الهادي يواجه الفقيه سعيداً ويَقضي عليه

استعد الهادي في صنعاء للخروج إلى اليمن الأسفل لمواجهة خطر انتشار سلطان إمام الدّنوه الفقيه سعيد ودعوته فغادر صنعاء يوم الاثنين ٨ شعبان عام ١٢٥٦ هـ / ٦ أكتوبر ١٨٤٠ م بعد خمسة أشهر من حكمه . وبات أول يوم مع جنده في سَيّان جنوب صنعاء ، وفي اليوم الثاني توجه إلى زِرَاجة مركز قبيلة الحدأ حيث قام بجمع عساكر منها ومن خولان ضمهم إلى جنده . وبعد ذلك ذهب إلى مدينة ذَمار حيث عسكر واتخذها مقراً مؤقتاً يروز فيه قدرته وقوته وأخبار الفقيه سعيد المتضاربة[2] . واستدعى إليه القاضي يحي الإرياني ، وكان قد

---

(١) الشماحي : ١٥٨

(٢) حوليات : ٩١

غضب عليه وسجنه ، كما استدعى القاضي يحي بن علي الردمي (ت ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م) الذي كان أحد تلاميذ الإمام الشوكاني ، وهو إلى علمه وذكائه شجاع ، خطيب ، فولاّه الهادي الوزارة في الثاني من شهر رمضان / ٢٩ اكتوبر[١] ، ومن ذمار توجه إلى يريم .

ويبدو أن الهادي قد تشاور مع وزرائه الإرياني والردمي فأشير عليه بأن يبعث برسل إلى صاحب الدّنوة لعله للمصالحة أو لمعرفة حقيقة مركزه ، ثم مانسب إليه من شعوذة وسحر ودعوى بأنه المهدي المنتظر إلى غير ذلك مما نسبه إليه أعداؤه الذين هم في الغالب من قبائل بكيل المطرودة من منطقته . فالكبسي يذكر أن الهادي بعد نزوله من ذمار إلى يريم « كاتب إلى الفقيه سعيد ، وأرسل بعض العلماء ليختبر أحواله ويميز أقواله »[٢] ولم يفدنا بعد ذلك شيئاً عما رآه أولئك الرسل ، وباستثناء ذكره للقب الفقيه سعيد في بداية حديثه وأنه « تكنى بإمام الشرع المطهر ، المهدي المنتظر » فلم ينسب إليه أي سحر أو شعوذة ، بيد أن صاحب الحوليات المجهول[٣] الذي سبق أن نقلنا عنه وصفه للفقيه سعيد بالورع والزهد والصلاح عاد فأنكر عليه ذلك منذ أن أعلن دعوته في خطبة له في « أول جمعة رجب ، وترك ما يعنيه واشتغل بما يتعبه ؛ فخطب خطبة رغّب فيها ورهب وزعم أنه مدعي للمهدي المنتظر وأنه بين أيديهم سيظهر ! ... »[٤] ونستفيد منه أن أحد رسل الهادي إلى الفقيه سعيد كان القاضي العلامة أحمد بن علي الطشي (ت ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م) الذي سبق له العمل في القضاء في ذي جبلة ثم رداع حيث استقر ، وكان فقيهاً ، عالماً محققاً وأديباً شاعراً له ذكاء عظيم

---

(١) حوليات : ٩١ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٩٤/٢ ؛ الشجني : التقصار (ق ٧١)

(٢) الكبسي : ٣٨١

(٣) انظر الحاشية الثانية في الصفحة التالية حول المجهول وحولياته .

(٤) حوليات : ٩٢

ورقة طبع وانسجام خُلق[١] ، وقد نقل عنه صاحب الحوليات أقوالاً غريبة لاندري مدى صحتها ، وهل العلامة الطشي قالها أم أن المؤلف[٢] سمعها من غيره أو اخترعها فيما بعد ونسبها إليه . فمن ذلك « أن أهل الروم قد صدقوه ماخلا أهل صنعاء وإمامهم ! .. وأنه عرج إلى السماء فوجد اسمه في اللوح المحفوظ ! .. » وهلم جرا[٣] .

☆ ☆ ☆

لم يطل الأخذ والرد بين الفقيه سعيد والهادي محمد ، فسرعان ماأرسل الأول جيشه وكان معظمه من أنصاره من مناطق اليمن الأسفل ، ومن قادته الشيخ سعيد بن أحمد علي سعد ، والشيخ حسين بن يحي عباد من رؤساء بلاد خبان ، والشيخ عبد الله مثنى فاضل ، وقائد الحارثي ، وأضاف إليهم عدداً من قبائل ذي محمد ممن كان قد قضى على رؤسائهم ، وبعض المتعاونين معه من خولان وعلى رأسهم النقيب حسين بن سعيد أبو حليقة ، والنقيب علي بن علي بن سهل الهيال، وكان الفقيه قد سجنهما وصادرهما في منطقة إب مع غيرهما ، فكان من

---

(١) زبارة : نيل الوطر ١٦٤/١ : الشجني : التقصار (ق ٥٠)

(٢) المؤلف الحقيقي لما سمي بالحوليات هو القاضي محسن بن أحمد الحرازي المتوفى بصنعاء في شهر رمضان ١٢٨٨ هـ / ديسمبر ١٨٧١ م ، فهو معاصر لهذه الأحداث (انظر ص : ٣١٣ منها) لكن متأخراً آخر - ربما لحق وعرف القاضي الحرازي - هو الذي أعاد صياغة تاريخ الحرازي بلهجته الدارجة وأكمله إلى عام ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م وقد جاء اسمه مجهولاً ، وعندما أعارنا فضيلة العلامة السيد أحمد بن محمد زبارة مفتي الجمهورية ونجل المؤرخ زبارة الأكبر مخطوطة الأصل - الوحيدة - للكتاب وهي التي اعتمدها الباحث الأستاذ عبد الله الحبشي في نشره للحوليات ، لاحظنا أن ذلك المجهول هو القاضي أحمد بن عبد الله الزبيري وذلك من توقيعه في أول ورقة عنون عليها بخطه الكتاب ، وهو جد - من ناحية الأم - للقاضي العلامة محمد بن إسماعيل العمراني الذي كان مالكاً للمخطوط حتى انتقل إلى ملكية المؤرخ المرحوم محمد بن محمد زبارة عام ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م . وقد أفردنا بحثاً لدراسة الكتاب ليس هنا مجال التوسع حوله .

(٣) حوليات : ٩٤

الخطأ الاستعانة بها في حربه مع الهادي إذ أصبحا السبب الأول في هزيمة عساكره التي وصلت إلى يريم وضربت على الهادي وأصحابه الحصار في أوائل شهر شوال ١٢٥٦ هـ / نوفمبر ١٨٤٠ م[١] ولما اشتد الحصار على المدينة نصح الوزير القاضي يحي الرَّدَمي بعدم إضاعة الوقت وضرورة الخروج بمن مع الهادي للهجوم على المحاصرين ، خاصة وقد تم الاتصال سراً بين الهادي والنقيب أبي حليقة وأصحابه واتفقوا على أنهم سيتولون القبض على قادة جيش الفقيه سعيد ويفشلونه من داخله ، وذلك « لما في قلوبهم غاية الأحن [على الفقيه سعيد] فأجمع شَورهم على مظاهرة الهادي وخدعوا المقادمة الموجهين من عنده »[٢] .

وهكذا أمر الهادي الجند ومن معه بالاستعداد للهجوم وفك الحصار ، خاصة وقد ثارت العامة في بلاد يريم نفسها و « نكثوا على الإمام البيعة » فلم يعد الهادي محاصراً بقوات جاءت من الدّنوة فحسب بل أصبحت المنطقة خارج أسوار المدينة ضده وميالة إلى حركة الفقيه سعيد .

وفي اليوم الذي تقرر فيه الخروج ، ألقى القاضي الردمي خطبة حماسية بليغة شحذ بها همم الجنود وقال لهم فيها « إن الجنة تحت ظلال السيوف ، فلا تفشلوا من كثرة العدد ، وإن كثير الحطب يكفيه قليل النار ، وأنتم بحمد الله المحقون وهم المبطلون المنهزمون »[٣] . وفتحت أبواب المدينة واندفعوا نحو معسكرات الجيش المحاصر الذي لم يكن يتوقع هذه المفاجأة ، وزاد من الارتباك قيام أبي حليقة وأصحابه بالقبض على القادة أمثال سعيد بن أحمد علي ويحي عباد وغيرهما فكانت هزيمتهم شنعاء ، ووقع فيهم القتل والنهب والسلب وفروا هاربين جنوباً من حيث أتوا[٤] .

---

(١) الكبسي : ٢٨١

(٢) المصدر نفسه .

(٣) حوليات : ٩٥ ـ ٩٦

(٤) حوليات : ٩٦ ـ ٩٧ ؛ الكبسي : ٢٨١

لم يفت في عضد الفقيه سعيد هزيمة قواته فأسرع في إعداد جيش كبير[1] ، كما وصل الهادي دعم جديد من قبائل خولان ونهم وهمدان والحدأ[2] ، وصعدت قوات الهادي صوب سُمارة ، حيث التقى الفريقان يوم ١٨ شوال ١٢٥٦ هـ / ديسمبر ١٨٤٠ م في معركة دامية شديدة تراجع فيها أصحاب الفقيه سعيد فاقتربت بذلك نهايته . ففي يوم الاثنين ٢٧ شوال أطبقت أجناد الهادي والقبائل التي معها على الدّنوة ووقعت معركة أخيرة تم فيها الاستيلاء على المدينة ونهبها واقتيد الفقيه سعيد أسيراً إلى مدينة إب حيث حلّ الهادي فأمر بضرب عنقه وصلبه[3] .

وبهذا انتهت حركة الفقيه سعيد العنسي ، ويرى المؤرخ القاضي عبد الله الشماحي أن سبب فشلها « أنها سبقت أوانها ، ولم يُمَهد لها ، ولا لإعلانه نفسه إماماً ، مما أثار عليه إنكار فقهاء الجنوب الشافعي المتمسك بنظرية الإمامة في قريش ، وبالطبع الشمال الذي ما يزال متمسكاً بالإمامة الزيدية »[4] .

وبقدر ما في هذا القول من الصحة إلاّ أن الأقرب إلى القبول أن تلك الثورة كانت استجابة مباشرة للظروف والأوضاع التي ألمحنا إليها ، وكان يمكن للفقيه سعيد الاستمرار لو لم ينافس الهادي في الحكم إذ كثيراً ما تعاون الأئمة مع مشايخ أو حكام محليين طالما بقوا وهم معترفون بالتبعية لإمام صنعاء ويقومون فقط بدور أمني معين ، وقد وفر الفقيه سعيد للإمام بضربه القبائل المتحكمة في منطقته وتطهير حصونها ، وذلك عملٌ شاق وكبير ما كان يمكن أن يتم في مثل أوضاع الهادي لولا شخصية الفقيه سعيد والتفاف الناس حوله لدفع ما حل بهم من الجور

---

(١) ذكر صاحب الحوليات أن عدده كان عشرين ألفاً وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه (ص : ٩٧) .

(٢) الكبسي ق ٢٨١

(٣) حوليات : ٩٨ ـ ٩٩ ؛ الكبسي : ٢٨١ ؛ الجرافي : ١٩٧ ـ ١٩٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٢٦/٢ ـ ٢٢٧ الذي ذكر أن ذلك كان في أول سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م

(٤) الشماحي : اليمن : ١٥٩

والظلم ، ولكن الكفة في الأخير رجحت لصالح الهادي في صراعه مع الفقيه لأنه كان يمثل الشرعية في نظر الجميع بمن فيهم سكان اليمن الأسفل الذي حررهم الفقيه سعيد من طغيان القبائل ، وهو نفسه ما كان يقوم به الأئمة من قبل ، وعندما فشل الناصر عبد الله وهرب من إب كان ذلك دور الفقيه سعيد فنجح فيما أخفق فيه الأول ، وبمجيء الهادي تراجع كثير من أنصار الفقيه ، ليس لأنه لم يمهد لدعوته بل لأن الهدف الأساسي قد تحقق وأصبح الصراع سياسياً من أجل السلطة التي كان الهادي يمثل شرعيتها ، ولم يكن الإمام في نظر الناس سبب الظلم الذي ذاقوا مرارته بل القبائل الخارجة على حكمه وبانتصاره تعود المياه إلى مجراها . وليس من شك في أن الهادي استفاد من كل ذلك بما فيه الاستعانة بمن كانوا موتورين أو متضررين من ثورة الفقيه سعيد وعلى رأسهم النقيب أبو حليقة الذي سيتخلص من خداعه وشره قريباً .

☆ ☆ ☆

٩ ـ حكم الهادي حتى وفاته

أمضى الهادي بعد القضاء على الفقيه سعيد نحو شهر في إب دبر خلاله أموره بتعيين العمال والقضاة في مختلف المناطق ، وأرسل النقيب الماس وكان أحد القادة المجربين والياً على تعز ومنطقتها . وحتى يطمئن الناس في المنطقة فقد جرد حملة لحصار حصن في باب ميتم كان يسيطر عليه بعض ذي محمد وتمكنت الحملة من تدميره . وإذ قرر أن يرجع إلى صنعاء خلف وراءه وزيره القاضي يحي بن علي الإرياني والأمير الحاج فتح محمد لتثبيت الأمن وملاحقة المتخفين من قبائل ذي محمد حتى لا يكون بقاؤهم مدعاة لتكرار ما حدث بفتحهم الباب لاستدعاء أصحابهم في المستقبل[١] .

---

(١) حوليات : ٩٩

وأراد النقيب حسين بن سعيد أبو حليقة أن يستثمر مساعدته للهادي بخيانته لقوات الفقيه سعيد عند حصار يريم ، ثم دعمه في القضاء عليه بعد ذلك ، فكان كثير الإلحاح على الهادي رغم كثرة ماقدمه له من المال والعطايا ، وكان كثير التبجح باليد التي قدمها ظاناً أنه لولاه « لكان الإمام وأصحابه مكبلين في الحديد »[1] ولا بد أن أسباباً أخرى كالخطر من تآمر أبي حليقة ضد الهادي أو إثارة المتاعب له في المنطقة فيما لو عاد إلى صنعاء ، قد جعلت الإمام يعزم على الخلاص منه .

وفي طريق العودة إلى العاصمة عرّج الهادي بموكبه على آنس حيث قضى أياماً في مركزها ضُوران وفي حصنها الدامغ نفّذ قراره بقطع رأس أبي حليقة بعد أن قبض على أهم أصحابه وضمهم إلى سجنائه من أصحاب الفقيه سعيد ، وبعد عيد الأضحى مباشرة عاد راجعاً إلى صنعاء في موكب كبير حيث استقبله الناس استقبال المنتصرين . ولّما استقر في صنعاء لم يطل العهد بسجنائه فقد أطلقهم جميعاً[2] ، وكالعادة في مثل هذه المناسبات أثنى الناس على الهادي ومدحه الشعراء ، واشتهر من ذلك قصيدة بليغة للقاضي أحمد بن لطف الباري الزبيري (ت ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م) الذي عينه الهادي قاضياً على العُدين ، وكان من أبرز علماء الجيل الثاني بعد الإمام الشوكاني ، فهو تلميذ لابنه أحمد والعلامة زيد الكبسي وطبقتهما[3] .

---

(١) حوليات : ٩٩

(٢) حوليات : ٩٩ ـ ١٠٠ : الكبسي : ٣٨١ ؛ الجرافي : ١٩٨ ؛ زبارة : نيل الوطر ٢٢٧/٢ ، وعنده أن الهادي عاد إلى صنعاء في ٢٢ ربيع الأول ١٢٥٧هـ أي بعد أربعة أشهر من عيد الأضحى ، وثمانية أشهر من أول خروجه من العاصمة .

(٣) ولد القاضي الزبيري بصنعاء سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م وأخذ على علمائها المشهورين في مختلف علوم الفقه والحديث واللغة والمنطق ، وعرف بعد ذلك عالماً محققاً ، مدققاً ، عارفاً ، ناقداً ، أديباً ، شاعراً بليغاً . تولى القضاء للهادي في العدين شاباً بعد قضائه على حركة الفقيه سعيد ، ثم تولى القضاء بصنعاء ، ثم بأخرة في كوكبان حيث جرت له محنة عام ١٢٨٥ هـ / =

ومطلع قصيدة الزبيري :

هَـذَا هُـوَ الشرفُ الرفيـعُ الأعظمُ ... والفَخْرُ والحَسَبُ الصَّمِيمُ الأفْخَمُ

وبعد أن يهنئ الهادي بانتصاره على الفقيه سعيد ويهنئ صنعاء بعوده يصرح بأن الفقيه كان ساحراً حين قال :

وَهَـدَمْتَ مـاعَمَرَ الشقيُّ بسحْرِهِ ... ونَقَضْتَ ماعَقَدَ البغـاةُ وأبْرَمـوا

ثم أشار إلى حادث إعدام أبي حليقة في الدامغ :

وخَتَمْتَهـا بـالـدّامِغِ الحِصْنِ الـذي ... عَنْـهُ تقـاعَسَتِ الملوكُ وأحْجَمـوا
ودَفَعْتَ أدْمِغَـةَ العِـدَى بسُعُـودِهِ ... فـالنـارُ في أحشـائِهِمْ تَتَضَرَّمُ

وهي طويلة[1] .

استقامت الأمور للهادي ، وهدأت القلاقل في مختلف المناطق نحو عامين نَعِم النـاس خلالهما بـالأمن ، وعـاد المزارعـون من القبـائـل والفـلاحين إلى العمـل في أراضيهم وكانت مواسم الأمطار مِعطاءة حتى بلغ قيمة الثمانية الأقداح الـذرة ريـالاً واحداً[2] .

= ١٨٦٨ م بسقوط داره هنـاك فوق أهلـه وولـده ، وذهب معهم كتبـه وأمتعتـه وكل مـا يملـك ، فانتقل إلى الروضة حزيناً يائساً وقد خولط في عقلـه فمات بعـد وصولـه في مطلع ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، وكان في كوكبان قد بلغ مكانة أدبيـة عـاليـة وأصبح مرجع الحكام ، ولـه شعر بليغ من ذلك بيتان كان فيهما كمن يتوقع ماسيحل به ولكننا لانعلم متى أنشدهما :

تَبـاً لقَـوْمٍ صِرتُ بين ظُهُـورِهِم ... مـلءَ العيـونِ الغُلفِ منْ أوغـارِهـا
فلَـوِ استطعتُ هجرتَهم وسكنتُ مِن ... شُمِ الجبـالِ بكَهْفِهـا أوغـارِهـا !

« انظر زبارة : نيل الوطر ١٧٢/١ ـ ١٧٩)

(١) زبارة : نيل الوطر : ٢٢٧/٢ ؛ الجرافي : المقتطف : ١٩٨
(٢) زبارة : نيل الوطر ٢٢٨/٢

وظهر في هذه الفترة إلى جانب الوزراء الإرياني والردمي وغيرهما دور بعض القادة من الأمراء العبيد ، وكان أبرزهم الأمير فيروز الذي كان في بداية أمره عبداً لأمير سابق هو سعد يسر وهو بدوره كان والياً على الحديدة ، وكان هذا مساعداً له حتى عاد مع سيده من الحديدة إلى صنعاء بعد مجيء الحملة المصرية عام ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م وقد حرره الأمير سعد ، إلاّ أنه انقلب فيما بعد خصماً له . وقوي مركز فيروز ونال حظوة لدى الهادي وأغراه بسيده السابق فصادره وسجنه قبل حملته على الفقيه سعيد ، وقد أظهر له صاحب الحوليات في هذه الفترة دوراً تسلطياً بغيضاً[1] .

أما الآخر فهو النقيب الماس الذي كان الهادي قد عينه عاملاً على تعز والحجرية ، وكان حازماً مدبراً حسن الإدارة ، إلاّ أنه بلغ الهادي عنه أنه قد جمع أموالاً طائلة من الناس ، وربما خشي الهادي من اضطراب أحوال اليمن الأسفل من جديد بعد فترة الهدوء السائدة . فقرر السفر للكشف بنفسه على تلك المناطق ومعرفة حال عامله في تعز ، وغادر صنعاء في شهر ذي القعدة عام ١٢٥٧ هـ / يناير ١٨٤٢ م واصطحب معه الوزير القاضي يحي الإرياني . وعزل النقيب الماس وصادره وسجنه وعين بدلاً منه الفقيه قاسم بن محمد العمري[2] .

وبدا للمهدي أن الأحوال كانت هادئة بشكل عام ، فعاد إلى صنعاء بعد نحو شهرين . إلاّ أن قبائل خولان أصحاب النقيب حسين بن سعيد أبي حليقة كانوا قد أعدوا كميناً للهادي في قاع جهران للثأر لصاحبهم في العام السابق ، وقد بلغ الهادي الخبر فغير طريقه إلى ضوران آنس حيث تحصن في الدامغ فأسقط في يد خولان ورجعوا إلى بلادهم ، ومضى الهادي بعد ذلك إلى صنعاء[3] .

---

(١) حوليات : ١٠١ ـ ١٠٣ و ١٠٩ ـ ١١١

(٢) نفسه : ١٠٣

(٣) نفسه ١٠٣ ـ ١٠٤

ومرة ثانية في العام التالي ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م اضطر الهادي إلى مغادرة صنعاء على رأس حملة إلى بلاد يريم بعد ان وصلته الأخبار بأن الشيخ حسن بن يحي عباد ـ الذي سبق أن كان في جيش الفقيه سعيد ـ[1] قد أعلن العصيان هناك . وشجع الهادي على ذلك وزيره الإرياني ، فلما وصل جهران أتته كتب ابن عباد بالسمع والطاعة وبأنه لم يعلن أي عصيان ، إلاَّ أن التصميم على ضرب حصنه قد تم ، فتوجهت العساكر وضربت الحصن بالمدافع لكنها لم تؤثر فيه ومع ذلك فقد وصل ابن عباد وسلم مافرض عليه وتمت مصالحته[2] .

وكان في نية الهادي أن يواصل رحلته إلى اليمن الأسفل ، فقد بلغه وجود بعض الفساد هناك ، لكن الأمر لم يكن خطيراً ، فاستصوب الهادي رأي بعض مرافقيه من عدم الضرورة في نزوله ، وجهز وزيره القاضي يحي الإرياني والأمير المملوك فتح محمد للقيام بهذه المهمة ، ورجع هو إلى صنعاء وكان قد خلف عليها نائباً أخاه سيف الإسلام حسين بن المتوكل أحمد الذي لم يظهر له دور في الأحداث ، وكان الفعل الحقيقي للأمير فيروز خلال غيبة الهادي[3] .

وخلال ذلك تحقق للهادي عودة بلاد حراز التي كانت قد دخلتها قبائل يام الباطنية عام ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ، وكانت بعيدة عن سلطة الهادي في صنعاء بعد طرد عاملها[4] وبعث أهل حراز ، الذين معظمهم زيود وشوافع ، إلى الهادي بطاعتهم بعد أن ضاقوا ذرعاً بتسلط قبائل يام وأصحابهم من المكارمة . فأرسل الهادي قوات من بعض القبائل فاستقبلت في حراز بالترحاب والضيافة إلا أن مناوشات تفاقمت إلى حرب مع بعض المكارمة وأصحابهم من يام ، وحدث قتل في

---

(١) انظر (ص : ٢٩١ فيما سبق) .
(٢) حوليات : ١٠٤ ـ ١٠٥
(٣) نفسه : ١٠٥ ـ ١٠٦
(٤) انظر (ص : ٢٨٤ فيما سبق) .

الجانبين ، وتمكنت يام من تأديب من فتحوا بيوتهم للقادمين من صنعاء وكادت الحال تعود كما كانت[١] .

وبعيد ذلك عاد من اليمن الأسفل القاضي يحي بن علي الإرياني بعد أن أدى مهمته مع الأمير الحاج فتح محمد بنجاح ، ولا نعلم لماذا سجنه الهادي وصادره بعد ذلك بأيام ، وعين خلفاً له السيد حسين بن محمد الشامي وعزله بدوره في العام التالي ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م ، وخلفه القاضي إسماعيل بن يوسف الصديق ، وأطلق سراح الإرياني وكان قد عانى كثيراً على يد الأمير فيروز . فعزم على الخروج من صنعاء وبقي في الروضة على امتعاض منه وعدم رضى من الهادي[٢] ، كما سجن الأمير الحاج فتح محمد (عبد الهادي) وصادره فيروز وعذبه . ويظهر أنه بعد عوده من اليمن الأسفل مع القاضي الإرياني عين أميراً للتوابع (الحرس) فلما حبس خَلَفَه عبد آخر هو الأمير خير[٢] .

☆ ☆ ☆

نهض الهادي خلال سنوات حكمه الثلاث والأشهر الثانية بدور شبيه بما قام به والده المتوكل وأخوه المهدي عبد الله بقيادة الحملات العسكرية بنفسه ومواجهة الأخطار ، وكان آخر عمل قام به خروجه على رأس قوة إلى آنس في مطلع عام ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م حين وقع عصيان هناك من أهل أحْلال ، وقد تم إخماد ذلك العصيان بعد سقوط قتلى من الجانبين . واصطحب الهادي معه في تلك الحملة الأمير العبد المتنفذ فيروز الذي كان يسجن ويعذب من لا يدفع المفروض عليه بوضعه في مدافن الحبوب الحارة حتى يدفع أو يموت ![٣] .

---

(١) حوليات : ١٠٥ ـ ١٠٨

(٢) حوليات : ١٠٦ ـ ١٠٩

(٣) نفسه : ١٠٨

وقد حدث لفيروز بعد ذلك ببضعة أشهر حادث سطو في منطقة وعلان جنوب صنعاء حين كان في طريقه بأموال وخيل ومؤن كثيرة لتفقد أحوال اليمن الأسفل . فقد أعد له النقيب أحمد الرويشان وأصحابه بنو ضبيان من خولان كميناً في الليل تمكنوا به من نهبه وأسره ثم جرى قتال في اليوم التالي خرج منه فيروز سالماً ، وكان ذلك بداية نهايته القريبة[1] .

مضت مدة حكم الهادي دون أن تقوم قبائل بكيل بحصار صنعاء أو تهددها بهجوم أو حصار كما كان دأبها في غالب السنين ، ولعل ذلك لانشغالها في البداية في اليمن الأسفل ، ثم لما عمّ من الخير ونزول الأمطار التي شملت اليمن بعيد ذلك . حتى كان شهر شعبان عام ١٢٥٩ هـ / سبتمبر ١٨٤٣ م حين وصل عدد كبير منهم ونزلوا في السواد جنوب صنعاء ، ثم انتقلوا إلى الضبر ومكثوا يقطعون الطرق ويشيعون الخوف إلى آخر شهر رمضان حتى تم مصالحتهم ببعض المال[2] . ولكن حادثاً هاماً ذكره صاحب الحوليات جرى خلال رمضان . فقد ذكر أن القاضي يحي الإرياني ومن معه في الروضة من الناقمين على الهادي تواصلوا مع عقال أرحب وبني الحارث وبني حشيش ونهم وحاشد وجددوا التحالف والتضامن فيما بينهم ، وتم الاتفاق على محاصرة صنعاء ودخولها عنوة ، ثم ينصبون إماماً لا ندري من هو . وبالفعل تم تجمعهم في الروضة بقيادة النقيب علوان العذري صاحب أرحب ، على أن يدخلوا صنعاء يوم الجمعة في العشر الأواخر من رمضان . وقاموا

---

(١) حوليات : ١١٠ ـ ١١١ ، وقد زعم صاحب الحديث أن من ثقة الهادي بفيروز أعطاه أوراقاً بيضاء عليها ختمه وتوقيعه ليكتب فيها مايشاء وأن النقيب الرويشان قبض تلك الأوراق وكتب لنفسه في إحداها تمليكاً لآل الرويشان في مخلاف المنار من بلاد آنس ! كما أن فيروزاً كان له اتصال سرّي بالإنجليز في عدن ، وأنه كان يريد استغلال تلك الأوراق ليكتب عليها تمليكاً لهم في عدن ! أمّا نهاية فيروز فقد كانت في العام التالي ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م على يد المهدي علي الذي خلف عمه الهادي ، وعذب فيروزاً وعزره بعد دخوله صنعاء ثم جرى دق عنقه وصلبه في سوق الصيرفي من أسواق صنعاء (حوليات : ١١٦ ـ ١١٨) .

(٢) حوليات ١١٢ ـ ١١٣

بمراسلة ذي غيلان من بكيل المرابطة جنوبي صنعاء ، إلاّ أنهم لم يستجيبوا لهم ، لكنهم نجحوا في إقناع بعض التوابع (العساكر) خارج صنعاء . ولم يعد الأمر سرّاً بعد ذلك فقد تحصن الهادي داخل صنعاء وشدّدت الحراسة حول أسوار المدينة ، وحدث الهجوم في الليلة الموعودة ، لكنه فشل لقوة الدفاع وكثافة إطلاق النار على المهاجين الذين تراجعوا وانسحبوا مع الفجر ومعهم القاضي يحي الإرياني الذي كان ينتظر مع المرشح المجهول للإمامة في المشهد على مشارف العاصمة[1] . وهكذا فشل هذا الهجوم ، ورحلت قبائل بكيل التي سبق مصالحتها ، وانتهى رمضان ومن بعده العيد والناس آمنون في العاصمة ، إلاّ أن ماحدث أوشك أن ينذر بأخطار محدقة ، خاصة وقد بدأت أخبار تصل إلى عودة بعض الاضطرابات والمشاكل الناجمة في اليمن الأسفل . وكانت صحة الهادي قد تدهورت ، واستمر مرضه شهرين ، لكنه انقطع عن الخروج في أوائل شهر ذي الحجة ثم توفي في ١٨ منه سنة ١٢٥٩ هـ / ١٩ يناير ١٨٤٣ م ولعله لم يكن قد تجاوز الأربعين كثيراً من عمره ، إذ إن أخاه المهدي عبد الله الذي كان أكبر أبناء المتوكل أحمد كان عمره حين مات عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م ثلاثاً وأربعين عاماً وكان بينهما بعض أخوة فقد يكون سنه حين مات في عمر المهدي أو في نحو الخامسة والأربعين ، وهو عمر قصير ، كما كان حكمه كذلك[2] .

☆ ☆ ☆

١٠ ـ عودة علي بن المهدي إلى الحكم ثانية

قضى علي بن المهدي فترة حكم عمه الهادي محمد بن المتوكل في هدوء بعد سنوات السجن التي قضاها مع عمه في حبس الناصر ، ولم يرد له أي ذكر أو دور ،

---

(١) حوليات : ١١٣ ـ ١١٤

(٢) نفسه : ١١٥ : الكبسي : (ق ٢٨١) : زبارة : نيل الوطر ٢٢٨/٢

وربما كان ذلك بمحض اختيـاره . وحين وافت المنيـة الهـادي كان أخوه حسين بن المتوكل هو النائب عنه ، كما كان الرجل الثاني في الدولة خلال حكمـه ، ومع ذلـك فقد حدث يوم موت الهـادي أن نعـاه إلى أهلـه الأمير خير قـائـد العسكر ، وقـام بدوره بعمل الاحتياطات الأمنية وشدد الحراسة على المدينة والأماكن الهامـة ، ثم توجه إلى « دار الخا » حيث يسكن علي بن المهدي وخرج معه إلى بستـان المتوكل ليلة السبت ١٩ ذي الحجة عام ١٢٥٩ هـ / ٢٠ يناير ١٨٤٣ م ودعا الناس إليـه في تلك الليلة فبايعوه ، ثم جاءه في اليوم الثاني من بقي من الوجهاء والعلماء بعد أن دفن عمـه في بستـان المسـك ، وطلَع إلى القصر وضربت المدافع واستقبل المعـزين والمهنئين كما جرت العـادة بـذلـك[١] . وتم كل ذلـك بـدون أي معـارضـة ، ولعـل حسين بن المتـوكل وغيره من آل المهـدي عبـاس كانـوا يرون عليـاً أحـق من غيره لتوليه الإمامة من قبل ولخلعه وماعاناه بعد ذلك ، ووجـد علي بن المهـدي نفسـه أمام فرصة تعيد إليه الاعتبار ، فقبل ركوب الخطر من جديد وتلقب بالمهـدي في هذه المرة التي ستزيد فيها مدة إمامته ثلاثة أشهر عن سابقتهـا التي استمرت عـامـاً وثلاثة أشهر[٢] .

بدأ المهدي علي عهده الجديد بإطلاق كل السجناء ، وأظهر حسن نوايـاه حتى إزاء أولئـك الـذين كانوا سبب نكبتـه الأولى ، وعين الحكام والعمال ، كما استـدعى القاضي يحيى بن علي الإرياني واستوزره ، ولم يحدث خلال عامه الأول أي أحداث هامة باستثناء قيامه بعد بضعة أشهر بحملـة مع وزيره الإريـاني إلى يريم لمعـاقبـة بعض القبـائـل ، ثم واصـل مـع عسـاكره إلى اليمن الأسفـل ووصـل إلى قعطبـة ،

(١) حوليات : ١١٥ ؛ زبارة : نيل الوطر ١٤٣/٢ ؛ الجرافي : ١٩٩

(٢) وقع وهم عند زبارة ٢٤٣/٢ ولعله خطأ مطبعي فقد ذكر أنه بقي نحو ستة أشهر ، وقد أعيد تصوير نيل الوطر فصدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء بدون تاريخ لكن ذلك كان على كل حال في العام الماضي ١٩٨٣ ولم تراجع للأسف الطبعة القاهرية الأولى على قلة أخطائها لتصحيح ذلك .

فأوجس الإنجليز في عدن خيفة من حملته تلك ، خاصة وقد بلغهم نواياه في مواصلة السير جنوباً ، إلاّ أنه عدل عن ذلك ورجع إلى صنعاء التي وصلها في منتصف شعبان عام ١٢٦٠ هـ / سبتمبر ١٨٤٣ م[١]

☆ ☆ ☆

١١ ـ محمد بن يحيي بن المنصور مغامر يطمح إلى العرش :

جاء الخطر للمهدي علي بن المهدي عبد الله هذه المرة من شخص لا حدود لطموحه في الوصول إلى الحكم ، مستعد للتعاون مع أي كان ، والسفر إلى أي مكان لتحقيق هذه الغاية مهما كانت وسائلها وأخطارها . وقد نجح في ذلك كا كان فيه نهايته آخر المطاف .

كان ذلك هو محمد بن يحيي بن المنصور علي ؛ وقد سبق أن ذكرنا هروبه مع والده عام ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م إلى تهامة خلال حكم المهدي عبد الله[٢] ابن عمه . ثم استقر بعد في تهامة ، إلاّ أن أحداً من المؤرخين لم يشر إلى أخباره وعلاقاته بأشراف أبي عريش أولاً ، ثم بالقيادة أو الادارة المصرية التي استمر وجودها ونشاطها وتأثيرها حتى غادرت تهامة وسلمت مقاليد الأمور للشريف حسين بن علي حيدر في صفر ١٢٥٦ هـ / مايو ١٨٤٠ م ، بل لم يُذكر متى توفي والده عمّ المهدي عبد الله الذي حاول الخروج عليه . لكن المؤكد أن الرجل لم يكن طوال ذلك الوقت الذي يزيد على عشر سنين خاملاً ساكناً ، معتزلاً الناس ، بل كان نشطاً له علاقاته واتصالاته ، يحثه إلى ذلك أسباب كثيرة ، أهمها تشرده مع أبيه من صنعاء ونقمته على ابن عمه المهدي ، ثم من بعده ابنه ، ثم من تلاه في حكم صنعاء . ولا بد أن محمد بن يحيي قد أقام علاقات خاصة مع المصريين المختلفين مع

---

(١) حوليات : ١١٥ ـ ١١٩

(٢) انظر (ص : ٢٣٥ فيما سبق)

إمام صنعاء ، ولا يستبعد أنهم وجدوا فيه بغيتهم كما وجد هو فيهم الوسيلة إلى الوصول إلى الحكم بالتعاون معهم . لكن سرعة الأحداث واضطرار محمد علي إلى سحب قواته من اليمن أحبط آمال محمد بن يحيى ، إلا أنه لم ييئس فبعد الانسحاب المصري بنحو عامين قرر السفر إلى القاهرة ليستعين بوالي مصر في حكم اليمن ، وينسق معه ذلك ، وبقي هناك من عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م حتى عام ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م ، لكنه لم يظفر بما كان يؤمله ، فقد أصبح وضع محمد علي مختلفاً عما كان عليه من قبل ، فعاد أدراجه إلى تهامة[1] . وكان الشريف حسين بن علي حيدر قد أصبح سيد المنطقة كلها بدون منازع . ومما يقوي ماذهبنا إليه من أن محمد بن يحيى كان قد أقام علاقات مختلفة خلال سني وجوده في تهامة ، رحلته المصرية تلك والتي ماكان يمكن أن يقوم بها لو لم يكن له سابق اتصال بقادة الحملة ورجالها . وكذلك الحال مع الشريف حسين الذي ماإن عاد محمد بن يحيى من مصر حتى قصده إلى عاصمة إمارته أبي عريش ، « .. فأكرمه الشريف غاية الإكرام ، واحتفل به كما يصنع الملوك العظام ، ووعده بالنصرة وإنفاق المال في مراده ، والجد والاجتهاد في إبلاغه إلى مراده[2] » . والحقيقة أن كلا الرجلين وجد في الآخر ضالته المنشودة ، فمحمد بن يحيى وصولي يهمه حكم صنعاء والشريف حسين طامح في توسيع إمارته إلى ماهو أوسع من المخلاف السليماني والساحل التهامي وضم المرتفعات واليمن الأسفل وصنعاء وبقية اليمن لو أمكنه ذلك ، وذلك نفسه ماكان من ابن عمه من قبله الشريف حمود بن محمد (ت ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م) فخاب ذاك الطموح بمجيء الحملة المصرية الأولى التي

---

(١) الكبسي : ق ٣٨٢ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٣/٢ ؛ الجرافي : ١٩٩

(٢) الكبسي : ق ٣٨٢ ؛ وفي كتاب الاستاذ العقيلي (تاريخ المخلاف السليماني) : ٥١٣/١ أن قدوم محمد بن يحيى على الشريف حسين كان عام ١٢٦٢ هـ وكان بالإمكان الظن بأن هذا خطأ مطبعي لولا أنه بنى على هذا التاريخ تسلسل بقية الأحداث التي أوردها في الموضوع وكرر التاريخ نفسه ، وهو وهم ذكر نفسه صحيحه من قبل (ص : ٣٥٩)

أعادت حكم تهامة إلى إمام صنعاء المهدي عبد الله ، وهاهي ذي الحملة الثانية تمنع إمام صنعاء من السيطرة على المنطقة نفسها وتسلمها إلى الشريف حسين الذي قوي مركزه ووجد نفسه بعد عامين يستضيف مغامراً يساومه سلفاً على اقتسام البلاد إن هو ساعده في الوصول إلى حكم صنعاء .

وهكذا رأى الشريف في الاستجابة لمحمد بن يحي ماتقتضيه سياسته وآماله في التوسع ، واتفق « مع ضيفه على شروط المساعدة[1] » .

☆ ☆ ☆

١٢ ـ تحالف الشريف حسين مع محمد بن يحي

لم تكن المصادفة التي ذكرها الكبسي - وعنه نقل في الغالب المؤرخ زبارة من وصول بعض مشائخ ريمة إلى أبي عريش لاستدعاء الشريف حسين ليتولى أمور بلادهم حين وصل محمد بن يحي[2] ـ لم تكن إلاّ عاملاً مشجعاً لسرعة تنفيذ خططه في التوسع . وبعد أن استكمل استعداداته العسكرية سار بجيش كبير في مطلع عام ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م إلى مدينة زبيد ومعه محمد بن يحي . ومن زبيد وجه قسماً من الجيش ـ ومعظمه من قبائل سحار ـ بقيادة محمد بن يحي ليستولي على ريمة ، فتم له ذلك بسهولة[3] . ويعزو الكبسي ذلك « لرغبة أهل البلاد إلى الشريف وكونه [محمد بن يحي] مُوَلّى من جهته[3] » .

وبعد أن وصلت الشريف حسين بشائر الاستيلاء على ريمة ، عقد الألوية لأقربائه ، وكان منهم الشريفان هزاع وأبو طالب وأمر جيشه بالمسير « حيث كان

---

(١) العقيلي : تاريخ ٥١٣/١

(٢) الكبسي : ق ٣٨٣ : زبارة : نيل الوطر ٣٤٣/٢

(٣) العقيلي : ٥١٣/١ : الكبسي : ق ٣٨٣ : حوليات : ١١٩ الذي ذكر أن الغزو تم في ذي القعدة عام ١٢٦٠ هـ . بينما ذكر العقيلي أن ذلك عام ١٢٦٢ هـ ، واعتمدنا الكبسي لمعقولية تتابع الأحداث خاصة وهو بعد هذا التاريخ يتفق مع صاحب الحوليات .

هو في المؤخرة التي يتألف جنودها من يام ، فاستولى على حَيْس ، وقضى بها أيام عيد الأضحى ، ثم تقدم صاعداً مشارف الجبال فأقبل أهلها للانضمام إلى جيشه ، فوالى تقدمه حتى عسكر على تعز التي كان بها حامية لإمام صنعاء المهدي [علي] معتصمة بقلعتها ، فضربها بالمدافع حتى أرغمها على التسليم ، واستولى على المدينة ..[1] » ، وفي رواية صاحب الحوليات أن العامل على المدينة كان عبد الله بن علي الإرياني « فتخادعت الرتب وقبضوا دراهم ، وابتاعوا ، ودخل الشريف المدينة[2] » وقد عين الإرياني بعد ذلك عاملاً على إب من قبل صنعاء .

ووالى الشريف حسين تقدمه ، وسيطر جنده على بقية مناطق تعز والحُجرية ، وتوجه إلى ذي السفال . وما إن حل شهر جمادى الآخرة عام ١٢٦١ هـ / يونيو ١٨٤٥ م حتى أكمل سيطرته على جميع اليمن الأسفل وأخرج منه من كان هناك من القبائل البكيلية التي عادت للتمركز وأخذ الرهائن وأرسلهم قبله إلى زبيد ، وعين العمال وأخذ في تنظيم شئون هذه المناطق ، متتبعاً خلال ذلك تنفيذ حليفه محمد بن يحيى القسم الثاني من الخطة وهو تقدمه من ريمة عبر منطقة الجبال للاستيلاء على صنعاء وإسقاط إمامها المهدي علي[3] .

وكان محمد بن يحيى بدوره بعد أن ثبت مركزه في منطقة ريمة تقدم بقواته إلى السلفية التابعة لريمة ، فتلقاه شيخها المنتصِر بالترحيب والضيافة . وهناك استقبل رؤساء القبائل والأعيان « وكثير من الناس يحثونه على الانتهاض إلى صنعاء وولاية الأمر فيها ، وكون صاحبها غير صالح لهذا المنصب فنهض إلى جبل ضوران[4] »

---

(١) العقيلي : ٥١٣/١

(٢) حوليات : ١٢٠

(٣) الكبسي : ق ٢٨٣ ؛ حوليات : ١٢٥ ؛ العقيلي ٥١٣/١

(٤) الكبسي : ق ٢٨٣

تقدم محمد بن يحيى ، وتمكن من الاستيلاء على بلاد عتمة ووصاب وبلاد آنس فـستقر بحصن مركزها ضوران المشهور بالدامغ ، وجاء إليه المبايعون بالإمامة ، ومن بينهم عامل ذمار علي مثنى الجرادي[1] وعقال القبائل والقضاة آل العنسي كبار برط وآخرون من عمال المهدي في المنطقة ، كما أمر بإطلاق السجناء في آنس وذمار وأصبح محمد بن يحيى في مركز قوي هدفه القادم التوجه إلى صنعاء لإسقاط المهدي علي[2] ، أما حليفه الأمير الشريف حسين بن علي حيدر فبعد أن رتب أوضاع اليمن الأسفل واطمأن إلى مركز صاحبه محمد بن يحيى قرر العودة إلى زبيد وأسند القيادة العامة في اليمن الأسفل إلى محمد بن يحيى تاركاً له مواجهة إمام صنعاء وقواته[3] .

☆ ☆ ☆

١٣ ـ المهدي علي ومحمد بن يحيى وجهاً لوجه

تركنا المهدي عليا بعد عودته إلى صنعاء من حملته على اليمن الأسفل ، وقد تبع ذلك بعد بضعة أشهر توسع الشريف حسين بن علي حيدر واستقامة أمره على اليمن الأسفل ، وتقدم محمد بن يحيى من ريمة إلى آنس . وقد حاول المهدي علي إيقاف زحف محمد بن يحيى لكنه لم يفلح . ثم انشغل خلال ذلك ببعض المشاكل التي كان منها في مطلع العام ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م خروج قبائل بلاد البستان عليه بعد شكاواهم من وزيره ، وتقدم إليهم بقوات وقبائل من بني الحارث وهمدان وسنحان ، لكنها تراجعت وتم الصلح في آخر الأمر بعد أن دفع لقبائل بلاد البستان بعض المال على أن يدفعوا مستقبلاً الزكاة والواجبات ويرفع عنهم ما يشكونه من ظلم[4] .

---

(١) ذكر صاحب الحوليات : ١١٩ أن المهدي علي كان قد أرسل علي مثنى صاحب عنس بخمس مئة عسكري لمواجهة محمد بن يحيى في بداية زحفه في ريمة لكنه رجع بخفي حنين .

(٢) الكبسي : ق ٢٨٣ ؛ حوليات : ١٢٤

(٣) العقيلي : ٥١٤/١

(٤) حوليات : ١٢١

ويبدو أن العلاقات ساءت بين المهدي ووزيره القاضي يحيى بن علي الإرياني وبخاصة بعد تشديده على أهل صنعاء وتعزيره رجلاً من أهل سوق الحب ، وتجمهر الناس ونزلوا ثائرين إلى المهدي في بستان السلطان ، ففزع من ذلك ، لكنه بعد أن استوضح الأمر حملهم كتاباً يحظر فيه على الوزير الإرياني أن يخاطبهم بشيء ، وتوجهوا بعد ذلك إلى داره وقد بيتوا أمراً إلاَّ أنهم لم يجدوه . ونتج عن ذلك أن عاد أهل الأسواق وعقدوا اجتماعاً قرروا فيه اختيار شيخ مسئول عن كل سوق من أسواقهم ، وأربعة مشائخ يلمون شعث أهل صنعاء ويكونون مسئولين عن الدفاع عنهم وعن مصالحهم[1] . وكانت الأوضاع العامة سيئة فانقطعت التجارة والواردات التي كانت تصل إلى العاصمة نتيجة سيطرة الشريف حسين ومحمد بن يحيى على تهامة والمناطق الوسطى واليمن الأسفل . أما الوزير الإرياني فقد ضاق بالمهدي وبما يجري حوله ، فغادر صنعاء ولزم داره في الروضة ، ولم يقبل وساطات المهدي ورسله للعودة إلى صنعاء فعين بدلاً منه القاضي يحيى بن علي الردمي[2] .

☆ ☆ ☆

لم يكن أمام المهدي علي ، والحال تسير من سيء إلى أسوأ وخطر محمد بن يحيى يقترب ، إلاَّ أن يعدَّ قواته ويخرج من صنعاء لمواجهة منافسه قبل أن يصل إليه ويحصره في العاصمة . ولربما كان ذلك استجابة لنصيحة المقربين إليه مخافة ما قد يحل بصنعاء لو حوصرت ، ثم ما يتبع ذلك لو دخلتها جيوش القبائل الملتفة حول ابن يحيى في ضوران .

وهكذا خرج المهدي من صنعاء في العاشر من جمادى الآخرة عام ١٢٦١ هـ /

(١) حوليات : ١٢٣

(٢) نفسه : ١٢٤

١٦ يونيو ١٨٤٥ م على رأس جيش ضم جنده وقبائل من خولان ، كما كان معه كبار وزرائه وحاشيته ، ومن بينهم الوزير الردمي والفقيه أحمد بن محسن الحيمي ، والقاضي يحي بن علي الشوكاني ، والفقيه إسماعيل بن محمد العمري ، وغيرهم من الأمراء والقادة[1] توجه المهدي بجيشه جنوباً ، حيث عسكر في قرية بيت الزيادي ، ثم تقدم إلى قرية نقيل يسلح على نحو خمسين كيلو متراً جنوب صنعاء ، وكان بها رتبة من قبائل ذي محمد تابعة لمحمد بن يحي فشتتت . وكانت الأخبار قد بلغت محمد بن يحي فتوجه بقواته حيث التقى الجيشان أولاً في معركة غير فاصلة في قرية ضَاف . وفي الليل تسلل بعض أصحاب المهدي إلى المعسكر الآخر . ثم جرت في اليوم الثاني معركة في أسفل النقيل هزم فيها المهدي علي وانحصر مع أصحابه في قرية النقيل . ويظهر أن بعض المقربين من المهدي علي كانوا يرون في خصمه الكفاية والقوة بالإضافة إلى واقع الحال الذي حسمته المعركة ، كما أن الرجل نفسه لم يعد شيء يهمه إلاّ الهروب بحياته والخروج من هذا المأزق ، وقد علمته الأيام أن التمسك بالملك نهايته وخيمة ، ثم ليس هنالك ما يخسره بعدُ إذا هو ضمن السلامة ، ومن يدري ، فلا شيء يبقى ثابتاً في لعبة السياسة والحكم . ولهذا فقد دارت الوساطة بين الرجلين على أن يتنازل المهدي لمحمد بن يحي ، فالتقيا في خيمة واحدة وتمت المصالحة ولقب الإمام الجديد نفسه بالمتوكل ، وتوحد العسكران ، وكان ذلك في ١٨ جمادى الآخرة / ٢٤ يونيو ، وفي ٢٠ من ذلك الشهر « ارتحلوا بيد الجمع إلى صنعاء ، فدخلها المتوكل في جمع عظيم واستقر في بستان السلطان » كما يذكر الكبسي[2] ، إلاّ أن صاحب الحوليات ، أعطانا تفصيلاً مبسّطاً للاستقبال فقد « لقيه أهل المدينة والأعيان إلى بلاد

---

(١) حوليت : ١٢٥ ؛ الكبسي : ٢٨٣

(٢) الكبسي : ق ٢٨٣ ؛ حوليات : ١٢٥ ـ ١٢٦ ؛ الجرافي : ١٩٩ ؛ زبارة : **نيل الوطر** ٢٤٣/٢ وقد أرخ ذلك بجمادى الآخرة ١٢٦٠ هـ ولعله خطأ

سنحـان ، وانتظروه لصـلاة الجمعـة ، ولم يـدخـل إلاّ عقيب العصر لكثرة الجيـوش وتزاحم الناس ... »[1] .

☆ ☆ ☆

١٤ ـ المتوكل محمد بن يحيى يُثَبِّت سلطانه

كان أول عمل قام به المتوكل محمد بن يحيى أن استدعى في اليوم الثاني القـاضي يحيى بن علي الإرياني من الروضـة فـأودعـه السجن ، وربمـا كان ذلـك بنصح من علي بن المهدي ، أو خوفاً من قيامـه بـأي دور بين القبـائل ، وبعـد أسبوع وصل من يريم محفوظاً القاضي محمد بن يحيى الإرياني وكان عاملاً هناك لعلي بن المهـدي فحبسه أيضاً[2] . ولعل سجنهما كان سبب عصيـان حصن إريـان الشـامخ في رأس جبل بني سيف من بلاد يريم بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقـد جهز المتوكل حملـة نزل على رأسها ، فحاصر الحصن نحو شهر ، وقصفـه بـالمـدافع حتى استسلم من فيـه[3] . ورغم قصر مدة حكم المتوكل فقد ظهرت مشاكل في المنطقة نفسها فاضطر أن يعرج بعـد إريـان على خُبـان وحبيش فقبض على المخـالفين وآخرين متمردين وخرّب حصونهم[4] . وقد حدث في وصاب ، التي أيـدتـه وهو في طريقـه لفتح صنعـاء أن قطعت الطرقات وامتنع أهلها من دفع الواجبات . ولابـد أنـه كان ينوي تـأديب وصاب وزاد في حماسه إلى ذلـك تهنئـة الشـاعر المشهور محسن بن عبـد الكريم بن إسحاق[5] بعد الاستيلاء على حصن إريان بقصيدة يغريه فيهـا بـالتقـدم على بلاد

(١) حوليات : ١٢٧

(٢) حوليات : ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ وسبق أن ذكر (ص : ١٢٤) أن القـاضي يحيى بن عبـد الله الإريـاني مع آخرين من عمال المناطق الوسطى ممن وصل إلى محمد بن يحيى حين كان بضوران ولا ندري هل هذا آخر أم أن هناك غلطاً في الأسماء وقع فيه المصنف .

(٣) حوليات : ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ الجرافي : ٢٠٠ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٤/٢

(٤) حوليات : ١٣٤ ـ ١٣٥

(٥) انظره فيما سبق (ص : ٢٦١) ويبدو أن ابن إسحاق كان في وصاب حيث كان لهم هناك أرض ومال .

وصاب حيث قال[1] :

أمِنْ بعد إريانٍ يَعزّ وُصَاب ويحميه عَنْ سُوء العِقاب عُقَاب

فخرج من ذمار وصعد إلى الدن مركز وصاب ، وأدب الرافضين لدفع الزكاة ، وحطم حصوناً في المنطقة ، ثم عرج على ريمة فقضى على أحد كبار أعيانها هناك وهو الشيخ علي يحي المنتصر الذي كان له إقطاع وعبيد وسطوة في المنطقة[2] .

عاد المتوكل بعد ذلك إلى صنعاء بعد أن أرسل الوزير عبد الرحمن محافظ لتفقد أحوال اليمن الأسفل وأما القاضي يحي بن علي الإرياني ، فبعد كل ما جرى له تراجع المتوكل عن مواقفه ، وعينه في العام التالي في شهر ربيع الأول عام ١٢٦٢ هـ / مارس ١٨٤٦ م والياً على اليمن الأسفل « وكساه وأركبه نجيباً من خيل بيت المال ، ورد عليه بيته »[3] واستمر على وظيفته حتى توفي بعد عام[3] .

☆ ☆ ☆

حاول المتوكل منذ دخوله إلى صنعاء أن يكون حازماً سريع المبادرة في مواجهة أي خطر يتهدده ، كما أثبت أنه أكثر كفاية من علي بن المهدي ، وأبعد نظراً ، وأعظم طموحاً وسياسة ، وهو في مواقفه السياسية لاتهمه إلا منفعته ومصالحه الشخصية ولو غير بسببها مواقفه وصداقاته . وهو من ناحية أخرى واسع الأفق في الفكر ومتسامح مذهبياً ، ولهذا فقد كان شديداً على المتعصبين صارماً في تنفيذ الحدود . ففي أول شهر لرمضان صامه في العاصمة افتتح بنفسه في جامع صنعاء الكبير بعد صلاة الجمعة القراءة في « سنن الترمذي » في سلسلة

---

(١) الجرافي : ٢٠٠ ، زبارة : نيل الوطر : ٣٤٤

(٢) حوليات : ١٤٢ ـ ١٤٣ :

(٣) نفسه : ١٤٥ و ١٦٢

قراءات ربما أرادها في الأمهات الست ، وقد قام بعض المتعصبين والجهلاء بإشاعة بلبلة بين الناس بأن المتوكل وبعض العلماء يرون تقديم الصحابة على آل البيت في خطبة الجمعة !، وكادت تقع في الجمعة التالية فتنة ، أمكن تداركها ، وتتبع المتوكل من وراءها فعاقبه ونفاه من صنعاء نحو ستة أشهر[1] .

وقبل ذلك قام بتعزير جماعة ممن يبيعون المسكرات ، فطيف بهم في شوارع صنعاء ، كما أمر « بتكسير الملهيات من الدّفوف والمعازف والمطربات ، وحث الناس إلى المحافظة على الجمعة والجماعات في أوقاتها .. »[1] .

ولمّا كانت الشريعة ومسائل القضاء تمس حياة كل الناس ، وكانت الشكوى دائمة من تردي القضاء ونقض الأحكام ، فقد حرص المتوكل على أن يحضر بنفسه « ديوان الشريعة » وعند إصدار الأحكام « ومنع المناقضة والمخالفات » ، وقد قوى موقفه هذا ومسلكه السليم في نزاهة القضاء أن جمع في شهر جمادى الآخرة ١٢٦٢ هـ / يونيو ١٨٤٦ م الحكام في ديوان الشريعة في بستان السلطان وأصدر أمره بتعيين القاضي العلامة أحمد بن محمد بن علي الشوكاني قاضياً للقضاة[2] وهو المنصب الذي تسنمه والده الإمام الشوكاني قرابة أربعين عاماً من قبل ، وسار ابنه على نهج والده عدلاً وإنصافاً ووقوفاً في وجه كل ظالم ، ولاقى من جراء ذلك الكثير من المشقة والعداوات بل والسجن حتى توفي عام ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م[3] .

☆ ☆ ☆

لم يتح للمتوكل دوام الاستقرار ، فبعد عودته من حملته الأولى على إريان ووصاب وريمة كان عليه أن يحل بعض المشاكل ويواجه تهديدات بعض القبائل

---

(١) حوليات : ١٣١ ـ ١٣٢ ، ومن اللطيف ما ذكره أيضاً من أن المتوكل أمر في العيد تنظيف وكنس شوارع صنعاء

(٢) نفسه : ١٣١ و ١٣٧

(٣) انظره فيما سبق (ص : ٢٥٥ حاشية : ٢)



الشمالية لحكمه أو صراعها فيا بينها بما يجعل حبل الأمن والسلامة العامة في اضطراب . وقد نجح في ذلك باستخدام المبادرة وإظهار الشجاعة مع حسن النية . ومن ذلك ما بلغه في العام الثاني لحكمه من خروج قبائل بكيل من بلادها على عادتها في المجيء لمحاصرة العاصمة أو التوجه إلى اليمن الأسفل ؛ فغادر صنعاء للإقامة في الروضة ، ومن هناك كتب إلى مختلف القبائل بأن تحفظ حدودها وحمّلها مسئولية السماح لبكيل أن تمر عبر أراضيها ، وبأنه سيعاقب من يخالف ذلك ، وبخروجه إلى الروضة لمواجهة ما قد يقع من هجوم القبائل خرج على قاعدة من سبقه من الأئمة المتأخرين فيمن ذكرناهم في انتظار الخطر والتربص له خلف أسوار العاصمة التي يريد حمايتها بل كان يبادر الأمور بشجاعة مظهراً قلة مبالاته من أي هجوم محتمل . كما كان له موقف مختلف أيضاً في مواجهة القادمين . فرغم تحذيره القبائل فقد تمكنت بكيل من عبور بعض المناطق والوصول إلى الكَولة على بعد بضع كيلو مترات غربي مدينة الروضة . وبدلاً من أن ينتظر مداهمتهم في القتال ، فقد توجه إليهم وحده أو في عدد قليل من أصحابه وحاورهم وناظرهم ثم وبخهم على سوء عادتهم في السلب والنهب ، ولقد كانت حجته قوية ومنطقه مقنعاً حتى تمكن من تفريقهم وأدخل معه عدداً من قادتهم وأفرادهم إلى صنعاء ولبثوا فيها طيلة شهر رمضان ١٢٦٢ هـ / سبتمبر ١٨٤٦ م[(١)] واستبقى منهم بقية من ذي محمد يتقوى بهم في حملة قام بها بعد عيد رمضان ، ثم كان له معهم موقف صارم بعد ذلك . ففي التاسع من شوال / ٣١ سبتمبر خرج المتوكل من صنعاء على رأس حملة تأديبية لقبيلة عيال سريح البكيلية وعمران الحاشدية لامتناعهم من تسليم الواجبات ، وتقع هاتان القبيلتان على بعد أقل من خمسين كيلو متراً شمال صنعاء . وجرّ المتوكل معه المدافع والخيام وكان إلى جانب عساكره من بقي عنده من قبائل ذي محمد . وبدلاً من التوجه إليهم مباشرة عرج على

---

(١) حوليات : ١٣٨ ـ ١٣٩

وادي ضهر (ظهر) واستفاد من الخلافات القبلية التي كانت بين عيال سريح وهمدان فاستعان بهمدان في حملته ، ثم تقدم على رأس الجيش ودمّر به الخارجين وقراهم في مراكزهم بني ميمون وبيت الضلعي ثم عمران وعاد إلى صنعاء في ٢٧ شوال / ١٨ اكتوبر ومعه الأسرى والرهائن[١] .

وحين عاد إلى صنعاء لقي من قبائل ذي محمد ما سبق أن لقيه المهدي عبد الله قبله عام ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ ، حين أراد إرسالهم في حملة على تهامة فرفضوا فمنع خروجهم من صنعاء ، ثم حدث ما كان من نتائجه نكبة بئر العزب[٢] . فقد ذكر صاحب الحوليات أن المتوكل أراد الخروج إلى وصاب فامتنعت ذو محمد من الذهاب معه ، وأدرك أن همهم المغانم والكسب ، ولمّا لم يفلح في إقناعهم خرج بمن معه وأمر بمنعهم من الخروج من أبواب المدينة إلاّ من أراد اللحاق به فيمنح المصروف والمحتاج ويترك أحد أقربائه رهينة حتى لا يفر ! فما كان منهم إلاّ الخضوع للأمر ولحقوا به في اليوم الثاني[٣] .

وهكذا لم يقر للمتوكل قرار في عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م فقد اضطر مرة ثانية للذهاب إلى المنطقة الوسطى وإلى وصاب وريمة بعد وقوع حوادث هناك كان منها محاصرة عامله على ريمة الحاج عبد الله الحبابي ، ففك عنه الحصار وعين خلفاً له القاضي أحمد بن حسين العنسي البرطي[٤] ، وفي نهاية العام راح يُعد العدة لأخطر عمل قام به في مدة حكمه ذلك هو الاستيلاء على تهامة من يد حليف الأمس وممهد الحكم للمتوكل الشريف حسين بن علي حيدر .

☆ ☆ ☆

(١) حوليات : ١٣٦ ـ ١٤٠

(٢) راجع ما سبق (ص : ٢١٨)

(٣) حوليات : ١٤١

(٤) نفسه : ١٤٥ ـ ١٤٧

١٥ ـ قتال الحليفين

ليس من شك في أن محمد بن يحي ما كان يمكنه أن يصبح إماماً وحاكماً مطلقاً على اليمن ـ باستثناء تهامة ـ بدون مساعدة الشريف حسين ، وما قدمه له من عون مادي ومعنوي حتى دخل صنعاء ، وأعاد له السيطرة على تعز ومناطقها . وهو حين فعل ذلك لم يكن على أي حال بلا هدف أو منزهاً من كل مطمح أو غاية ، فقد كان له بالتأكيد مطامح وأمال عريضة في توسيع نطاق إمارته ، ولن يتأتى له ذلك مالم يضمن إخلاص إمام صنعاء أو على الأقل حياده ، بل كان هاجسه كيف يمكن له الاحتفاظ بتهامة نفسها إذا كان إمام صنعاء يعتبر تهامة والخلاف السليماني جزءاً لا يتجزأ من مملكته وأن حاكم أبي عريش أحد ولاته . وقد ظن الشريف خطأ أن محمد بن يحي إمامه المطلوب !.

وبالمقابل لم ير المتوكل وقد تحقق له ما تحقق ، « إلاّ أنه صاحب الحق الشرعي اضطرته الأحوال وأرغمته الظروف إلى الاستعانة بأمير كان أسلافه تابعين للأئمة ، وأنه قد قابل جميل الأمير بالمثل عندما بعث له بعد دخوله صنعاء مجموعة من الهدايا الثمينة كان من ضمنها خزانة كتب مخطوطة نادرة وجدت قبولها لشغف الشريف بالكتب فضمها إلى مجموعته الثمينة »[1] .

ورغم هذا التباين في النظرتين فقد كان من المحتمل استمرار علاقة الود والتحالف بين الرجلين لولا أن المتوكل وجد نفسه محكوماً بظروف اقتصادية صعبة سببها خواء خزينته ونضوب مصادر الدخل لسيطرة الشريف حسين على موانئ تهامة التي كانت دائماً مصدراً أساسياً لصنعاء ، ثم حملات المتوكل العسكرية

---

(١) العقيلي : ٥١٤/١ ـ ٥١٥ ؛ وقد ذكر الواسعي في تاريخه (تاريخ اليمن) : ٢٣٠ أن تلك الكتب كانت في حوزة علي بن المهدي ، وهذا مستبعد للعلاقات الطيبة التي حرص عليها المتوكل منذ تنازل له الأول عن الحكم وعودهما معاً إلى صنعاء ، ولم يكن صعباً حصوله على بعض الكتب ليرسلها هدية .

المكلفة ، والتي كان بعضها بغرض جمع الزكاة والضرائب التي كان في حاجة إليها لتسيير حكمه . والمتوكل قبل ذلك وبعده طموح « مكيافلي » النظرة ، فبدل أن تجد القبائل فيه شغلها فتحاربه ويضطر بدوره إلى حربها فلماذا لا يشغلها عن نفسه باستعادة تهامة فيحقق طموحه ، ويفتح متنفساً للقبائل هناك ، ويستعيد مورداً يوفر لحكومته دفع التزاماتها للجند والموظفين وغير ذلك .

وإذا كانت تلك العوامل قد تجمعت سراعاً خلال عامين من حكم المتوكل ، فإنه وقبل أن يدخل صنعاء بقليل كان قد سبقه إليها الشيخ علي حميدة رئيس قبيلة القحري هارباً من باجل مستغيثاً بإمام صنعاء من عدوان الشريف حسين وتوسعه[1] وكان المهدي علي بن المهدي حينئذ في شغل شاغل فخطر محمد بن يحيى كان قد اقترب من صنعاء فعاد الشيخ أدراجه .

ثم تجددت أمور بعد أن أصبح المتوكل إماماً في عامه الثاني ، فلقد طلب الشريف قبائل يام وبذل لها الأموال وجهز جيشه ، وخرج بغرض استئصال الشيخ علي حميدة والاستيلاء على بلاده ، ووقعت حروب شديدة بين الطرفين انهزم فيها الشريف وأصحابه وتبعهم قبائل القحري بعد خروجهم من قلعتهم باجل المحاصرة ، وقد عقد صلح بعد ذلك وتواصل الشريف وحميدة وتبادلا الهدايا[2] ، بيد أن الشيخ علي حميدة « كان خائفاً من الشريف فما برح يكاتب إلى المتوكل ويعده تمام ولاية التهائم ، وأنه سينفق معه الأموال ويعضده بالرجال ... »[3] .

وصلت الأمور إلى درجة حرجة ، فقد بدأ المتوكل يعد جيشاً لغزو تهامة واستعادة سيطرته عليها ، لكن أحداً من المؤرخين لم يوضح لنا كيف كانت علاقة

---

(١) حوليات : ١٢١

(٢) نفسه : ١٤٣

(٣) الكبسي : ق ٣٨٤

المتوكل بالشريف حسين خلال العامين بعد تحالفهما ، وهل تراسلا خلال ذلك ، وهل طلب المتوكل عوناً أو مساعدة مادية فرفض الآخر ذلك ، أم أن انشغال كل واحد بما هو فيه خلق مجالاً تنمو فيه طموحات كل منهما وأهدافهما السياسية على ضوء الضرورات والمستجدات التي يواجهها . وقد استغل المناوئون للشريف حسين والمتضررون منه رغبة المتوكل في استعادة تهامة فأغروه بذلك ، لأن الشريف حسيناً « فرض ضرائب باهظة على التجار والأهالي في المناطق التابعة له بحجة أنه يقوم بإعداد جيش كبير يهاجم به عدن لينتزعها من أيدي البريطانيين ، وقد ضاق الأهالي بعبء هذه الضرائب وبدءوا يفرون من المخا والحديدة متجهين إلى عدن .. »[1]

ولابد أن بعض أولئك قد جاءوا إلى صنعاء ، لكن أهمهم كان صاحب باجل الشيخ علي حميدة كما تقدم[2] .

وقد أجمل صاحب الحوليات أسباب إعداد المتوكل لحملته على الشريف في جملة تقريرية توضح رأي المتوكل ودوافعه ومبرراته قال :

« .. لما طال اغتصابه على تهامة واحتكر ماتَحَصَّل من البنادر لبيت المال حيث الولاية إلى الأئمة في أموال الله ، والشريف صار يصرفها في البغاة ويحتكرها لمن بعده ، كأنها من مخلفات آبائه ! ، وقد عرّفه الإمام ولم يرجع منه ما يوافق الصواب ، فعزم على الخروج عليه .. »[3]

فالمتوكل إذن راسل الشريف حول إيرادات الموانيء لكنه - كما يبدو لم

---

(١) اباظة : (عدن والسياسة البريطانية ٢٧٤) .

(٢) العقيلي : ٥١٥/١

(٣) حوليات : ١٤٩

يستجب لـه فيا طلب ، وذكر المؤرخ المرحـوم عبـد الله الجرافي أن المتـوكل طلب إلى الشريف أن يرجـع إليـه بعض البنـادر ولكنـه لم يقبـل[1] ، ويتضـح نكث الشريف حسين في تعامله مع حلفائه حينـا كان حليفـاً لأمير عسير عـائض بن مرعي الرفيـدي (ت ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م[2]) فتخلى عنه وهو في أوج تحالفه معـه حين وجـد نفسـه في مركز القوة ولديه حليف جديد هو المتوكل محمد بن يحيي . فعنـدمـا طـالـب أمير عسير صاحبه الشريف حسيناً المتفق عليه نتيجة قيامه بغزو باقم وإخضاع قبائل بني جمـاعـة لصالح الأمير الشريف حسين : « أخذ بدوره في الماطلة والتسويف لتلك الطلبـات ، بيد أن الحلف الجديد الذي استنـد إليـه مبـدئيـاً لم يـدم ، فقـد لمس الأمير من الحليف الجديد [محمد بن يحيي] بوادر العـداء والخطر المحقق ، فـأجفل نـاظراً إلى ورائـه فـإذا عـائض مكشر الأنيـاب متحفز للوثوب ، فلم ير من حسن التـدبير أن يجعـل نفسـه بين شقيّ الرّحا ، وترجح له أن مصادقات عائض أجدى فائدة ، وآمن غـائلـة من الحليف الجـديـد ، فبعث ابن أخيـه الحسن بن محمد إلى عسير ، فعمل مـا وسعـه حتى تمكن من إعادة حسن العلاقات ، وعقد معاهدة دفاعية تعهد الأمير عـائض بموجبهـا من دفع كل اعتداء على بلاد الأمير[3] »

وكأن الشريف حسيناً رأى أنه لابـد من الركون إلى حليفـه الأول أمير عسير فيا لو حدث هجوم من قبل المتوكل محمد بن يحيي ، « وأقام في الحديـدة في دعـة ، وخفض [جنده من قبائل يام وهمدان] غير حاسب أي حساب لخصمـه ، وبقيت لديه بقيـة من الجنود المرتزقـة الهمـدانيين بمثـابـة حرس خـاص لـه ، وهم بـالطبع

---

(١) الجرافي : ٢٠٠

(٢) ولي الإمارة عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م وتحالفت عام ١٢٥٦ هـ مع الشريف حسين بن علي حيدر أمير أبي عريش على محاربة العساكر المصرية في تهامة ، وكان لـه حروب وغزوات في المنطقة (انظر : العقيلي ١/٥٤١ ـ ٥٤٦) .

(٣) العقيلي : ١/٥١٤ ـ ٥١٥

يدينون بالولاء الديني والروحي للإمام الزيدي خصمه الأول »[1] لكنه بعد ذلك بدأ يعد جيشه بعد أن بلغته حشود المتوكل واستعداده للحرب .

☆ ☆ ☆

عزز المتوكل جنده ببعض قبائل بكيل ممن كان لديه منهم من برط واستدعى القبائل المجاورة لصنعاء فجند منهم من همدان وسنحان وبني الحارث وبلاد الروس وبلاد البستان وخولان . وفي مطلع المحرم ١٢٦٤ هـ / ديسمبر ١٨٤٧ م خرج أهل صنعاء يشيعون المتوكل وهو على رأس هذا الجيش الكبير إلى غرب العاصمة وتوجه إلى تهامة فاستقبله خارج باجل الشيخ علي حميدة على رأس أعيان قبيلته القحرى ، فعسكر في محل يقال له القصر[2] . وبعد أن أناخ الجيش وانضم إليه بقية القحرى وقبائل الجرابح تقدم إلى قرية الغانمية . وكان الشريف حسين خلال ذلك قد هرع من الحديدة على رأس قواته ، فتبين له سيطرة المتوكل على منطقة باجل ومراكزها ، فعسكر على مقربة من القطَيْع . وفي اليوم التالي السبت ١١ محرم عام ١٢٦٣ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٨٤٧ م[3] ، وقعت معركة حامية ، هزم فيها الشريف حسين وجرح بعد أن تشتت جيشه وكان فيمن قتل أخوه يحيى بن علي حيدر فانسحب بمن بقي معه إلى قلعة دير القطيع التي كان بها سادة من آل الأهدل[4] . وهناك ضرب المتوكل حصاراً شديداً على الشريف ومن معه استمر إلى آخر الشهر التالي ، فلما نفد كل ما لديه من المؤن والماء استسلم الشريف لحليفه القديم متنازلاً له عن تهامة ، لقاء سلامته وإطلاق سراحه .

---

(١) العقيلي : ٥١٦/١

(٢) الكبسي : ق ٢٨٤ ؛ حوليات : ١٤٩ - ١٥٠

(٣) هذا التاريخ في الحوليات في عام ١٢٦٣ هـ وكذلك الكبسي وقد اعتمدنا بقية المصادر كالعقيلي والجرافي وزبارة .

(٤) الكبسي : ق ٢٨٤ ، حوليات : ١٥٠ - ١٥٣ ؛ العقيلي ٥١٦/١ - ٥١٧

وبعد أن كتب وثيقة التنازل وجه أوامره إلى ابني أخيه حسن بن محمد عامل المخا وحيدر بن محمد عامل أبي عريش وإلى ابنه محمد نائبه في الحديدة لتسليم مناطقهم للمتوكل محمد بن يحي . واجتمع الثلاثة مع بقية الأشراف والأنصار في الحديدة فتدبروا الأمر واتفقوا على وضع خطة سريعة يحاولون بها إنقاذ الأمير الشريف حسين ويدعمون موقفهم لمواجهة المتوكل . وكان أول عمل قاموا به هو الكتابة إلى المتوكل بالموافقة على أوامر الشريف حسين بتسليم البلاد إليه بعد إطلاق سراحه ووصوله إليهم إلى مدينة الزهرة سالماً . وانصرفوا بعد ذلك لتدبير أمورهم في الحديدة بعد أن أصابتها البلبلة والفوضى ، وترك أمر تحصينها والدفاع عنها للشريف حسين بن محمد ، وتوجه الشريف حسن بن محمد بن علي حيدر إلى نجران ليستنجد بقبائل يام ، كما كلف حيدر بن محمد مهمة مشابهة إلى أبي عريش ، وتوجه ابن الشريف حسين ليلقى والده في الزهرة[1] . أما المتوكل فبعد أن تلقى الرد ، وقد بلغه تحصين الحديدة ومادبره الأشراف[2] قاد جيشه واصطحب معه أسيره وتوجه إلى زبيد بعد أن عين الشيخ علي حميدة على الزيدية ونواحيها فدخل بيت الفقيه وولى عليها الأمير المملوك توفيق الدنوة ، ثم توجه إلى زَبيد فبقي فيها إلى آخر شهر ربيع الأول/مارس ، وقبل أن يغادرها عين ابن عمه حسين بن المتوكل أحمد عاملاً عليها ، وفي قرية البيشية خارج زبيد حيث عسكر بجيشه ترك خلفه أسيره الشريف حسين تحت حراسة قبائل ذي حسين ، وقاد جزءاً من الجيش وذهب إلى المخا ، وفي طريقه أخذ حَيْس . وما إن اقترب من المخا وكان بها قوة للشريف حسين حتى خرج أهلها من التجار والأعيان لاستقباله بعد أن دفعوا مبالغ من المال للعساكر مخافة الاقتتال ومعرة دخول جيش المتوكل ، وبذلك دخلها بسلام وأمن أهلها ، كما وصل إليه القناصل

(١) العقيلي : ٥١٧/١ ؛ الكبسي : ٣٨٤

(٢) العقيلي : نفسه ، وعنده الذي توجه إلى نجران الشريف علي بن محمد وليس أخاه حسناً .

والوكلاء الأجانب فطمأنهم بالاستمرار على سابق عهدهم[1] . وبهذا امتدت سيطرة المتوكل على تهامة من المخا جنوباً إلى الزيدية شمالاً ، ولم يبق إلاّ الحديدة التي يتمركز فيها الأشراف ، وكذلك عاصمتهم أبو عريش .

☆ ☆ ☆

١٦ ـ إنقاذ الشريف حسين من الأسر وسقوط زبيد في يد يام

خيب الأمير عائض العسيري استنجاد الأشراف به لطمعه هو نفسه في الاستيلاء على تهامة ولموقف الشريف حسين غير الودي منه قبل مصالحته حين أحسّ بخطر المتوكل[2] في حين لبت يام الدعوة وهبت بكل رجالها بعد أن وعدت بالمال والغنائم[3] . ويرى صاحب الحوليات وبحق أن المتوكل الذي استقر في المخا قد وقع في ثلاثة أخطاء كانت سبباً في تدهور الموقف لغير صالحه .

أولها إطلاقه ابن حامد من السجن وهو المسئول عن أموال الشريف ووكيله ، فقد انضم إلى من بالحديدة وصرف الأموال لقبائل يام .

وثانيها : عدم نقل الأسير الشريف حسين إلى صنعاء وتركه في حراسة قبائل ذي حسين في البيشية خارج زبيد ، فقربه من تهامة ترك أملاً في إنقاذه ، والاعتماد على ذي حسين خطأ آخر لسهولة استمالتهم بالمال .

وثالثها : سوء إدارة عامل بيت الفقيه الشيخ أبكر شرف الذي أساء إلى

---

(١) حوليات : ١٥٦ ـ ١٥٧ : العقيلي : ٥١٨/١ ؛ الكبسي : ٣٨٤

(٢) العقيلي : ٥١٨/١ وراجع ماسبق ص : ٣٢٣

(٣) الكبسي : ٣٨٤ ؛ العقيلي ٥١٨/١

النـاس فـأخلوا بـالأمن وقطعـوا الطرق في حين كان المتـوكل بعيـداً عمـا يجري في المنطقة[1] .

تشتت جيش المتوكل في المنـاطـق والمـدن التي استـولى عليهـا ، وتراخت همم القبائل التي تركت حاميات غير مستعدة لخوض معارك جديدة ، وهمها المال وأي سلب سهل . وهكذا رجحت كفة الميزان لصالح الشريف الأسير بمجيء قبائل يام المتشوقـة للقتـال والمغـانم الموعودة . وكان الشيـخ علي حميـدة مـع قبـائلـه يحـاصر الحديدة ، فلما بلغه اقتراب باطنية يام تراجع إلى بـاجل ووقع بينـه وبينهم قتـال ومناوشـات . وقـد أتـاح انسحـابـه لقوات الأشراف داخل الحـديـدة الالتحـام مع جيش قبـائل يـام ، وتقـدم الجميع بقيـادة الأمير الشريف الحسن بن محمـد وأخيـه حسن بن محمد يزحفون على مدينـة زبيـد التي فـاجؤوهـا في مطلع جمـادى الأولى ١٢٦٤ هـ / مـايو ١٨٤٨ م[2] فـاستبـاحتهـا قبـائل يـام وأحرّوا القتـل وفظعـوا في السلب والنهب وإباحـة الأعراض . وكان فيمن قتل من أهـالي المـدينـة الكثيرين القاضي الحافظ محمد بن علي العمراني[3] الموالي للشريف حسين بن علي حيـدر فقـد هجم بعض يـام على داره فنهبـوهــا ، وكان شيخــاً نــاف على السبعين من العمر فضرب في عنقه بخنجر ومات بعد يومين[4] .

أما الأسير الشريف حسين بن علي فقـد أسلمتـه ذو حسين مقـابل فـديـة من

---

(١) حوليات : ١٥٧ ـ ١٥٨

(٢) عنـد العقيلي ٥١٨/١ . وكـذا الجرافي : ٢٠٠ (سـنة ١٢٦٤ هـ) وقـد سبقت الإشـارة إلى هــذا الاختلاف .

(٣) انظره فيما سبق (ص : ٢٥٦ حاشية : ١)

(٤) حوليات : ١٥٩ : زبارة : نيل الوطر ٢٩٢/٢ : الجرافي : ٢٠٠ ـ ٢٠١

المال دفعت لهم دون قتال أو وفاء للمتوكل[1] وحُصر عامل زبيد ومن بقي معه من الأنصار في القنعة خارج المدينة يتبادلون الرماية مع جيش الأشراف بانتظار غارة المتوكل عليهم من المخا[2] .

☆ ☆ ☆

بلغت المتوكل الأخبار فهرع بمن معه من عساكر وقبائل من المخا مغيراً على زبيد ، ومالن وصل إلى حيس حتى كانت الطريق إلى زبيد قد قطعت ، فحصر بمن معه فيها « وكان بين حيس وزبيد الموت الأحمر ! » كما يقول صاحب الحوليات[3] فاستدعى ابنه غالباً (سيف الإسلام) الذي كان بتعز لينجده فحضر على عجل ، ومعه القاضي يحي الإرياني والي اليمن الأسفل ومعهما قبائل ذي محمد البرطية يقودها زعيمهم النقيب أحمد بن صالح ثوابة . وقد عانى المتوكل ومن بقي معه الأمرين من شدة الحصار وانعدام المال ، فهو بعيد عن العاصمة وقد غادر المخا على أمل الوصول إلى زبيد بسرعة ويسر ، ولهذا فقد زاد وضعه سوءاً بوصول النجدة من قبائل ذي محمد الذين ساوم أبناء عمهم ذو حسين الأشراف ، فنالوا مالاً وفيراً بإطلاق الشريف حسين الذي رجحت الموازين لصالحه الآن بدعم يام وخذلان القبائل للمتوكل وسخاء مايبذله الشريف من المال الذي أخرج من المخا والحديدة وجمعه الأشراف من أبي عريش وغيرها ، ثم هذه الفوضى العامة التي شارك فيها قبائل المنطقة بين الجراحية والمسالحة وحيس بين زبيد جنوباً والمخا في الشمال الغربي .

بدا لذي محمد صعوبة وضع المتوكل وتورط أقربائهم من ذي حسين وكذلك

---

(١) حوليات : ١٥٩ ، العقيلي : ٥١٨/١ ـ ٥٢١ وقد حدد يوم الثلاثاء ٨ جمادى الأولى خروج الشريف من معتقله « فاستقبله أبناء أخيه بحفاوة بالغة واستقر في مخيم الجيش المنقذ له وتولى قيادته .. »

(٢) حوليات : ١٦٠

مانالوا من الشريف ، فتحركت الأطماع عند زعيمهم ثوابة فلن يكون ماسيناله لو مالأ الشريف وسلم له المتوكل بأقل مما ناله الآخرون ، وفي الخلاص منه تجنب للحرب والصعاب ، ثم إن المتوكل ووليه الإرياني وحملات المتوكل قد حدّت من عبثهم في اليمن الأسفل ، وهاهي ذي فرصة جديدة قد تطلق أيديهم من جديد . وفطن المتوكل إلى مايدور ، وأدرك أنه بين نارين فتفتق ذهنه عن خطة يكون بها الخلاص من المأزق الذي وقع فيه ، فاستدعى النقيب ثوابة إليه وأسر إليه بأن هدفه الآن الخروج بمن معه من حيس والعودة إلى صنعاء عن طريق يريم وسيمنحها له إقطاعاً خاصاً اعترافاً بجميله ومساعدته في الخلاص[1] . وقد انطلت الخدعة على ثوابة وأصحابه ، وبدلاً من التوجه لاستخلاص زبيد توجه المتوكل بمن معه صوب الجبال ، وواصل السير حتى وصل يريم بعد مشاق وسوء معاملة من قبائل ذي محمد لأصحاب المتوكل وعساكره بما في ذلك انتهابهم خلال السفر[2] .

ومإن وصل المتوكل المدينة حتى استدعى مختلف قبائل المناطق الوسطى المجاورة كالرياشية والأعماس وعمار وعنس وخبان ، فوصلت مستجيبة حاملة السلاح فتقوى بهم وأمر ذا محمد بالمغادرة ، ثم قبض على رئيسهم النقيب أحمد ثوابة الذي اصطحبه مغلولاً معه إلى ذمار حيث وضعه في سجنها ثم واصل إلى صنعاء فدخلها يوم الأحد ١٨ جمادى الآخرة عام ١٢٦٤ هـ/٢٤ ابريل ١٨٤٨ م[3] .

أما تهامة التي خلفها المتوكل وراء ظهره فقد تم تتابع استسلام من بقي فيها من حاميات مع عمال المتوكل بعد طول حصار . وخرج من في قلعة زبيد مستسلمين ، وعبروا جبال ريمة خائبين في طريقهم إلى صنعاء ، ومثلهم فعل عامل بيت الفقيه الأمير المملوك توفيق ومن معه . وشدد الشريف حسن بن محمد

(١) الكبسي : ق ٣٨٥ ؛ حوليات : ١٦٠ ـ ١٦١

(٢) حوليات : ١٦١

(٣) حوليات : ١٦١ ـ ١٦٢ ؛ الكبسي : ق ٣٨٥

خصر على الأمير خموك فتح محمد الذي لم يبق معه إلا خمس مئة من الجنود
توبع . وقد دفع حتى شهر رمضان / أغسطس ثم ركب البحر وعاد عن طريق
خح وبذلك تم للشريف حسين بن علي حيدر إعادة سيطرته على تهامة من
جديد . لكن خذلان الأمير عائض له ، بل وعمله السريع خلال تلك الأحداث
لصم تهامة إلى إمارته عسير ، ثم جحود محمد بن يحي لصنيعه معه وهزيمته وأسره
كل ذلك « خلف لديه عقدة نفسية ، وصدمة عصبية أثرت أبلغ التأثير في مجرى
حياته ، وأسدلت على فكره حجباً قاتمة من اليأس .. »[٢] لهذا فقد عزم على قرار
خطير في طلب العثمانيين الأتراك للمجيء لحكم البلاد ، فلا له ولا لإمام صنعاء
خصمه اللدود محمد بن يحي ؛ الذي لم يكن بدوره أقل مبادرة في هذا الاتجاه ،
وكان في ذلك نهايتهما معاً ، كما كان بداية حقبة تاريخية تالية هي فترة الدور
الثاني للحكم العثماني في اليمن التي يتوقف بحثنا هذا في مطلعها .

☆ ☆ ☆

١٧ ـ بداية النهاية

عاد المتوكل إلى صنعاء ليواجه العديد من المشاكل الاقتصادية والسياسية
لكن أهمها ظهور خارجين يدعوان لنفسيهما للإمامة .

أما **الأول** فهو السيد أحمد بن هاشم الويسي[٣] وكان ممن خرج من علماء
صنعاء إلى صعدة مع السيد المؤيدي في آخر عهد المهدي عبد الله للتمهيد لدعوة

---

(١) حوليات : ١٦٢ ـ ١٦٣

(٢) العقيلي : ٥٢١/١

(٣) كان الويسي عالماً . بليغاً . واعظاً . شاعراً . نشأ بقرية وَيْس من بلاد كوكبان ثم هاجر إلى صنعاء والروضة فأخذ عن علمائها . وسوف ترد معنا بعض أخباره وقد توفي في دار أعلى من بلاد أرحب بعد أن تقلبت به الهزائم والظروف في ١٩ شعبان ١٢٦٩ هـ / ٢٨ مايو ١٨٥٣ م (انظر ترجمته في نيل الوطر : ٢٣٥/١ ـ ٢٤١)

الناصر عبد الله بن حسن قبل ذلك بخمسة عشر عاماً[1] فهو من مدرسة الناصر نفسها ، وأخذ وتتلمذ على شيوخه ، وقد صنع كما فعل سلفه المؤيدي ، فخرج من صنعاء إلى صعدة ودعا لنفسه فيها ، وبويع إماماً في شهر شعبان ١٢٦٤ هـ / سبتمبر ١٨٤٨ م ولقب نفسه بالمنصور[2] ، ولم يشغل المتوكل نفسه بأمر هذا الإمام لبعده شمالاً من ناحية ، ولانشغاله من ناحية أخرى ببعض المشاكل الأمنية العاجلة خارج صنعاء بعد عودة القبائل والعساكر المنسحبة والغارة من تهامة . واضطر للخروج إلى الروضة ليطلب القبائل المجاورة التي بدأت تثير في وجهه الشغب ، ويحاول إصلاح الأمر ، بيد أن الأخبار وصلته من ذمار بأن قريبه الأمير حسين بن المتوكل أحمد الذي كان معه في حملته على الشريف حسين في تهامة ثم عينه بعد الانسحاب عاملاً على يريم قد دعا لنفسه بالإمامة في رخمة على مقربة من ذمار ولقب نفسه بالهادي[3] . واستغل حسين بن المتوكل استياء قبائل ذي محمد بسبب سجن رئيسهم أحمد بن صالح ثوابة فكانوا أنصاره بالإضافة إلى الشيخ علي مثنى الجرادي وبعض أصحابه ، وهو ممن سبق للمتوكل أن أوقع به ، وقد تقدم بهم لمحاصرة ذمار في ذي الحجة عام ١٢٦٤ هـ / نوفمبر ١٨٤٨ م إلاّ أن معظم من حوله تفرقوا مع مقدم العيد فتراجع إلى رخمة ، وبعيد ذلك قرر المتوكل التوجه بمن معه من صنعاء لمواجهة هذا الخطر الثاني ، فوصل ذمار يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة / ٢٠ نوفمبر ففر من طريقه الجرادي ومن معه[4] . وكان المتوكل قد أدرك أنه أخطأ في ترك النقيب ثوابة في سجن ذمار وتفريق أصحابه في المنطقة مما جعلهم يلتفون حول حسين بن المتوكل لإنقاذ صاحبهم والانتقام لما

---

(١) انظر (ص ٢٤٨ فيما سبق)

(٢) زبارة : نيل الوطر ٢٣٦/١ : الكبسي : ق ٣٨٦ : الجرافي : ٢٠١ ؛ حوليات : ١٦٣ ؛ الشماحي : ١٥٢

(٣) حوليات : ١٦٤ ؛ الجرافي : ٢٠١

(٤) حوليات : ١٦٤

حل بهم ، فكان أول عمل قام به في ذمار أن طلب النقيب أحمد ثوابة من السجن ، فأحضر إليه فوبخه وذكره بما حدث منه في تهامة ثم ما عانى منه ومن أصحابه في الطريق ، ثم موقف أصحابه الجديد والذي لا يمكن أن يحدث إلاّ بتوجيه وتشجيع منه ، ثم أمر بقتله فقتل شر قتلة ؛ وصدم الحادث قبائل ذي محمد وهز مركزها وشاع بين الناس والقبائل قصيدة مشهورة بليغة للشاعر القاضي أحمد الزبيري المتقدم ذكره حول الحادث ، ومنها :

رفع الحقُّ شامخات قِبابه ... وتَخَلَّت قشورُهُ عن لُبَابِه
ومَحا الله آيَةَ الجَوْرِ لَمَّا ... زَالَ عن شمْسِه كثيفُ سَحَابِه
وهوى البغيُ بعد طولِ تمادِيه صَرِيعاً ... وانْزاح لمعُ سَرابه

وهي طويلة تزيد على ثلاثين بيتاً[1]

وبعد ذلك أرسل المتوكل بعض جنده بقيادة الفقيه محمد بن أحمد العفاري لمحاصرة حسين بن المتوكل أحمد في رخمة وكان تحصن بها وجلب معه مدفعاً من يريم فحدث تبادل إطلاق النار وقتل ناس من الجانبين ، وكان المحاصرون يحاولون الخروج في هجوم لفك الحصار لكنهم فشلوا ، وانتهى الأمر بتوسط قبائل ذي محمد في أن يستسلم الإمام الجديد للمتوكل على أن لا يمس بأذى ، واشترط أن يسمح له بالإقامة في دار الحجر بوادي ضهر (ظهر) فقبل المتوكل وكان يريد إنهاء المشكل ، وخفف على أبناء النقيب أحمد بن صالح ثوابة بأن أقطعهم في قرية البخاري قريباً من المخادر في لواء إب[2] .

وبعد أن قام المتوكل بزيارة للكشف على رداع والمنطقة الوسطى عاد إلى صنعاء وكان ذلك في بداية العام الجديد ١٢٦٥ هـ / ديسمبر ١٨٤٨ م . وحين

---

(١) زبارة : نيل الوطر : ٣٤٥/٢ : الجرافي : ٢٠١ : الكبسي : ق ٢٨٦ : حوليات : ١٦٤

(٢) حوليات : ١٦٦

وصل صنعاء « أمر بتسمير بيوت الذين وافقوا الداعي بصعدة السيد أحمد بن هاشم [الويسي][1] » لكن الأيام لم تتح للمتوكل أي مواجهة مع الإمام الويسي هذا والذي تمكن بعد نحو عامين من حصار صنعاء ودخولها إلا أنه لم يبق فيها إلاّ بضعة أشهر حتى اضطر إلى مغادرتها في ٢٥ ربيع الآخر ١٢٦٧ هـ / ١٩ فبراير ١٨٤٩ م إلى دار أعلى من بلاد أرحب حيث توفي هناك فيا بعد[2] .

من ناحية ثانية لم يحب المتوكل محمد بن يحيى بعد أن عاد إلى صنعاء أن يترك ماأحدثه الأمير حسين بن المتوكل أحمد دون معاقبته عليه . فبعد أن كان هذا قد استقر في وادي ضهر بحسب الاتفاق ، خرج المتوكل إلى الوادي للتنزه في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ هـ / مارس ١٨٤٩ م ، وعند عوده قبض على حسين بن المتوكل وأدخله إلى صنعاء محفوظاً و « حبسه وأغلظ عليه بسبب دعوته في رخمة[3] » .

☆ ☆ ☆

١٨ ـ مجيء العثمانيين الأتراك ونهاية المتوكل

كان اقتتال المتوكل محمد بن يحيى مع الشريف حسين بن علي حيدر وما جرّ ذلك من أحداث في تهامة بمثابة الإرهاصات لتدخل اليمن في دور تاريخي آخر في ظل السلطان العثماني ، فلقد اهتبل الباب العالي الفرصة في استدعاء الشريف

---

(١) حوليات : ١٦٦

(٢) زبارة : نيل الوطر : ٢٣٨/١ ، حوليات : ١٨٨ ، ٢٣٣ : الجرافي : ٢٠٣ : وانظر ماسبق (ص : ٣٣٠) وقد ذكر المؤرخ زبارة أن للويسي سيرة جمعها السيد علي الحجازي الصعدي والفقيه محمد بن إسماعيل الخباني ثم هذبها صاحب الويسي وأحد أنصاره الفقيه العلامة اللغوي محمد بن علي وحيش (ت ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م) ولو وجدت لكشفت لنا الكثير من أخبار الويسي وأحداث هذه الفترة .

(٣) حوليات : ١٦٧

حسين للسلطات العثمانية ، فصدر الأمر إلى والي الحجاز توفيق باشا وأمير مكة الشريف محمد بن عون بالتوجه إلى اليمن على رأس جيش عثماني من ثلاثة آلاف رجل فوصلوا إلى اللحية ومنها إلى الحديدة في جمادى الأولى عام ١٢٦٥ هـ / ابريل ١٨٤٩ م فقابلهم بها الأمير الشريف حسين مرحباً ومقدماً كل التسهيلات[1] . ولما وصل الخبر إلى صنعاء لم يرغب المتوكل أن ينفرد خصمه بالتزلف إلى الأتراك ويتأخر هو عن الترحيب بهم وبالتالي تفوته الفرصة ، فسارع بالكتابة إليهم مع القاضي عبد الله بن أحمد العماري ، وأرسل معه بعض الهدايا النفيسة كان من بينها نجائب من الخيل ، فتقبل الأمير والباشا الهدايا . وبعد أيام عاد رسوله بالأجوبة ثم لحق به مبعوثان هما خورشيد ورجب وبصحبتهما الشيخ علي حميدة وولده - ربما لحسن علاقته بالمتوكل -[2] وقد ذكر أن المتوكل طلب « إليهما [الشريف والباشا] إرسال طائفة من الجنود إلى صنعاء لكي يستعين بهم على تنفيذ أوامره[3] » إلاّ أنه يظهر أنه رؤي نزوله شخصياً إلى الحديدة لإعطاء السلطات التركية الصبغة الشرعية في وجودها وفي طبع تصرفاتها وأوامرها مستقبلاً بهذا الطابع ، ومامهمة المبعوثين والشيخ حميدة إلاّ لهذا الغرض . وفي الوقت نفسه كان شريف مكة قد أرسل من جانبه السيد إسحاق بن عقيل الحضرمي - وهو من علماء الشافعية بمكة - بمكاتيب إلى المتوكل فحواها أوامر السلطان وأن خروجه مع الباشا توفيق إلى اليمن هو « إعانة المتوكل وتقرير أمور اليمن ، ورفع ماتكاثف من الفتن[4] » .

وكان الأمر مخرجاً جديداً للمتوكل ، ولم يفكر في العواقب أو ردود الفعل التي

---

(١) الكبسي : ق ٢٨٥ ؛ الجرافي : ٢٠٢ ؛ العقيلي : ٥٢١/١ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٦/٢ ؛ العرشي : ٧٢

(٢) حوليات : ١٦٨ ، العقيلي : ٥٢١/١

(٣) الجرافي : ٢٠٢

(٤) زبارة : نيل الوطر : ٣٤٦/٢ - ٣٤٧ ؛ حوليات : ١٦٩

يمكن أن تحدث من قبل اليمنيين الذين لم ينسوا مجيء العثمانيين الأتراك قبل أكثر من قرنين وما دار بينهم من معارك وقتال لا زالت ماثلة في أذهانهم متناقلة قصصاً وأساطير وبطولات لأسلافهم . لكن هَمَّ المتوكل الذي كثرت من حوله المشاكل والمؤامرات كان قد تبلور بأسلوبه السياسي ومذهبه النفعي في انتهاز الفرص في التعاون مع العثمانيين وإحضارهم بنفسه إلى صنعاء « ليستريح من تعنت القبائل وتخبطهم ، واستطالتهم في المطالب ، مع عدم النفع منهم ، وتظاهرهم على الغدر والمكر »[1] .

وهكذا توجه المتوكل إلى الحديدة في مطلع شعبان سنة ١٢٦٥ هـ / يونيو ١٨٤٩ م ، وبعد أن تفاوض هناك مع توفيق باشا والشريف محمد بن عون عاد إلى صنعاء آخر الشهر بعد أن اتفق معهما على طلوع توفيق باشا وقواته في إثره ليفتح لهم أبواب العاصمة[2] وكان قد سبق وصول المتوكل إلى صنعاء الفرمان السلطاني بتبعية اليمن إلى الباب العالي وأَمْرَ المتوكل بالنيابة في الحكم ، وقد كان ذلك من نتائج مفاوضاته في الحديدة على أن يعلن الفرمان ويذاع بين الناس ، فكان إرساله من قبل المتوكل إلى وزيره في صنعاء الذي أمر خطيب جامعها الكبير بقراءته في خطبة الجمعة ٢١ شعبان / ١١ يوليو[3] . ووقع ذلك موقعاً سيئاً عند مختلف طبقات الشعب ، وزاد الأمر سوءاً والخبر تصديقاً أن المتوكل أمر وزيره أيضاً بتفريغ قصر صنعاء وثكنتها لاستقبال الجند الأتراك[3] .

☆ ☆ ☆

---

(١) الكبسي : ق ٣٨٥

(٢) زبارة : نيل الوطر ٣٤٧/٢ ولعله وهم في الشهر فذكر أنه محرم وهذا لا يتفق مع تاريخ عوده مع الأتراك ، الجرافي : ٢٠٢ ؛ حوليات : ١٧١ ؛ الكبسي : ق ٣٨٥ الذي ذكر أن المتوكل اتفق معهم « على طلوع العسكر السلطاني صحبته ويقبضهم القصر وإدراك صنعاء ، وتكون البلاد لهم وهو يبقى في البساتين مكرماً بكفايته هو ومن يلوذ به ، وسلموا إليه مالاً مقابل ذلك ! » .

(٣) حوليات : ١٧١ ، ١٨٦ ولأهمية هذا الفرمان فقد أثبتنا نصه في ملاحق الكتاب .

ما إن وصل المتوكل إلى صنعاء حتى بدأت الشائعات تتحقق من أنه ذهب لدعوة الأتراك للحضور لحكم البلاد ، فتحفز الناس واستفزّت حفائظهم ضد المتوكل والأتراك ، وما هي إلاّ ستة أيام حتى اقتربت العساكر التركية وكان قوامها ألفاً وخمس مئة جندي وضابط بقيادة توفيق باشا ، وخرج المتوكل بعسكره وبعض القبائل لاستقبالهم إلى عَصَر غربي العاصمة ، فدخلوها في موكب مهيب يوم الخميس ٦ رمضان عام ١٢٦٥ هـ / ٢٤ يوليو ١٨٤٩ م ودخل قسم كبير منهم في قصر صنعاء ، كما عسكر الباقون في ميدانه (ميدان البكيرية) وحلّ توفيق باشا وكبار مساعديه في بستان السلطان لمزاولة أعماله الرسمية ، وقرر للمتوكل أربعة آلاف ريال شهرياً وكذلك مرتبات (جوامك) لمن معه ، وأبلغ المتوكل الناس بأن أمورهم مناطة بالباشا « ومن هاهنا تيقن كل من سمع من المتوكل صدق الأقاويل وعلموا بخديعته لهم وخيانته لأمانته ، وأعلم الناس بعضهم بعضاً ، وعلموا أن الأمر صعيب عصيب ! »[1] .

وكانت الكارثة في اليوم الثاني حينما انتشر بعض الأتراك في المدينة للتسوق وشراء الحاجيات . فقد عقد أهل صنعاء وبعض الأجناد من عسكر الحكومة اجتماعاً في مسجد ازدمر باشا[2] القريب من باب شعوب « وأجمعوا رأيهم على الفتك بالأتراك ، وثارت العامة معهم في تلك الحال فأوقعوا بكل من وجدوه من الأتراك في صنعاء وبئر العزب ، وبلغت القتلى من الأتراك إلى نحو مائة قتيل ، وأخذت خيلهم وأمتعتهم .. »[3] . واشتدت الثورة فتوجه الناس لمحاصرة المتوكل في بستان السلطان للفتك به لاعتباره مسؤولاً عن حضور الأتراك ، إلاّ أن

---

(١) حوليات : ١٧٢ - ١٧٣ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٧/٢ ؛ الكبسي : ق ٢٨٥

(٢) عمره الوالي التركي ازدمر باشا في النصف الآخر من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وجدده المنصور على سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م (الحجري : مساجد صنعاء : ١٤) .

(٣) زبارة : ٣٤٧/٢ ؛ حوليات : ١٧٥

الحراسة كانت عليه شديدة في هذا اليوم ، واستمروا في مطاردة الأتراك الذين تجمعوا في داخل القصر لحماية أنفسهم ، واتجه في غمار الفوضى بعض العامة فهجموا على بيوت ناظر الأوقاف القاضي العالم عبد الرحمن بن محمد العمراني[١] وأخيه محمد بن محمد ، وبائع الكتب عبد الله وسيل الهندي ، فأفزعوا الأطفال والنساء ونهبوا محتويات البيوت ، وحدثت حوادث أخرى جعلت الناس يخافون من الفوضى ويلتزمون البيوت ، كما استمر تبادل الرماية بين الأتراك في القصر والناس من الدور المرتفعة وخارجه[٢] .

ولما هدأت الأمور بعض الهدوء مع حلول الليل بعد أن قام قائد الأجناد الأمير المملوك سعد يسر بحفظ الأمن وإغلاق الأبواب ، رأى عقلاء صنعاء وأهل الحل والعقد ضرورة تنصيب إمام جديد . وشاءت الأقدار أن يعود إلى سدة الحكم للمرة الثالثة علي بن المهدي عبد الله الذي كان المتوكل قد هزمه قبل أربع سنوات وبضعة أشهر ، فتنازل له عن الحكم واستقر مؤثراً العافية في صنعاء[٣] ، فتوجه الناس إليه في الليل إلى دار الذهب « وعولوا عليه في القيام لدفع المصيبة النازلة وحفظ دمائهم وأموالهم ، وهو من أبى ذلك لأنه قد عرف ذلك مرتين ، ويخذله أصحابه ، فتحمل المشاق ، وأسعد ، وصاح صائح الأمان من الإمام ، وأعلن بدعوته فسكن ما بالناس من الفزع ، وصرفوا همهم إلى نزول الأتراك وإخراجهم من القصر »[٤] .

☆ ☆ ☆

(١) عالم ، حافظ ، فاضل ، هو ابن العلامة العمراني المتقدم ذكره والمقتول في زبيد ، وكان عبد الرحمن تلميذاً للإمام الشوكاني وقام باختصار كتابه الفقهي الكبير « السيل الجرار » حاذفاً المسائل الخلافية منه ، وله شرح في كراريس على نظم السيد محمد بن محمد بن المفضل لورقات إمام الحرمين الجويني المعتزلي المشهور ، وقد توفي بصنعاء عام ١٢٧٣ هـ (انظر ترجمته عند زبارة : ٣٩/٢ ؛ مصادر الحبشي : ١٦٧) .

(٢) زبارة : ٣٤٧/٢ ؛ حوليات : ١٧٥

(٣) انظره فيما سبق (ص : ٣١٤) .

(٤) حوليات : ١٧٦

أصبح علي بن المهدي عبد الله إمـامـاً يمثل الإنقـاذ الوطني من يوم السبت ٨ رمضـان عـام ١٢٦٥ هـ / ٢٦ يوليو ١٨٤٩ م ، كما بـات المتوكل المحصور في بستـان السلطان رمزاً للخيانة والتعامل مع الغريب الأجنبي ، ومما لا شك فيـه أن المتوكل كان من أكفإ الأئمة المتأخرين وأكثرهم مقدرة وذكاء ، إلاّ أنـه جـاء في وقت صعب داخلياً وخارجياً ، كما أن سياسته الانتهازية أودت به في آخر المطاف[1] .

ثارت العامة من جديد صباح السبت وكرّت على بستـان السلطـان ، فَهرّب ليسجن في دار الجنـات ، لكنهم لم يقتنعوا بـذلـك فقـد كانـوا يطـالبـون برأسـه ، فحوصر من جـديـد فـأخرج إلى بيت إسماعيـل الأمير ، ومن هنـاك قيـد وأوثـق بالحـديـد ونقلـه السجـانون إلى سجن القصر حيث كان في مـأمن من قتل العـامـة له[2] .

كانت الأخبـار قـد سرت في مختلف الأنحـاء ، فهبت القبـائـل القريبـة من العاصمة لتساهم في تشديد الحصار على الأتراك من الجـانب الشرقي للقصر والأبواب القريبـة منـه حيث تحصن الأتراك ، ونصبوا المتـاريس والمدافع حول الأسـوار . وألقيت المسؤولية بكل صعـابهـا على المهـدي علي بن المهـدي عبـد الله الـذي وعى الدرس واستفاد من أخطـاء خصمـه القـديم المتوكل ، فعين لنفسـه الفقيـه محمـد بن أحمد بن إسماعيل العفـاري وزيراً ، وكان عـاملاً على ذمـار وأثبت الوزير في هـذا الوقت الحرج قدرته وكفايته[3] .

---

(١) يشبه المتوكل محمد بن يحيى في بعض الوجوه الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد الـذي كان من أقدر بني أمية ، إلاّ أن كفايته الشخصية لم تنقذ دولته من السقوط وبالتـالي مقتلـه سنـة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م

(٢) حوليات : ١٧٦ ـ ١٧٧ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٧/٢ ، الكبسي : ق ٣٨٥

(٣) حوليات : ١٧٩

أمر المهدي بفتح أبواب المدينة بعد أن اتفق مع القبائل التي خارج الأسوار بأن الهدف والغاية محاصرة الأتراك حتى يتم إعادتهم من حيث أتوا وليس مضايقة الأهلين وإزعاجهم . وكان من العسير على الأتراك الخروج لإحضار وشراء مايحتاجونه لأنفسهم وحيواناتهم ، حتى تم التفاوض بينهم وبين المهدي على أن يُجْلب لهم حاجاتهم إلى القصر ويدفعوا ثمن ذلك على أن يتهيؤوا للرحيل ، ومرت أيام وخشي المهدي والناس أن الأتراك يكسبون بذلك الوقت ليصلهم دعم من تهامة وبخاصة وهم مازالوا يستعملون مدافعهم وأسلحتهم في محاولات يائسة لفك الحصار عن أنفسهم ، لكنهم عانوا الكثير وبدأت خيولهم وحيواناتهم تنفق ، فتجدد التفاوض والاتصال ، واستقبل المهدي بيرم باشا أكبر معاوني قائد الحملة توفيق باشا وبعض مرافقيه ، فبحث معهم أمور انسحابهم ومغادرتهم ، فطلبوا الطعام والعلف وثلاث مئة وخمسين جملاً لنقل أثقالهم على أن يمنحوا الأمان والحماية حتى يصلوا الحديدة ، ومقابل ذلك يتركون رهائن إذا هم سوّفوا في الرحيل فقتلهم مباح ، كما أنهم سيدفعون التكاليف كافة[1] ، وتولى الوزير العفاري الإجراءات والترتيبات الخاصة بتنفيذ الاتفاق ، فاستلم الرهائن وزودهم بالمؤن ومما يحتاجونه ثم جهز الجمال المطلوبة .

وفي يوم العيد الأول من شهر شوال عام ١٢٦٥ هـ / ١٨ أغسطس ١٨٤٩ م أقفلت أبواب العاصمة وفتح باب القصر الجنوبي (باب ستران) حيث خرجت قافلة الانسحاب التركي منكسة مذمومة ، وخرج لتشييعهم وحمايتهم الوزير العفاري ومعه مئتان وعشرون من الحرس والفرسان ، والناس يتزاحمون من خلف سور المدينة لمشاهدتهم فرحين معيدين عيدين : عيد الفطر وعيد خروج الأتراك إلى الحديدة ، وقد كتب المهدي إلى قبائل بلاد البستان والحيمة تأمين انسحابهم

---

(١) حوليات : ١٨١

حتى يبلغوا مأمنهم ، ومع ذلك فقد عانوا في طريقهم بعض المتاعب والهجمات رغم حماية الوزير وحرسه ، واضطر المهدي إلى إرسال عساكر جديدة للحماية حتى استطاع الأتراك وقائدهم توفيق باشا الوصول في آخر الأمر إلى تهامة بعد أن تبين لهم أي مركب صعب ستخوضه جيوش السلطان عندما ستحاول العودة للاستيلاء على عاصمة اليمن التليدة ، بعد أقل من ربع قرن بتليل[1] .

وفي تهامة حيث قنع العثمانيون بالسيطرة على ساحلها لقربها من مراكزهم وقواتهم في الحجاز ، تعاونوا لوقت قصير مع الشريف حسين بن علي حيدر الذي عاد إلى وطنه الأول مدينة أبي عريش « وأقام بقصره المسمى نجران إلى أن صدرت الأوامر من الآستانة بترحيله إليها ، وبعد وصوله إلى الآستانة قرر له راتب شهري وخير في الإقامة في أي محل أراده من البلاد العثمانية ، فاختار الإقامة بمكة إلى أن أدركته الوفاة عام ١٢٩٣ هـ [١٨٧٦ م] »[2] .

أما صنعاء فقد تنفست الصعداء برحيل الأتراك وبدأ المهدي علي ، في ولايته الثالثة والتي لن تطول ، يواجه مشاكل الفوضى والفتن التي ذرت قرنها في أماكن كثيرة ، وعلى مقربة منه كان خطر الهادي الويسي يقترب ..

وبعد مضي نحو أربعة أشهر قام المهدي بسجن غالب بن المتوكل محمد بن يحيى وعمه عبد الله بن يحيى وجميع آل المتوكل وصادر أموالهم لبيت المال ، لكن الأهم من ذلك أن المهدي قرر إعدام المتوكل ليرتاح ويخلص من خطره فأمر يوم ٢٤ محرم عام ١٢٦٦ هـ / ١١ ديسمبر ١٨٤٩ م بقطع رأسه ، وتم إنفاذ ذلك في السجن فجر

---

(١) حوليات : ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ زبارة : نيل الوطر ٣٤٧/٢ ؛ الجرافي : ٢٠٢ ؛ الكبسي : ق ٣٨٥ ؛ أباظة : عدن والسياسة البريطانية : ٢٧٧ ـ ٢٧٨

(٢) العقيلي : تاريخ المخلاف : ٥٢٢/١

ذلـك اليوم[1] ومـا هي إلاّ أشهر أخرى حتى خلع علي بن المهـدي[2] ودخلت البلاد في فترة معتمة من صراع الأئمة الصغار وفوضى القبائل حتى عاد العثمـانيون الأتراك لاحتلال صنعاء من جديد .

☆ ☆ ☆

---

(1) حوليات : ١٩٢ ـ ١٩٣ ؛ زبارة : ٣٤٧/٢ ؛ الكبسي : ق : ٣٨٦

(2) وقد عاد مرة رابعة حتى المحرم ١٢٧٤ هـ / اغسطس ١٨٥٧ م حيث تركه النـاس واستقر ببيتـه بصنعاء حتى مات عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م وذلك قبل عودة الأتراك بنحو عـام ، ولا شـك في أن علياً هذا شخصية عجيبة متعددة الجوانب نتمنى أن تتاح فرصة لوضع دراسة مستقلة عنه .



وثائق متعلقة بالكتاب

١ ـ حكم شراء المهدي عباس للغيلين الأسود والبرمكي[١] ـ انظر عنه الصفحات : ٣٣ ـ ٤٢ من الكتاب ـ .

٢ ـ وثيقة وقفية لأملاك قبة المهدي عباس في أسواق مدينة صنعاء وبيوتها[٢] .

٣ ـ وثيقة تفويض من الإمام المنصور حسين إلى شيخ الحيمة علي بن حسن الشقاقي ـ جد المؤلف لأمه ـ ، وهي مؤرخة في جمادى الأولى من عام ١١٢٣ هـ[٣] .

٤ ـ أمر من الإمام المهدي عبد الله ، تاريخه في ذي الحجة من عام ١٢٣٣ هـ ، وفيه يعفي الإمام شركاء النقيب محسن بن صالح أبي لحوم من واجبات (عزلة وارف)[٤] .

٥ ـ أمر آخر من الإمام المهدي عبد الله ، مؤرخ في شوال من عام ١٢٣٦ ، فيه تخويل أولاد النقيب محسن بن صالح أبي لحوم استمرارهم بحقهم في قطعتهم من (عزلة وارف)[٥] .

٦ ـ رأي (أمر) من الإمام الناصر عبد الله بن حسن بدوام استمرار ما لأولاد النقيب محسن بن صالح أبي لحوم وأولاد أخيه حسن بن صالح أبي لحوم من حقهم في قطعتهم في (وارف)[٦] .

٧ ـ أمر من الإمام المهدي عبد الله ، مؤرخ في شهر رمضان الكريم من عام ١٢٤٣ هـ يعفي فيه الشيخ علي بن محسن الشقاقي وولده أحمد مما يترتب عليهما في الحيمة وبلاد البستان وما كسبوه في وادي ظهر من واجبات ومتأخرات لبيت المال[٧] .

٨ ـ نص فرمان (مرسوم) سلطاني صادر عن السلطان عبد المجيد العثماني بإلحاق اليمن بالدولة العثمانية ـ انظر عنه الصفحة ٣٣٥ من الكتاب .

---

(١) الوثيقة في حوزة المؤلف .

(٢) أصل الوقفية في حوزة المؤلف .

(٣) الوثيقة في حوزة المؤلف .

(٤ و ٥ و ٦) الوثائق في حوزة الوالد النقيب عبد آل أبي لحوم الشيخ سنان أبي لحوم ، وقد تفضل مشكوراً بإعارتنا إياها مع وثائق أخرى للإفادة منها في بحثنا .

(٧) وثيقة الأمر في حوزة المؤلف .

(١)



(٢)

الحمد لله وحده

هذه نقل الدكاكين والمخازين في سوق صنعاء الذي وقف قبة المهدي العباس رضوان الله عليه منقوله من المسوده الحافله للجميع وقف القبه المذكوره التي بخط الصنو العلامه عبد الله بن علي الجبوري على ما فيه تاريخها شهر القعده الحرام سنة ١١٩٦ ست وتسعين ومايه والف سنه وكذلك ما الحق في المسوده من الدكاكين بخط القاضي العلامه عز الاسلام محمد بن عبد الملك الآنسي رحمه الله أول ذلك سوق المقالة

حانوتين مفتح بابهن مشرقي تحدهن شرقيا الباب وغربيا الوقف

السـ حانوتين مفتح بابهن غربي تحدهن قبليا الوقف وغربيا مفتح الباب وشرقيا

السـ في سوق السمن أول شيء

حانوتين مفتح بابهن شرقي شرقيها الباب وعدنيا الوقف وغربيا الشارع

السـ بلا شيء أربع حانوت مفتح بابه عدني تحده عدنيا سمسرة الشاه وشرقيا الوقف وعدنيا مفتح الباب

السـ في سوق الإسكافية أول شيء

حانوت قبليها مفتح الباب وشرقيها الوقف

الـ[illegible] في سوق مريد ا[illegible]

حانوت [illegible] بابه [illegible]
[illegible] وغربيا
[illegible]
[illegible]

الـ[illegible] في سوق [illegible] وابشي

حانوت [illegible]
بابه شرقي [illegible]
[illegible]

الـ[illegible] في سوق عقيل اراشي

حانوت [illegible] بابه [illegible]
[illegible] اوقف [illegible]
[illegible] وغربيا
[illegible]

الـ[illegible] حانوت [illegible]
بابها شرقيا بحدها [illegible]
[illegible] باب [illegible] اسوقا
والطريق [illegible] وحدها
حانوت [illegible]

الـ[illegible] في سوق [illegible] اوزشي

ثلاثة ارباع حانوت [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الـ[illegible] في سوق [illegible] اوزاغي

[illegible] متصل سوق [illegible]
[illegible] شرقيا [illegible]
[illegible] بابها [illegible]

الـ[illegible] في الحانوت [illegible]
[illegible] حدها
[illegible] الطريق [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الـ[illegible] في سوق [illegible] اوزشي

[illegible] حانوت [illegible] بابه
شرقي بحده [illegible]
[illegible] وغربيا
[illegible]

الـ[illegible] حانوت
[illegible] بابها قبلي
بحدها [illegible]
[illegible]
[illegible]

الـ[illegible] في سوق [illegible] اوزشي

حانوت [illegible] بابه [illegible]
قبليا سوق [illegible]
[illegible]
[illegible]

(٢/ب)

بيت

اسم من البيوت اول شيا خضير

اليه تمام حوانيت باب اليمن

بيت

(٢/جـ)

البيـ في سوق الصـ اولشي

قيراطين الحانوت مفتح بابه عدى الوقف ... وغربيا مفتح الباب

البيـ اربعة عشر قيراطا قيراطا حانوت ... السوق ... وعدسا مفتح الباب

البيـ في سوق الحمو واولشي

حانوت مفتح بابه عدى
بحده قبليا الوقف ...
الطريق وغربيا مفتح
الباب

البيـ من المخازن اولشي في ... العربا ... اولشي

الحانوت التي في قاعة ... وسطح ... يحده قبليا الوقف وشرقيا مفتح الباب وعدسا الدرج ... غربيا ...

البيـ المخزن الاوسط يحده قبليا الوقف وشرقيا مفتح الباب وعدسا الوقف وغربيا ...

البيـ المخزن الذي مفتح بابه عدى يحده قبليا ... الوقف وعدسا مفتح الباب وغربيا الوقف

البيـ مخزن مفتح بابه عدى يحده قبليا ... الوقف وشرقيا ... وعدسا مفتح الباب وغربيا ... الوقف

البيـ مخزن مفتح بابه عدى يحده قبليا ... وعدسا مفتح الباب وغربيا المشتري ...

البيـ مخزن مفتح بابه
عدى يحده قبليا ...
الوقف وعدسا مفتح
الباب وشرقيا المشترى
وغربيا الوقف

البيـ المخزن الاعلا
مفتح بابه ... يحده قبليا
... الوقف
وعدسا مفتح الباب
وغربيا الدوار

البيـ في سوق الزبيب اولشي

حانوت بالتربة ... سمره
مريد يحده شرقيا ... مفتح
الباب الى السوق وعدسا
بيد الوقف

البيـ في سوق باب اليمن اولشي حانوت باب اليمن

ثلاث حوانيت متصلات بعضهن ببعض يحد ذلك قبليا الطريق الى ... وطريق ... وشرقيا ... الوقف وغربيا حوانيت الوقف ...

البيـ حانوت في ... باب اليمن يحده قبليا ... وشرقيا ... وعدسا الطريق المارة الى باب اليمن الى سوق ...

البيـ ... يحده ... باب اليمن ... الطريق المارة الى باب اليمن و ... النقر

البيـ حانوت يحدها ... الطريق وعدسا ... وغربيا ...

البيـ حانوت يحدها ...

... يوسف ...

البائع ... البيـ حانوت

تمام ... اليمن

البسه سوق المعطاره اولس

ثلاثة ارباع الحانوت ويلس
حدها مفتح بابها سرقها
مفتح الباب وغربا سوق
المعاون

البسه نصف حانوت
مفتح بابها سرقا
مفتح الباب وغربا
سوق المعاون

الوقف

البسه ثلثي حانوت
مفتح بابها قبلي تحدها
وعدسا مفتح الباب وعدسا
وغربا

البسه حانوت
مفتح بابها
تحدها قبلا
مفتح الباب

البسه سوق الخضري اوالشي

ثلاثة حوانيت مفتح ابوابهن
عيوقه تحدهن قبلا السمرة
حق العطار وعدسا
مفتح الباب وغربا
الوقف

البسه حوسون الحب

حانوت مفتح بابها عدبي
تحدها قبلا سوق
الخضري ودبرها
الوقف وعدسا
مفتح الباب

البسه المسابغة في قبر محمد

تحدها
وعدسا مفتح الباب
سقيفة

البسه قحافة عابدين

نصف الحانوت ولكن الان
متصارة مشاعا قبر
مقسوم قبلا السمرة
حق سعد محسن حسن
وعدسا مفتح الباب

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ... واعلاه

الحافظ الكريم والسر العالي المحلم العلي الهاشمي اعز الله الموحّدين ...

واقر عين المتمسك به وارضاه من اهل طاعته وتقواه شاهد ...

... الشيخ علي حسن الشقافي انه منا والينا ومن ...

رعايانا وانه مجرا على عاداته ... على قواعد ...

... وان ...

بالامانة وعلى احواله ... والعباده

... على حسب العاده ... المعين له

ولا عليه اعتراض يعلم كل ... على هذا ويعتمده ويتمسك

بهذا ويتمسك به وبالله الثقة والتوفيق وهو حسبنا

... عام ١٢٣٣

(٤)

الحمد لله

[illegible]

[illegible] سنة ١٢٣٣

(٥)

الحمد لله

[illegible]

فستمرا او ا وحدانا المسلمين ما اهل الكرم على شكركم
الذي في عملكم ورأى في القدم حتى ما بيدهم منا والله يحملوا
شكركم هم ممار وخلوا عليه الرعية الاحبار العهد نصاري كما هو الواجب
في ملكي محمد سابع عشر شوال سنة ١٢٣٦

الحمد لله

صورة رأي إمامي لعظر بستمروا اولاد حمل امتنا النقيب محسن صالح ابو لحوم

واولاد النقيب حسن صالح ابو لحوم حيما بايديهم منا والشواهد السرعو....

على قطعتهم في ورف والحصن وحيل ... ... التي .... فيما

حصل فيهم منا يعلم ذلك كل واقف على هذا بتاريخ شهر جماد اخر ١٢٤٠

في حضرة علامة سيدي المولى امير المومنين المهدي لدين الله رب العالمين

الحمد لله وحده

وما عليهم

المستمره

يسمح على باشا لمحمد السمانى وولده احمد بن على على جارى عادتهم
المستمره المعلوم وحسبما بايديهم من الشواهد الكريمه اعزها الله ولا احد يطلب منهما حلوا ولا حلوان
احمال الحصد في جميع الاوقات ولا العوم اموالهم انما كانت ولا عليهم زكوه علوفه
في بلاد السودان ولا احد حلوان عموم ولا عليهم مغارم في الاسواق او الامانه
ويكون لهم ما هو امور لهم وليس العادى من الكلفات والمغارم الاربعه
واني ويسقط عنهم على بيت المال المسقطات الرسميه حسب العاده
ولا احد عليهم اعتراض في زكوه ما لهم وه في واديهم فيكون صرف
زكوه ذلك بمعرفتهم في مستحقيها وليس عليهم لا اعتراض ولا طالع حسبما بايديهم

(٨)

المرسوم (الفرمان) السلطاني بضم اليمن إلى الامبراطورية العثمانية

(١٠ رجب ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م)

أوله تحت العلامة بلفظها :

عبد المجيد بن محمود خان هذا فرماننا العالي السلطاني وخطابنا السامي الخاقاني المنفذ حكمه بتأييد القوي الصمداني في الأقطار إلى القاصي والداني صادر إلى افتخار الأعالي والأعاظم مستجمع جميع المعالي والمفاخر المختص بمزيد عناية الملك الدايم المنصوب من طرف دولتنا العليا حاكماً على صنعاء الشريف المتوكل محمد بن يحيي دام علوه عند وصول هذا التوقيع الرفيع السلطاني يحفظ علماً إلى حسن سياسة اقليم صنعاء هو من جملة ممالكنا الموروثة وإراحة أهليه وقبائل العرب الذين فيه ووقايتهم مستظلين في ظل عدل سلطاننا برفاهيته مشمولين بالحماية والصيالة[١] والأمنية أجل مركوب عند مكارم إرادتنا الملوكاتية وأعظم مطلوب له مراحيم أسرتنا السلطانية ولكونك أيها الحاكم المؤمى[١] إليه من أرباب الدراية والمعرفة ولك القول على أحوال تلك الجهات بأكمل صفة وفي كل حال نؤمل فيك

(١) كذا الأصل .

[illegible]

[illegible] معها

[illegible] وموضحاً [illegible] من وجه المسطور فيجب

[illegible] عن مأمور بذلك وما فيها تقتضي الدراية

في [illegible] الأمور في الإقليم المذكور برفعها

[illegible] وقبائل عربانه [illegible] معتمداً

[illegible] لأمير الأمجد الأجل

[illegible] وأحد الحميد

[illegible] العصابة العثمانية

[illegible] عن عصرها [illegible] إلى نفس أرومة

[illegible] كل الطاعة مدونة لتحصيل

[illegible] في حفظ زيادة توجهات أنظار مكارم سلطنتنا السنية

[illegible] متمثلاً وأمرنا المنيفة واعتمد

لعلامة الشريفة .

حرر في اليوم السابع عشر شهر رجب الفرد سنة ١٢٦٤

[illegible] صنعاء المحمية وقراءته على الناس في جامع صنعاء

[illegible] من شهر شعبان سنة ١٢٦٥ وقد ذلك توطئة وتمهيد

[illegible] الأنماط من الحضرة السلطانية بما هيه[1] من

[illegible] السلطانية ولله في كل بلوى تصريف .

[illegible]

الفهارس

الآن

أباض

إبرا

إبرا

إبرا

إبرا

إبرا

إبراه

إبراه

أبكر

ابنة

ابنة

ابنـ

ابنة

ابنة

الأعلام

أ

☆ ☆ ☆

ب

☆ ☆ ☆

ت

☆ ☆ ☆

ج

☆ ☆ ☆

ح

☆ ☆ ☆

غ

☆ ☆ ☆

ف

☆ ☆ ☆

ق

☆ ☆ ☆

ك

☆ ☆ ☆

ل

☆ ☆ ☆

م

ن

☆ ☆ ☆

هـ

☆ ☆ ☆

و

ي

☆ ☆ ☆

الأماكن

أ

☆ ☆ ☆

ب

☆ ☆ ☆

ح

☆ ☆ ☆

خ

☆ ☆ ☆

د

☆ ☆ ☆

ش

☆ ☆ ☆

ص

☆ ☆ ☆

ض

☆ ☆ ☆

ط

☆ ☆ ☆

ظ

☆ ☆ ☆

ع

☆ ☆ ☆

غ

☆ ☆ ☆

ف

☆ ☆ ☆

ق

☆ ☆ ☆

ن

☆ ☆ ☆

هـ

☆ ☆ ☆

و

ي

القبائل والأسر والجماعات والأقوام

أ

☆ ☆ ☆

ب

☆ ☆ ☆

ج

ح

☆ ☆ ☆

خ

☆ ☆ ☆

د

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

فهرس الشعر

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

قافية الواو

قافية الياء

☆ ☆ ☆

جريدة المصادر والمراجع(*)

أولاً ـ مصادر مخطوطة

١ ـ جحاف (لطف الله بن أحمد) ت : ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٨ م

ـ درر نحور الحور العين في سيرة الإمام المنصور علي ورجال دولته الميامين (مكتبة الجامع الكبير ـ الكتب المصادرة)

ـ سيرة ناقصة للمهدي عبد الله بن المتوكل أحمد

ـ تاريخ جحاف (مصورة دار الكتب المصرية)

٢ ـ الحجري (القاضي محمد بن أحمد) ث : ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م

ـ معجم بلدان اليمن وقبائلها . مصورة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٥

٣ ـ الحرازي (القاضي محسن بن أحمد) ت : ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م

ـ جزء من تاريخه (المتحف البريطاني) وانظر المجهول في الكتب المطبوعة

٤ ـ الحوثي (إبراهيم بن عبد الله) ت : ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م

ـ نفحات العنبر

٥ ـ الشجني (القاضي محمد بن حسن) ، ت : ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م

ـ التقصار في جيد علاّمة علماء الأمصار .. محمد بن علي الشوكاني (مكتبة جامعة برنستن (713) 262H)

٦ ـ الشوكاني (القاضي محمد بن علي) ت : ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م

ـ مجموع من رسائله غير المنشورة (مكتبة الجامع الكبير الغربية ٥٩)

٧ ـ العمراني (القاضي محمد بن علي) ت : ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م

ـ إتحاف النبيه بتاريخ القاسم بن محمد وبنيه (مسودة المؤلف بحوزة نجل حفيدة العلامة القاضي محمد بن إسماعيل العمراني)

(*) لم نثبت هنا بعض المراجع الثانوية مكتفين بذكرها في أماكنها من الهوامش .

٨ ـ الكبسي (بدر الدين محمد بن إسماعيل الكبسي) (ت : ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م)

ـ اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (نسخة خاصة بجوزتي)

٩ ـ النعمي (أحمد بن أحمد التهامي (ت حوالي ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م)

ـ تاريخ كتبه على السنين (١٢١٥ ـ ١٢٥٧ هـ) وهو تحت الطبع بعد أن قمنا بتحقيقه

☆ ☆ ☆

ثانياً : المصادر المطبوعة

ابن الأمير (محمد بن إسماعيل) :

ـ تنقيح الأفكار (القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م)

ـ ديوان ابن الأمير (القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م)

ـ سبل السلام (بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) ط٥

الآنسي (عبد الرحمن بن يحي) :

ـ (ديوانه) : ترجيح الأطيار في مرقص الأشعار . تحقيق : القاضي عبد الرحمن بن يحي الإرياني والقاضي عبد الله عبد الإله الأغبري (القاهرة ١٩٥٥ و ط٢ بيروت ١٩٧٨)

أباظة (الدكتور فاروق عثمان) :

ـ الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) (القاهرة ١٩٧٦)

ـ عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨) (القاهرة ١٩٧٦)

الأكوع (إسماعيل بن علي) :

ـ المدارس الإسلامية في اليمن (دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م)

الأكوع (محمد بن علي) :

ـ اليمن الخضراء مهد الحضارة (القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م)

الأهدل (عبد الرحمن بن سليمان) :

ـ النفس اليماني : تحقيق عبد الله محمد الحبشي (مركز الدراسات والبحوث اليمنية ـ صنعاء ١٩٧٩)

بدوي (الدكتور عبد الرحمن) :

ـ مذاهب الإسلاميين بيروت / ط٢ ١٩٧٩

البديري (الشيخ أحمد الحلاق) :
ـ حوادث دمشق اليومية . تحقيق : د . أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة / ١٩٥٩ م)
البطريق (الدكتور عبد الحميد) :
ـ من تاريخ اليمن الحديث (معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة ١٩٦٩ م)
البهكلي (عبد الرحمن بن أحمد) :
ـ نفح العود في دولة الشريف حمود (الرياض : ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)
الجبرتي (عبد الرحمن) :
ـ عجائب الأثار في التراجم والأخبار (القاهرة ١٣٢٢ هـ / ٥ ـ ١٩٠٤ م)
جدعان (الدكتور فهمي)
ـ أسس التقدم عند العرب في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٧٩ م)
الجرافي (عبد الله بن عبد الكريم) :
ـ المقتطف من تاريخ اليمن (القاهرة ١٩٥٥ م)
ـ تحفة الإخوان بحلية علامة الزمان ... شيخ الإسلام الحسين بن علي العمري المتوفى غرة شوال ١٣٦١ هـ (القاهرة ١٣٦٥ هـ)
ابن الجعدي = ابن سمرة
الحبشي (عبد الله محمد) :
ـ مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن (مركز الدراسات والبحوث اليمنية / صنعاء ١٩٧٨ م)
ـ حوليات يمانية (انظر المجهول)
الحجري (محمد بن أحمد) :
ـ مساجد صنعاء (صنعاء ١٣٦١ هـ)
ابن خلدون (عبد الرحمن) :
ـ المقدمة (تحقيق كوتمير / باريس ١٨٥٨ م)
الرازي (أحمد بن عبد الله) :
ـ تاريخ مدينة صنعاء وذيله للعرشاني . تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري (دمشق ط[٢] ١٩٨١ م)

الرافعي (عبد الرحمن) :
ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (القاهرة / ط[٣] ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٣ م)
زبارة (محمد بن محمد) :
ـ أئمة اليمن (القاهرة / ط[٢])
ـ ذيل أجود المسلسلات (صنعاء / ١٣٦٣ هـ)
ـ ملحق البدر الطالع للشوكاني (القاهرة ١٣٥٠ هـ)
ـ نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف (القاهرة ١٣٧٦ هـ)
ـ نيل الحَسنيين (القاهرة ١٣٧٦ هـ)
ـ نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر (القاهرة ٥٠ ـ ١٣٤٨ هـ) .
الزبيدي (مرتضى) :
ـ تاج العروس (القاهرة ـ بولاق ـ ١٣٠٦ هـ وطبعة الكويت ٢٠ جزءاً ٨٣ ـ ١٩٦٥ م) .
أبو زهرة (محمد) :
ـ الإمام الشافعي (القاهرة / ١٩٧٨ م)
ـ الإمام زيد بن علي (القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م)
ـ تاريخ المذاهب الإسلامية (القاهرة / د . تاريخ)
زيد (علي محمد) :
ـ معتزلة اليمن ودولة الهادي وفكره : (مركز الدرابسات / صنعاء ١٩٨١ م)
ابن سمرة الجعدي :
ـ طبقات فقهاء اليمن (تحقيق فؤاد السيد / القاهرة ١٩٥٧ م)
السياغي (العلامة الحسين بن أحمد ت ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م) :
ـ الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير . (ط[٢] / الطائف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م)
السياغي (القاضي حسين بن أحمد) :
ـ قانون صنعاء (القاهرة ١٩٦٤ م)

الشماحي (عبد الله بن عبد الوهاب) :
ـ اليمن الإنسان والحضارة ـ القاهرة .
الشوكاني (الإمام محمد بن علي) :
ـ أدب الطلب (تحقيق عبد الله محمد الحبشي / مركز الدراسات ـ صنعاء)
ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة / ١٣٥٠ هـ)
ـ الدواء العاجل (الرسائل المنيرية / القاهرة ١٣٥٠ هـ)
(الرسائل المنيرية / القاهرة ١٣٥٠ هـ)
ـ ديوان الشوكاني (أسلاك الجوهر : تحقيق د . حسين بن عبد الله العمري) دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)
ـ رسائل الشوكاني = ذكريات الشوكاني (انظر محمود)
صبحي (الدكتور أحمد محمود) :
ـ الزيدية (الإسكندرية ١٩٨٠ م)
ـ نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية (القاهرة ١٩٦٩ م)
عبد الرحمن (الدكتور عبد الرحيم) :
ـ الدولة السعودية الأولى (ط٢ / القاهرة ١٩٧٥ م)
عبد الكريم (الدكتور أحمد عزت) :
ـ عبد الرحمن الجبرتي : دراسات وبحوث (القاهرة ١٩٧٦)
ـ حوادث دمشق اليومية (انظر البديري)
العبدلي (أحمد بن فضل) :
ـ هدية الزمن في أخبار ملوك لحج واليمن (القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢) .
العرشي (حسين بن أحمد) :
ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام (نشره وحققه الأب أنستاس الكرملي / القاهرة ١٩٣٩ م)
العقيلي (محمد أحمد) :
ـ تاريخ المخلاف السليماني (ط٢ / الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)
العمري (الدكتور حسين بن عبد الله) :

- ديوان الشوكاني والحياة الفكرية والسياسية في عصره (دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)
- الشوكاني : « فقهه وفكره » (تحت الطبع)
- مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني (دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م)
- اليمن والغرب (انظر ماكرو) .
غانم (الدكتور محمد عبده) :
- شعر الغناء الصنعاني (مركز الدراسات / صنعاء ١٩٧٢(؟)) .
ماكرو (إريك) :
- اليمن والغرب : تعريب الدكتور حسين بن عبد الله العمري (دمشق ١٩٧٨)
المجهول (المؤرخ)
- حوليات يمانية (تحقيق عبد الله محمد الحبشي / دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م)
المحبي (محمد) :
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٢٨٤ م)
محمود (الدكتور صالح رمضان) :
- ذكريات الشوكاني (رسائل للمؤرخ اليمني محمد بن علي الشوكاني) وزارة الثقافة - عدن / دار العودة - بيروت ١٩٨٣
المرتضى (الإمام أحمد بن يحيى) :
- الأزهار (عدة طبعات)
- البحر الزخار في فقه الأئمة الأطهار
ابن مفتاح (عبد الله) :
- المنتزع من الغيث المدرار (شرح الأزهار)
الهمداني (الحسن بن أحمد) :
الإكليل :
الأول : تحقيق محمد بن علي الأكوع (القاهرة ١٩٦٣ م)
الثاني : تحقيق محمد بن علي الأكوع (القاهرة ١٩٦٥ م)
الثامن : تحقيق نبيه أمين فارس (برنستن ١٩٤٠ م)
العاشر : تحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٥٠ هـ)

- صفة جزيرة العرب : تحقيق محمد بن علي الأكوع ، طبعت بإشراف حمد الجاسر (بيروت ١٩٧٤)

الهمداني (الدكتور) :

- الصليحيون .

الواسعي (عبد الواسع بن يحي) :

- تاريخ اليمن (المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن) القاهرة / ١٩٢٨

ياقوت (الحموي) :

- معجم البلدان

☆ ☆ ☆

ثالثاً : مصادر أجنبية

AI - AMRI, Hussein Abdullah (Dr.)

- A Document Concerning the Sale of Ghayl al - Barmki and al - Ghayl al - Aswad by al - Mahdi Abbas, Imam of Yemen « 1131 - 89 / 1718 - 75 » In BIDWELL and SMITH, **Arabian and Islamic Studies**, London and New York, 1983.

BARBIR, K.K.

- Ottoman rule in Damascus, 1708 - 58, Princeton, 1980.

BIDWELL, R.L. and SMITH, G.R. (eds.)

- Arabian and Islamic Studies, London and New York, 1983

ENCYCLOPEDIA OF ISLAM

- 1st and 2nd edits. Abbreviated **EI**[1], **EI**[2]

HARRIS, Walter B.

- A Journey through the Yemen and Some general remarks upon the country, London, 1893.

HITTI, F. History of the Arabs, Oxford, 1974, 10th ed.

HOGARTH, D.G.

- The Penteration of Arabia, London, 1904.

HOURANI, A.H.

- Arabic thought in the Liberal age, 1798 - 1939, Oxford, 1962.

- « The changing face of Fertile crescent in the Eighteenth Century », VIII (1957), 89 - 122.

HUNTER, F.M.

- An Account of British Settlemet of Aden in Arabia, London, 1968.

NIEBUHR, Carston
- Travels throug Arabia and other countries in the East, Trans. Robert Heron, Edinburgh, 1792.
PLAYFAIR, R.L.
- A History of Arabia felix, Bombay, 1859.
SCHUMAN, L.O.
- Political History of the Yemen at the beginning of the 16th century, Groningen, 1961.
SERJEANT, R.B.
- The Islamic City, UNESCO, 1980
- Studies in Arabian History and Civilisation, London, 1982.
SERJEANT with LEWCOCK, Ronald.
- Sanca, an Arabian Islamic City, London, 1983. with al - GHUL, Mahmud.
- « Arabia - History of », ENCYCLOPEDIA BRITANNICA, 1974
STOOKY, Robert W.
- Yemen, the politics of Yemen Arab Republic, Boulder, 1978.
VALENTIA, George
- Voyages and travels to India, London, 1892.
WATT, W.M.
- Islamic philosophy and theology, Edinburgh, 1972.
WINDER, R. Bayly
- Saudi Arabia in the nineteenth century, New - York, 1965.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

« هذا الكتاب »

« أول كتاب نأمل أن يسد فراغاً في المكتبة العربية يستغني به المهتمون بتاريخ اليمن وغيرهم من الباحثين في التاريخ ، فجاء الباحث والمؤرخ اليمني الدكتور حسين العمري المعروف بتضلعه وأبحاثه في حقل التاريخ والثقافة العربية الإسلامية في اليمن ليكشف النقاب عن فترة من تاريخه الحديث امتدت من عام (١١٦١ ـ ١٢٦٤ هـ / ١٧٤٨ ـ ١٨٤٨ م) حكم فيها عدد من الأئمة وتصارعت فيها كثير من القوى المحلية والخارجية ونبغ فيها أعلام وأدباء وشعراء مشهورون من أبرزهم ابن الأمير والشوكاني والآنسي وابن إسحاق وغيرهم ممن يجد المهتمون بأدبهم وعلمهم متعة أخرى من هذا الكتاب الجديد المفيد » .

« الناشر »